التوضيحات الأثرية

لمتن

الرسالة التدمرية

جمع وترتيب

فخر الدين بن الزبير بن علي المحسي

تقديم

فضيلة الشيخ

أ. د. محمد بن عبد الرحمن الخميس

أستاذ العقيدة بجامعة الإمام محمد بن سعود

طبعة جديدة، منقحة ومزيدة

مكتبة الرشد

ناشرون

مكتبة الرشد ناشرون



* المملكة العربية السعودية ـ الرياض ـ طريق الحجاز

ص ب ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٥٩٣٤٥١ فاكس ٤٥٧٣٣٨١

email : alrushd@alrushdryh.com

website : www.rushd.com

* فرع مكة المكرمة: ـ هاتف ٥٥٨٥٤٠١ ـ ٥٥٨٣٥٠٦
* فرع المدينة المنورة: ـ شارع أبي ذر الغفاري ـ هاتف ٨٣٤٠٦٠٠
* فرع القصيم بريدة طريق المدينة ـ هاتف ٣٢٤٢٢١٤
* فرع أبها: ـ شارع الملك فيصل هاتف ٢٣١٧٣٠٧
* فرع الدمام: ـ شارع ابن خلدون ـ هاتف ٨٢٨٢١٧٥

وكلاؤنا في الخارج

* الكويت: ـ مكتبة الرشد ـ حولي ـ هاتف: ٢٦١١٢٣٤٧
* القاهرة: ـ مكتبة الرشد ـ مدينة نصر ـ هاتف: ٢٧٤٤٦٠٥

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

مقدمة

التوضيحات الأثرية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ﷺ .

وبعد ، فمما ينبغي لكل قلب معمور بالإيمان أن يكون على الدوام مضطرا لاكتساب القربة إلى مولاه ، ومفتقرا إلى فيوض عفوه ورضاه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعرفة دينه الذي شرعه وارتضاه ، ثم على وفق تلك المعرفة يتعبد الله سبحانه وتعالى على نور من ربه وهداه ، وهذا حقيقة الإيمان والعمل الصالح الذي رسمه الله سبحانه وتعالى سبيلا للهداة المتقين كما قال رب العالمين : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ يونس :[٩] وقد أبلى علماؤنا الأعلام خير بلاء في سبيل نشر الإيمان ، وتصحيح ما يجب اعتقاده تجاه ربنا الرحيم الرحمن ، ومن هؤلاء ما قام به شيخ الإسلام وعلم الأعلام ومفتي الأنام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ مما هو مشهور في كتبه ورسائله المفيدة ، وكانت تطل بين تلك الرسائل رسالته العظيمة « **التدمرية** » التي تعتبر زبدة ما ذكره شيخ الإسلام في كتبه المطولات في جوانب الاعتقاد من أصول شرعية ، وقواعد أثرية ، في الصفات والشرع والقدر بالإضافة إلى الفوائد العديدة ، والاستدلالات الفريدة في مختلف أبواب العقيدة ، كل ذلك مؤيد بحجج نقلية ساطعة وبراهين عقلية

قاطعة، فكانت بحق دوحة وارفة يستظل بها كل سائر ، و نجوما لامعة يستضيء بها كل مدلج مسافر ، ولذلك فقد لاقت اهتماما واسعا .

ولكل ذلك خرجت هذه التوضيحات الأثرية ، مشاركة في إشباع تلك الحاجات الفطرية ، معتزة بإيضاح حقيقة توحيد رب البرية ، ومفتخرة بكونها على الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية .

تنادي على نفسها بقول القائل :

توضيح ذي بضاعة مزجاةِ * في العلم غيرثاقب المشكاةِ[1]

ومما حتّم إخراجها كذلك ما أملته الرغبة في الوقوف عند طلب من لا يسعني رد طلبه وهو شيخنا الدكتور : محمد بن عبد الرحمن الخميّس ـ وفقه الله تعالى ـ الذي لم يدّخر جهدا في متابعة هذا العمل وتشجيعه والحثّ على نشره .

فما آلوت في ابتدار ماقصد * جهد مقلّ جاد بالذي وجد[2]

وقد كنتُ مترددا في إخراج هذه التوضيحات لوجود بعض الشروحات والتعليقات على الرسالة ، ولكن لما قرأت بعض ما كتبه أولئك من حثّ على مزيد من التوضيحات اشتد أزري وقوي عزمي ، من ذلك ما قال الشيخ فالح المهدي ـ رحمه الله تعالى ـ في خاتمة شرحه ﴿ التحفة المهدية ﴾ : (فأنا لا أدعي أنه هو كل ما تستحقه هذه الرسالة العظيمة غير أني أومن بأن ما لا يدرك كله لا يترك جله ... غير أني أرجو أن يكون شرحي هذا فاتحة خير لشروح أخرى يتعرض أصحابها لجوانب قد أكون قصرت فيها ، ويكفيني ممن يأتي بعدي أن يعترف ويدعو بمثل مااعترف ودعا به ابن مالك لسلفه ابن معطي حيث يقول :

وهو بسبق حائز تفضيلا * مستوجب ثنائي الجميلا

---

١ ـ من أبيات الاحمرار على السلم لعبد السلام ، بتصرف قمت بتحقيقه والتقديم له بمقدمة مواقف الإسلاميين من منطق اليونانيين ، والمقدمة قيد الإخراج مفردة .

٢ ـ من أبيات طرفة الطرف وعليه شرح تعليق التحف مطبوع بتحقيقي وتهذيبي .

والله يقضـي بـهبات وافـره * لي ولـه في درجـات الآخـره[1]

ومنه ما قاله الدكتور الحمود في تقديمه للأجوبـة المرضيـة لتقريـب التدمريـة : (ولا يزال الباب مفتوحا لمزيد من الشرح والتعليق ولو وجد لها عـدد مـن الشـروح والتعليقات ـ كغيرها من رسائل شيخ الإسلام ـ لكان أفضل خاصـة مـع مـا علمـه طلبة العلم من أهمية هذه الرسالة وكثرة مسائلها وصعوبتها أحيانا)

وما هذه التوضيحات إلا جزء لا يذكر مما ينبغي تجاه هذه الرسالة لإخراج مـا بها من جواهر تعجز عن جمعها الدفاتر .

۞ مادة التوضيحات :

وهذه التوضيحات مستفادة مـن غـالب مالـه صلـة بالتدمريـة وعلـى راسـها مجموع ما ألقاه شيخنا الدكتور محمد الخميّس من محـاضرات ومـا قُيّـد مـن ذلـك في مذكرات[2] وما يتعلق بالتدمرية من مصنفات وهي كما يلي :ـ

١ـ تحقيق الدكتور محمد عودة السعوي للتدمريـة : وقـد اسـتفدت منـه أصـل التحقيق فاعتمدت على نصه المحقق وإضافاته في الحاشية بالإضافة إلى ما وضعه مـن عناوين وقد أغير أحيانا .

٢ ـ التحفة المهدية للشيخ فالح المهدي : وقد اسـتفدت منـها في شـرح بعـض العبارات بالإضافة إلى ما ذكره من فوائد واستطرادات .

٣ ـ تقريب التدمرية للعلامة ابـن عثيمـين : وكـانت الاسـتفادة مـن تحقيقاتـه الفائقة وتهذيباته الرائقة وتقسيماته وتلخيصاته .

٤ ـ الأجوبة المرضية في تقريب التدمرية لأبي مصعب الجزائري :

---

١ ـ التحفة المهدية ص : ٤٥٦ .

٢ ـ وقد عزوت إلى ذلك كله في مواضعه .انظر ما سيأتي في البيان التوضيحي .

وقد حصلت عليه مؤخرا بعد اكتمال التوضيحات إلا أنني أعجبت بعنايته الحديثية واهتمامه بتخريج النصوص الأثرية فاستفدت من ذلك .

٥ ـ توضيح مقاصد المصطلحات العلمية في الرسالة التدمرية لشيخنا الدكتور الخميّس : فقد استفدت منها في تسهيل المصطلحات وتوضيح التعريفات ولم أهمل منها شيئا ـ إن شاء الله . بالإضافة إلى عديد من الإضافات من مختلف الكتب والمصنفات . فبذلك تكون هذه التوضيحات الأثرية قد جمعت بين الشرح والتوضيح والجمع والتهذيب والتلخيص والتقسيم والمناقشة .

منهج التوضيحات :

١) سلكت قدر الإمكان مسلك الاختصار فبرّأت المتن عن وصمة الألغاز مع كون الشرح لم يخرج عن حيز الإيجاز ، كما قال الرحبي :

فهاك فيه القول عن إيجازِ * مبرأ عن وصمة الألغازِ

٢) كان الاهتمام بالتيسير قدر الإمكان مع عدم إهدار لغة العلم ، ولكن دون التفات إلى الشكليات والتوشيحات إذ المقصود محض التوضيحات ولسان حالي قول الشاعر :

آثرت ميله إلى التوضيح * وطي الاحكام على التوشيح[1]

٣) تقسيم الكتاب إلى فقرات ومحاولة الإكثار من التقسيمات ثم وضع التوضيح تحتها والاهتمام بتعريف المصطلحات سواء العلمية أو الكلامية أو الصوفية ونقل آثار السلف في تأييد بعض المسائل .

٤) وضع بعض الجداول والأسهم المساعدة في بعض المباحث لتقريبها للفهم ولاختصار كثرة الكلام .

---

١ من أبيات كفاف المبتدي من فني العادات والتعبدِ في الفقه المالكي للشنقيطي .

٥) الاعتناء بعزو الآيات وتخريج الأحاديث النبويـات باختصـار مـع تخريـج الآثار السلفية قدر الإمكان مع الترجمة للأعيان .

٦) وضع خلاصات ومناقشـات في نهايـة كـل موضـوع حسـب التقسـيمات التالية : ١ ـ مقدمة الرسالة .

٢ ـ الأصل الأول وفيه :

أ ـ مقدمة الأصل الأول . ب ـ الأصلان الشريفان .

ج ـ المثلان المضروبان . د ـ القواعد السبع .

٣ ـ الأصل الثاني مع الخاتمة .

٧) وضع فهارس مساعدة للأحاديث والآثار والمصطلحـات والفـرق وذلـك لمسيس الحاجة لها ، والله الموفق .

وأخيرا أرجو ممن قرأ هذه التوضيحات أن يدعـو لكاتبـها بـالتوفيق والسـداد والهداية والرشاد ، وأن لا يبخل عليه بالنصح لإصلاح ما كان منقوضـا أو إتمـام مـا كـان منقوصـا ، فـإن الإنسـان نسـيب الخطـأ والنسـيان ، ولكـن السـيئات يذهــبن بالإحسان :

ومـن ذا الـذي تُرتضـى سـجاياه كلـها * كفـى المرء نبلا أن تعـدّ معايبـه[1]

وأذكّر بقول القائل :

وكــن أخــي للمبتــدي مســامحا * وكن لاصلاح الفساد ناصحـا

وأصلـــح الفســـاد بالتـــأمل * وإن بديهــة فــلا تبــدلِ

إذ قيــل كــم مزيــف صحيحــا * لأجــل كــون فهمــه قبيحــا

وقــل لمــن لم ينتصــف لمقصــدي * العـذر حق واجـب للمتبـدي

---

١ ـ مقدمة (مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب) لابن هشام .



ولبُني بضع وعشرون سنة * معذرةٌ مقبولة مستحسنة

لا سيما في آخر القرون * ذي الجهل والفساد والفتون [١]

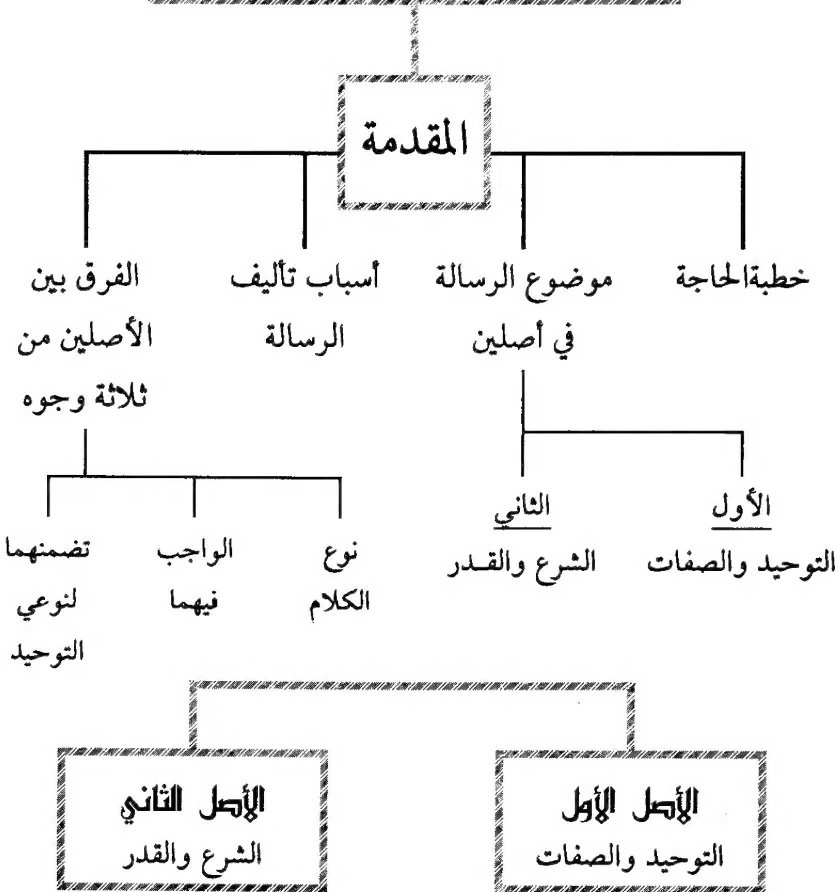
وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق الجميع للعلوم النافعة الغامرة والأعمال الصالحة العامرة ويجعلنا من الفائزين في الدار الآخرة .

كتبه :

راجي رحمة ربه العلي

:أبو العالية فخر الدين بن الزبير بن علي

١ ـ من أبيات الأخضري في السلم مع بعض التصرف .

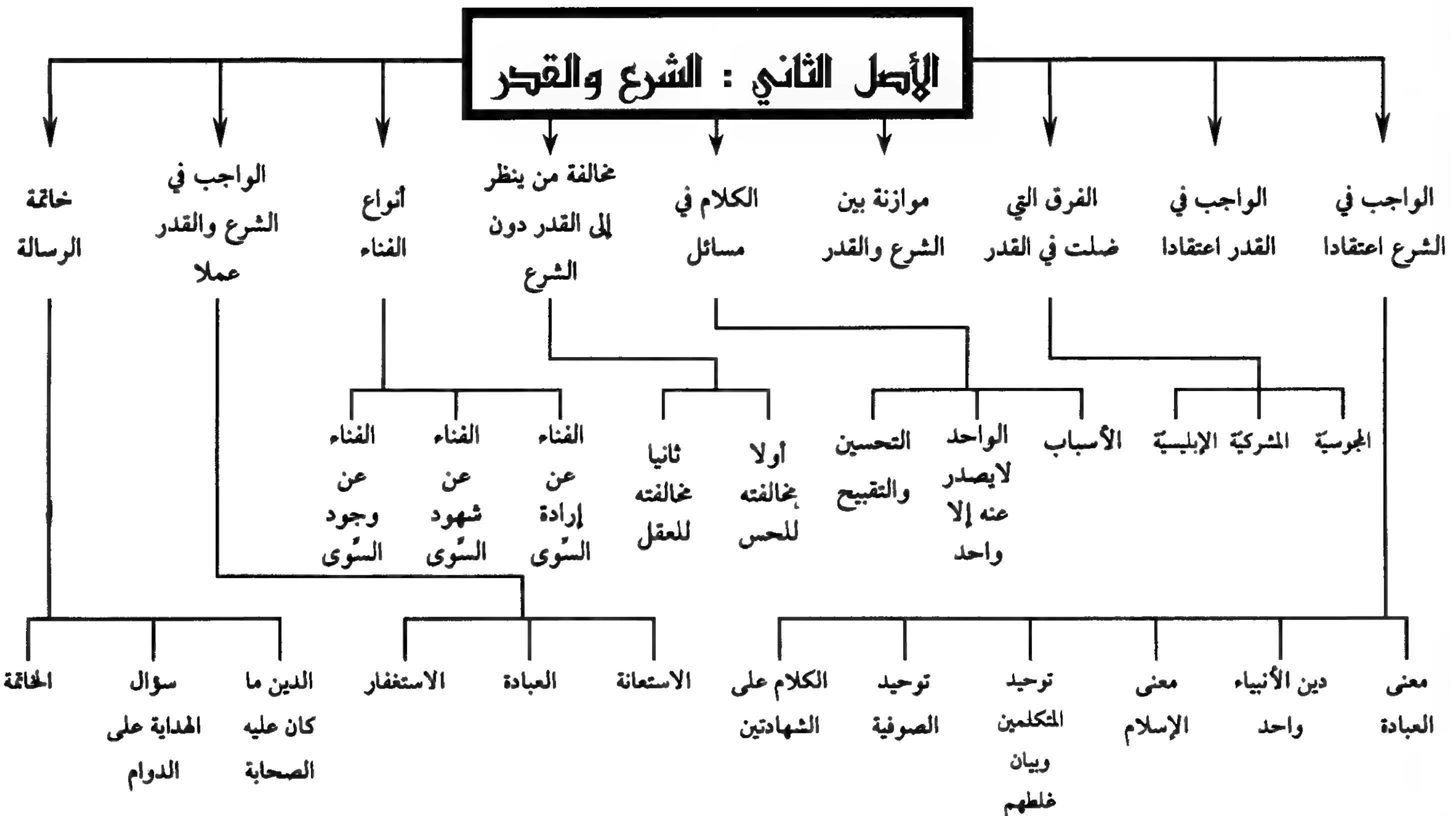


وهاك مخططا لتفصيل محتويات كل واحد من الأصلين



الأصل الأول : التوحيد والصفات

- المقدمة
  - طريقة أتباع السلف
  - المخالفين للرسل
    - غلاة الباطنية
    - الفلاسفة
    - المعتزلة
  - الرد الإجمالي عليهم
- الكلام في أصلين
  - القول في بعض الصفات كالقول في بعض
    - الرد على الأشاعرة
    - الرد على المعتزلة
    - الرد على الجهمية
  - القول في الصفات كالقول في الذات
- ضرب مثلين
  - المثل الأول الجنة
    - الكلام عن الباطنية
    - الكلام عن الأقيسة في الله
  - المثل الثاني الروح
    - مناقشة الفلاسفة
    - الاضطراب في الروح
- خاتمة فيها سبع قواعد
  - القاعدة الأولى: صفات الله نفي وإثبات
  - القاعدة الثانية: الألفاظ المضافة إلى الله نوعان
    - ماورد به دليل شرعي
    - مالم يرد به دليل شرعي
      - الجهة
      - الحيز
  - القاعدة الثالثة: معنى ظاهر النصوص وحكم القول بأنه مراد
  - القاعدة الرابعة: محاذير من يتوهم التمثيل في النصوص
    - الكلام في الاستواء
    - الكلام في العلو
  - القاعدة الخامسة: نعلم ماأخبرنا الله به من وجه دون وجه
    - معنى التأويل
    - معنى الإحكام والتشابه
  - القاعدة السادسة: الطرق الصحيحة للنفي والإثبات
    - الكلام في النفي
      - طرق المتكلمين في النفي
      - شبهات المعطلة
      - الطرق الصحيحة للنفي
    - الكلام في الإثبات
  - القاعدة السابعة: دلالة العقل على كثير مما دل عليه النقل
    - موافقة العقل للنقل
    - مناقشة شبهة التقابل من سبعة وجوه


الأصل الثاني : الشرع والقدر
الواجب في الشرع اعتقادا
الواجب في القدر اعتقادا
الفرق التي ضلت في القدر
موازنة بين الشرع والقدر
الكلام في مسائل
مخالفة من ينظر إلى القدر دون الشرع
أنواع الفناء
الواجب في الشرع والقدر عملا
خاتمة الرسالة
المجوسيّة
المشركيّة
الإبليسيّة
الأسباب
الواحد لا يصدر عنه إلا واحد
التحسين والتقبيح
أولا مخالفته للحس
ثانيا مخالفته للعقل
الفناء عن إرادة السّوى
الفناء عن شهود السّوى
الفناء عن وجود السّوى
معنى العبادة
دين الأنبياء واحد
معنى الإسلام
توحيد المتكلمين وبيان غلطهم
توحيد الصوفية
الكلام على الشهادتين
الاستعانة
العبادة
الاستغفار
الدين ما كان عليه الصحابة
سؤال الهداية على الدوام
الخاتمة

مُقَدِّمَة

الرسالة التدمرية

وتشتمل على :

* أولا : خطبة الحاجة .
* ثانيا : موضوع الرسالة .
* ثالثا : أسباب التأليف .
* رابعا : توضيح لأصلي الرسالة .
* خامسا : الفرق بين الخبر والإنشاء .
* سادسا : الواجب في هذين الأصلين
* سابعا : تضمنهما لنوعي التوحيد .

خُطبَة الحاجَة

قوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيراً﴾

التوضيح :

استهل شيخ الإسلام رسالته الفريدة بخطبة الحاجة المأثورة عن النبي ﷺ وقد أكثر العلماء من ذكر الفوائد فيها وطلبا للاختصار استخلص منها ما يلي :

أولا : معنى الحمد :

الثناء باللسان خاصة على الجميل الاختياري من نعمة وغيرها . قال الناظم :

وحمدنا الثناء بالجميل * معظماً له مع التبجيل

وجاء في الاصطلاح فعل نجما * عن كون منعم عليك أنعما

وللإتيان بالجملة الاسمية دون الفعلية فائدتان :

١ ـ الاقتداء بالكتاب الكريم في سورة الفاتحة .

٢ ـ لدلالة الاسم على الدوام والثبات.

---

١ ـ أخرجه أحمد : (٦ / ٨١) ، والترمذي : [١١٠٥] ، وابن ماجه: [١٨٩٢] ، والنسائي : [١٦٣٥] ، وصححه الألباني في جزء خطبة الحاجة له : ص ١٤ .

و (ال) في الحمد قال الجمهور : إنها للاستغراق أي لاستغراق جميع المحامد لله ، وحقق بعضهم كونها صالحة للاستغراق والعهد معا . وفي ذلك يقول الناظم :

و أل بحمد ربنا الرزّاق * محتمل العهد والاستغراق

فالعهد أن الله لما علما * بعجزنا عن حمده الذي سما

حمد نفسه سبحانه الأجل * ثم دعا بحمده بذاك جلّ

ومعنى الاستغراق عند العلما * أنّ جميع الحمد لله انتمى

ثانيا : هل هناك فرق بين الحمد والشكر ؟

ثمّ خلاف بين أهل العلم ، والراجح الفرق ، فإنّ الشكر هو البذل مقابل النعمة ، كما قال الناظم :

الشكر بذل العبد ما أولاهُ * مولاه من نعماه في رضاهُ

فبين الحمد والشكر فرق من جهتين[1] :

* الأولى : أن الحمد ثناء باللسان خاصة والشكر يكون باللسان والقلب والجوارح . ودليل كون الشكر بالجوارح ما يلي :

ـ من القرآن قوله ﷻ: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾ سبأ :[١٣]

ـ من السنة قوله ﷺ: ((أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا))[2] وذلك عندما كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ، فسـ.. عائشة عن ذلك فأجابها بالحديث .

ولذلك قال الناظم :

---

١ ـ مدارج السالكين : (٢ / ٢٥٦)

٢ ـ رواه البخاري : [٨ / ٤٤٩] ، ومسلم : [٢٨٢٠] عن عائشة رضي الله عنها

أفادتكم النعماء مني ثلاثة * يدي ولساني والضمير المحجبا

فاليد للطاعة واللسان للثناء والضمير للحب والتعظيم .

* الثانية :

أن الحمد ثناء في مقابل النعم وغيرها من الصفات الحسنة كالعلم والقوة ، بينما الشكر لا يكون إلا في مقابل النعم .

الخلاصة :

أن العلاقة بين الحمد والشكر علاقة عموم وخصوص وجهي أي من وجه فالحمد أعم من حيث السبب الموجب له وهو الجميل من نعمة وغيرها وأخص من حيث الأداة وهو اللسان ، والشكر أخص من حيث الموجب له وهو النعمة فقط وأعم من حيث الأداة وهي القلب واللسان والجوارح .

قال ابن متّالي الشنقيطي في تلخيص ذلك[1] :

ونسبة العموم والخصوص * وجه فقط للحمد والشكر

فالحمد بالثناء مطلقا بدا * كان جزاء نعمة أو ابتدا

والشكر ما كان جزاءً للنعمْ * فالحمد من ذا الوجه وحده

والشكر يأتي عند كل شارحِ * بالقلب واللسان والجوارحِ

والحمد باللسان لا غير وسم * فالشكر من ذا الوجه وحده أعم

---

١ ـ من حاشية مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني : ص ٥٦ . بتحقيق صفوان داودي .

ثالثا : ﴿ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ﴾

أفعال يفهم من لفظها الإخبار لكنها متضمنة للطلب المفهوم من التاء والسين ففيها طلب العون والمغفرة من الله سبحانه وتعالى .

رابعا : ﴿ وَنَعُوذُ بِاللهِ ﴾ ـ

العوذ هو طلب دفع الشر ، والاستعانة لطلب حصول الخير .

خامسا : سبب إفراد لفظ الشهادة دون غيره :

في هذه الخطبة وردت الأفعال بصيغة جمع المتكلم إلا الشهادة فوردت بالمفرد ، فاستنبط شيخ الإسلام من ذلك حكمتين :

الأولى : أن هذه الأفعال (الاستعانة والاستغفار والاستعاذة) تصح فيها النيابة بخلاف الشهادتين .

الثانية : أن هذه الأفعال طلب وسؤال فيستحب فيها الطلب لنفسه ولإخوانه فجمعت ، أما الشهادة فخبر عما في القلب فلذلك أفردت .

لكن يشكل على هذين التعليلين لفظ الحمد فقد جاء مجموعا مع أنه لا تصح فيه النيابة ، وكذلك فهو خبر وليس بطلب ، فلذلك الظاهر أن إفراد هذه الكلمة لبيان عظمتها ودلالتها على إخلاص التوحيد ، والله أعلم .

سادسا : في قوله : ﴿ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ ﴾ الهداية نوعان على المشهور:

ـ هداية توفيق وإلهام وشرح للصدر .

ـ هداية دلالة وإرشاد وبيان للسبيل .

---

١ ـ تهذيب سنن أبي داود : (٣ / ٥٤)

والفرق بين الهدايتين مايلي :

١ ـ أن هداية الإلهام لا يقدر عليها إلا الله كما في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ القصص :[٥٦]

أما هداية الدلالة فيقدر عليها العبد كما في قوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ الشورى :[٥٢] .وهذا سبيل الجمع بين الآيتين .

٢ ـ هداية الإلهام خاصة بالمؤمنين ومنها قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ الأنعام :[١٢٥] . أما هداية الدلالة فعامة لجيمع الخلق ومنها قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ فصلت :[١٧] ومنها قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ الإنسان :[٣]. أما قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿٦﴾ الفاتحة:[٦] فيشمل نوعي الهداية لحاجة الإنسان إليهما جميعا .

سابعا : كلمة التوحيد مشتملة على نفي وإثبات :

ولها ثمانية شروط : مجموعة في قول الشاعر :

علم يقين وإخلاص وصدقك مع * محبة وانقياد والقبول لها

وزيد ثامنها الكفران منك بما * سوى الإله من الأوثان قد ألها

وتفصيل هذه الشروط كما يلي :

١ـ العلم بمعناها نفيا وإثباتا المنافي للجهل بتحقيقتها . والدليل قوله ﷻ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ محمد :[١٩]وقوله ﷺ:((من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة))[١]

٢ ـ اليقين المنافي للشك والريب قال الله تعالى :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ الحجرات :[١٥] وقوله ﷺ: ((اشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيها إلا دخل الجنة))[٢]

٣ ـ الإخلاص المنافي للشرك . قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ البينة :[٥] وقوله ﷺ : ((فإن الله قد حرم على النار من قال لا اله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله))[٣]

٤ ـ الصدق المنافي للكذب المانع من النفاق . قال الله تعالى :﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَٰدِعُونَ ﴿٨﴾ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة :[٨ـ٩]

٥ ـ المحبة لهذه الكلمة ولما دلت عليه . قال الله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ المائدة :[٥٤]

---

١ ـ مسلم : [٢٦] من حديث عثمان رضي الله عنه .

٢ ـ مسلم : [٢٧] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

٣ ـ البخاري : [٤١٥] ومسلم : [٣٣] من حديث عتبان رضي الله عنه .

٦ ـ الانقياد لحقوقها طلبا لمرضاة الله . قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ ﴾ لقمان:[٢٢]

٧ ـ القبول المنافي للردّ والإنكار والاستكبار . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الصافات :[٥٣]

٨ ـ الكفر بما يعبد من دون الله . قال الله تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ﴾[1] أي بالتوحيد والإسلام .وقوله ﷺ: ((من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار))[2] وقوله ﷺ : ((من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله))[3]

ثامنا : الصلاة على النبي ﷺ :

أصح ما قيل فيها أنها : من الله الثناء عليه في الملأ الأعلى كما ثبت عن أبي العالية[4] في صحيح البخاري[5] ، ومن العباد طلب هذا الثناء من الله فإذا قيل : إن الله يصلي على النبي ﷺ أي يثني عليه ، وإذا قيل : إن الملائكة تصلي على النبي ﷺ أي تدعو الله عزوجل أن يثني عليه . وقد أخرج ابن جرير عن ابن

---

١ ـ البقرة : ﴿ ٢٥٦ ﴾ . وانظر الواجبات المتحتمات المعرفة ومعها نظمي على الواجبات ضمن رسائلي : المنظومات الأثرية في العلوم الشرعية .

٢ ـ البخاري : [٤٢٢٧] عن ابن مسعود رضي الله عنه .

٣ ـ مسلم : [٢٣] عن أبي مالك عن أبيه رضي الله عنه .

٤ ـ أبو العالية : هو رفيع بن مهران الرياحي البصري تابعي وحافظ مفسر توفي سنة ٩٠هـ . سير أعلام النبلاء : [٤ / ٢٠٧] .

٥ ـ كتاب التفسير : باب قوله : (إنّ الله وملائكته يصلون على النبي) تعليقا بصيغة الجزم : (٨ / ٥٣٢) مع الفتح

عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ الأحزاب :[٥٦] قال :(يباركون على النبي)[١]

تاسعا : قوله : ﴿ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ﴾ :ـ

الآل : لها إطلاقان .

الأول : عام ، وهم كل أتباع النبي ﷺ . وعلى هذا يدخل فيهم الصحابة.

الثاني : خاص ، وهو المراد هنا . وهم بنو هاشم خاصة وقيل وبنو عبد المطلب . قال الناظم :

آل النبي في الدعا كل تقي * وفي الزكاة نجل هاشم النقي

وأما الصحابي : فهو كل من لقي النبي ﷺ مؤمنا به ومات على ذلك . قال الحافظ ابن حجر : وإن تخللت ردة في الأصح[٢] . أي ولو ارتد ثم أسلم بعد ذلك .

عاشرا : اشتملت خطبة الحاجة على أقسام التوحيد الثلاثة وإثبات القدر والرسالة :

ـ فتوحيد الألوهية في قوله : (نستعينه) أي على عبادته ، وأصل الاستعانة والاستغفار والاستعاذة عبادات لله تعالى . وكذا في قوله أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إثبات . والأسماء والصفات في قوله : (نحمده) أي نثني عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى .

ـ والربوبية : في جميع ذلك لأنه مستلزم للتوحيدين

---

١ ـ أخرجه ابن جرير بسند حسن : (٢٢ / ٥٣) برقم : [٢١٨٤٧] طبعة دار الفكر : ١٤٢٠ هـ. وانظر التفسير الصحيح . أ.د حكمت بشير : (٤ / ١٤٣)

٢ ـ انظر نخبة الفكر للحافظ ابن حجر مع النزهة : ص (٥٥) .

السابقين ،فمن مستلزمات إثبات الرب الخالق المالك إفراده بالعبودية واتصافه بالصفات الكاملة العليّة .

والقدر في قوله : (من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له) وسيأتينا تفصيل مباحث القدر في الكلام عن الأصل الثاني بإذن الله تعالى .
والرسالة في قوله : (وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ) [1]

موضوع الرسالة وسبب التأليف :

قوله : ﴿أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إجَابَتُهُمْ أَنْ أَكْتُبَ لَهُمْ مَضْمُونَ مَا سَمِعُوهُ مِنِّي فِي بَعْضِ الْمَجَالِسِ ؛ مِنْ الْكَلَامِ [فِي التَّوْحِيدِ] (وَالصِّفَاتِ] وَفِي (الشَّرْعِ] وَالْقَدَرِ] لِمَسِيسِ الْحَاجَةِ إلَى تَحْقِيقِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ وَكَثْرَةِ الِاضْطِرَابِ فِيهِمَا . فَإِنَّهُمَا مَعَ حَاجَةِ كُلِّ أَحَدٍ إلَيْهِمَا وَمَعَ أَنَّ أَهْلَ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِبَادَةِ : لَا بُدَّ أَنْ يَخْطِرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ الْخَوَاطِرِ وَالْأَقْوَالِ مَا يَحْتَاجُونَ مَعَهُ إلَى بَيَانِ الْهُدَى مِنْ الضَّلَالِ لَا سِيَّمَا مَعَ كَثْرَةِ مَنْ خَاضَ فِي ذَلِكَ بِالْحَقِّ تَارَةً وَبِالْبَاطِلِ تَارَاتٍ وَمَا يَعْتَرِي الْقُلُوبَ فِي ذَلِكَ : مِنْ الشُّبَهِ الَّتِي تُوقِعُهَا فِي أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ﴾

التوضيح :

قوله ﴿ أَمَّا بَعْدُ ﴾ :

كلمة يؤتى بها للانتقال من جملة إلى أخرى ومن المقدمة إلى الموضوع وهي

---

١ ـ مستفاد من المذكرات باختصار .

نائبة عن قولنا (مهما يكن من شيء) بعد . لذلك قال ابن مالك[١] :

أما كمهما يك من شيء وفا * لتلو تلوها وجوبا ألفا[١]

أي أن تلو تلوها وهو ما يأتي بعد كلمة (بعد) يجب اقترانها بالفاء إلا في مواضع[٢] ، وقيل : إن أول من تكلم بها داود[٣] ـ عليه السلام ـ وهي المقصودة بفصل الخطاب في قوله ﷻ: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ص:[٣٨] كما نقل عن أبي موسى الأشعري والشعبي[٤] . وفي معنى الآية أقوال أخرى أشهر من هذا القول[٥] أحسنها أن فصل الخطاب هو علم القضاء كما ثبت عن قتادة والسديّ والحسن وغيرهم[٦] . وقيل أول من تكلم بها قس بن ساعدة[٧] في خطبته الطويلة يوم عكاظ وفيها : (أعاد وأبدى وأمات وأحيا وخلق الذكر والأنثى رب الآخرة والأولى ، أمابعد : فيامعشر إياد أين ثمود وعاد وأين الآباء والأجداد)[٨]

---

١ ـ في ألفيته المشهورة في النحو والصرف البيت : [٧١٢] وانظر أوضح المسالك : [٤ / ٢١٠)

٢ ـ انظر تفصيلها في أوضح المسالك ص : ٤٠٤ = فصل في (أمّا) .

٣ ـ انظر تفسير ابن أبي حاتم : (١٠ / ٣٢٣٨) ، وابن جرير : (٢٣ / ١٦٧) ، والقرطبي : (١٥ / ١٤٣) ، وابن كثير : (٤ / ٣٤) ، ومعالم التنزيل : (٧ / ٧٨) ، وزاد المسير : (٦ / ٣٢٥) .

٤ ـ هو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار الشعبي إمام عصره حدث عن عدد من الصحابة توفي سنة ١٠٤ هـ . انظر سير النبلاء : (٤ / ٢٩٤) ، والتاريخ الكبير : (٦ / ٤٥٠)

٥ ـ انظر فتح القدير : (٤ / ٦٠٤) مع ماسبق .

٦ ـ أخرج هذه الآثار ابن جرير بسند حسن : (٢٣ / ١٦٧) ورجح ابن جرير عموم مدلول الآية لجميع هذه الأقوال .

٧ ـ هو قس بن ساعدة الإيادي من خطباء العرب وشعرائهم وحكمائهم كان يدين بالتوحيد ويقرّ بالبعث ، عمّر طويلا ومات قبل البعثة . انظر الأغاني : (١٤ / ٤) ، والبيان والتبيين : (١ / ٤٢ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ١٨٩ ، ٣٠١) ، (٢ / ٢٦٩)

٨ ـ انظر قصته في البداية والنهاية : (٢ / ٣٠٤ ، ٣١٢)

وقيل : بل النبي ﷺ الله عليه وسلم كما في خطبة الحاجة السابقة ، والله أعلم . وفي هذه الفقرة يذكر شيخ الإسلام أسباب التأليف وموضوع الرسالة فأبدأ بما يلي :ـ

أولا : موضوع الرسالة :

وهو الكلام في أصلين عظيمين :

الأول : التوحيد والصفات . الثاني : الشرع والقدر .

ثانيا : أسباب تأليف الرسالة :

الذي يظهر أنهما سببان أساسيان :

الأول :أهمية السائل : وتظهر أهميتهم لديه في قوله (من تعينت إجابتهم) أي وجب علي عينيا أن أستجيب لسؤالهم لي وهم بعض طلاب العلم من أهل تدمر[١] ، وإلى مدينتهم نسبت الرسالة ، وقيل سميت تدمرية لتدميرها شبهات أهل الباطل . ولكن الأول أظهر لغة وواقعا .

السبب الثاني : أهمية المسؤول عنه : وهما الأصلان السابقان : وتتجلى أهميتهما فيما يلي:

١ ـ حاجة كل إنسان إليهما .فالإنسان بفطرته متطلع إلى إدراك حقائق الأمور .

٢ ـ كثرة الاضطراب الواقع فيهما بين أهل الملّة كما سيتضح أثناء الرسالة بإذن الله تعالى .

٣ ـ أن أهل الإسلام ـ وهم قسمان ؛ أهل العلم والنظر ، وأهل الإرادة والسلوك والعبادة ـ لا بد أن يخطر لهم من الخواطر ويرد عليهم من الأقوال

---

١ ـ مدينة قديمة في وسط الصحراء تلقب بعروس الصحراء قيل فتحها خالد بن الوليد : (معجم البلدان : ٢ / ١٧

مايحتاجون معها إلى تمييز الهدى من الضلال . فأهل العلم لهم عناية بالقضايا العلمية، وأهل العبادة لهم عناية بالقضايا العملية وكلما جمع المسلم بينهما كان أكمل .

قوله : ﴿ أَهْلَ النَّظَرِ ﴾ قد يقصد بهم المتكلمين . وسموا بذلك لقولهم بوجوب النظر والاستدلال أو لادعائهم التحقيق والتدقيق في العلميات .

٤ ـ كثرة من خاض في هذين الأصلين إما بالحق أو بالباطل فلذلك كان لزاما الحكم بينهم .

٥ـ كثرة الشبهات الواردة على القلوب في هذا الباب والتي توقع صاحبها في أنواع الشكوك والضلالات .

ملحوظة : قوله : ﴿فَإِنَّهُمَا مَعَ حَاجَةِ كُلِّ أَحَدٍ إِلَيْهِمَا﴾ هذه العبارة تفتقر إلى خبر (إنّ) ولعله سقط كما نبه إليه بعض الشراح[1] إذ لا يستقيم لغة ، ولذلك يقدر الخبر فيقال : (فإنهما مهمان مع حاجة كل أحد ..) أو نحو ذلك مما تكتمل به العبارة .

توضيح الأصلين اللذين تدور عليهما الرسالة

قوله : ﴿ فَالْكَلَامُ فِي بَابِ (التَّوْحِيدِ] (وَالصِّفَاتِ] : هُوَ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ الدَّائِرِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ وَالْكَلَامُ فِي (الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ] : هُوَ مِنْ بَابِ الطَّلَبِ وَالْإِرَادَةِ : الدَّائِرُ بَيْنَ الْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَبَيْنَ الْكَرَاهَةِ وَالْبُغْضِ : نَفْيًا وَإِثْبَاتًا ﴾

---

١ ـ توضيح مقاصد المصطلحات العلمية لشيخنا الدكتور : محمد بن عبد الرحمن الخميس :ص ٧ . والتحفة المهدية : ص ٢٣ . والعبارة بحذف (فإنهما) أصح ، ولكنها موجودة في أكثر النسخ فلذلك أثبتها ، والله أعلم .

التوضيح :

يذكر شيخ الإسلام مقدمة حول الأصلين اللذين هما موضوع الرسالة فيقول:

* أولا : إن الكلام في الأصل الأول : وهو التوحيد والصفات من باب الخبر :

ويقصد بالتوحيد هنا : الربوبية . فيكون قد جمع في هذا الأصل بين توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات .

ويقصد بالخبر : ما احتمل الصدق والكذب لذاته بقطع النظر عمن أضيف إليه فإذا أضيف إلى الله ورسوله قطع بصدقه .

والمقصود أن هذا الأصل أخبار إما أن تأتي بالإثبات كقوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ ﴿٥﴾ طه:[٥] أو بالنفي كقوله تعالى ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ الشورى:[١١]

* ثانيا : الكلام في الأصل الثاني : وهو الشرع والقدر من باب الطلب والإرادة .

ويقصد بالشرع : الأحكام الشرعية وهو توحيد الألوهية لأنه إفراد الله بالعبادة على وفق ما شرع .

وربط شيخ الإسلام بين الشرع والقدر للتلازم بينهما فمن أقر بالشرع وأنكر القدر فقد طعن في ربوبية الله وملكوته ونسبه إلى العجز ، ومن أقر بالقدر وأنكر الشرع فقد طعن في حكمة الله وعدله ، وسيأتي تفصيل مواقف الناس من الشرع والقدر .

وقوله : ﴿ مِنْ بَابِ الطَّلَبِ وَالْإِرَادَةِ ﴾ : أي أن الكلام في الشرع من باب الطلب فإن الله سبحانه وتعالى يخاطب عباده بالشرع فإما أن ينهاهم وإما أن يأمرهم وهذا هو الطلب والأوامر والنواهي ، فإن أمرهم بأمر شرعي دل ذلك على إرادته وحبه للمأمور به ، وإن نهاهم دل ذلك على بغضه وكرهه للمنهي عنه . فالأمر فيه إثبات والنهي فيه نفي .

ملحوظة : والذي يظهر لي أن القدر ليس من باب الطلب وإنما هو من باب الخبر فهو من مباحث الإيمان . وإنما أدخله شيخ الإسلام في الشرع لسببين:

أولهما : للتلازم بين الشرع والقدر كما سبق . فلا بد من العمل بالشرع مع الاستعانة بالله للتوفيق .

ثانيهما : لأن القدر دائر بين الإرادة والمحبة والكراهية والبغض فيتفق مع الشرع من هذا الوجه ، والله تعالى أعلم .

الفرق بين الخبر والطلب

قوله : ﴿ وَالْإِنسَانُ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ ؛ وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ وَبَيْنَ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ وَالْحَضِّ وَالْمَنْعِ ؛ حَتَّى إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا النَّوْعِ وَبَيْنَ النَّوْعِ الْآخَرِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَمَعْرُوفٌ عِنْدَ أَصْنَافِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْعِلْمِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْفُقَهَاءُ فِي كِتَابِ الْأَيْمَانِ وَكَمَا ذَكَرَهُ الْمُقَسِّمُونَ لِلْكَلَامِ ؛ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالنَّحْوِ وَالْبَيَانِ فَذَكَرُوا أَنَّ الْكَلَامَ نَوْعَانِ : خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ ، وَالْخَبَرُ دَائِرٌ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ ، وَالْإِنْشَاءُ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ أَوْ إِبَاحَةٌ ﴾

التوضيح :

إن الإنسان يعلم في نفسه ويشعر بالفرق بين النفي والإثبات والتصديق والتكذيب الداخلين على الخبر ، وبين الحب والبغض والحض والمنع الداخلين على الأوامر والنواهي وهي الطلب ، والخبر تارة يكون نفيا وأخرى يكون إثباتا وتارة يكون صدقا وأخرى يكون كذبا ، والطلب كذلك تارة يكون أمرا وأخرى نهيا وتارة يكون محبوبا وأخرى مبغوضا . وهذا الفرق معلوم عند عامة الناس وعند المتخصصين في أصناف العلوم ومن أمثلة ذلك :

أولا : عند الفقهاء ـ فإنهم يذكرون الخبرو الطلب أوالإنشاء عند كلامهم عن الأيمان فيقولون : اليمين قسمان :

١ ـ يمين على مستقبل ، وهذا إنشاء لا يدخله الصدق والكذب وهي التي تسمى بالمنعقدة وتدخلها الكفارة مع الحنث .

٢ ـ يمين على خبر في الماضي . فإن كانت كاذبة سميت بالغموس . ولا تدخلها الكفارة[1] .

ثانيا عند أهل النظر من المتكلمين والأصوليين :

فإنهم يذكرون أقسام الكلام وأنه خبر وإنشاء وهو الأمر والنهي والإباحة عند كلامهم عن دلالات الألفاظ .

---

١ ـ انظر الفتاوى : (٣٥ / ٣٠٧) وما بعدها .

ثالثا : عند علماء النحو والبيان :

فمثلا يعد الفعل الماضي من باب الخبر والأمر من باب الإنشاء ، وعند البيانيين يدخل هذا التقسيم في علم المعاني كما قال الناظم :

مالم يكن محتملا للصدقِ * والكذب الإنشا ككن بالحقِّ[1]

الواجب تجاه الأصلين :

قوله : ﴿ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ : فَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يُثْبِتَ لِلَّهِ مَا يَجِبُ إِثْبَاتُهُ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَيَنْفِي عَنْهُ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْهُ مِمَّا يُضَادُّ هَذِهِ الْحَالَ وَلَا بُدَّ لَهُ فِي أَحْكَامِهِ مِنْ أَنْ يُثْبِتَ خَلْقَهُ وَأَمْرَهُ فَيُؤْمِنَ بِخَلْقِهِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ قُدْرَتِهِ وَعُمُومَ مَشِيئَتِهِ وَيُثْبِتَ أَمْرَهُ الْمُتَضَمِّنَ بَيَانَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ : مِنْ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَيُؤْمِنَ بِشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ إِيمَانًا خَالِيًا مِنْ الزَّلَلِ ﴾

التوضيح :

فإن كان الخبر منقسما إلى نفي وإثبات ، والطلب إلى محبوب مأمور به ومبغوض منهي عنه فالواجب على العبد تجاههما ما يلي :

أولا : تجاه الخبر : أن يثبت لله ما يجب إثباته له من الكمال وينفي عنه ما يجب نفيه عنه مما ينافي هذه الحال أي الكمال على وفق ما دلت عليه النصوص .

ثانيا : تجاه الأحكام : أن يثبت خلقه وأمره ، فإثبات خلقه هو الإيمان بالقدر المتضمن كمال قدرته وعموم مشيئته ، وإثبات أمره هو الإيمان بالشرع المتضمن بيان ما يحبه الله ويبغضه من الأقوال والأعمال .

---

١ ـ انظر الجوهر المكنون في الثلاثة الفنون ص٣٠.

قوله : ﴿ وَلَا بُدَّ لَهُ فِي أَحْكَامِهِ ﴾ تعبير شيخ الإسلام عن الشرع والقدر بلفظ الأحكام تعبير في غاية الدقة والإحكام ، وبيان ذلك أن الأحكام نوعان :

١ ـ أحكام شرعية : كما في قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ ﴾ المائدة :[١]

٢ ـ أحكام كونية : كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ يوسف :[٨٠]

فالأحكام الكونية هي خلقه وتقديره وهو القدر ، والأحكام الشرعية هي أمره ونهيه وهي الشرع وقد جمعهما الله ﷻ في قوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ الأعراف :[٥٤] فالخلق القدر والأمر الشرع . فتدبر هذا الاستنباط العجيب .

تضمن الأصلين لأنواع التوحيد

قوله : ﴿ وَهَذَا يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ : وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعَمَلِ وَالْأَوَّلُ يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ سُورَةُ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ وَدَلَّ عَلَى الْآخَرِ سُورَةُ :قُلْ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ ﴾ وَهُمَا سُورَتَا الْإِخْلَاصِ وَبِهِمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ فِي رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ وَرَكْعَتَيْ الطَّوَافِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴾

التوضيح :

قوله ﴿ وهذا ﴾ اسم إشارة يعود إلى أقرب مذكور وهو الأصل الثاني أي الشرع والقدر فإنه يتضمن عبادته وحده لا شريك له وهذا توحيد الألوهية وله أسماء منها :

١ ـ توحيد القصد والإرادة : لأن الله يقصد ويراد .

٢ ـ التوحيد العملي : لأنه يتضمن أعمال العباد .

٣ ـ توحيد العبادة : لأنه إفراد الله بالعبادة .

٤ ـ التوحيد الطلبي الإرادي : لأن نصوصه من قبيل الطلب .

٥ ـ بالإضافة إلى توحيد الألوهية : بمعنى العبودية لله تعالى .

قوله : ﴿ والأوّلُ ﴾ : أي الأصل الأول وهو التوحيد والصفات يتضمن العلم والقول أي يعلم بأن الله سبحانه وتعالى مستحق للكمال المطلق والغني عن كل شيء والقدرة على كل شيء ويقرّ بذلك قولا ، وله أسماء منها :

١ ـ توحيد المعرفة والإثبات : أي معرفة الله ﷻ وإثبات ما أثبته لنفسه .

٢ ـ التوحيد الاعتقادي : وهذا في مقابل التوحيد العملي

٣ ـ التوحيد العلمي الخبري : باعتبار أنه من باب الخبر ويتضمن العلم بصفات الله وأفعاله كما سبق . وعلى هذه القسمة فالتوحيد نوعان : الأول : توحيد الطلب والقصد : وهو الذي تضمنته سورة الكافرون لأن فيها ذكر العبادة وإخلاصها لله . وهو توحيد الألوهية .

الثاني : توحيد المعرفة والإثبات : وهو الذي تضمنته سورة الإخلاص ففيها كلام عن الله وصفاته . وهو توحيد الأسماء والصفات المتضمن لتوحيد الربوبية .

ومن قال إن التوحيد ثلاثة أقسام يجعل المعرفة والإثبات نوعين : ربوبية وأسماء وصفات ، وتسمى سورتا الكافرون والإخلاص بسورتي الإخلاص[١] لأنهما أخلصتا التوحيد بجميع أنواعه[٢] لله تبارك وتعالى .

ولأهميتهما فقد كان يقرأ بهما النبي ﷺ بعد الفاتحة في مواضع أربعة :

الأول : ركعتا الفجر[٣] .

الثاني : ركعتا الطواف[٤] .

الثالث : الوتر[٥] .

الرابع : الركعتان بعد المغرب[٦] .

ـ الخلاصة :

من هذه الفقرات نخرج من خلال الفقرات السابقة بفروقات بين الأصلين نوضحها في الجدول التالي :

---

١ ـ جاءت التسمية في رواية الترمذي : (٣ / ٦٠٧) لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في ركعتي الطواف بسورتي الإخلاص .

٢ ـ انظر اقتضاء الصراط المستقيم : ص ٤٩٧ ، وبدائع الفوائد : (١ / ١٣٨)

٣ ـ ثبت ذلك عن أبي هريرة ﷺ كما في مسلم : [٧٢٦] ، وعن ابن عمر عند الترمذي : (٢ / ٤٧٠) وغيره .

٤ ـ ثبت ذلك في حديث جابر بن عبد الله ﷺ في مسلم : [١٢١٨] وغيره .

٥ ـ ثبت ذلك عن عدد من الصحابة كما في أبي داود : (٤ / ٢٩٩) ، والترمذي : (٢ / ٥٦٠) ، وابن ماجه : [١١٧٣] وانظر صفة صلاة النبي ﷺ للشيخ الألباني ص : ٩٧ .

٦ ـ ثبت ذلك عن ابن عمر رضي الله عنهما عند أحمد : [٤٧٦٣] ، وابن مسعود ﷺ في الترمذي : (٢ / ٥٠٦) وابن ماجه : [١١٦٦] وانظر صحيح النسائي : [٩٤٨]

أوجه الفرق	الأصل الأول	الأصل الثاني
١ . موضوعه	التوحيد والصفات	الشرع والقدر
٢ . نوع الكلام فيه	الخبر الدائر بين النفي والإثبات	الطلب الدائر بين المحبة والبغض والأمر والنهي
٣ . الواجب فيه	إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفي مانفاه الله عن نفسه	إثبات خلقه المتضمن لقدرته ومشيئته ، وأمره المتضمن لما يحبه ونهيه المتضمن لما يبغضه
٤ . تضمنه للتوحيد	يتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات	يتضمن توحيد الألوهية

خلاصة المقدمة

١ ـ العلاقة بين الحمد والشكر علاقة عموم وخصوص من وجه .

٢ ـ الهداية نوعان : هدية دلالة وإرشاد ، وهداية توفيق وإلهام

٣ ـ شروط كلمة التوحيد ثمانية وهي :

(أ) العلم . (ب) اليقين . (ت) الإخلاص . (ث) الصدق (ج) المحبة. (ح) الانقياد . (خ) القبول. (د)الكفر بالطاغوت

٤ ـ الصلاة على النبي ﷺ هي الثناء عليه في الملأ الأعلى .

٥ ـ اشتملت خطبة الحاجة على أقسام التوحيد وإثبات القدر والرسالة .

٦ ـ كلمة الآل لها إطلاقان :

(أ) إطلاق عام : هم أتباع النبي ﷺ

(ب) إطلاق خاص : وهم أهل بيته من بني هاشم .

٧ ـ والصحابي : كل من لقي النبي ﷺ مؤمنا به ومات على ذلك .

٨ ـ لتأليف الرسالة سببان :

(أ) أهمية السائل . (ب) أهمية المسؤول عنه

٩ ـ موضوع الرسالة في أصلين :

(أ) التوحيد والصفات . (ب) الشرع والقدر

١٠ ـ الفرق بين الأصلين :

- أما التوحيد والصفات فهما :

أ ـ من باب الخبر .

ب ـ الواجب فيه إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفي ما نفاه عن نفسه

ج ـ وهما متضمنان لتوحيد الربوبية والأسماء والصفات

- أما الشرع والقدر فهما :

أ ـ من باب الطلب .

ب ـ الواجب فيهما إثبات خلقه وأمره تبارك وتعالى .

ج ـ وهمامتضمنان لتوحيد الألوهية .

١١ ـ لكل من توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات أسماء متعددة ، فمن أسماء توحيد الألوهية :

توحيد القصد والإرادة ـ التوحيد العملي ـ توحيد العبادة ـ التوحيد الطلبي.

ومن أسماء توحيد الربوبية والأسماء والصفات :

توحيد المعرفة والإثبات ـ التوحيد الاعتقادي ـ التوحيد العلمي الخبري .

١٢ ـ تضمنت سورة الإخلاص توحيد المعرفة والإثبات ، وسورة الكافرون توحيد الطلب والقصد فأخلصتا نوعي التوحيد ولذلك سميتا بسورتي الإخلاص .

المناقشة ؟

١. مامعنى الحمد والشكر ، وما العلاقة بينهما ؟
٢. ما الحكمة من ورود الأفعال بالجمع والشهادة بالإفراد في خطبة الحاجة ؟
٣. اذكر أنواع الهداية مع بيان الفرق بينهما ؟
٤. اذكر شروط (لا إله إلا الله) مع الأدلة .
٥. اذكر ما اشتملت عليه خطبة الحاجة من أصول الدين
٦. ما موضوع الرسالة التدمرية ؟ ولم سميت بذلك ؟
٧. ما سبب تأليف شيخ الإسلام للرسالة ؟
٨. بين أهمية الرسالة التدمرية ؟
٩. وضح الفروقات بين الأصلين اللذين تقوم عليهما هذه الرسالة .
١٠. لماذا سميت سورتا الإخلاص والكافرون بسورتي الإخلاص ؟
١١. عدد بعض الصلوات التي تسن فيها القراءة بسورتي الإخلاص والكافرون؟
١٢. عدد أقسام التوحيد وأسماء كل قسم
١٣. بين معنى الآل وضابط الصحابي .

الأصلُ الأول

الكلام في التوحيد والصفات

ويشتمل على :

١) مقدمة الأصل الأول فيها :

- طريقة السلف . - طريقة المخالفين .

٢) الأصل الأول:(القول في بعض الصفات كالقول في البعض)

٣) الأصل الثاني : (القول في الصفات كالقول في الذات)

٤) المثل الأول : (الجنة) . ٥) المثل الثاني : (الروح) .

٦) الخاتمة الجامعة لسبع قواعد نافعة :

- القاعدة الأولى : صفات الله نفي وإثبات
- القاعدة الثانية : حكم ما يضاف إلى الله من الأسماء والصفات
- القاعدة الثالثة : معنى ظاهر النصوص وحكم القول بأنه مراد أو غير مراد.
- القاعدة الرابعة : المحاذير التي يقع فيها من يتوهم التمثيل في الصفات ثم ينفيها
- القاعدة الخامسة : إنا نعلم بما أخبر الله به من الغيبيات من وجه دون وجه
- القاعدة السادسة : الضابط الذي يعرف به ما يجوز لله وما لا يجوز له نفيا وإثباتا .
- القاعدة السابعة : دلالة العقل على كثير مما دل عليه السمع .

القاعدة الأصلية في هذا الأصل :

قوله : « فَأَمَّا الْأَوَّلُ وَهُوَ (التَّوْحِيدُ فِي الصِّفَاتِ) فَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ : أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَتْهُ بِهِ رُسُلُهُ : نَفْيًا وَإِثْبَاتًا ؛ فَيُثْبِتُ لِلَّهِ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ وَيَنْفِي عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ »

التوضيح :

شرع شيخ الإسلام في بيان الأصل الأول تأصيلا وتفصيلا ، وسيتكلم في توحيد الأسماء والصفات دون الربوبية ، وذلك لأمرين:

الأول : أن الأسماء والصفات متضمن للربوبية فكل من أقر بالأسماء والصفات مقر بالربوبية من باب أولى .

الثاني : كثرة الخلاف في الأسماء والصفات بين أهل القبلة كما سيتضح ذلك بإذن الله تعالى .

فبدأ بذكر القاعدة الاصلية في هذا الباب وهي :

(أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَتْهُ بِهِ رُسُلُهُ : نَفْيًا وَإِثْبَاتًا)

فيثبت ما أثبته الله لنفسه كقوله ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾الشورى : [١١]

وينفي ما نفاه عن نفسه كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ الشورى : [١١] وليست هذه القاعدة من نسج شيخ الإسلام بل قد نص عليها أئمة السلف ـ رحمة الله عليهم ـ وإليك طائفة من أقوالهم في ذلك :

١ ــ قال الإمام أبو حنفية : (لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء بل يصفه بما وصفه به نفسه)[١]

٢ ــ وقال الإمام الشافعي : (لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبرها نبيه ﷺ لا يسع أحدا من خلق الله تعالى قامت عليه الحجة ردها)[٢]

٣ ــ وقال الإمام أحمد : (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والسنة)[٣] .

٤ ــ وقال الإمام الدرامي[٤] : (ونصفه بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ)

٥ ــ وقال الإمام ابن خزيمة[٥] : (فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق والشام ومصر مذهبنا أنا نثبت لله ما أثبته لنفسه ..)[٦] وقال : (نحن نثبت لخالقنا جل وعلا صفاته التي وصف الله بها نفسه في محكم تنزيله أو على لسان نبيه المصطفى ﷺ مما ثبت بنقل العدل عن العدل موصولا إليه)[٧]

---

١ ـ ذكره في جلاء العينين : ص ٣٦٨ ، وقال : نقله القاضي أبوالعلاء في كتاب الاعتقاد عن أبي يوسف عن أبي حنيفة . وانظر شرح الطحاوية : ص ٤٢٧.

٢٢ ـ ذم التأويل : ص ٢٣ . وذكر ابن جرير نحوه في كتابه التبصير في معالم الدين : ص ١٣٢ .

٣ ـ انظر الفتاوى : (٥ / ٢٦) ، لمعة الاعتقاد : ص ٩ .

٤ ـ هو أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي تلميذ الإمام أحمد وإسحاق ويحيى بن معين . توفي سنة ٢٨٠ . له : الرد على المريسي والرد على الجهمية وهذا الكلام منه : ص ٣ . انظر السير : (١٣ / ٣١٩)

٥ ـ هو إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري الشافعي ولد سنة ٢٢٣ وتوفي سنة ٣١١ .سمع من إسحاق وروى عنه البخاري ومسلم . انظر السير : (١٤ / ٣٦٥) .

٦ ـ من كتابه العظيم كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ : (١ / ٢٦)

٧ ـ المصدر السابق نفسه : (١ / ٥٧ ، ١٣٧)

٦ ــ وقال الإمام الآجري[١] : (أهل الحق يصفون الله ﷻ بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ وبما وصفه به الصحابة رضي الله عنهم ، وهذا مذهب العلماء ممن اتبع ولم يبتدع ، ولايقال : كيف ؟ بل التسليم له والإيمان به)[٢]

٧ ــ وقال الإمام الإسماعيلي[٣] حاكيا اعتقاد أئمة أهل السنة : (ويعتقدون أن الله تعالى مدعو بأسمائه الحسنى وموصوف بصفاته التي سمى ووصف بها نفسه ووصفه بها نبيه ﷺ)[٤]

٨ ــ وقال الإمام السِّجزي[٥] : (وقد اتفقت الأئمة على أن الصفات لا تؤخذ إلا توقيفا .. ولايجوز أن يوصف الله سبحانه إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ)

٩ ــ وقال الإمام ابن عبد البر[٦] : (أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز إلا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك)[٧] .

---

١ ـ هو الإمام المحدث شيخ الحرم أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي الآجري صاحب التصانيف . توفي سنة ٣٦٠ . (السير : (١٦ / ١٣٣) . شذرات اذهب : (٤ / ٣١٦)

٢ ـ الشريعة للآجري بتحقيق الوليد بن محمد : (٢ / ٥٢)

٣ ـ هو الإمام أبو بكر أحمد بن إسماعيل الجرجاني الإسماعيلي الشافعي صاحب المستخرج ولد سنة ٢٧٧ وتوفي سنة ٣٧١ . السير : (١٦ / ٢٩٢)

٤ ـ كتاب اعتقاد أئمة الحديث : ص ٣٥ . بتحقق شيخنا الدكتور الخميِّس ، و : ص ٣٣ بتحقيق جمال عزون .

٥ ـ هو الإمام الحافظ أبو نصر عبيد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي البكري السجزي توفي سنة ٤٤٤ له كتاب الإبانة وكتاب الرد على من أنكر الحرف والصوت ، والعبارة أعلاه منه : ص ١٢١ . السير : (١٧ / ٦٥) .

٦ ـ هو الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عاصم النميري القرطبي المالكي ولد سنة ٣٦٨ له عشرات التصانيف أشهرها التمهيد والاستذكار وجامع بيان العلم وفضله . توفي سنة ٤٦٣ . السير : (١٨ / ١٥٤)

٧ ـ التمهيد : (٧ / ١٤٥) . وانظر الفتاوى : (٥ / ٨٧)

طريقة السلف في هذا الباب :

قوله : ﴿وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ طَرِيقَةَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَكَذَلِكَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ مَعَ إِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ إِلْحَادٍ : لَا فِي أَسْمَائِهِ وَلَا فِي آيَاتِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى :﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : إِنَّ﴿ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾﴾

التوضيح :

بين شيخ الإسلام طريقة السلف في هذا الباب ، والسلف في اللغة : كل من تقدمك[١] ، وعند أهل الإسلام : أصحاب القرون الثلاثة الفاضلة من الصحابة والتابعين وأتباعهم دون من رمي ببدعة أو شهر بلقب غير مرضي كجهمي أو رافضي[٢] .

ودليل ذلك حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((إن خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم))[٣]

---

١ ـ لسان العرب : (٩ / ١٥٩)

٢ ـ لوامع الأنوار : (١ / ٢٠)

٣ ـ البخاري : (٥ / ٢٥٨) ، ومسلم: [٢١٤] ، وأحمد : (٤ / ٤٢٨)

والنسبة إلى السلف سلفي ، ويقصد بها أحد أمرين :

١ ـ إما أنه من القرون الثلاثة .

٢ ـ وإما أنه متبع لهم في طريقتهم في الدين .

كما قال ﷺ : ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون)) [١] فالاستمرارية تستلزم متابعة السابقين .

وتتلخص طريقة السلف في هذا الباب في قوله :

﴿ إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ ﴾

● أولا : **التكييف** :ـ مأخوذ من الكيف وهو الهيئة ، والمقصود إثبات كيفية معينة للصفات أو السؤال عنها بكيف .

قال الإمام الترمذي[٢] : (وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث[٣] وما يشبه هذا من الروايات من الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا قالوا : قد تثبت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يتوهم ولا يقال كيف هكذا روي عن مالك وسفيان بن عيينة[٤] وعبد الله بن المبارك[٥] أنهم قالوا في هذه الأحاديث أمرّوها بلا كيف وهكذا قول أهل العلم

---

١ ـ البخاري : (٦ / ٦٣٢) ، ومسلم : (٣ / ١٥٢٣) وغيرهما عن جمع من الصحابة .

٢ ـ هو الإمام أبو عيسى الترمذي صاحب السنن توفي سنة ٢٧٩ . وله عبارات سلفية في سنته المشهورة .

٣ ـ وهو حديث أبي هريرة يقول قال رسول الله ﷺ : ﴿ إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) و(يمحق الله الربا ويربي الصدقات) قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

٤ ـ هو الحافظ أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران شيخ الإسلام توفي ١٩٨ . انظر : السير : (٨ / ٤٥٤) و التهذيب : (٤ / ١١٧)

٥ ـ هو الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك الحنظلي مولاهم من أئمة الإسلام توفي سنة ١٨٠ . انظر السير : (٨ / ٣٧٨) والتهذيب : (٥ / ٣٨٢)

من أهل السنة والجماعة وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات وقالوا هذا تشبيه وقد ذكر الله عز وجل في غير موضع من كتابه اليد والسمع والبصر فتأولت الجهمية هذه الآيات ففسروها على غير ما فسر أهل العلم

وقالوا إن الله لم يخلق آدم بيده وقالوا إن معنى اليد ههنا القوة)[1] ا.هـ.

● **ثانيا : التمثيل :ـ** هو التسوية والمشابهة بين الخالق والمخلوق

وهو نوعان :

١ ـ تشبيه الخالق بالمخلوق : كما فعلت فرق المشبهة كالهشامية[2] والجواليقية[3] والجواربية[4] وغيرهم.

٢ ـ تشبيه المخلوق بالخالق : كما فعلت النصارى في عيسى عليه السلام وبعض طوائف المتصوفة في مشايخهم[5].

وقد وردت الآيات بنفي الثاني كقوله ﷻ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾الشورى : [١١] وقوله :﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ مريم : [٦٥] : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ النحل:[٧٤] وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ الإخلاص :[٤] وقوله : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة : [٢٢]

فما الحكمة في ذلك ؟

---

١ ـ انظر نقولات الترمذي السلفية في سننه : (١ / ١٢٨ ، ١٢٩) وانظر مختصر العلو : ص ٢١٨ .

٢ ـ وهم أتباع هشام بن الحكم الرافضي يقوم معتقدهم على التجسيم فيزعمون أن الله لحم ودم ولهم خرافات مختلفة . انظر الفصل : (٢ / ٢٦٩)

٣ ـ أتباع هشام بن سالم الجواليقي ، ويقال لهم هشامية ، أول من قال بالجسم وهو رافضي كذلك . انظر مقالات الإسلاميين : (١ / ١٠٩)

٤ ـ نسبة إلى داود الجواربي كان يقول : (أعفوني من الفرج واللحية واسألوني عما وراء ذلك) أي أنه يشبه الله بكل شيء ويسكت عن الفرج واللحية وكان رأسا في الرفض . انظر ميزان الاعتدال : (٢ / ٢٣) . والملل والنحل : ص ١٠٥ . فغالب فرق التشبيه من الرافضة .

٥ ـ انظر الملل والنحل : (١ / ٢٠٤) ، الجواب الصحيح : (٣ / ١٠٠)

الجواب لأمرين :

١ـ لأن هذا هو واقع المشركين ففيها إبطال لشركهم حيث سووا معبوداتهم بالله كما قال تعالى عنهم :﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾الشعراء : [٩٨]

٢ـ لأن نفي النوع الثاني مستلزم لنفي النوع الأول ؛ فإذا قيل : لا يشبهه أحد ، فلازمه أنه لا يشبه أحدا[2] ، والله أعلم .

● **ثالثا : التحريف :ـ** من الحرف وهو الطرف[3]، ويراد به التغيير والإمالة لكلام الله ﷻ لفظا ومعنى .

فالتحريف اللفظي : هو التغيير بزيادة أو نقص ليتوافق مع هوى المحرف ومذهبة .

والتحريف المعنوي : هو صرف اللفظ عن معناه الصحيح ، وهذا هو الأكثر وقوعا كتحريفات سائر فرق المبتدعة ، ومن ذلك تحريف المتكلمين لقوله ﷻ : ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ ﴾ بِيَدَيَّ: ص[٧٥] قالوا : بقدرتي . وستأتي مناقشتهم بإذن الله .

● **رابعا : التعطيل :** ـ مأخوذ من العطل وهوالخلو ، كما في قوله ﷻ : ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ الحج :[٤٥] أي خالية وقول الشاعر :

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش * إذا هي نصته ولا بمعطل[4]

أي خال من الزينة .

---

١ ـ مختصر الصواعق : (٢ / ١١١)

٢ ـ انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : (٣ / ١٠٠)

٣ ـ القاموس المحيط : (١٠٢٣)

٤ ـ بيت لامرئ القيس من معلقته المشهورة رقم : [٣٤] . انظر شرح المعلقات العشر . د. يحيى الشامي : ص ١٨

وفي الاصطلاح : جحد ما وصف الله به نفسه وإنكار قيامها بذاته وتجريده من صفات الكمال .

من خلال هذه التعريفات نجد أن هناك علاقة بين كل ممايلي :

● **أولا : بين التكييف والتمثيل :** ـ والصحيح فيهما أنهما متلازمان، فكل تمثيل تكييف بكيفية معينة ، وكل تكييف لايخرج عن التمثيل بالمشاهدات . وهذا القول مبني على أن وظيفة العقل التركيب ، فمهما تصور الإنسان كيفية شيء فلن يخرج عن المشاهدات . ومن قال إن العقل يخترع أشياء مغايرة للشاهد يجعل التكييف أعم لأنه يشمل التكييف بالموجودات وهو التمثيل والتكييف بما يغاير الموجودات ، فيكون أعم من التمثيل ، والله أعلم

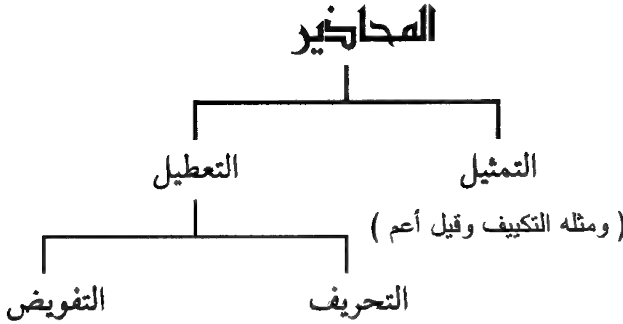
● **ثانيا : بين التعطيل والتحريف :** فالتعطيل أعم من التحريف فإنه نفي للمعنى الصحيح ، فإن أثبت معنى باطلا كان تحريفا ، وإن نفى الحق دون إثبات لمعنى آخر كان ذلك تفويضا .

فمثلا : من قال إن الاستواء لا يراد به العلو بل يراد به الاستيلاء كان معطلا محرفا ، ومن قال لا يراد به العلو والارتفاع ولا يعرف ماذا يراد به كان معطلا مفوضا .

إذن : فكل تحريف تعطيل وليس كل تعطيل تحريفا إذ قد يكون تفويضا.

فمن خلال ما سبق يمكن اختصار عبارة الشيخ بقولنا : (إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل) ويكون المعنى واحدا .

* ونوضح هذه المحاذير بالمخطط التالي .



قوله : ﴿مِنْ غَيْرِ إِلْحَادٍ﴾ : مأخوذ من اللحد وهو لغة الميل ومنه سمي الشق في جانب القبر لحدا ، لأنه مائل عن وسط الحفرة ، وسمي الملجأ ملتحدا لأن الإنسان يميل إليه كما في قوله ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾الكهف :[٢٧][1]

واصطلاحا : الميل عن الحق والصراط المستقيم علما وعملا ،وقد خصّه المصنفون في الملل والمقالات بالجحد للخالق ، فإذا قالوا : فلان ملحد أي منكر للخالق ، والمعنى اللغوي أعم من ذلك .

ولماذا ذكر الشيخ الإلحاد بعد تلك المحاذير ؟

الجواب : لأن الإلحاد يشمل جميع ذلك فكلها ميل عن الحق إلى الباطل . فالإلحاد يكون في الأسماء والصفات والآيات وبيان ذلك فيما يلي

● **أولا : الإلحاد في أسماء الله ﷻ** . ويكون بعدة أشياء منها[2] :

---

١ ـ بدائع الفوائد : (١ / ١٧٩)

٢ ـ بدائع الفوائد : (١ / ١٧٩ ، ١٨٠) وانظرأصول الدين عند الأمام أبي حنيفة لشخنا أ.د. محمد الخميّس : ص ٢٨٤ .

١ ـ تسمية المخلوق بها قال ﷺ :

((أخنع الأسماء عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك)) [1]

٢ ـ تجريد الأسماء عن معانيها . كمقالة المعتزلة : سميع بلا سمع وعليم بلا علم .

٣ ـ نفي أسماء الله وهو سبيل الجهمية ، ومن هذا قوله ﷻ : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ الرعد : [٣٠]

٤ ـ تسمية الله بما لم يسم به نفسه كتسمية النصارى له بالأب والفلاسفة بالعلة الفاعلة .

٥ ـ الاشتقاق منها كتسمية المشركين لآلهتهم ؛ فالعزى من العزيز ومناة من المنان [2] .

● **ثانيا : الإلحاد في صفات الله :** ويكون بأشياء تقدم شيء منها في الأسماء ، ويضاف :

١ ـ تحريف المعاني الظاهرة .

٢ ـ تفويض المعنى وإبطال دلالته .

٣ ـ تكييف الصفات .

٤ ـ إثبات صفات مماثلة في حقائقها للمخلوق [3] .

---

١ ـ أحمد : (٢ / ٢٤٤) ومسلم : (٦ / ١٧٤) وأبوداود : (٢ / ٣٠٩) عن أبي هريرة ﷺ .

٢ ـ قاله جماعة من المفسرين عند قوله ﷻ : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ انظر تفسير الطبري : (١٧ / ٩٠) والبغوي : (٧ / ٤٠٧) وابن كثير : (٤ / ٢٧١) وزاد المسير : (٧ / ٢٣١)

٣ ـ راجع ما سبق في التكييف والتمثيل .

● **ثالثا: الإلحاد في آيات الله ﷻ** : وآيات الله ﷻ قسمان:

١ ـ آيات شرعية قرآنية .

٢ ـ آيات كونية عيانية .

أما الإلحاد في آيات الله الشرعية القرآنية فيقع بأمور :

١ ـ تكذيب ورودها .

٢ ـ تحريفها عن معانيها .

٣ ـ الاستهزاء بها .

٤ ـ تفويضها ، أي ادعاء أنه ليس لها معنى .

وأما الإلحاد في آيات الله الكونية العيانية فيقع بأمور :

١ ـ تعطيلها عن خالقها كقول الدهرية .

٢ ـ نفي الحكمة من وجودها .

٣ ـ القول بأنها حادثة بغير مشيئة [1] .

وقد ور لفظ الإلحاد في ثلاثة مواضع من القرآن موضعين منها في ذم الأنواع السابقة وهما :

١ ـ قوله ﷻ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ الأعراف : [١٨٠]

٢ ـ قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ ﴾ فصلت٤٠

١ ـ انظر ماسبق في شرح الشيخ البراك ومذكرات الدكتور الخميّس .

٣ـ أما الموضع الثالث ففي قوله ﷻ : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ الحج : [٢٥]

خصائص طريقة السلف :

قوله « فَطَرِيقَتُهُمْ تَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مَعَ نَفْيِ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ : إِثْبَاتًا بِلَا تَشْبِيهٍ وَتَنْزِيهًا بِلَا تَعْطِيلٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾. فَفِي قَوْلِهِ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ رَدٌّ لِلتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾. رَدٌّ لِلْإِلْحَادِ وَالتَّعْطِيلِ . »

التوضيح :

يتابع شيخ الإسلام بيان طريقة السلف فيقول : إنها إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل كما جمع ذلك ربنا الجليل في محكم التنزيل حيث قال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى :[١١]

فالجملة الأولى رد للتمثيل والثانية رد للإلحاد والتعطيل — **وتتميز طريقة السلف عن غيرها بخصائص كثيرة منها :ـ**

١ ـ أنها مستمدة من الكتاب والسنة كما سبق .

٢ ـ أنها مؤيدة بالعقل والفطرة فلا تعارض بين صحيح المنقول وصريح الفطرة والمعقول .

٣ ـ أنها وسط بين الإفراط والتفريط والتمثيل والتعطيل ؛ فالمشبهة أفرطوا في الإثبات وفرّطوا في التنزيه ، والمعطلة أفطروا في التنزيه وفرّطوا في الإثبات ، فكانت طريقة السلف لبناً سائغاً من بين دم التشبيه وفرث التعطيل .

٤ ـ أنها اصح المذاهب وأسلمها من التناقض وأحكمها تأصيلا واستلالا

٥ ـ أنها خلت من جميع المعاني الباطلة وهي التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل والإلحاد .[1]

أصول النفي والإثبات عند السلف

قوله : « وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ : بَعَثَ رُسُلَهُ بِإِثْبَاتٍ مُفَصَّلٍ وَنَفْيٍ مُجْمَلٍ فَأَثْبَتُوا لِلَّهِ الصِّفَاتِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَنَفَوْا عَنْهُ مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ مِنْ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أَيْ نَظِيرًا يَسْتَحِقُّ مِثْلَ اسْمِهِ وَيُقَالُ : مُسَامِيًا يُسَامِيهِ ، وَهَذَا مَعْنَى مَا يُرْوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ مِثْلًا أَوْ شَبِيهًا وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ

[1] ـ مستفادة مما ألقاه أ.د. الخميّس من محاضرات . و انظر شرح الشيخ البراك .

سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾وقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾وقال تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ إلى قوله : ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾فسبَّح نفسهُ عمَّا يصفهُ المفترون المشركون وسلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من الإفك والشرك وحمد نفسهُ ؛ إذ هو سبحانه المستحقُّ للحمد بما له من الأسماء والصفات وبديع المخلوقات .

وأمَّا الإثباتُ المفصَّلُ : فإنَّهُ ذكرَ من أسمائه وصفاته ما أنزلَهُ في مُحكمِ آياته كقوله ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ .. الآية﴾ وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾السورة ﴾وقوله : ﴿وهو العليم الحكيم﴾ ، ﴿ وهو العليم القدير ﴾ ، ﴿وهو السميع البصير ﴾ ، ﴿وهو العزيز الحكيم ﴾ ، ﴿وهو الغفور الرحيم ﴾ ، ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ ، ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ

وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ » وقوله :« ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ »وقوله : « فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ » وقوله : « رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ » وقوله : « وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ » وقوله : « إِنَّ ﴿٩﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ »وقوله : « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ » وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُوقوله : « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ »وقوله : « وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا » ﴿١٦٤﴾وقوله :« وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا » ﴿٥٢﴾وقوله : « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » ﴿٦٢﴾وقوله : « إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » ﴿٨٢﴾ وقوله : « ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ هُوَ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ

الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٩﴾ ﴾ إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ عَنْ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلمِ فِي أَسْمَاءِ الرَّبِّ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مِنْ إِثْبَات ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَإِثْبَاتِ وَحْدَانِيَّتِهِ يَنفي المَثِيلِ مَا هَدَى اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ فَهَذِهِ طَرِيقَةُ الرُّسُلِ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

التوضيح

- إن طريقة القرآن التي جاءت بها الرسل واتبعها السلف هي الإثبات المفصّل أي المعين والمخصص في كل صفة كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى: [١١] وَهُوَ ﴿ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ التحريم: [٢] والنفي المجمل وهو العام المطلق كقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ الشورى: [١١].

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ الإخلاص: [٤].

- وقد يأتي العكس قليلاً فيأتي الإثبات مجملاً كقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف: [١٨٠] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ النحل: [٦٠] والنفي مفصّلاً كقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ ﴾الإخلاص: [٣] لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ البقرة: [٢٥٥].

ولكن الإجمال في النفي أبلغ في التعظيم لذلك فهو الأكثر وإنما يفصل النفي لأسباب منها[١]:

١ ـــ تقريب التدمرية: ص ١٨.

١ ـ نفي ما ادّعاه الكاذبون في حقه ﷻ كقوله ﷻ : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾المؤمنون :[٩١]

٢ ـ دفع توهم نقص في كماله كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ق : [٣٨] أي إعياء وتعب ، لأنه بعد خلقها قد يتوهم التعب فدفع ذلك التوهم .

٣ ـ كون الصفة كمالا عند المخلوق فيتوهم كمالها في حقه تعالى فينفيها كقوله ﷻ: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ ﴾الإخلاص : [٣]

بيان ماذكره الشيخ من الآيات الدالة على النفي المجمل والإثبات المفصل مع بيان الشاهد في كل آية ووجه الاستشهاد :

أولا : آيات النفي المجمل :

	الآيات	الشاهد ووجهه
١	﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ مريم ﴿ ٦٥ ﴾ أي نظيرا يستحق مثل اسمه وقال ابن عباس ﷺ : (مثلا أو شبيها)[1]	فيها استفهام إنكاري وهو نفي مجمل
٢	﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ ﴿٣﴾ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ الإخلاص : ﴿ ٣ ، ٤ ﴾ مكافئا ومثيلا	النفي المجمل في قوله : ﴿ لم يكن له كفوا أحد ﴾ وما قبلها مفصل كما سبق .
٣	﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ البقرة : ﴿ ٢٢ ﴾ والندّ هو الشبيه والنظير	النهي عن الأنداد متضمن لنفيها وهو مجمل

---

١ ـ الأثر رواه ابن جرير : (١٦ / ٨٠) والبيهقي في الشعب :(١/ ١٤٣) وأشار صاحب الأجوبة إلى انقطاع سنده : ص٢٤. وحسنه أ.د حكمت بشير في التفسير الصحيح :(٣/ ٣٤٥)

	تابع : الآيات	الشاهد ووجهه
٤	: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ البقرة : ﴿ ١٦٥ ﴾	الدلالة على نفي الأنداد من دلالة العبارة ولم يصرح بها لكنها مفهومة من الإنكار عليهم
٥	﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ الأنعام : ١٠٠ ، ١٠١	فيها شواهد : ١ ـ نفي الشركاء بدلالة العبارة كما سبق . ٢ـسبحانه : تنزيه عن النقائص ففيه معنى النفي المجمل ٣ ـ تعالى : تقدس وتعاظم عن النقائص فهو متضمن للنفي المجمل بمفهومه .
٦	﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ الفرقان : ١ ، ٢	فيهما شاهدان : ١ ـ تبارك : تعاظم ، فهو متضمن لنفي النقائص بمفهومه . ٢ ـ ولم يكن له شريك : نفي مجمل .
٧	: فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴿ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ..إلى قوله سبحانه : سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾الصافات : ﴿ ١٤٩ ـ ١٥٩ ﴾	سبحان الله : تنزيه عن جميع النقائص
٨	سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ الصافات : ١٨٠ ـ ١٨٢	سبحان ربك : فيه نفي مجمل كما سبق .

ثانيا : آيات الإثبات المفصّل :ـ

	الآيات	الشاهد
١	﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ البقرة : ٢٥٥	الحيّ ، القيوم .
٢	﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ الإخلاص٤	الأحد ، الصمد .
٣و٤	﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ـ التحريم : ﴿ ٢ ﴾ ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ـ الروم : ﴿ ٥٤ ﴾	العليم ، الحكيم ، القدير
٥و٦	: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ الشورى :[١١] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إبراهيم :﴿ ٤ ﴾	السميع ، البصير ، العزيز ، الحكيم
٧و٨	﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ يونس :﴿١٠٧﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴾ البروج :﴿ ١٤ ـ ١٦ ﴾	الغفور ، الرحيم ، الودود.
٩	﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ فَعَّالٌ ۝١٥ لِّمَا يُرِيدُ﴾ البروج١٦	المجيد ، الفعّال لما يريد
١٠	﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ الحديد : ﴿ ٣ ، ٤ ﴾	الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، العليم .
١١	﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤ ﴾الحديد ﴿ ٣، ٤ ﴾	الخالق ، استوى على العرش ، العليم ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير .
١٢	﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ محمد : ﴿ ٢٨ ﴾	إثبات السخط ، والكره لله ﷻ .

	تابع : الآيات	الشاهد
١٣	﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ـ المائدة : ﴿ ٥٤ ﴾	إثبات صفة المحبة لله ﷻ
١٤	﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ البينة : ﴿ ٨ ﴾	إثبات صفة الرضى لله
١٥	﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾النساء :٩٣	إثبات صفة الغضب لله تعالى
١٦	﴿ إِنَّ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ ﴾ غافر : ﴿ ١٠ ﴾	إثبات صفة المقت لله تعالى . والمقت هو البغض الشديد .
١٧	هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ البقرة : ﴿ ٢١٠ ﴾	إثبات إتيان الله ﷻ يوم القيامة .
١٨	﴿ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ فصلت:﴿١١﴾ ملاحظة : الاستواء هنا بمعنى القصد لأنه لم يتعد بعلى وإنما بإلى على الراجح .[1]	إثبات القول والكلام لله ﷻ.
١٩	﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ النساء : ﴿ ١٦٤ ﴾	إثبات صفة الكلام لله ﷻ .
٢٠	﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾مريم : ﴿ ٥٢ ﴾	إثبات المناداة والمناجاة وفيها إثبات الصوت في كلام الله ﷻ فالمناداة للبعيد والمناجاة للقريب .

١ ـ انظر تفسير ابن كثير : (١ / ٧١)

	تابع : الآيات	الشاهد
٢١	﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ القصص : ﴿ ٦٢ ﴾	إثبات المناداة والقول لله ﷻ .
٢٢	﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يس : ﴿ ٨٢ ﴾	إثبات الإرادة ، والكلام لله ﷻ .
٢٣	: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ إلى آخر السورة الحشر : ﴿ ٢٢ ـ ٢٤ ﴾	عالم الغيب والشهادة ، الرحمن ، الرحيم الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ،المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، العزيز ، الحكيم .

ـ وأمثالها كثير في القرآن ، وبناء عليه كان للسلف أصول في النفي والإثبات[١]

فأولا : أصول السلف في الإثبات :

١ ـ أنه متلقى من الوحي .

٢ ـ أنه إثبات بلا تمثيل .

٣ ـ أن الكيف مجهول عندهم ، و إن كان للصفات كيفية إلا أننا نجهلها لقصورنا ويعلمها الله لكمال علمه ﷻ . فإنهم قالوا : الكيف مجهول ولم يقولوا : إنه غير موجود أو محال أن يكون لصفاته كيف .

---

١ ـ انظر أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة : ص ٢٨٧ ـ ٢٩٧ لشيخنا أ.د. محمد بن عبد الرحمن الخميس .

٤ ـ أن المعاني المثبتة كلها معلومة .

٥ ـ أن الأصل في إثباتهم التفصيل كما في القرآن .

٦ ـ إثبات الكمال المطلق في صفات الله تعالى.

٧ ـ استخدام المثل الأعلى في حق الله ﷻ كما سيأتي مفصلا بإذن الله تعالى عند الكلام عن الأقيسة في حق الله تبارك وتعالى .

٨ ـ إثباتها على وجه الحسن والجمال ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ الأعراف :[١٨٠]

ثانيا : أصولهم في النفي :

١ ـ أن النفي متلقى من الوحي ضمنا أو تصريحا ، كما سيأتي في القاعدة السادسة .

٢ـ أن الأصل فيه الإجمال على وفق النصوص إلا ماسبق استثناؤه.

٣ ـ أن النفي متضمن لإثبات كمال الضد ففي قوله ﷻ : وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ الكهف :[٤٩] نفي الظلم فيه إثبات لكمال عدله وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ ﴿٤٤﴾ فاطر :[٤٤] نفي العجز فيه إثبات لكمال قدرته ﷻ ، وهكذا

٤ ـ أنه يتضمن تنزيها بلا تعطيل .

٥ ـ أن النفي نوعان : متصل كنفي الجهل والعجز والنوم ، ومنفصل كنفي الولد والصاحبة والشريك . فالمراد بالمتصل نفي النقائص عن ذات الله ﷻ . والمراد بالمنفصل نفي ما يضاد كماله من الخارج[1] .

---

١ ـ انظر ماسبق في مذكرات الشيخ البراك حفظه الله تعالى .

طريقة المخالفين للرسل

قوله : « . وَأَمَّا مَنْ زَاغَ وَحَادَ عَنْ سَبِيلِهِمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَمَنْ دَخَلَ فِي هَؤُلَاءِ مِنْ الصَّابِئَةِ والمتفلسفة وَالْجَهْمِيَّةِ وَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ : فَإِنَّهُمْ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ»

التوضيح :

بعد أن بين الشيخ طريقة أهل الحق من الرسل ـ عليهم السلام ـ وأتباعهم بدأ ببيان طريقة المخالفين لهم كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ الأنعام :[٥٥] فذكر منها سبع طوائف يدور انحرافهم بين التعطيل والتمثيل.

(١) الكفار :

وأصل الكفر في اللغة التغطية ومنه سمي المزارع كافرا لتغطيته الحب في الأرض كما في قوله تعالى :﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ الحديد:[٢٠].

والكفار كلمة جامعة تشمل كل من لم يسلم كالمشركين وأهل الكتاب والمجوس وغيرهم ، ولكن لما عطف المؤلف بعض هذه الطوائف على الكفار دل على المغايرة ، فيكون معنى الكفر هنا : التكذيب بالله ورسله والاستكبار عنهم وإنكار اليوم الآخر . وزيغهم في هذا الباب جحدهم لصفات ربهم كما قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ الرعد :[٣٠] .

(٢) المشركون :

الشرك هو مساواة غير الله بالله فيما هو من خصائص الله ﷻ وصرف بعض أنواع العبادة لغير الله .

وزيغهم في هذا الباب وقوعهم في التمثيل كما قال ﷻ: ﴿ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء : [٩٨] وإن كان الشرك أعظم أنواع التمثيل .

(٣) الذين أوتوا الكتاب :

وهم اليهود والنصارى . وزيغ اليهود وقوع بعضهم في التشبيه وبعضهم في التعطيل . و زيغ النصارى وقوعهم في التشبيه .

(٤) الصابئة :

من الصبوة ، يقال صبا الرجل إذا مال ، واختلف الناس في الصابئة على أقوال :

١ ـ فقيل هم كل من خالف دين آبائه ، وهذا عند العرب.

٢ ـ وقيل : كل من ينكر الصانع وهذا عند المصنفين في الملل والمذاهب

٣ ـ وقيل : عباد الملائكة .

٤ ـ وقيل : عباد الكواكب وهم قوم إبراهيم .

٥ ـ وقال شيخ الإسلام وغيره : الصابئة نوعان : حنفاء موحدون ، ومشركون .

وهذا ـ والله أعلم ـ هو أصح الأقوال ، فقد ذكرت الصابئة في القرآن في ثلاثة مواضع منها على وجه الوعد والعطف على المؤمنين كما في البقرة[1]

---

١ ـ البقرة : ﴿ ٦٢ ﴾ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾

والمائدة [١]، والموضع الثالث في الحج [٢] مما يدل على أن فيهم موحدين ومشركين [٣] وكلام الشيخ هنا عن الصابئة المشركين الذين زاغوا في هذا الباب بوقوعهم في التمثيل .

(٥) المتفلسفة :

أصل الفلسفة بلسان اليونان هي محبة الحكمة ، ويقصد بالمتفلسفة من دخلوا في الفلسفة من أهل الإسلام ، لأن الفلاسفة قسمان : دهريون ملحدون ، وإلاهيون وهم المقصودون كالفارابي [٤] وابن سينا [٥] وكل من حاول الجمع بين الفلسفة والشرع فهو متفلسف [٦] .

(٦) الجهمية :

وهم أتباع جهم بن صفوان السمرقندي الضال الذي أخذ مقالته في التعطيل عن الجعد بن درهم عن أبان بن سمعان عن طالوت عن لبيد بن أعصم الساحر اليهودي . وقد أطلق السلف هذا اللقب على كل من عطل الصفات أوبعضها

---

١ ـ المائدة : ﴿ ٦٩ ﴾ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

٢ ـ الحج : ﴿ ١٧ ﴾ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

٣ ـ الرد على المنطقيين : ص ٢٨٨ . وانظرالملل والنحل : (٢ / ٧٠) والتحفة المهدية : ص ٤٣ . وانظر حاشية تحقيق التدمرية للدكتور السعوي : ص ١٣ ومابعدها .

٤ ـ هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان التركي . ولد سنة ٢٦٠ وحكم عليه بالزندقة والإلحاد . من أول من اهتم بفلسفة أرسطو . انظر السير : (١٥ / ٤١٦) ، البداية والنهاية : (١١ / ٢٣٨) .

٥ ـ هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البلخي البخاري . قال الذهبي : (ما أعلمه روى شيئا من العلم ، ولو روى لما حلت الرواية عنه لأن فلسفي النحلة ضال) . وكان باطنيا . انظر السير : (١٧ / ٥٣١)

٦ ـ انظرالفصل : (١ / ٩٤) ، الملل والنحل : (٢ / ١٥٥)

كالعلو والنزول والاستواء ،ثـم اختـص هـذا الاسـم بمـن جمـع بـين نفـي الأسمـاء والصفات وقال بالإرجاء والجبر[1] .

(٧) القرامطة الباطنية :

القرامطة نسبة إلى حمدان بن قرمط . وسموا بالباطنية لزعمـهم أن للنصـوص ظاهرا عند العامة وباطنا عند الخاصة . ولهم تحريفات شنيعة وانحرافات فظيعة ، كما سيأتي .ومن الباطنية المعاصرة : الـدروز والنصيريـة والإسماعليـة وغـلاة الرافضـة وغلاة المتصوفة ومنهم البُهرة والبابيـة والبهائيـة الجـامعون بـين الرفـض والتصـوف والحلول والغلو والإلحاد[2] .

قوله : ﴿ وَنَحْوِهِمْ : فَإِنَّهُمْ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ ﴾

أي ونحو هذه الطوائف فإنهم على ضد طريقة الرسل ، ومعرفـة الضـد تزيـد الحق وضوحا فإن العافيـة تـاج علـى رؤوس الأصحـاء لايستشـعر قيمتـها إلا مـن أصيب بداء . وكما قيل :

ونذيمهم وبـهم عرفنـا فضلـه * وبضدهـا تتبـين الأشـياء[3]

تفصيل طرق المخالفين للرسل :

قوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ يَصِفُونَهُ بِالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَلَا يُثْبِتُونَ إِلَّا وُجُودًا مُطْلَقًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ عِنْدَ التَّحْصِيلِ وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى وُجُودٍ فِي الْأَذْهَانِ يَمْتَنِعُ

---

١ ـ الملل والنحل : (١ / ١١٩) ، منهاج السنة : (١ / ٣٤٤) . الفرق بين الفرق : ص ١٥٨ .

٢ ـ انظر الفرق بين الفرق : ص ٢١٣ . الملـل والنحـل : (٢ / ٢٩) . التنبيـه والـرد للملطي : ص ٢٠ . وانظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة :(١/ ٤١٢)

٣ ـ التحفة المهدية : ص ٣١٢ ، وذكر صدر البيت (والضد يظهر حسنه الضد ـ وبضدها تتبين الأشياء) والصـواب ما أثبته . وانظر تحقيقة في شرح مسائل الجاهلية للسعيد : (١ / ٨١) .

تَحَقُّقُهُ فِي الْأَعْيَانِ فَقَوْلُهُمْ يَسْتَلْزِمُ غَايَةَ التَّعْطِيلِ وَغَايَةَ التَّمْثِيلِ ؛ فَإِنَّهُمْ يُمَثِّلُونَهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ ؛ وَيُعَطِّلُونَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ تَعْطِيلًا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الذَّاتِ .

التوضيح :

أي فهذه الفرق تخالف طريقة الرسل من وجوه :

١ـ أنهم لا يصفونه إلا بالصفات السلبية والمقصود بها المنفية عن الله نفيا لا يتضمّن إثبات كمال الضد بل هو نفي محض ؛ فيقولون مثلا : لا داخل العالم ولا خارجه ولا جسم ولا جوهر ولا عرض .. أما طريقة الرسل الكرام فهي الوصف بصفات الإثبات ، أما النفي فهو لإثبات كمال الضد كما سبق .

٢ ـ أنهم يفصلون في النفي ولا يجملون . بينما طريقة الرسل الإجمال في النفي ولا يأتي التفصيل إلا لأسباب كما سبق بيانه .

٣ ـ أنهم لا يثبتون إلا وجودا مطلقا والوجود المطلق هو الوجود العام الكلي الذي يصدق على كثيرين في الذهن فإذا وجد في الخارج كان مقيدا خاصا بمن أضيف إليه . فلايكون الوجود المطلق المشترك إلا في الذهن ولذلك يقول الشيخ : (لاحقيقة له عند التحصيل) . أي وعند التحقيق والتمحيص لا يوجد هذا الإطلاق في الخارج وإنما هو في الذهن فقط.

فقول هؤلاء المخالفين لطريقة الرسل يستلزم لازمين من أفسد اللوازم :

أحدهما : غاية التعطيل . لأنهم بقولهم هذا نفوا وجود ذاته تعالى فلا حقيقة للوجود المطلق في الخارج .و الآخر : غاية التمثيل . لانهم إذا نفوا وجوده شبهوه بالمعدومات ، وإذا نفوا وجوده وعدمه معا شبهوه بالممتنعات إذ نفي النقيضين وهما الوجود والعدم نفيهما معا ممتنع في ضرورات العقول ، وإذا نفوا بعض الصفات كالعلم والحياة والكلام شبهوه بالجمادات . فأمرهم دائر بين تشبيه ربهم بالمعدوم أو

الممتنع أو الجماد .

فهذه اللوازم الثلاثة أي التشبيه بالممتنعات أو المعدومات أو الجمادات لا تلزم جميع الفرق بل كل بحسب مدى تعطيله وإنما جمعها الشيخ لأنها تلزم مجموعها لا آحادها والمقام هنا مقام إجمال لا تفصيل .

مصطلحات لابد منها :

قبل الشروع في تفصيلات الفرق وشبهاتهم لا بد من توضيح بعض المصطلحات المستعملة تقريبا للفهم :

أولا : الوجود :

وهو قسمان واجب وممكن .

أ ـ الوجود الواجب : وهو ما لم يسبق بعدم ولا يلحقه فناء (ولا يفتقر إلى غيره في الإيجاد) وهو وجود الله ﷻ .

ب ـ الوجود الممكن : وهو ما جاز عليه العدم (وافتقر إلى غيره في الإيجاد) وهو وجود المخلوقات جميعها .

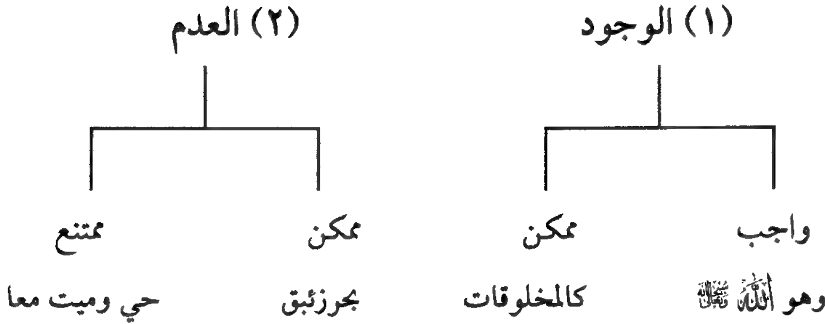
ثانيا :العدم :

وهو قسمان أيضا ممكن وممتنع .

أ ـ المعدوم الممكن : و هو المعدوم الذي وجوده ممكن مثل كل المخلوقات قبل وجودها كالغراب الأخضر وبحر الزئبق فهذه معدومة لكنها غير مستحيلة الوجود ولا واجبة الوجود .

ب ـ المعدوم الممتنع : وهو المعدوم الذي يستحيل وجوده كاجتماع الضدين كالبياض والسواد وارتفاع النقيضين كالوجود والعدم .

ـ ونوضح هذه المصطلحات بالشكل الآتي :



ثالثا: العلاقات بين الأشياء :

عند ملاحظة نسبة شيئين أحدهما إلى الآخر نجد أن العلاقات تنحصر في أربع علاقات : إما مساواة أو مباينة أو عموم وخصوص من وجه ـ كما سبق في الحمد والشكر ـ أو عموم وخصوص مطلق ـ كما سبق في التعطيل والتحريف . والذي يهمنا هنا التباين . وهو قسمان :

أ ـ تباين مخالفة (التخالف) : كالحجر والسواد فلا علاقة بينهما بل هما مختلفان تماما فقد يرتفعان كما في الورقة الصفراء وقد يجتمعان كما في الحجر الأسود .

ب ـ تباين مقابلة (التقابل) : أي كون الشيئين متباينين وبينهما منافاة

والتقابل أربعة أنواع [1] :

١ ـ تقابل النقيضين : والنقيضان هما الأمران اللذان أحدهما وجودي والآخر عدمي ويستحيل اجتماعهما ويستحيل ارتفاعهما فأحدهما لابد أن يكون متحققا . كالوجود والعدم فزيد محال أن يكون موجودا معدوما ويستحيل أن يكون لا موجودا ولامعدوما .

١ ـ وسيناقش شيخ الإسلام هذا التقسيم في القاعدة السابعة .

٢ ـ تقابل الضدين : والضدان هما الأمران الوجوديان اللذان لا يمكن اجتماعهما معا ويمكن ارتفاعهما معا . كالسواد والبياض فلا يمكن أن تكون الورقة سوداء بيضاء ويمكن أن تكون صفراء مثلا.

٣ ـ تقابل المتضايفين : والمتضايفان اللذان لايوجد أحدهما إلا مع الآخر كوصف الأبوة والبنوة فلا يكون أسامة ابنا لزيد حتى يكون زيد أبا لأسامة والعكس صحيح ، وهكذا وصف القبلية والبعدية[١] .

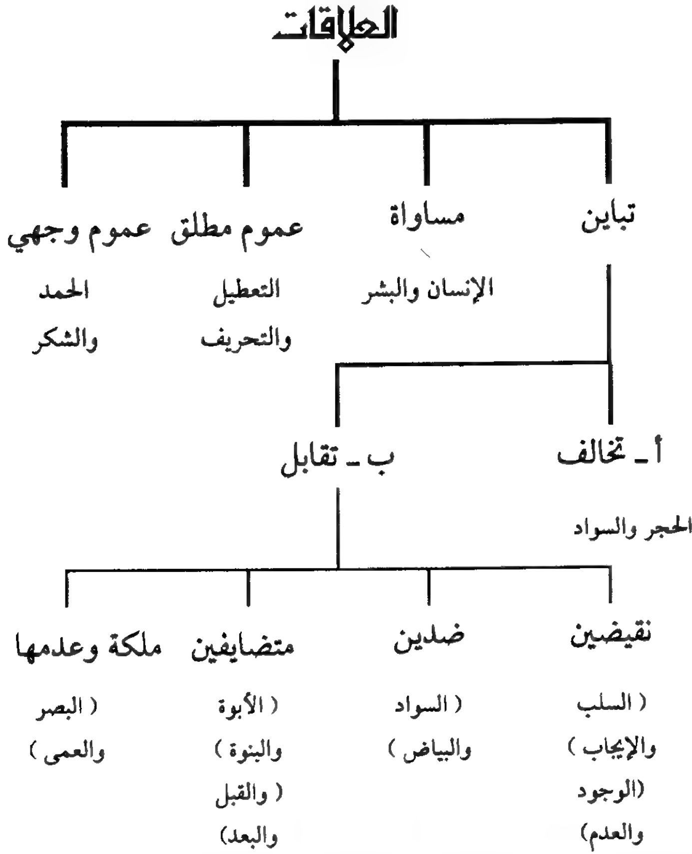
٤ـ تقابل الملكة والعدم : وهو التقابل بين وصفين أحدها وجودي والآخر عدمي فلا يجتمعان ولايرتفعان في المحل الذي من شأنه أن يتصف به كالعمى والبصر في الإنسان فإن لديه ملكة الإبصار ولا يكون الإنسان إلا أعمى أو بصيرا. بينما لا يوصف فاقد الملكة كالحجر مثلا بأحدهما فالملكة هي البصر والعدم هو العمى.

والفرق بين تقابل النقيضين و تقابل الملكة والعدم شمول النقيضين لكل الأشياء فلا يخلو أمر من وجود أو عدم مثلا بينما يختص تقابل المللكة والعدم بمحل معين قابل للملكة فإذا ارتفع قبول المحل ارتفع المتقابلان كالجدار مثلا لايوصف بالبكم أو الكلام لأنه غير قابل لهما .

نوضح العلاقات بالشكل التالي :

---

١ ـ للمزيد انظر آداب البحث والمناظرة للشنقيطي : (١ / ٣١)



أولا : مذاهب الغلاة الباطنية :

قوله : ﴿فغلاتهم يسلبون عنه النقيضين فيقولون : لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ولا عالم ولا جاهل لأنهم يزعمون أنهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات فسلبوا النقيضين وهذا ممتنع في بداهة العقول ؛ وحرفوا ما أنزل الله من الكتاب وما جاء به الرسول فوقعوا في شر مما فروا منه فإنهم شبهوه بالممتنعات إذ سلب النقيضين كجمع النقيضين كلاهما من الممتنعات وقد علم بالاضطرار

أن الوجود لا بد له من موجد واجب بذاته غني عما سواه ؛ قديم أزلي ؛ لا يجوز عليه الحدوث ولا العدم فوصفوه بما يمتنع وجوده فضلا عن الوجوب أو الوجود أو القدم .

التوضيح :

فأشد هذه الفرق المنتسبة إلى الإسلام غلوا هم الباطنية وسبق التعريف بهم ويتلخص الكلام عنهم فيما يلي .

أولا : مذهبهم في الصفات :

نفي النقيضين ـ وقد سبق بيان معنى النقيضين ـ فيقولون : لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ولا عالم ولاجاهل . والصحيح أن التقابل بين الحياة والموت والعلم والجهل تقابل النقيضين ـ كماسيأتي تفصيله ـ خلافا للمتكلمين فإنهم يزعمون أن التقابل بينهما من قبيل الملكة وعدمها وبالتالي فيشترطون في الموصوف بها أن يكون محلا شأنه الاتصاف بها كتقابل العمى والبصر عندهم .[١]

ثانيا : شبهتهم :

زعموا أن وصفه بالإثبات تشبيه له بالموجودات ووصفه بالنفي تشبيه له بالمعدومات ، فلذلك رفعوا السلب والإيجاب أي النفي والإثبات .

---

١ ـ ويظهر لي أن هذه الشبهة من تأسيسات المريسي ثم تبعه الباطنية ومن وافقهم من المتكلمين ؛ فإنه قال في مناظرة عبد العزيز المكي حينما سأله عن علم الله : (قال : أقول لا يجهل) وجوابه هذا دليل على أن عدم الجهل عنده ليس هو العلم لأنه ينفي الأمرين ولكنه لم يصرح بنفي العلم حتى لا يفقد أتباعه ، والله أعلم . انظر الحيدة ص : ٥٥ . وتحقيق نسبتها للدكتور علي الفقيهي .

ثالثا : الرد عليهم من وجوه :

١ ـ أن نفي النقيضين ممتنع في بدائه العقول[1] ، أي يحكم العقل بامتناعه من أول وهلة دون نظر أو استدلال .

٢ ـ أن مذهبهم هذا تحريف لما أنزل الله من الكتاب ولما جاءت به الرسل في هذا الباب . وقد سبق سرد الآيات في الإثبات للأسماء والصفات وفي النفي لما لا يليق به ﷻ من أضداد الكمالات .

٣ ـ أنهم وقعوا في شر مما فروا منه ، فإنهم فروا من تشبيهه بالموجودات والمعدومات فوقعوا في تشبيهه بالممتنعات التي يستحيل وجودها أصلا ، فإن رفع النقيضين معا ممتنع كاجتماعهما عند عامة العقلاء ، فكما أنه لا يمكن أن يكون الشيء موجودا معدوما في آن واحد فكذلك لا يمكن أن يكون غير موجود وغير معدوم في آن واحد ، بل لابد أن يكون إما موجودا وإما معدوما .

٤ ـ ثم إنه قد علم بالإضطرار ـ أي بالعلم الضروري الذي يجده الإنسان من نفسه كما يجد الجوع والعطش[2] ـ علم أن جميع الموجودات لا بد لها من موجد واجب بذاته لا بغيره لا يقبل الحدوث والعدم غني عما سواه قديم أزلي ، وفي هذا إثبات لموجود موصوف بالصفات وهي الوجوب والغني والأولية .

٥ ـ ويظهر مدى انحرافهم أنهم (وصفوه بما يمتنع وجوده فضلا عن الوجوب أو الوجود أو القدم) وترتيب هذه العبارة من الامتناع إلى الوجوب كما يلي :

١) الامتناع ← ٢) مجرد الوجود ← ٣) القدم ← ٤) الوجوب ، لأن الامتناع لا يتحقق وجوده ، ثم الوجود منه الممكن ومنه الواجب ، ثم القديم

---

١ ـ عرفه الجرجاني في التعريفات ص ٤٤ ثم مثل له بقوله : (كالتصديق بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان) فتأمل ذلك .

٢ ـ انظر التعريفات للجرجاني : ص ١٥٥ .

منه النسبي كالتقدم بين المخلوقات ومنه المطلق وهو الوجوب الذي لا يصدق إلا على علام الغيوب ﷻ .

فائدتان في قوله « قديم أزلي » :

١) القديم هو المتقدم على غيره وهو نوعان :

أ ـ تقدم أزلي :و هو مالا نهاية له في الماضي وهو القدم المطلق ولا يصح إلا لله تعالى .

ب ـ تقدم نسبي :و هو التقدم بين المخلوقات بالنسبة إلى بعضها كما قال ﷻ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ ﴾يس : [٣٩]

فالقديم أعم من الأزلي لأنه يشمل الأزلي والنسبي فلذلك قيد القديم بالأزلي[١] .

٢) اختلف العلماء[٢] في إطلاق القديم على الله ﷻ . ورجح المحققون[٣] أنه من باب الإخبار عن الله ﷿ وليس من أسمائه الحسنى ، كما يقال واجب الوجود وشيء وقائم بنفسه وغير ذلك فهو خبر وليس اسما .

ـ أما قوله ﷺ : ((أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم))[٤] فلا يدل على التسمية لأنه لم يطلق عليه تعالى وإنما يدل على الإخبار كما سبق .

ـ والإخبار أن يخبر عن الله تعالى بألفاظ وإن لم تكن واردة إن دلت على معنى صحيح ولا يتعبد باللفظ . وأما الأسماء الحسنى فهي التي بلغت في الحسن

---

١ ـ قارن بمذكرات د. الخميس وانظر شرح الشيخ البراك .

٢ ـ الاعتقاد : ص ٦٨ . لوامع الأنوار : (١ / ٣٨) . منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات : ص٢٠ .

٣ ـ الفتاوى : (٩ / ٣٠٠) . بدائع الفوائد : (١ / ١٦٢) . شرح الطحاوية : ص ٧٧ . وانظر تعليق الشيخ عبد الله بابطين على السفارينية : (١ / ٣٨) ، وتعليق الشيخ ابن باز على الطحاوية : ص ٥ رقم : [٥] ، و الشيخ الألباني كذلك : ص ١٩ .

٤ ـ أخرجه أبو داود : [٤٦٦] وحسنه الحافظ والنووي في الأذكار : [٦٩] وصححه الألباني كما في صحيح أبي داود : [٤٤١] عن عبد الله بن عمرو ﷺ.

غايتها فهي كمال مطلق يتعبد بألفاظها ومعانيها ، فباب الأخبار أوسع من باب الأسماء[1] .

ثانيا : مذهب الفلاسفة وأتباعهم

قوله : ﴿ وقاربهم طائفة من الفلاسفة وأتباعهم فوصفوه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا في الذهن لا فيما خرج عنه من الموجودات وجعلوا الصفة هي الموصوف ، فجعلوا العلم عين العالم مكابرة للقضايا البديهات وجعلوا هذه الصفة هي الأخرى فلم يميزوا بين العلم والقدرة والمشيئة جحدا للعلوم الضروريات﴾

التوضيح :

قارب أولئك الباطنية طائفة من الفلاسفة والمقصود بهم الفلاسفة الإلهيين ومن تبعهم من المتكلمين . والكلام عنهم في ثلاث نقاط كمايلي:

أولا : مذهبهم في هذا الباب :

١) وصفوه ﷻ بالسلوب والإضافات .

أما السلوب أي الصفات السلبية وهي :الصفات التي تدل على النفي المحض أي سلب ما لا يليق بالله دون الدلالة على معنى قائم به . كقولهم (موجود) أي مسلوب عنه العدم ، وقولهم : (واحد) أي مسلوب عنه القسمة والشركة[2] .

---

١ ـ بدائع الفوائد : (١ / ١٦٢)

٢ ـ شرح الجوهرة : (١ / ٤١٠)

وأما الإضافات فهي الصفات الإضافية وهي صفات اعتبارية لا وجود لها في الخارج وهي لا تعقل إلا بتعقل ما يقابلها كالأولية باعتبار أن المخلوقات بعده[١] وقد سبق في بيان المتضايفين في أنواع التقابل.

٢) جعلوه هو الموجود المطلق بشرط الإطلاق ، أي الوجود الكلي المجرد عن الإضافة الذي يتصوره الذهن . لكنهم يقولون بشرط الإطلاق أي بشرط أن لا يقيد بشيء فيزيدونه امتناعا ، ولو صح ذلك لما جاز أن يقال موجود واجب بنفسه أو ليس بواجب بنفسه لأن هذا نوع من التمييز والتقييد[٢] .

قال شيخ الإسلام : (وهم يقرون في منطقهم اليوناني أن المطلق بشرط الإطلاق لا يكون في الخارج)[٣] فتناقضوا بين قواعدهم المنطقية وأصولهم العقدية .

٣) وجعلوا الصفة الثبوتية هي عين الموصوف أي لا تدل على معنى زائد عن الذات فهي من جنس الأعلام المحضة ، فالعلم عندهم هو عين العليم ليس معنى زائدا عن ذات الله تعالى أي لايدل اسم العليم على صفة العلم .

ثانيا : شبهتهم :

أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه .

ثالثا : الرد عليهم . وذلك من وجوه :

١) كما سبق فإنه يعلم بصريح العقول التي خلت عن الشبهات أن هذا الوجود المطلق لا يكون مطلقا كليا إلا في الأذهان فيستحيل أن يوجد في الخارج موجود مطلق بل لا بد أن يقيد بوصف معين إما بكونه واجب الوجود أو ممكنا ، قائما بنفسه أو بغيره ، ونحو ذلك وإلا لم يكن موجودا .

---

١ ـ منهج ودراسات للشنقيطي : ص ١ .
٢ ـ درء تعارض العقل والنقل : (١ / ٢٨٨)
٣ ـ اقتضاء الصراط المستقيم : ص ٤٩٨

٢) جعلهم كل صفة هي عين الذات مكـابرة للبدهيـات العقليـة فضـلا عـن الشرعية لأن لازم ذلك أن جميع الصفات لا يتميز بعضها عن بعـض فيكـون العلـم هو القدرة وهو الكلام ويكون معنـى قولـه ﷻ : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ البقرة : [٢٩] بمعنى قوله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾آل عمـران : [٢٩] وهكذا مما يعلم بطلانه بداهة .

٣) أنهم جحدوا الضروريات فيقولون بالوجود المطلق وكون الصفة عين الـذات ،و هذا غاية الضلال وأبعد المحال .

ثالثا : مذهب المعتزلة وأتباعهم من المتكلمين :

قوله : ﴿ وقاربهم طائفة ثالثة من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتبعهم ؛ فأثبتوا لله الأسماء دون ما تتضمنه من الصفات – فمنهم من جعل العليم والقدير ؛ والسميع ؛ والبصير ؛ كالأعلام المحضة المترادفات ومنهم من قال عليم بلا علم قدير بلا قدرة سميع بصير بلا سمع ولا بصر فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات والكلام على فساد مقالة هؤلاء وبيان تناقضها بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول مذكور في غير هذه الكلمات﴾

التوضيح :

قارب أولئك الفلاسفة هؤلاء المعتزلة وأتباعهم وسموا بأهل الكـلام لأنـهم أتوا بزيادة كلام لايفيد ، كما قال ابن أبي العز [١] : (إنما سمي هؤلاء أهـل الكـلام لأنهم لم يفيدوا علما لم يكن معروفا وإنما أتوا بزيـادة كـلام قـد لا يفيـد) . وذكر الإمام الشهرسـتاني أسـبابا أخـرى فقـال : (إمـا لأن أظـهر مسـألة تكلمـوا فيـها

---

١ ـ هو الإمام بن أبي العز علي بن علي بن محمد الحنفي . ولي قضاء دمشق ومصر وتوفي سنة ٧٩٢ صاحب شرح الطحاوية . والكلام منه :ص ٢٠٧ .

وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام .. وإما لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فنا من فنون علمهم بالمنطق ، والمنطق والكلام مترادفان)[١] . لكن رد شيخ الإسلام السبب الأول الذي ذكره الشهرستاني وقال بأن السلف سموهم بالمتكلمين قبل ظهور مسألة الكلام [٢]. والله تعالى أعلم.والكلام عنهم من خلال الوقفات التالية:

أولا : التعريف بالمعتزلة[٣] :

هم أتباع واصل بن عطاء الغزال (ت : ١٣١)[٤] اعتزل مجلس الحسن البصري في مسألة صاحب الكبيرة فقط فنسبت إليه الفرقة وهذا أشهر ما قيل في ذلك ، ثم تطور مذهبهم وافترقوا فرقا كثيرة منهم معتزلة البصرة كالجاحظ[٥] وواصل نفسه والنظام[٦] والجبائيين [٧]. ومنهم معتزلة بغداد كأحمد بن أبي دؤاد[٨] والكعبي [٩]وعبد الجبار[١٠] .

- وتجتمع أصولهم في خمسة كمايلي :ـ

---

١ ـ الملل والنحل : (١ / ٣٠)

٢ ـ مجموع الفتاوى : (٣ / ١٨٤)

٣ ـ انظر في ذلك : الملل والنحل : (١ / ٤٣) ، مقالات الإسلاميين : (١ / ٢٣٥) ، الفرق بين الفرق : ص ٨٣ . والتنبيه والرد للملطي : ص ٣٨ ، الفصل لابن حزم : (٤ / ١٩٢) ، التبصرة للإسفراييني : ص ٣٧ .

٤ ـ هو أبو حذيفة الغزال تنسب إليه الطائفة الواصلية كان ألثغ ، ولد سنة ٨٠ . وكان تلميذا للحسن البصري توفي سنة ١٣١ . ميزان الاعتدال : (٢ / ٢٧٥) . الفرق بين الفرق : ص ٨١

٥ ـ هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ تنسب إليه طائفة الجاحظية . قال عنه الذهبي في السير : (كان ماجنا قليل الدين) توفي سنة ٢٥٥ . الملل والنحل : (١ / ٧٥) . السير : (١١ / ٥٢٦)

٦ ـ النظام :هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانئ تنسب إليه الطائفة النظامية . أخذ الكلام عن ابن الهذيل العلاف توفي سنة ٢٢١ . الفرق بين الفرق : ص ٩٣ . الملل والنحل : (١ / ٥٣)

٧ ـ الجبائيان : هما أبو علي الجبائي ـ الأب ـ محمد بن عبد الوهاب البصري توفي سنة ٣٠٣ وإليه تنسب الطائفة الجبائية ، وأبو هاشم الجبائي ـ الابن ـ عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب البصري توفي سنة ٣٢١ وإليه تنسب الطائفة البهشمية . شذرات الذهب (٢ / ٢٤١) ، الملل والنحل : (١ / ٧٨) . الفرق بين الفرق : ص ١٣٧ .

٨ ـ هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد بن جرير بن مالك الإيادي رأس الاعتزال والتجهم وأفتى بقتل الإمام أحمد في الفتنة . توفي سنة ٢٤٠ .شذرات الذهب : (٢ / ٩٣)

٩ ـ هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي الكعبي تنسب إليه الطائفة الكعبية . توفي سنة ٣١٩ .شذرات الذهب (٢ / ٢٨١) ، الفرق بين الفرق : ص ١٣٣ .

١٠ ـ هو أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار القاضي المعتزلي . كان أشعريا ثم تبنى مذهب المعتزلة . له مؤلفات عديدة . توفي سنة ٤١٥ . طبقات الشافعية الكبرى : (٣ / ٢١٩) .

١ ـ التوحيد . ويدخلون فيه نفي الصفات ويثبتون الأسماء فقط .

٢ ـ العدل . ويدخلون فيه نفي القدر ، وخلق العبد لفعله .

٣ ـ الوعد والوعيد . ويريدون به تخليد مرتكب الكبيرة في النار .

٤ ـ المنزلة بين المنزلتين . ويريدون به أن صاحب الكبيرة بين الإيمان والكفر في الدنيا وهو سبب اعتزال واصل لمجلس الحسن .

٥ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويدخلون فيه الخروج على ولاة الأمور .

● وقد نظمت هذه الأصول الخمسة بقولي :

أصولهم في العدل والتوحيد * والأمر بالمعروف والوعيد

ومنزل لصاحب الكبيره * معلق والخلد في الأخيره

ثانيا : مذهبهم في الأسماء والصفات :

إثبات الأسماء دون ما تضمنته من صفات . ولهم طريقتان في النفي :

ـ الأولى : من يجعل العليم والقدير وغيرهما كالأعلام المترادفة المحضة ، والمحضة أي التي لا تدل إلا على مجرد الاسم كالأعلام التي يطلقها الناس على المسميات ، والمترادفة أي المختلفة لفظا والمتفقة معنى.ومؤدى هذه الطريقة إثبات الاسم فقط كما تقول : الليث والأسد والغضنفر وتقول الحسام والصارم والسيف فأسماء الله الحسنى عندهم ليست أكثر من أعلام لمسمى واحد غرضها تعينه وتمييزه .

ـ الثانية : من يقول عليم بلا علم قدير بلا قدرة سميع بلا سمع بصير بلا بصر ... فيثبت الاسم وينفي الصفة تصريحا .

والفرق بين الطريقتين أن الأولى نفت الصفات ضمنا والثانية نفتها تصريحا والجميع متفقون على النفي .

ثالثا : شبهتهم :وهي اعتقادهم أن إثبات الصفة يستلزم التجسيم .

رابعا : الرد عليهم . :لا فرق بين إثبات الأسماء وإثبات الصفات ؛ فمن زعم أنه لا يوصف بالحياة والعلم والقدرة إلا ماهو جسم قيل له : ولا يسمى في الشاهد حيا عليما قديرا إلا ما هو جسم . فإما أن يلتزم المعتزلي بإثبات الأسماء والصفات وهو مذهب أهل الحق وإما أن ينفي الجميع فيقع في التجهم وإلا فهذا التفريق في التعامل بين الأسماء والصفات تناقض بيّن وسيأتي بيانه مفصّلاً ، إذ الغرض السير على ترتيب الرسالة .

ضلال وجهل هذه المذاهب

قوله : ﴿ وَهَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمْ يَفِرُّونَ مِنْ شَيْءٍ فَيَقَعُونَ فِي نَظِيرِهِ وَفِي شَرٍّ مِنْهُ مَعَ مَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ التَّحْرِيفِ وَالتَّعْطِيلِ وَلَوْ أَمْعَنُوا النَّظَرَ لَسَوَّوْا بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَاتِ وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْمُخْتَلِفَاتِ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْمَعْقُولَاتُ ؛ وَلَكَانُوا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّمَا أُنْزِلَ إلَى الرَّسُولِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِ وَيَهْدِي إلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . وَلَكِنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَجْهُولَاتِ الْمُشَبَّهَةِ بِالْمَعْقُولَاتِ يُسَفْسِطُونَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَيُقَرْمِطُونَ فِي السَّمْعِيَّاتِ . ﴾

التوضيح :

إن جميع هذه الفرق تفر من شيء فتقع في نظيره أو شر منه ، مع ما يلزمهم من التحريفات للنصوص الشرعية ، ولو أمعنوا النظر والفكر لخرجوا بنتائج عقلية صحيحة وهي :

١) التسوية بين المتماثلات :

وهي الأسماء والصفات ، فإنهما من باب واحد من حيث دلالة النصوص عليهما بطريق سواء ، والنصوص هي المعول عليه في إثباتهما . وهكذا من حيث اتصاف الله بهما و ما يلزم وما لا يلزم من إثباتهما .

٢) التفريق بين المختلفات :

وهي ما يليق بالله ﷻ من الغنى والكمال المطلق فإنه ﷻ يفارق ما يتصف به المخلوق من حيث الحدوث والافتقار والنقص . فصفات الله تليق بكماله واقتداره وصفات المخلوق مناسبة لضعفه وافتقاره .

فالتسوية بين المتماثلات والتفريق بين المتخالفات من أوضح المسلمات ومن أسلم ما ينجى من الوقوع في التناقضات .

٣) السير على طريقة أهل العلم أتباع الرسل من السلف وأتباعهم الذين يعتقدون جازمين أن ماجاءت به الرسل فيه الكفاية والغناء للعالمين كما قال ابن مسعود ﷺ : (اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم) [1].

ـ ولكن هذه الفرق لما تركت الإمعان في التفكر والنظر جهلا أو تجاهلا وصاروا من أهل المجهولات الخائضين في الغيبيات التي اشتبهت عندهم بالمعقولات وقعوا في الجهل والضلال ولهم موقفان :

-أحدهما : السفسطة في العقليات .

– الثاني : القرمطة في النقليات [2]. ـ والسفسطة : مصدر سفسط يسفسط سفسطة ، وهي كلمة يونانية مركبة من جزأين (سوفيا) بمعنى الحكمة ، و (سطس) بمعنى المموهة فالمعنى (الحكمة المموهة) .

---

١ ـ صحيح رواه الدارمي بسند صحيح .باب كراهية أخذ الرأي : (٢ / ٨٠) ووكيع في الزهد : (٢ / ٥٩٠) و الهيثمي في الجمع : (١ / ١٨١) وقال : رجاله رجال الصحيح .

٢ ـ انظر توضيح العلامة السعدي لهذه المصطلحات في الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة . الرسائل الشخصية والعلمية المرسلة من الشيخ السعدي إلى عبد الله بن عقيل : ص ٣٠٠ ـ ٣٠٣

والسفسطائية طائفة من الفلاسفة تقوم على إنكار الحقائق والقياسات.

وهم ثلاث فرق :

الأولى : العنادية : وهي تنكر حقائق الأشياء .

الثانية : اللا أدرية : وهي لا تنكر الحقائق ولكن تنكر العلم بثبوتها .

الثالثة : العندية : وهي تزعم أن الحقائق تابعة للاعتقادات . والحق ما عند المعتقد لا ماهو في نفس الأمر [1].

ويقصد شيخ الإسلام بالسفسطة في العقليات التمويه والمغالطة في الأمور العقلية الثابتة ، فإنه يرى أن كل من جحد حقا معلوما وموه فيه بالباطل فهو مسفسط ، فليست السفسطة عنده مذهبا عاما لطائفة معينة[2]

ـ والقرمطة في النقليات :

نسبة إلى القرامطة لأنهم أعظم الطوائف تحريفا للنقليات كما سبق

الرد الإجمالي على هذه الفرق :

قوله : ﴿ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مَوْجُودٍ قَدِيمٍ غَنِيٍّ عَمَّا سِوَاهُ إِذْ نَحْنُ نُشَاهِدُ حُدُوثَ الْمُحْدَثَاتِ : كَالْحَيَوَانِ وَالْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَادِثُ مُمْكِنٌ لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ الْمُحْدَثَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ وَالْمُمْكِنَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ؟ ﴾ فَإِذَا لَمْ يَكُونُوا خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ وَلَا هُمُ الْخَالِقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ تَعَيَّنَ أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا خَلَقَهُمْ .

---

١ ـ الفصل : (١ / ٨) ، أصول الدين ص ٦ . تاريخ الفلسفة : ص ٥٧ .

٢ ـ نقض التأسيس : (١ / ٤٢٣) .بغية المرتاد ص ١٨٤ .

وَإِذَا كَانَ مِنْ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ فِي الْوُجُودِ مَا هُوَ قَدِيمٌ وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ وَمَا هُوَ مُحْدَثٌ مُمْكِنٌ يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ : فَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا مَوْجُودٌ وَهَذَا مَوْجُودٌ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ اتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ أَنْ يَكُونَ وُجُودُ هَذَا مِثْلَ وُجُودِ هَذَا بَلْ وُجُودُ هَذَا يَخُصُّهُ وَوُجُودُ هَذَا يَخُصُّهُ وَاتِّفَاقُهُمَا فِي اسْمٍ عَامٍّ : لَا يَقْتَضِي تَمَاثُلَهُمَا فِي مُسَمَّى ذَلِكَ الِاسْمِ عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ وَالتَّقْيِيدِ وَلَا فِي غَيْرِهِ . فَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ إذَا قِيلَ :إنَّ الْعَرْشَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ وَأَنَّ الْبَعُوضَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ : إنَّ هَذَا مِثْلُ هَذَا ؛ لِاتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى الشَّيْءِ وَالْوُجُودِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ غَيْرُهُمَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ بَلْ الذِّهْنُ يَأْخُذُ مَعْنًى مُشْتَرَكًا كُلِّيًّا هُوَ مُسَمَّى الِاسْمِ الْمُطْلَقِ وَإِذَا قِيلَ هَذَا مَوْجُودٌ وَهَذَا مَوْجُودٌ : فَوُجُودُ كُلٍّ مِنْهُمَا يَخُصُّهُ لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ ؛ مَعَ أَنَّ الِاسْمَ حَقِيقَةٌ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا.

التوضيح :

بعد أن بين شيخ الإسلام أصول تلك الفرق وشيئا من فساد مذاهبهم وأن نفيهم للصفات يستلزم نفي الذات بدأ بإبطال تلك المذاهب عقلا ونقلا إجمالا وتفصيلا . فبدأ هنا بالرد الإجمالي ثم سيفصل الرد عند الكلام عن الأصلين .

والرد الإجمالي مركب من وجهين :

الأول : في الوجود . الثاني: الاتفاق في الأسماء .

الوجه الأول : الوجود :

وهو أن الموجود إما خالق وإما مخلوق ، ولكل منهما وجود يخصه . والمعنى أنه لا بد من موجود قديم واجب بنفسه تنتهي إليه المخلوقات المحدثة .

* وبرهانه في مقدمتين :

- الأولى : أننا نشاهد حدوث المخلوقات كالحيوان والمعدن والنبات وهذه المحدثات ممكنة الوجود وليست واجبة الوجود بدليل أنها مسبوقة بالعدم والواجب لا يسبق بعدم ، وليست ممتنعة لأن الممتنع يستحيل وجوده وهذه موجودة الآن، وقد عرفت فيما سبق هذه المصطلحات . وقد أشار شيخ الإسلام إلى هذا المعنى في غير هذه الرسالة بقوله عن الحوادث : (فعدمها ينفي وجوبها ووجودها ينفي إمتناعها)[١] فإذا استحال وجوبها وامتناعها لم يبق ثم إلا إمكانها ، وبما أوضحناه يتضح ما لخصه الشيخ في هذه العبارة .

- المقدمة الثانية : فما دامت هذه المخلوقات محدثة ممكنة فإنه يعلم ضرورة أنه لا بد لها من خالق واجب بنفسه تنتهي إليه ليس ممتنع الوجود إذ كيف يوجد غيره وهو ممتنع الوجود وليس ممكن الوجود لئلا يلزم التسلسل[٢] الممتنع[٣] عند عامة العقلاء وهو كون الشيء مفتقرا إلى موجود والموجود مفتقرا إلى موجود آخر وهكذا .

ـ والدليل النقلي على هذا البرهان العقلي قول العزيز العليّ :﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾ الطور :[٣٥]

فهذا سبر وتقسيم ؛ قسّم فيه أسباب إيجاد المخلوقات وحصرها في ثلاثة أمور ثم سبرها ليبين الحق منها كالتالي:

١ ـ إما أنهم وُجدوا من غير موجد .

---

١ ـ ذكرها شارح الطحاوية ص ٧٦ .

٢ ـ قال الجرجاني : (هو ترتيب أمور غير متناهية) التعريفات : ص ٥٧ ، وانظر درء التعارض : (١١ / ٣٢١) والفتاوى : (٦ / ٢٣١) ومنهاج السنة : (١ / ٢١٦)

٣ ـ انظر أقسامه في شرح الطحاوية : ص ١٠٧ .

٢ ـ وإما أنهم أوجدوا أنفسهم بأنفسهم .

٣ ـ وإما أن الذي أوجدهم هو الله ﷻ .

وحذف الاحتمال الثالث لأنه نتيجة هذا البرهان وهو معلوم من خلال المقدمتين قبله ، فلذلك صح حذفه .

قال الأخضري في السلم المنورق في المنطق[1] :

والحذف في بعض المقدمات ❋ أو النتيجة لعلم آت

فأولا : إيجادهم من غير موجد ممتنع ، لأن الممكن لا يترجح وجوده على عدمه إلا بمرجح وكونه وجد من غير موجد يقتضي الترجيح بلا مرجح وهو ممتنع[2] . ولكن قال شيخ الإسلام : (نفس العلم بأن المحدَث لا بد له من محدِث أبين وأقوى وأظهر في العقل من كون الممكن لا يترجح إلا بمرجح) إلى أن قال : (وكل من كان إلى الفطرة العقلية والشرعة النبوية أقرب كانت طريقته أقوم)[3]

ثانيا : أوجدوا أنفسهم : إما أن نفس المخلوق أوجد نفسه أو أن المخلوق أوجده مخلوق آخر مثله ، فالأول باطل لأنه يلزم أن يكون المخلوق متقدما على نفسه باعتباره محدِثا ومتأخرا باعتباره حادثا ، وتقدم الشيء على نفسه وتأخره عنه محال في غاية الامتناع ، ويلزم منه اجتماع النقيضين وقد عرفت استحالة ذلك ، فإن إيجاد الشيء نفسه قبل وجوده عبارة أخرى عن اجتماع وصفي الوجود والعدم على موضوع واحد في وقت واحد .أما الثاني وهو كون المخلوق أوجده مخلوق آخر فمحال لإفضائه إلى التسلسل الممتنع كما سبق .

---

١ ـ السلم المنورق في علم المنطق لعبد الرحمن بن محمد الصغير الأخضري من علماء القرن العاشر .

٢ ـ وذكرشيخ الإسلام عدة وجوه في درء تعارض العقل والنقل (١٤ / ٢٤١) ط. الجديدة ، الكتب العلمية .

٣ ـ المصدر السابق نفسه .

فتعين بانتفاء هذه الأسباب كون الخالق لهم هو الواجب القديم[١] الذي يمتنع عدمه الغني عما سواه .

قوله : ﴿ وَإِذَا كَانَ مِنْ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ فِي الْوُجُودِ .. ﴾ فقد ثبت أن في الوجود ماهو قديم واجب وما هو محدث ممكن ، وان كلا منهما يتفقان في الوجود ومع ذلك لم يلزم من اتفاقهما في المعنى العام وهو الوجود تماثلهما في الوجود عند الإضافة والتقييد والتخصيص . فالخالق والمخلوق كل منهما موجود لكن وجود كل بحسبه .

وهذه ألفاظ لمعاني متقاربة :ـ

ـ فالإضافة ضمّ شيء إلى شيء للتعريف أو التخصيص .

ـ والتقييد : التعيين أو الوصف بأمر زائد على الحقيقة .

ـ والتخصيص : قصر المعنى العام على بعض أفراده .

ومؤدى هذه الألفاظ :إضافة اللفظ العام الذهني إلى معين وتخصيصه به في الخارج .

قوله : ﴿ وَلَا فِي غَيْرِهِ ﴾ أي لا يلزم منه التماثل بين كل من يصدق عليه هذا المعنى ، فإذا أضيف وقيد بمعين كان عدم التماثل أوضح وأولى .

ـ مثال ذلك : (العرش والبعوض) فكلاهما (شيء موجود) فلا يلزم من اتفاقهما في مسمى (الشيء) و(الوجود) أن يكون العرش مثل البعوض ، وعلل ذلك بقوله : ﴿ لِأَنَّهُ لَيسَ فِي الْخَارِجِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ غَيْرُهُمَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ ﴾ والمعنى : أنه ليس في خارج الذهن شيء موجود يشتركان فيه غير مجرد مسمى (الشيء) ومسمى (الوجود) فإن هذه المسميات مجرد معانٍ كلية ذهنية غير حسية خارجية ،

١ ـ وقد سبق أن هذه الإطلاقات ليست من باب التسمية وإنما من باب الإخبار .

لذلك قال : ﴿ بَلْ الذِّهْنُ يَأْخُذُ مَعْنًى مُشْتَرَكًا كُلِّيًّا هُوَ مُسَمَّى الِاسْمِ الْمُطْلَقِ﴾ والمعنى : أن الذهن يأخذ هذا المعنى المشترك بينهما وهو مسمى (الشيء والوجود) وأما في الواقع فلا يكون إلا مقيدا مختصا بما يضاف إليه ، كما قال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ هَذَا مَوْجُودٌ وَهَذَا مَوْجُودٌ : فَوُجُودُ كُلٍّ مِنْهُمَا يَخُصُّهُ لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ ؛ مَعَ أَنَّ الِاسْمَ حَقِيقَةٌ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا ﴾ وهذا واضح وهو تكرار لما سبق .

والخلاصة : أن لمسمى الوجود ثلاث حالات[1] :

١) حالة الإطلاق وهو المعنى الكلي الذهني ولا يوجد في الخارج .
٢) حالة الإضافة إلى الخالق وهو الوجود الواجب .
٢) حالة الإضافة إلى المخلوق وهو الوجود الممكن .

قال شيخ الإسلام في غير هذه الرسالة : (من المشهور عند أهل المنطق أن الكليات إنما تكون كليات في الأذهان لا في الأعيان)[2]

الوجه الثاني : الاتفاق في الأسماء لا يوجب تماثل المسميات

قوله : ﴿وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ نَفْسَهُ بِأَسْمَاءٍ وَسَمَّى صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ ؛ وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ مُخْتَصَّةً بِهِ إذَا أُضِيفَتْ إلَيْهِ لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَسَمَّى بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ مُخْتَصَّةٍ بِهِمْ مُضَافَةٍ إلَيْهِمْ تُوَافِقُ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ إذَا قُطِعَتْ عَنْ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ ؛ وَلَمْ يَلْزَمْ مِنْ اتِّفَاقِ الِاسْمَيْنِ وَتَمَاثُلِ مُسَمَّاهُمَا وَاتِّحَادِهِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَالتَّجْرِيدِ عَنْ الْإِضَافَةِ

---

١ ـ انظر تعليقات الشيخ البراك حفظه الله .

٢ ـ شرح حديث النزول : ص ٨٤ . بتحقيق شخنا أ.د. محمد عبد الرحمن الخميس

وَالتَّخْصِيصِ : اتِّفَاقُهُمَا وَلَا تَمَاثُلَ الْمُسَمَّى عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَتَّحِدَ مُسَمَّاهُمَا عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ﴾

التوضيح :ـ

هذا الوجه نتيجة حتمية للوجه الأول وإنما فصلته للتوضيح ولذلك قال شيخ الإسلام ﴿ وَلِهَذَا﴾ أي لهذا السبب وهو اختلاف المسمى عند الإضافة والتقييد عنه عند الإطلاق سمى الله ﷻ نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء فتكون هذه الأسماء خاصة به لائقة بعظمته لا يشركه فيها غيره وكذلك سمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مناسبة لافتقارهم مع أنها توافق أسماء الله ﷻ عند الإطلاق ولكن تخالفها عند التقييد لاختلاف خصائص الله ﷻ عن خصائص خلقه

ثم ذكر شيخ الإسلام قاعدة في جميع ما يأتي من الأسماء المشتركة بين الخالق والمخلوق وهي قوله : ﴿ وَلَمْ يَلْزَمْ مِنْ اتِّفَاقِ الِاسْمَيْنِ وَتَمَاثُلِ مُسَمَّاهُمَا وَاتِّحَادِهِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَالتَّجْرِيدِ عَنْ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ : اتِّفَاقُهُمَا وَلَا تَمَاثُلَ الْمُسَمَّى عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَتَّحِدَ مُسَمَّاهُمَا عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ﴾

وهي قاعدة مشهورة ولكن صياغة شيخ الإسلام لها بهذا الأسلوب صعبتها حتى التبست على بعض الشارحين فلم يهتدوا فيها إلى حقيقة التبيين . فأقول في إيضاحها مستعينا بالله : هنا ألفاظ ينبغي بيانها وهي :ـ

١ ـ التماثل : هو كون الشيئين متساويين ومتشابهين من كل وجه .

٢ ـ الاتحاد : وهو كون الشيئين شيئا واحدا ، ففرق بين الاتحاد والتماثل .

٣ ـ الاتفاق : هو كون الشيئين متفقين في اللفظ والمعنى الكلي دون الحقيقة والكيفية .

ـ أما الإطلاق فهو ضد التخصيص [1]، والتجريد ضد الإضافة ، والإضافة والتخصيص مترادفان وقد سبقا . فيقول شيخ الإسلام :إن الصفات لها حالتان حالة الإطلاق وحالة الإضافة فالوجود تارة نتصوره مجردا عن الإضافة لأي من الموجودات وأخرى نتصوره مضافا إلى الموجودات :

الأولى : حالة الإطلاق وعدم الإضافة :

لايلزم من اتفاق اسمين في المعنى تماثل مسماهما بل ولا اتحاده من باب أولى ، وإن اتفقا في المعنى الكلي فلايلزم من مجرد تصور هذا المعنى الكلي اعتقاد تماثل كل ما يندرج تحته ويدخل فيه .

الثانية : حالة التخصيص والإضافة .

فمن باب أولى ألا يلزم من اتفاق الاسمين إذا أضيفا التماثل فضلا عن أن يلزم الاتحاد ، لأنه إن كان لا يلزم ذلك عند الإطلاق فعند التخصيص من باب أولى فكل اسم يختص بما أضيف له . فتدبر عبارة شيخ الإسلام من خلال هذا التفصيل .

وقد ربط الإمام أبو الحسن الأشعري [2] بين هذه القاعدة وبين ما سبق ذكره في الوجه الأول بعبارة فريدة قال فيها ما نصه : (وليس اتفاقهما في حقيقة ذلك يوجب تشبيها بينهما ألا ترى أنّ وصف الباري ﷻ بأنه موجود ووصف الإنسان بذلك لا يوجب تشابهاً بينهما وإن كانا قد اتفقا في حقيقة الوجود ، ولو وجب

---

١ ـ هذا من حيث المعنى وأما في اصطلاح الأصوليين فالإطلاق ضد التقييد وأما التخصيص فضده التعميم .

٢ ـ أبو الحسن الأشعري : هو علي بن إسماعيل بن إسحاق من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، ولد سنة ٢٦٠ ، مات أبوه فتزوجت أمه أبا علي الجبائي المعتزلي فنشأ على الاعتزال ثم اتبع ابن كلّاب ـ فانتسبت إليه الأشاعرة في تلك المرحلة ـ ثم سلك مذهب أهل السنة في رسائله الإبانة ورسالة إلى أهل الثغر . توفي سنة ٣٢٤ . السير : (١٥ / ٨٥) درء التعارض : (٢ / ١٦) ، تبيين كذب المفتري : ص ٣٥ .

تشابههما بذلك لوجب تشابه السواد والبياض بكونهما موجودين ..)[١] ثم قال : وكذلك الصفات ..) .

وقد أشرت إلى مضمون هذه القاعدة وما سبق من كلام شيخ الإسلام في منظومتي الدرة الأثرية[٢] بقولي :

وإن تجد لفظين قد توافقا * فكنهها[٣] والكيف قد تفارقا

فربنا منفرد بالذات * وهكذا الإثبات للصفات

فاعتقدِ الكمال للإله * وكن عن التكييف دوما لاهي

فوحده العليم بالحقائق * وواجبٌ إيماننا باللائق

* ملحوظة هامة : قاعدة التفريق بين حالة الإضافة وحالة التجريد[٤] من أعظم القواعد التي قام عليها معتقد أهل السنة في باب الأسماء والصفات وفي مقام الإيمان بالله ومعرفته بأسمائه وصفاته وفي مقام تنزيهه عن مقالة المفوضة والمعطلة والممثلة .

ـ بيان ذلك : أننا إنما عرفنا ربنا بأسمائه وصفاته وآثارها وهذا الطريق الذي به عرفنا ربنا هو الطريق الذي درج من خلاله المفوضة والمعطلة والممثلة إلى تقرير مذاهبهم الفاسدة وما ذلك إلا لإغفالهم هذه القاعدة العظيمة .

---

١ ـ انظر رسالة إلى أهل الثغر للإمام أبي الحسن الأشعري : ص ٦٣ ، ٦٤ .

٢ ـ منظومة الدرة الأثرية في تلخيص العقيدة السلفية في ستين بيتا .مخطوطة والأبيات أعلاه هي المرقومة [٣٥ـ ٣٨] تحت فصل في الرد على المعطلة . كان هذا اسمها سابقا وقد طبعت الآن باسم (الدرة الستينية في تلخيص العقيدة السنية) وعليها التعليقات السُّنية .

٣ ـ الكنه : أصله غاية الشيء وقدره ووجهه ثم اشتهر بمعنى حقيقة الشيء واستعمل فيه . القاموس : [١٦١٦]

٤ ـ سيأتي في القاعدة السادسة مزيد تفصيل على التجريد وهو القدر المشترك .

وذلك أن الأسماء والصفات المشتركة بين الخالق والمخلوق ليست من قبيل المشترك اللفظي أي الأسماء التي اتفقت ألفاظها واختلفت مسمياتها كالعين تطلق على عين الماء وعلى العين الباصرة[١] ، وإنما من قبيل المشترك المعنوي وهي الألفاظ التي تدل على حقيقة واحدة غاية الأمر أن هذه الحقيقة تختلف خصائصها بحسب ما تضاف إليه فالعلم حقيقته واحدة غير أن الفرق بين علم الله وعلم الخلق كالفرق بين الله وبين الخلق ، ولا تتغير حقيقة هذه المسميات بإضافتها بل تأخذ من الخصائص والمميزات بالإضافة بحسب ما تضاف إليه .

ولو تغيرت هذه الحقائق من أصلها بإضافتها لما عرفنا ربا يوما من الدهر فإنه إذا أخبرنا أن له سمعا وأن له علما وحياة ويدا ولم يكن له من حقائق تلك الصفات شيء لكان ذلك من اللغو . ولذلك قال السلف الاستواء معلوم أي أنه بإضافته إلى الله لم تتغير حقيقته وماهيته .

و دعوى تغير هذه الحقائق بالإضافة هو روح مذهب المفوضة ولذلك لا يمنعون أن يراد بيد الله وجهه بل يفوضون حقائق الصفات عند إضافتها .

والمقدار الذي يحقق التماثل والتشابه بين الخالق والمخلوق إنما هو التوافق في خصائص تلك الحقائق عند إضافتها لأن المفاهيم المطلقة في الذهن لا تنسب إلى أحد إلا بعد تحققها خارجا وإضافتها . وهذا المقدار من الخصائص الناشئة بالإضافة هو الذي نفى السلف علمنا به (والكيف مجهول) مع قطعهم باختلاف تكييف صفة الخالق عن تكييف صفة المخلوق إذ لو كانا متماثلين لما كان الكيف بالنسبة للخالق مجهولا .

فعند الإضافة زلت أقدام طوائف ثلاثة زلت أقدام المفوضة إذ أخرجت الصفات بالإضافة عن حقائقها المعروفة ، وزلت أقدام الممثلة والمعطلة إذ اعتقدت

---

٢ ـ سيأتينا مزيد بيان عن الاشتراك اللفظي عند الكلام عن الوجود وهل هو مشترك لفظي أم معنوي في القاعدة السادسة .

أن الاشتراك المعنوي في تلك الحقائق يستلزم الاشتراك في الخصائص عند الإضافة ، فأثبتت الممثلة القدر المشترك والتزمت بلازمه ـ حسب زعمها ـ وهو الاشتراك في الصفات ومن هنا تولد التمثيل ، و عطلت المعطلة القدر المشترك هروبا من التزامها بالاشتراك في الخصائص . فأضاعت تلك الطوائف الطريق إلى معرفة ربها فهي دائرة بين مفوض لايدري ما أراد الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وبين معطل ناف لها وبين ممثل جاعل ربه كآحاد خلقه .

ولا ينقضي العجب من المعطلة فضلا عن المفوضة حينما أثبتوا بعقولهم صفات وأضافوها إلى الله و زعموا أنها لا تستلزم تلك اللوازم التي استلزمتها الصفات التي أثبتها الله لنفسه فكأنهم أعلم به من نفسه سبحانه وماعلموا أن منشأ تلك اللوازم ـ على أصولهم ـ نفس الإضافة لا الصفة المضافة فإذا كانت خصائص اليد المخلوقة من ضعف وعجز وتعب تسري إلى الخالق بإضافة حقيقة اليد إليه فكذلك سراية خصائص الحياة والقدرة بقولهم الله حي قدير .

ولم يكف القوم ما أورثه صنيعهم من جهلهم بالله بل راحوا يرادفون بين معاني الصفات مجردة وبين معانيها مضافة إلى المخلوق في معاجمهم وقواميسهم وتفاسيرهم وكتب الغريب فيعرفون الإرادة والرضا والبغض واليد والنزول وغيرها من الصفات بخصائصها عندما يتصف بها البشر ليكونوا أسعد بتحقق الملازمة الموهومة بين اتصاف الله بما اتصف به خلقه به من الحقائق المشتركة فلم يقتصر التأويل على نصوص الوحيين بل سرت لكتب اللغة .

ومن أدرك هذه الحقيقة وقف على الطريق الصحيحة لمعرفة ربه وآمن به حقا فهذا هو طريق الإيمان والعلم بالله وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وعلم فضل السلف رضوان الله عليهم وعلم منشأ ضلال هذه الفرق في باب الأسماء والصفات .

الأمثلة على القاعدة : أولا : أمثلة للأسماء المشتركة

قوله : ﴿ فَقَدْ سَمَّى اللَّهُ نَفْسَهُ حَيًّا فَقَالَ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ حَيًّا ؛ فَقَالَ : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ ﴾ وَلَيْسَ هَذَا الْحَيُّ مِثْلَ هَذَا الْحَيِّ لِأَنَّ قَوْلَهُ الْحَيَّ اسْمٌ لِلَّهِ مُخْتَصٌّ بِهِ وَقَوْلَهُ :﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ اسْمٌ لِلْحَيِّ الْمَخْلُوقِ مُخْتَصٌّ بِهِ وَإِنَّمَا يَتَّفِقَانِ إذَا أُطْلِقَا وَجُرِّدَا عَنْ التَّخْصِيصِ ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ لِلْمُطْلَقِ مُسَمًّى مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ وَلَكِنَّ الْعَقْلَ يَفْهَمُ مِنْ الْمُطْلَقِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْمُسَمَّيَيْنِ وَعِنْدَ الِاخْتِصَاصِ يُقَيِّدُ ذَلِكَ بِمَا يَتَمَيَّزُ بِهِ الْخَالِقُ عَنْ الْمَخْلُوقِ وَالْمَخْلُوقُ عَنْ الْخَالِقِ وَلَا بُدَّ مِنْ هَذَا فِي جَمِيعِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ يُفْهَمُ مِنْهَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الِاسْمُ بِالْمُوَاطَأَةِ وَالِاتِّفَاقِ وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ بِالْإِضَافَةِ وَالِاخْتِصَاصِ : الْمَانِعَةُ مِنْ مُشَارَكَةِ الْمَخْلُوقِ لِلْخَالِقِ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾

التوضيح :

سمى الله ﷻ نفسه باسماء وسمى مخلوقاته ببعض هذه الأسماء ولكن أسماء الله ﷻ مختصة به وأسماء المخلوقات مختصة بهم وإنما تتفق هذه الأسماء عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة كما سبق . وهذا المطلق ذهني يفهمه العقل لا يوجد في الخارج إلا مضافا فعند الاختصاص في الخارج تتميز أسماء الخالق عن أسماء المخلوق ،و هذه القاعدة مطردة في جميع أسماء الله ﷻ وصفاته العلى فيفرق بين مايلي :

– أولا : ما يدل عليه الاسم بالمواطأة أي الاتفاق في اللفظ والمعنى عند الإطلاق .

- ثانيا : ما يدل عليه الاسم عند الإضافة والاختصاص التي تمنع من مشاركة المخلوق للخالق في خصائصه ، وهذا ثلج اليقين وكلام متين وقد سبق نحوه .

ثم ذكر شيخ الإسلام أمثلة لهذه الأسماء بدأها باسم (الحي) فإذا أضيف إلى الله ﷻ اختص به ، وإذا أضيف إلى المخلوق اختص بفنائه وافتقاره ، وسيتابع الأمثلة في ذلك .

وهذه الطريقة وهي سرد الأسماء والصفات التي اتفقت بين الخالق والمخلوق لبيان أن مجرد التسمية لا تدل على التشبيه اتبعها أئمة السلف في ردهم على المبتدعة من الممثلة والمعطلة ، ومن هؤلاء إمام الأئمة ابن خزيمة كما في كتابه العظيم (كتاب التوحيد) حيث ذكر أمثلة كثيرة جدا تفوق ما ذكره شيخ الإسلام [١] ثم قال : (وليس في تسميتنا بعض الخلق ببعض أسامي الله ما يوجب عند العقلاء الذين يعقلون عن الله خطابه أن يقال : إنكم شبهتم الله بخلقه) [٢]

متابعة الأمثلة :

قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ سَمَّى اللَّهُ نَفْسَهُ عَلِيمًا حَلِيمًا وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ عَلِيمًا فَقَالَ : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ يَعْنِي إِسْحَاقَ [٣] وَسَمَّى آخَرَ حَلِيمًا فَقَالَ : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ يَعْنِي إِسْمَاعِيلَ [٤] وَلَيْسَ الْعَلِيمُ كَالْعَلِيمِ وَلَا الْحَلِيمُ كَالْحَلِيمِ ، وَسَمَّى نَفْسَهُ سَمِيعًا بَصِيرًا فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ

---

١ ـ كتاب التوحيد لابن خزيمة : (١ / ٥٩ ـ ٨١) كلها في ذكر الأمثلة .

٢ ـ المصدر السابق : (١ / ٦٥)

٣ ـ وهو قول الجمهور خلافا لمجاهد . انظر تفسير القرطبي : (١٧ / ٤٣)

٤ ـ انظر تفسير البغوي : (٧ / ٤٧)

اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ سَمِيعًا بَصِيرًا فَقَالَ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ وَلَيْسَ السَّمِيعُ كَالسَّمِيعِ وَلَا الْبَصِيرُ كَالْبَصِيرِ وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالرَّءُوفِ الرَّحِيمِ . فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِالرَّءُوفِ الرَّحِيمِ فَقَالَ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَلَيْسَ الرَّءُوفُ كَالرَّءُوفِ وَلَا الرَّحِيمُ كَالرَّحِيمِ وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالْمَلِكِ . فَقَالَ : ﴿ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ﴾ وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِالْمَلِكِ فَقَالَ :﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ وَلَيْسَ الْمَلِكُ كَالْمَلِكِ . وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالْمُؤْمِنِ فقال : ﴿ المؤمن المهيمن ﴾ وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِالْمُؤْمِنِ فَقَالَ : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ وَلَيْسَ الْمُؤْمِنُ كَالْمُؤْمِنِ وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالْعَزِيزِ فَقَالَ : ﴿ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِالْعَزِيزِ فَقَالَ : ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ ﴾ وَلَيْسَ الْعَزِيزُ كَالْعَزِيزِ وَسَمَّى نَفْسَهُ الْجَبَّارَ الْمُتَكَبِّرَ وَسَمَّى بَعْضَ خَلْقِهِ بِالْجَبَّارِ الْمُتَكَبِّرِ قَالَ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ وَلَيْسَ الْجَبَّارُ كَالْجَبَّارِ وَلَا الْمُتَكَبِّرُ كَالْمُتَكَبِّرِ وَنَظَائِرُ هَذَا مُتَعَدِّدَةٌ﴾

التوضيح :

نضع الأمثلة التي ذكرها شيخ الإسلام في الجدول التالي تقريبا للمقصود :

جدول الأسماء المشتركة

الاسم	دليل تسمية الله به نفسه	دليل تسمية بعض عباده به
١ . الحيّ	﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ ﴾ البقرة : ﴿ ٢٥٥ ﴾	﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ الروم : ﴿ ١٩ ﴾
٢. العليم الحليم	﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ النساء : ﴿ ١٢ ﴾	﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ الذاريات :[٣٨] ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ الصافات ﴿ ١٠١ ﴾
٣ . السميع البصير	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ النساء : ﴿ ٥٨ ﴾	﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ الإنسان : ﴿ ٢ ﴾
٤ . الرؤوف الرحيم	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة : ﴿ ١٤٣ ﴾	﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة : ﴿ ١٢٨ ﴾
٥ . الملك	﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ الحشر : ﴿ ٢٣ ﴾	﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ الكهف : ﴿ ٧٩ ﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ وسف : ﴿ ٥٠ ﴾
٦ . المؤمن	﴿ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ الحشر : ﴿ ٢٣ ﴾	﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ ﴾ السجدة : ﴿ ١٨ ﴾
٧ . الجبار المتكبر	﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ ﴾ الحشر: ﴿ ٢٣ ﴾	﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ غافر : ﴿ ٥١ ﴾
٨ . العزيز	﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الحشر : ٢٤	﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ﴾ يوسف : ﴿ ٥١ ﴾

ثانيا : أمثلة للصفات المشتركة :

قوله : « وَكَذَلِكَ سَمَّى صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ وَسَمَّى صِفَاتِ عِبَادِهِ بِنَظِيرِ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا ﴾ شَآءَ ،وقال : ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ وقَالَ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ، وَسَمَّى صِفَةَ الْمَخْلُوقِ عِلْمًا وَقُوَّةً فَقَالَ :وَمَآ﴿ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ وقَالَ : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ وقَالَ :﴿ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾وقَالَ :﴿ ﴿٥٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾وَقَالَ :﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ وقَالَ :﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ ﴾ أَيْ بِقُوَّةٍ وقَالَ :﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾أَيْ ذَا الْقُوَّةِ وَلَيْسَ الْعِلْمُ كَالْعِلْمِ وَلَا الْقُوَّةُ كَالْقُوَّةِ و ، كذلك وصَفَ نَفْسَهُ بِالْمَشِيئَةِ وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالْمَشِيئَةِ فَقَالَ : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وقَالَ : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾وكَذَلِكَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْإِرَادَةِ وَعَبْدَهُ بِالْإِرَادَةِ فَقَالَ :﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ووَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمَحَبَّةِ وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالْمَحَبَّةِ فَقَالَ :﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ،وقَالَ : قُلْ ﴿ إِن

كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، ووَصَفَ نَفْسَهُ بِالرِّضَا ووَصَفَ عَبْدَهُ بِالرِّضَا فقَالَ : ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ ومَعْلُومٌ أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ لَيسَتْ مِثْلَ مَشِيئَةِ الْعَبْدِ ، وَلَا إرَادَتُهُ مِثْلَ إرَادَتِهِ وَلَا مَحَبَّتُهُ مِثْلَ مَحَبَّتِهِ ، وَلَا رِضَاهُ مِثْلَ رِضَاهُ وَكَذَلِكَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَمْقُتُ الْكُفَّارَ وَوَصَفَهُمْ بِالْمَقْتِ فَقَالَ :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ وَلَيسَ الْمَقْتُ مِثْلَ الْمَقْتِ وهَكَذَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمَكْرِ وَالْكَيْدِ كَمَا وَصَفَ عَبْدَهُ بِذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾ وَلَيسَ الْمَكْرُ كَالْمَكْرِ وَلَا الْكَيْدُ كَالْكَيْدِ ووَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعَمَلِ فقَالَ :﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ووَصَفَ عَبْدَهُ بِالْعَمَلِ فقَالَ : ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ وَلَيسَ الْعَمَلُ كَالْعَمَلِ ، ووَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمُنَادَاةِ وَالْمُنَاجَاةِ فقَالَ : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ وقَالَ : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ وقَالَ :﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ ﴾ ووَصَفَ عِبَادَهُ بِالْمُنَادَاةِ وَالْمُنَاجَاةِ فقَالَ :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ وقَالَ : ﴿ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ ﴾ وقَالَ : إِذَا ﴿ تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ وَلَيسَ الْمُنَادَاةُ وَلَا الْمُنَاجَاةُ كَالْمُنَاجَاةِ وَالْمُنَادَاةِ ووَصَفَ نَفْسَهُ بِالتَّكْلِيمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ وقَوْلِهِ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ

لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾وقوله :﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ووصف عبده بالتكليم في قوله :وقال﴿ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾وليس التكليم كالتكليم، ووصف نفسه بالتنبئة ووصف بعض الخلق بالتنبئة فقال : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾وليس الإنباء كالإنباء ووصف نفسه بالتعليم ووصف عبده بالتعليم فقال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ وقال : ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وقال : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ وليس التعليم كالتعليم وهكذا وصف نفسه بالغضب فقال : ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ ، ووصف عبده بالغضب في قوله :﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ وليس الغضب كالغضب، ووصف نفسه بأنه استوى على عرشه فذكر ذلك في سبع آيات من كتابه أنه استوى على العرش ووصف بعض خلقه بالاستواء على غيره في مثل قوله :﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ وقوله :﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾وقوله : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ﴾ وليس الاستواء كالاستواء ووصف نفسه ببسط

الْيَدَيْنِ فَقَالَ: وَقَالَتِ﴿ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ ﴾ وَوَصَفَ بَعْضَ خَلْقِهِ بِبَسْطِ الْيَدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ وَلَيْسَ الْيَدُ كَالْيَدِ وَلَا الْبَسْطُ كَالْبَسْطِ؛ وَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِالْبَسْطِ الْإِعْطَاءَ وَالْجُودَ: فَلَيْسَ إِعْطَاءُ اللَّهِ كَإِعْطَاءِ خَلْقِهِ وَلَا جُودُهُ كَجُودِهِمْ وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ.

التوضيح :

وهنا ذكر أمثلة للصفات التي اتصف الله بها كما يليق به واتصف بها المخلوق ، ونرتبها كما سبق في الأسماء بالجدول التالي :

جدول الصفات المشتركة

الصفة	دليل اتصاف الله بها كما تليق به	دليل اتصاف بعض عباده بها
١. القوة	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ الذاريات : [٥٨] ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ فصلت : [١٥] ، ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ الذاريات : [٤٧] أي بقوة وليست جمعا لليد كما سيأتي بيانه	﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ الروم : [٥٤] ، ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ هود : [٥٣] ، ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾ ص : [١٧] أي ذا القوة

تابع : جدول الصفات المشتركة

الصفة	دليل اتصاف الله بها كما تليق به	دليل اتصاف بعض عباده بها
٢. العلم	﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ البقرة : [٢٥٥] ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ النساء : [١٦٦]	﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء : [٨٥] ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ يوسف : [٧٦] ، ﴿ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ غافر : [٨٣]
٣. المشيئة	﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ التكوير : [٢٩]	﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ التكوير : [٢٨] ، ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ الإنسان:[٢٩]
٤. الإرادة	﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ الأنفال : [٦٧]	﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ الأنفال : [٦٧]
٥. المحبة	﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ المائدة : [٥٤] ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ آل عمران : [٣١]	﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ آل عمران : [٣١]
٦. الرضا	﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ المائدة : [١١٩]	﴿ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ المائدة : [١١٩]
٧. المقت	﴿ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ غافر : [١٠]	﴿ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ غافر : [١٠]
٨. المكر	﴿ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ الأنفال : [٣٠]	﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ الأنفال : [٣٠]
٩. الكيد	﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ الطارق : [١٦]	﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ الطارق : [١٥]

تابع : جدول الصفات المشتركة

الصفة	دليل اتصاف الله بها كما تليق به	دليل اتصاف بعض عباده بها
١٠. العمل	﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ يس : [٧١]	﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ السجدة [١٧]
١١ المناداة والمناجاة	﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ۝ ﴾ مريم : [٥٢] ، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ القصص : [٦٢] ، ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ ﴾ الأعراف : [٢٢]	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ الحجرات : [٤] ، ﴿ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ ﴾ المجادلة : [١٢] ، إِذَا ﴿ تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ المجادلة : [٩]
١٢. التكليم	﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝ ﴾ النساء : [١٦٤] ، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ الأعراف : [١٤٣] ، ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ البقرة : [٢٥٣]	﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ ﴾ يوسف : [٥٤]
١٣. التنبئة	﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝ ﴾ التحريم : [٣]	﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ .. فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ التحريم : [٣]
١٤. التعليم	: ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ۝ ٱلْبَيَانَ ۝ ﴾ الرحمن : [١ ــ ٤] ، ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ المائدة : [٤]	﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ آل عمران : [١٦٤] ، ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ ﴾ المائدة :[٤]
١٥. الغضب	﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ الفتح : [٦]	﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ﴾ الأعراف: [١٥٠]

تابع : جدول الصفات المشتركة

الصفة	دليل اتصاف الله بها كما تليق به	دليل اتصاف بعض عباده بها
١٦ . الاستواء	﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ طه:٥ ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ الأعراف : [٥٤] و يونس : [٣] و الرعد : [٢] و الفرقان : [٥٩] و السجدة : [٤] والحديد : [٤]	﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ الزخرف [١٣] ، ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ المؤمنون : [٢٨] ، ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ هود : [٤٤]
١٧ . بسط اليدين	﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ المائدة : [٦٤] وإذا كانت بمعنى الإعطاء والجود فكذلك بلا تمثيل .	﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ الإسراء : [٢٩] ونظائرها كثير

فكل هذه الصفات الاتفاق فيها إنما هو في المعنى الكلي فقط دون الكيفيات والخصائص .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾المائدة : [٦٤]

قال فيه شيخ الإسلام : « وَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِالْبَسْطِ الْإِعْطَاءَ وَالْجُودَ : فَلَيْسَ إِعْطَاءُ اللهِ كَإِعْطَاءِ خَلْقِهِ وَلَا جُودُهُ كَجُودِهِمْ »

قال ابن قتيبة [١] : (وتأويل الآية أن اليهود قالت : يد الله مغلولة ، أي ممسكة عن العطاء فضرب الغل في اليد مثالا لأنه يقبض اليد عن أن تمتد وتنبسط

---

١ ـ هو الإمام أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٠ . كان إماما في الأدب مدافعا عن عقيدة أهل الحديث ، كما سيأتي النقل عنه . شذارات الذهب : (٢ / ١٦٩) ،السير : (١٣ / ٢٩٦)

كما تقبض يد البخيل فقال تعالى : ﴿ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ المائدة :[٦٤] قبضت عن العطاء والإنفاق في الخير والبر)[1] وهذا المعنى لا ينافي إثبات اليدين لله ﷻ لأنه لا يوصف ببسط اليدين إلا من كانت له يدان حقيقيتان[2]

نتيجة ما تقدم

قوله : ﴿فلا بد من إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفي مماثلته بخلقه فمن قال : ليس لله علم ولا قوة ولا رحمة ولا كلام ولا يحب ولا يرضى ولا نادى ولا ناجى ولا استوى : كان معطلا جاحدا ممثلا لله بالمعدومات والجمادات ومن قال له علم كعلمي أو قوة كقوتي أو حب كحبي أو رضاء كرضاي أو يدان كيدي أو استواء كاستوائي كان مشبها ممثلا لله بالحيوانات ؛ بل لا بد من إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل ويتبين هذا (بأصلين شريفين) ومثلين مضروبين ﴿ ولله المثل الأعلى﴾ النحل : [٦٠] . و (بخاتمة جامعة) ﴾

التوضيح :

بناء على ما تقدم من عدم التلازم بين الإثبات والتمثيل يجب إثبات ما أثبت الله لنفسه مع اعتقاد نفي المماثلة فمن نفى صفات الله كان معطلا جاحدا من جهة وممثلا له بالمعدومات والجمادات من جهة أخرى ، ومن قال إن صفات الله مثل صفات خلقه كان مشبها لله ﷻ بالحيوانات أي المخلوقات التي حياتها بالروح تعالى الله عن ذلك ، وهذا هو حقيقة التشبيه الذي نفته النصوص وهو

---

١ ـ الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة : ص ٢٨ .

٢ ـ انظر مختصر الصواعق المرسلة : (٢ / ٣٧٥) ففيها مزيد تفصيل .

الذي جرى السلف على التنفير منه ، قال إسحاق بن راهويه [1]: (إنما يكون التشبيه إذا قال يد كيد أو سمع كسمع أو مثل سمع فهذا هو التشبيه)[2] وأما مجرد إثبات الصفات فليس من التشبيه في شيء .

لذلك فإن قاعدة السلف في هذا الباب هي :

<< الإثبات بلا تمثيل ، والتنزيه بلا تعطيل >>

وتتبين صحة هذه القاعدة وصحة ما تقرر سابقا ببيان أصلين شريفين ومثلين مضروبين وخاتمة تشتمل على سبع قواعد نافعة ، والله الموفق .

فالأصل الأول : القول في بعض الصفات كالقول في بعض .

والأصل الثاني : القول في الصفات كالقول في الذات .

والمثل الأول : الجنة .

والمثل الثاني : الروح .

ثم القواعد السبع وستأتي مفصلة بإذن الله ﷻ .

---

١ ـ إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم بن مطر الحنظلي أبو يعقوب المروزي المعروف بابن راهويه نزيل نيسابور أحد أئمة المسلمين وعلماء الدين اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد ورحل إلى العراق والحجاز واليمن والشام وعاد إلى خراسان فاستوطن نيسابور إلى أن مات بها وانتشر علمه عند أهلها سنة ثمان وثلاثين ومئتين وقال البخاري مات وهو بن سبع وسبعين سنة . تهذيب الكمال : (٢ / ٣٦٣)وانظر : السير : (١١ / ٣٥٨) والتاريخ الكبير : (١ / ٣٨٩)

٢ ـ سنن الترمذي : (١ / ١٢٨) وانظر مختصر العلو للألباني ص : ٢١٨ .

خلاصة مقدّمة الأصل الأوّل

١ ـ القاعدة الأصلية في الصفات هي أن يوصف الله بما وصف به نفسه نفيا وإثباتا .

٢ ـ طريقة السلف في الصفات الإثبات بلا تمثيل والتنزيه بلا تعطيل

٣ ـ يكون الإلحاد في أسماء الله وصفاته وآياته الشرعية وآياته الكونية .

٤ ـ جاءت النصوص بالإثبات المفصل والنفي المجمل في باب الصفات .

٥ ـ كل من خالف طريقة السلف فهو من الزائغين المخالفين لما جاءت به الرسل ، ومنهم :

أ ـ الباطنية : ومذهبهم سلب النقيضين عن الله . فإنهم يزعمون أن الإثبات يستلزم التشبيه بالموجودات ، والنفي يستلزم التشبيه بالمعدومات . فوقعوا في التشبيه بالممتنعات .

ب ـ الفلاسفة : ومذهبهم وصف الله بالسلوب والإضافات وجعله الوجود المطلق بشرط الإطلاق .

ج ـ المعتزلة وأتباعهم : ومذهبهم نفي الصفات مع إثباتهم لأسماء مجردة .

٦ـ لا يلزم من الاتفاق في الأسماء الاتفاق في المسميات .

المناقشة ؟

١) اذكر القاعدة العامة في باب الصفات . مع ذكر بعض آثار السلف في ذلك .

٢) ما هي خصائص طريقة السلف ؟

٣) ما هي أصول السلف في الإثبات والنفي ؟

٤) اذكر بعض الزائغين في هذا الباب مع التعريف بهم وبمذاهبهم الفاسدة ؟

٥) ما المراد بما يلي : (التكييف) ـ (التمثيل) ـ (التعطيل) ـ (التحريف) ـ (الإلحاد) ؟

٦) عرف المصطلحات التالية : واجب الوجود ، الممكن ، المعدوم ، الممتنع ، النقيضان ، الضدان ، المتضايفان ، الملكة والعدم ، التخالف .

٧) اذكر مذهب الباطنية في الصفات وشبهتهم والرد عليهم .

٨) اذكر مذهب الفلاسفة في الصفات وشبهتهم والرد عليهم .

٩) اذكر مذهب المعتزلة وشبهتهم والرد عليهم .

١٠) كيف ترد على هذه الفرق ردًا إجماليا ؟

١١) ما المقصود بالقديم ؟ وهل هو اسم من أسماء الله ﷻ ؟ وضح ذلك

١٢) لم سمي أهل الكلام بهذا الاسم ؟

الكلام على الأصلين الشريفين

الأصل الأول :

القول في بعض الصفات كالقول في بعض

قوله: ﴿ فَصْلٌ فَأَمَّا الْأَصْلَانِ : فَأَحَدُهُمَا أَنْ يُقَالَ: الْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي بَعْضٍ ﴾

التوضيح :

معنى هذا الأصل أن ما يجب اعتقاده في بعض الصفات يجب في البعض الآخر . فإن وجب إثبات بعضها وجب إثبات بعضها الآخر ، ومن نفى بعضها لزمه نفي سائرها . ومن زعم أن بعضها يستلزم تشبيها كان الكل كذلك . قال الإمام أبو عثمان الصابوني[1] ناقلا عقيدة السلف أصحاب الحديث : (وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح)[2] وقال الإمام ابن جرير[3] : (فإن قال لنا قائل : فما الصواب من القول في معاني هذه الصفات .. ؟ قيل :الصواب من هذا القول عندنا أن نثبت حقائقها على ما

---

١ ـ هو شيخ الإسلام الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل بن عائذ ولد سنة ٣٧٢ وتوفي سنة ٤٤٩ . انظر البداية والنهاية : (١٢ / ٧٦) ، شذرات الذهب : (٣ / ٢٨٢)

٢ ـ عقيدة السلف أصحاب الحديث : ص ٢٣ .

٣ ـ هو الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري الآملي المفسر والمؤرخ الشهير كان على عقيدة السلف ، له في الاعتقاد (صريح السنة) و (التبصير) ولد سنة: ٢٢٤ وتوفي سنة : ٣١٠ . السير : (١٤ / ٢٦٧)

نعرف من جهة الإثبات ونفي التشبيه)[1] قال ناظم مختصر خليل[2] :

البـاب في الجميـع واحـد فـلا ❁ تكـن معطـلا ولا ممثـلا

وقال الناظم[3]:

القول في بعض الصفـات مثـلُ ❁ القـول في بعـض فـهذا أصـلُ

وهذا الأصل مبني على القاعدة العقلية السابقة وهي :

<<وجوب التسوية بين المتماثلات>>

وسيرد بهذا الأصل على الطوائف السابقة وبالأخص الأشاعرة والمعتزلة والجهمية .

أولا : مناقشة الأشاعرة .

قوله : ﴿فَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِمَّنْ يَقُولُ : بِأَنَّ اللَّهَ حَيٌّ بِحَيَاةٍ عَلِيمٌ بِعِلْمٍ قَدِيرٌ بِقُدْرَةٍ سَمِيعٌ بِسَمْعٍ بَصِيرٌ بِبَصَرٍ مُتَكَلِّمٌ بِكَلَامٍ مُرِيدٌ بِإِرَادَةٍ وَيَجْعَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ حَقِيقَةً وَيُنَازِعُ فِي مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَكَرَاهَتِهِ فَيَجْعَلُ ذَلِكَ مَجَازًا وَيُفَسِّرُهُ إِمَّا بِالْإِرَادَةِ وَإِمَّا بِبَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ النِّعَمِ وَالْعُقُوبَاتِ فَيُقَالُ لَهُ : لَا فَرْقَ بَيْنَ مَا نَفَيْتَهُ وَبَيْنَ مَا أَثْبَتَّهُ بَلْ الْقَوْلُ فِي أَحَدِهِمَا كَالْقَوْلِ فِي الْآخَرِ ؛ فَإِنْ قُلْت : إنَّ إرَادَتَهُ مِثْلُ إرَادَةِ الْمَخْلُوقِينَ فَكَذَلِكَ مَحَبَّتُهُ وَرِضَاهُ وَغَضَبُهُ وَهَذَا هُوَ

---

١ ـ التبصير في معالم الدين : ص ١٤٠ .

٢ ـ هو العلامة الشيخ محمد سالم بن محمد علي بن عبد الودود الهاشمي الشنقيطي ، تولى عدة مناصب وهو من العلماء السلفيين في موريتانيا وله عدة مصنفات وله ترجمة في مقدمة نظمه والبيت رقمه : [٣٩] : ص ١١٦ من مجمل اعتقاد السلف .

٣ ـ متن الكفاية في العقيدة والفرق والمذاهب لعبد العزيز الحربي : ص ١٧ . وهو نظم فريد جمع فيه فوائد كثيرة .

التمثيل وإن قلت : إن له إرادة تليق به ؛ كما أن للمخلوق إرادة تليق به قيل لك : وكذلك له محبة تليق به وللمخلوق محبة تليق به وله رضا وغضب يليق به وللمخلوق رضا وغضب يليق به وإن قلت : الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام فيقال له : والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة فإن قلت : هذه إرادة المخلوق قيل لك : وهذا غضب المخلوق﴾

التوضيح :

لم يسم شيخ الإسلام الأشاعرة باسمهم وإنما ذكر مذهبهم ليشمل الرد كل من وافقهم كالماتريدية[1] وغيرهم .

والكلام على هذه الفقرة من خلال النقاط التالية :

أولا : التعريف بالأشاعرة :

هم المنسوبون إلى الإمام أبي الحسن الأشعري وهو علي بن إسماعيل بن أبي بشر ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري وكان أبو الحسن معتزليا ثم أعلن رجوعه وتوبته وسلك طريق عبد الله بن سعيد بن كلاب ونسج على قوانينه في الصفات والقدر ثم انتقل إلى متابعة الإمام أحمد وأهل الحديث ونصر مذهب السلف كما في كتبه الثلاثة (الإبانة) و (مقالات الإسلاميين) و (رسالة إلى أهل الثغر) ـ وقد نقلت من هذه الكتب أثناء هذا الشرح توفي سنة ٣٢٤ هـ.

---

١ ـ نسبة إلى أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي . والماتريدي نسبة إلى قرية ما تريد إحدى قرى سمرقند . ولد فيها وتوفي سنة ٣٣٣ . انظر للتوسع في معرفة منهجهم (الماتريدية) لشيخنا الدكتور شمس الدين الأفغاني ـ رحمه الله ، و (الماتريدية دراسة وتقويما) للحربي ، و (منهج الماتريدية) لشيخنا أ . د . الخميس .

والأشاعرة المنتسبون إليه يتابعونه في مرحلته الثانية لذلك يقال لهم الأشاعرة الكلابية ولهم أصول خالفوا فيها السلف في مختلف أبواب الاعتقاد[1] .

ثانيا : مذهبهم في الصفات :

بإمكاننا تلخيص مذهبهم في الصفات الإلهية في أربع نقاط :

١ ـ يقرون بالأسماء مع سبع صفات هي الحياة والقدرة والعلم والكلام والإرادة والسمع والبصر .

٢ ـ ويجعلون هذه الصفات حقيقية وليست مجازية .

٣ ـ ينازعون في غيرها كالمحبة والغضب .

٤ ـ فيجعلون هذه الصفات مجازا ويفسرونها بأحد تفسيرين :

أ ـ الإرادة : فيقولون المحبة هي إرادة الثواب والغضب هو إرادة الانتقام وهكذا .

ب ـ الإنعام والعقوبة : فيقولون المحبة هي الإنعام والغضب هو العقوبة .

ملحوظة :

الأشاعرة يثبتون الصفات السبع على وجه الحقيقة حتى صفة الكلام ، ولكنهم ينازعون في المعنى الحقيقي للكلام فيزعمون أن حقيقة الكلام هي المعنى النفسي وهذا إطلاقه الحقيقي عندهم وليس مجازا عندهم ، وأما السلف وأئمة اللغة فالكلام عندهم هو الحرف والصوت وأدلة ذلك من الكتاب والسنة واللغة والعقل والعرف أكثر من أن تحصى[2]، والله أعلم .

---

١ ـ شذرات الذهب : (٢/ ٣٠٣) . الخطط للمقريزي : (٢/ ٣٥٨) . الملل والنحل: (١/ ٩٤)

٢ ـ انظر : (التسعينية) لشيخ الإسلام ففيها سرد الأدلة على إبطال كلام النفس ، و (الرد على من أنكر الحرف والصوت) للسجزي ، و (الصراط المستقيم في إثبات الحرف القديم) لابن قدامة المقدسي تحقيق شيخنا أ . د . الخميّس .

ثالثا : الرد على مذهب الأشاعرة في الصفات :

يقال لهم : لا فرق بين ما نفيتموه من الرحمة والغضب والمحبة وغيرها وبين ما أثبتموه من الإرادة والكلام .. فإن القول في أحدهما كالقول في الآخر . ويلزمكم أحد ثلاثة لوازم :

١) أن تقولوا : إن إرادته مثل إرادة المخلوق فكذا المحبة وغيرها فتقعون في التمثيل الذي فررتم منه .

٢) أن تنفوا الجميع فرارا من الوقوع في التمثيل فتقعون في التعطيل وهو شر من التمثيل .

٣) أن تقولوا فيما تثبتونه من الإرادة والكلام إنها ثابتة كما تليق به كما أن للمخلوق إرادة تليق به وحينئذ يلزمكم هذا في المحبة والغضب فتقولون له محبة كما تليق به كما للمخلوق محبة تليق به وهكذا .

ـ (جواب الأشعري) : فإن قال : الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام وهذا لا يليق بالله .

ـ (ردّ أهل السنة) : قيل له : وكذلك الإرادة التي تثبتها ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة وهذا لا يليق بالله ، فإما أن تنفيهما جميعا وإما أن تثبتهما جميعا .

ـ (جواب الأشعري) : هذه الإرادة التي ذكرتها هي إرادة المخلوق أما إرادة الله فكما تليق به .

ـ (ردّ أهل السنة) : قيل له :وهذا الغضب الذي ذكرته إنما هو غضب المخلوق لا غضب الله اللائق به .

ثم إن هذا التفسير ليس لحقيقة الغضب وإنما هو أثر من آثار الغضب.

متابعة إلزام الأشاعرة

قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ يَلْزَمُ الْقَوْلُ فِي كَلَامِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ ؛ إنْ نَفَى عَنْهُ الْغَضَبَ وَالْمَحَبَّةَ وَالرِّضَا وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ ؛ فَهَذَا مُنْتَفٍ عَنْ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَجَمِيعِ الصِّفَاتِ وَإِنْ قَالَ : أَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لِهَذَا إلَّا مَا يَخْتَصُّ بِالْمَخْلُوقِينَ ؛ فَيَجِبُ نَفْيُهُ عَنْهُ قِيلَ لَهُ : وَهَكَذَا. السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ وَالْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ فَهَذَا الْمُفَرِّقُ بَيْنَ بَعْضِ الصِّفَاتِ وَبَعْضٍ يُقَالُ لَهُ : فِيمَا نَفَاهُ كَمَا يَقُولُهُ هُوَ لِمُنَازِعِهِ فِيمَا أَثْبَتَهُ فَإِذَا قَالَ الْمُعْتَزِلِيُّ : لَيْسَ لَهُ إرَادَةٌ وَلَا كَلَامٌ قَائِمٌ بِهِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَا تَقُومُ إلَّا بِالْمَخْلُوقَاتِ فَإِنَّهُ يُبَيِّنُ لِلْمُعْتَزِلِيِّ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ يَتَّصِفُ بِهَا الْقَدِيمُ وَلَا تَكُونُ كَصِفَاتِ الْمُحْدَثَاتِ فَهَكَذَا يَقُولُ لَهُ الْمُثْبِتُونَ لِسَائِرِ الصِّفَاتِ مِنْ الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴾

التوضيح :

وبمثل ما سبق يُلزم الأشعري إذا قال بالكلام والبصر ونفى الغضب والمحبة والرضا ونحو ذلك مما هو من خصائص المخلوقين عنده

فيقال له : إن خصائص المخلوقين منتفية عن السمع والبصر والكلام وجميع الصفات إذا أضيفت إلى الله لأنها تصبح لا ثقة به ﷻ .

-(اعتراض الأشعري) : إن قال : لا حقيقة لهذه الصفات إلا ما يختص بالمخلوقين فلا حقيقة للغضب إلا غليان الدم .

-(رد أهل السنة) : وهكذا قل في السمع والبصر والكلام وغيرها ، فإننا لا نرى سمعا إلا بآلة ولا نرى بصراً إلا بانعكاسات ضوئية وحدقات بصرية

وغيرها . فهذا المفرق بين الصفات يقال لــه فيمـا نفـاه كمـا يقـول هـو لمنازعـه في الصفات السبع ، أي يرد عليه بنفس الردود التي يرد بها هو على المعتزلي.

مثال ذلك : إذا قال المعتزلي وهو ينفي جميـع الصفـات : ليـس لـه إرادة ولا كلام قائمين به لأن هذه الصفات لاتقوم إلا بالأجسام فيلزم التشبيه .

ـ فـيرد عليـه الأشـعري : بـأن القديـم يتصـف بـهذه الصفـات ولا تكـون كخصائص المحدثات .

ـ فيرد أهل السنة على الأشعري بنفـس رده علـى المعـتزلي فيقـال : فـهكذا يقول المثبتون في سائر الصفات من المحبـة والرضـا والغضـب والرحمـة وغـير ذلـك فيلزم الأشعري بعين ما ألزم به المعتزلي النافي لجميع الصفات .

احتجاج الأشاعرة بدلالة العقل على هذه الصفات والجواب عنه

أولا : حجة الأشعري في إثباته للصفات السبع :

قوله : ﴿فَإِنْ قَالَ : تِلْكَ الصِّفَاتُ أُثْبِتُهَا بِالْعَقْلِ لِأَنَّ الْفِعْلَ الْحَادِثَ دَلَّ عَلَى الْقُدْرَةِ وَالتَّخْصِيصَ دَلَّ عَلَى الْإِرَادَةِ وَالْإِحْكَامَ دَلَّ عَلَى الْعِلْمِ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْحَيَاةِ وَالْحَيُّ لَا يَخْلُو عَنْ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ أَوْ ضِدِّ ذَلِكَ﴾

التوضيح :

احتـج الأشـاعرة في إثباتـهم للصفـات السـبع بـأن العقـل قـد أثبـت هــذه الصفات ودل عليها كما يلي :

١) القدرة : دل عليها الفعل الحادث . الفعــل هنـا مصـدر بمعنـى المفعـول والمقصود وجود المخلوقات .

٢) أما الإرادة : فـدلّ عليها التخصيص . أي تمييز كل شيء بما يميزه ويشخصه عن غيره من الأشياء من صفة أو وقت أو مكان فهذا التخصيص بهذه الصفات دليل على إرادة الله سبحانه .

٣) أما العلم : فدل عليه الإحكام والاتقان في المخلوقات ، فهذا لا يكون إلا بكمال العلم .

٤) أما الحياة : فلأن القدرة والإرادة والعلم لا تقوم إلا بالحيّ فهي مستلزمة لا محالة للحياة .فإن الميت لا يوصف بالقدرة والإرادة العلم .

٥ و ٦ و ٧) وأما السمع والبصر والكلام : فلأن الحي لا يخلو من السمع والبصر والكلام أو ضدها من الصمم والعمى والخرس ، وهذه الأضداد نقائص يتنزه عنها الله ﷻ فوجب تنزهه عنها ولاسبيل لذلك إلا إثبات أضدادها وهي السمع والبصر والكلام إذ ضد النقص الكمال .

فبهذه الدلالات العقلية أثبت الأشاعرة تلك الصفات[1] .

ثانيا : جواب أهل السنة من وجهين :

قوله : ﴿قَالَ لَهُ سَائِرُ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ : لَك جَوَابَانِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يُقَالَ : عَدَمُ الدَّلِيلِ الْمُعَيَّنِ لَا يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ الْمَدْلُولِ الْمُعَيَّنِ فَهَبْ أَنَّ مَا سَلَكْت مِنْ الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ لَا يُثْبِتُ ذَلِك فَإِنَّهُ لَا يَنْفِيهِ وَلَيْسَ لَك أَنْ تَنْفِيَهُ بِغَيْرِ دَلِيلٍ لِأَنَّ النَّافِيَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ كَمَا عَلَى الْمُثْبِتِ وَالسَّمْعُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ وَلَمْ يُعَارِضْ ذَلِك مُعَارِضٌ عَقْلِيٌّ وَلَا ي فَيَجِبُ إثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ الدَّلِيلُ السَّالِمُ عَنْ الْمُعَارِضِ الْمُقَاوِمِ﴾

---

١ ـ أصول الدين للبغدادي : ص : ١٠٥ . شرح الجوهرة : (١ / ٣٥٩)

التوضيح :

أجاب أهل السنة عن ذلك بجوابين شافيين . ذكر هنا الجواب الأول وهو كمايلي :

- <u>الجوب الأول ـ وهو على فرض التسليم :ـ</u>

أي على فرض التسليم بأن العقل دل على هذه السبع صفات ولم يدل على غيرها من الصفات . ومضمون هذا الجواب يتضح من خلال ثلاث مقدمات ونيتجة :

ـ المقدمة الأولى : أن عدم الدليل المعين ـ وهو هنا العقل ـ لايستلزم عدم المدلول المعين ـ وهو هنا بقية الصفات ؛ فلو قدّرنا أن العقل لا يدل على بقية الصفات إلا أنه لا ينفيها إذ لا تصادم صريح العقل .

ـ المقدمة الثانية : ومادام العقل لا ينفيها فلايجوز نفيها بلا دليل لأن النافي عليه الدليل على نفيه كما أن المثبت عليه الدليل كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ البقرة : [١١١] فهنا نفوا دخول الجنة لغيرهم فطالبهم الله بالدليل في قوله : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ البقرة : [١١١] وهذا بناء على تحقيق شيخ الإسلام لهذه المسألة .

ـ المقدمة الثالثة : أن السمع قد دل على بقية الصفات كما سبق سرد الآيات فيها ، وهذا السمع لم يعارضه صريح العقل كما قلنا ولم يعارضه دليل من النقل أيضا .

ـ فالنتيجة : أنه يجب إثبات ما أثبته الدليل السالم من المعارض المقاوم له ، وهو هنا دليل النقل فإنه سلم من أي معارض فالأصل بقاؤه . وهذه هو المطلوب

▫ الجواب الثاني على فرض المنع :

قوله : ﴿ الثَّانِي أَنْ يُقَالَ : يُمْكِنُ إِثْبَاتُ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِنَظِيرِ مَا أُثْبِتَ بِهِ تِلْكَ مِنْ الْعَقْلِيَّاتِ فَيُقَالُ نَفْعُ الْعِبَادِ بِالْإِحْسَانِ إلَيْهِمْ دَلَّ عَلَى الرَّحْمَةِ كَدَلَالَةِ التَّخْصِيصِ عَلَى الْمَشِيئَةِ وَإِكْرَامُ الطَّائِعِينَ يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّتِهِمْ وَعِقَابُ الْكَافِرِينَ يَدُلُّ عَلَى بُغْضِهِمْ كَمَا قَدْ ثَبَتَ بِالشَّهَادَةِ وَالْخَبَرِ : مِنْ إكْرَامِ أَوْلِيَائِهِ وَعِقَابِ أَعْدَائِهِ وَالْغَايَاتُ الْمَحْمُودَةُ فِي مَفْعُولَاتِهِ وَمَأْمُورَاتِهِ – وَهِيَ مَا تَنْتَهِي إلَيْهِ مَفْعُولَاتُهُ وَمَأْمُورَاتُهُ مِنْ الْعَوَاقِبِ الْحَمِيدَةِ – تَدُلُّ عَلَى حِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ ؛ كَمَا يَدُلُّ التَّخْصِيصُ عَلَى الْمَشِيئَةِ وَأَوْلَى لِقُوَّةِ الْعِلَّةِ الْغَائِيَّةِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ بَيَانِ مَا فِي مَخْلُوقَاتِهِ مِنْ النِّعَمِ وَالْحِكَمِ : أَعْظَمُ مِمَّا فِي الْقُرْآنِ مِنْ بَيَانِ مَا فِيهَا مِنْ الدَّلَالَةِ عَلَى مَحْضِ الْمَشِيئَةِ ﴾

التوضيح :

هذا الجواب مبني على منع قولهم بأن العقل لا يدل على غير تلك الصفات السبع ، بل نستطيع أن ندلل على باقي الصفات بنظير ما دللتم به على تلك الصفات من العقليات فنقول :

📄 إثبات صفة الرحمة عقلا : يدل عليها نفع العباد بالإحسان إليهم كدلالة التخصيص على المشيئة عندكم .

- إثبات صفة المحبة عقلا : يدل عليها إكرام الطائعين في الدنيا والآخرة.

- إثبات صفة البغض عقلا : يدل عليها عقاب الكافرين عاجلا وآجلا .

وهذا الإكرا م والعقاب ثابتان في الواقع و الشرع كما قال شيخ الإسلام : ﴿ كَمَا قَدْ ثَبَتَ بِالشَّهَادَةِ وَالْخَبَرِ : مِنْ إِكْرَامِ أَوْلِيَائِهِ وَعِقَابِ أَعْدَائِهِ﴾ إما واقعا وإما حكاية في كتابه .

- إثبات صفة الحكمة عقلا :والحكمة وضع الشيء في موضعه المناسب لغاياته المحمودة ودلالة الغايات المحمودة القدرية ـ الكونية ـ منها والشرعية ظاهرة على حكمة الله الخالق المشرع ﷻ .

قوله : ﴿ والغايات المحمودة ﴾ : وضحها بقوله : ﴿ وهي ما تنتهي إليه مفعولاته ومأموراته من العواقب الحميدة﴾ .

ودلالة العواقب الحميدة على الحكمة التي ينازع فيها الأشاعرة كدلالة التخصيص على الإرادة ، بل دلالة الغايات الحميدة على الحكمة أظهر وأقوى من دلالة التخصيص على الإرادة .

- بيان ذلك : أن العلة نوعان[١] :ـ

١) علة فاعلية : وهي سبب وجود الشيء ، فيقال علة وجود الخلق قدرة الله التي باشرت فعل الشيء .والإرادة جزء العلة الفاعلة . فمع اجتماع كل من الإرادة الجازمة والقدرة التامة يتحقق المراد .

---

١ ـ انظر معيار العلم في فن المنطق ص : ٣١٢ ، والتعريفات : ص ١٥٤

٢) علة غائية : وهي الغاية والحكمة من وجود الشيء . فيقال علة إيجاد الخلق عبادة الله ﷻ . وهي الباعث على إيجاد الشيء قبل وجوده والغرض والغاية منه بعد وجوده . سواء في الإرادة الكونية أم الشرعية .

والعلة الغائية هي الأكثر في القرآن وتكون مقترنة باللام وهي لام التعليل التي ينكرها نفاة الحكمة ـ من الأشاعرة وغيرهم ـ وهي أقوى من الإرادة لأنها الباعث على إيجاد الشيء قبلا والغرض من وجوده بعدا فمن أجلها حصل الشيء ، وليست الإرادة إلا جزء العلة الفاعلة ومن هنا كانت دلالة الغايات المحمودة على الحكمة أظهر من دلالة التخصيص على الإرادة

و لأهمية الحكمة وتفوقها على الإرادة كانت هي الأكثر ذكرا في القرآن:
فمن الحكم الشرعية قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات : [٥٦] ومن الحكم الكونية : ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ النحل : [٨] وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ النحل : [١٤]

وقوله : وَمِنْ ﴿ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ الروم : [٤٦] وغيرها كثير .

ومن الإرادة قوله تعالى : إِنَّمَآ ﴿ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ يس : [٨٢] وباستقراء الآي تجد أن الحكمة أكثر ورودا .

ثانيا : مناقشة المعتزلة :

قوله : ﴿وَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِمَّنْ يُنْكِرُ الصِّفَاتِ وَيُقِرُّ بِالْأَسْمَاءِ كَالْمُعْتَزِلِيِّ الَّذِي يَقُولُ : إِنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ وَيُنْكِرُ أَنْ يَتَّصِفَ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ قِيلَ لَهُ : لَا فَرْقَ بَيْنَ إِثْبَاتِ الْأَسْمَاءِ وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ فَإِنَّكَ إِنْ قُلْت : إِثْبَاتُ الْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ يَقْتَضِي تَشْبِيهًا أَوْ تَجْسِيمًا لِأَنَّا لَا نَجِدُ فِي الشَّاهِدِ مُتَّصِفًا بِالصِّفَاتِ إلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ قِيلَ لَك : وَلَا تَجِدُ فِي الشَّاهِدِ مَا هُوَ مُسَمًّى حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ إلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ فَإِنْ نَفَيْت مَا نَفَيْت لِكَوْنِك لَمْ تَجِدْهُ فِي الشَّاهِدِ إلَّا لِلْجِسْمِ فَانْفِ الْأَسْمَاءَ بَلْ وَكُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّك لَا تَجِدُهُ فِي الشَّاهِدِ إلَّا لِلْجِسْمِ فَكُلُّ مَا يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ نَفَى الصِّفَاتِ يَحْتَجُّ بِهِ نَافِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ؛ فَمَا كَانَ جَوَابًا لِذَلِك كَانَ جَوَابًا لِمُثْبِتِي الصِّفَاتِ﴾

التوضيح :

سبق الكلام عن المعتزلة ومذهبهم وأصولهم ، وأنهم يثبتون الأسماء دون الصفات فيقال لهم : لا فرق بين إثبات الأسماء وإثبات الصفات .

ـ(شبهة المعتزلي) : إثبات الصفات كالحياة والعلم والقدرة تقتضي تشبيها وتجسيما لأننا لا نجد في الشاهد ـ أي في الموجودات المشاهدة ـ متصفا بهذه الصفات إلا ما هو جسم .

ـ(جواب أهل السنة) : إننا لا نجد أيضا في الشاهد ماهو مسمى بالحيّ أو العليم أو القدير إلا ماهو جسم ، وحينئذ يلزم من قولك واحد من لوازم ثلاثة ؛

لازمان باطلان هما التعطيل والتمثيل ولازم حق هو قول أهل السنة وهو إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل . وبيانها كالتالي :

١) نفي الأسماء والصفات جميعا . لأنك لا تجد موصوفا أو مسمى بأسماء إلا ماهو جسم ، بل ويلزمك نفي كل شيء كالوجود والقيام بالنفس لأنك لا تجد قائما بنفسه إلا ما هو جسم .

٢) إثبات الجميع مع اعتقاد التشبيه بالأجسام . وهذا باطل أيضا عندنا وعندك ، بل هو العمدة عندك في نفي الصفات .

٣) إثبات الجميع دون تشبيه ولا تعطيل على ما يليق بالله تعالى فهو الحق الخالي عن التناقض .

ولذلك قال الإمام الطبري في رده عليهم : (فإن كان المقرّ عندهم بأنه مقر بإثباته ووجوده فكذلك المقر بأنه عالم مقر بإثبات علم له .. وسائر صفاته ... وكذلك القول في القدرة والكلام والإرادة)[1]

فكل ما يحتجّ به من نفى الصفات ـ وهم المعتزلة ـ يحتجّ به من نفى الأسماء الحسنى ـ كالجهمية وغيرهم ـ فما كان جوابا للمعتزلة على الجهمية في إثبات الأسماء فهو بعينه جوابنا على المعتزلة في إثبات الصفات الإلهية .

ثالثا : مناقشة الجهمية ومن وافقهم :

وهم على ثلاث فرق : الجهمية الغلاة ، وغلاة الغلاة من الباطنية ، والفلاسفة .

---

١ ـ التبصير في معالم الدين ص : ١٢٩ .

أولا : الجهمية الغلاة : ـ

قوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِنْ الْغُلَاةِ نُفَاةِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَقَالَ لَا أَقُولُ : هُوَ مَوْجُودٌ وَلَا حَيٌّ وَلَا عَلِيمٌ وَلَا قَدِيرٌ ؛ بَلْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لِمَخْلُوقَاتِهِ إذْ هِيَ مَجَازٌ لِأَنَّ إثْبَاتَ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ بِالْمَوْجُودِ الْحَيِّ الْعَلِيمِ القدير قِيلَ لَهُ : كَذَلِكَ إذَا قُلْت : لَيْسَ بِمَوْجُودِ وَلَا حَيٍّ وَلَا عَلِيمٍ وَلَا قَدِيرٍ كَانَ ذَلِكَ تَشْبِيهًا بِالْمَعْدُومَاتِ وَذَلِكَ أَقْبَحُ مِنْ التَّشْبِيهِ بِالْمَوْجُودَاتِ ﴾

التوضيح :

كلامه الآن عن الجهمية وقد سبق الكلام عنهم ووصفهم بالغلاة لنفيهم الأسماء والصفات فقال:

- أولا : اعتقاد الجهمي : لا أقول موجود ولا حي ولا عليم ولا قدير بل هذه الأسماء لمخلوقاته أو هي مجرد مجازات لا حقيقة لها .
- ثانيا : شبهته في ذلك : ان الإثبات يستلزم التشبيه بالموجودات الحية العليمة القديرة .
- ثالثا : الجواب عن شبهتهم من وجهين :

الأول : على فرض التسليم بأن الإثبات يستلزم التشبيه بالموجودات فكذلك النفي يستلزم التشبيه بالمعدومات . والتشبيه بالمعدومات أقبح من التشبيه بالموجودات .

الوجه الثاني : على فرض المنع ـ ولم يذكره شيخ الإسلام هنا ولكنه مفهوم من خلال الرسالة سابقا ولاحقا ـ وهو أن إثبات الأسماء والصفات لا يستلزم التشبيه وغاية ما يستلزم هو إثبات القدر المشترك الكلي عند الإطلاق لكل من الخالق والمخلوق وهذا القدر المشترك الذهني لايستلزم التشبيه والتمثيل لأنه لايوجد

في الخارج إلا مضافا إما إلى الخالق أو إلى المخلوق ، وعند الإضافة يكون لكل من الخالق والمخلوق نصيب من هذا المشترك يتناسب مع ذاته . فالخالق له حظ من الوجود غير الحظ الذي للمخلوق فخصوصيات الوجود الواجب مختلفة عن خصوصيات الوجود الممكن .

قال أبو احسن الأشعري : (وأن وصفه بذلك لا يوجب تشبيهه لمن وصف من خلقه بذلك من قبل أن الشيئين لا يشبهان بغيرهما ولا باتفاق أسمائهما وإنما يشبهان بأنفسهما . فلما كانت نفس الباري تعالى غير مشبهة بشيء من العالم ... لم يكن وصفه بأنه حي وقادر وعالم يوجب تشبهه بمن وصفناه بذلك منا ...)[1] إلى آخر كلامه .وهو كلام فصل جزل.

ثانيا : غلاة الغلاة من الباطنية :

قوله : ﴿ فَإِنْ قَالَ : أَنَا أَنْفِي النَّفْيَ وَالْإِثْبَاتَ قِيلَ لَهُ : فَيَلْزَمُكَ التَّشْبِيهُ بِمَا اجْتَمَعَ فِيهِ النَّقِيضَانِ مِنْ الْمُمْتَنِعَاتِ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ مَوْجُودًا مَعْدُومًا أَوْ لَا مَوْجُودًا وَلَا مَعْدُومًا وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ يُوصَفُ ذَلِكَ بِاجْتِمَاعِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ أَوْ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ أَوْ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ أَوْ يُوصَفُ بِنَفْيِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ وَنَفْيِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَنَفْيِ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ فَإِنْ قُلْت إنَّمَا يَمْتَنِعُ نَفْيُ النَّقِيضَيْنِ عَمَّا يَكُونُ قَابِلًا لَهُمَا وَهَذَانِ يَتَقَابَلَانِ تَقَابُلَ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ ؛ لَا تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ فَإِنَّ الْجِدَارَ لَا يُقَالُ لَهُ أَعْمَى وَلَا بَصِيرٌ وَلَا حَيٌّ وَلَا مَيِّتٌ إذْ لَيْسَ بِقَابِلِ لَهُمَا ﴾

١ ـ رسالة إلى أهل الثغر : ص ٦٣ .

التوضيح :

سبق بيان مذهب الباطنية وهو أنهم ينفون عن الله ﷻ النفي والإثبات فيقولون (لا موجود ولا معدوم) وشبهتهم أن الإثبات تشبيه بالموجودات والنفي تشبيه بالمعدومات .

مناقشة الباطنية :

يقال لهم : يلزمك بنفيك للنفي والإثبات التشبيه بالممتنعات من نحو ما اجتمع فيه النقيضان ومثله ماارتفع عنه النقيضان، فيمتنع أن يكون الشيء لا موجودا ولامعدوما ولا حيا ولا ميتا كما يمتنع أن يكون الشيء الواحد موجودا معدوما في آن واحد وحيا وميتا في آن واحد . ففررت من التشبيه بالموجودات أو المعدومات ووقعت في التشبيه بالممتنعات وهو أشنع صور التعطيل وأبشع أنواع التضليل .

اعتراض الباطنية :

هذا اعتراضهم المشهور وهو مبني على مقدمات ثلاث ونتيجة :

الأولى : أن نفي النقيضين إنما يمتنع عما يكون قابلا للنقيضين

الثانية : أن التقابل بين الوجود والعدم أو العلم والجهل أو الحياة والموت هو من تقابل الملكة والعدم فلا إحالة في ارتفاع كلا المتقابلين عن المحل غير القابل لهما.

الثالثة : أن الله ﷻ ليس بقابل لهذه المتقابلات أصلا .

- والنتيجة عندهم : أن الله ﷻ لا يمتنع في حقه ارتفاع النقيضين لأنه ليس بقابل لهما أصلا .

وهذا الاعتراض ذكره شيخ الإسلام هنا وسيذكره مرتين ويفصل الرد عليه في القاعدة السابعة .

الجواب على الاعتراض من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : على فرض المنع :

قوله : ﴿ قِيل لَك : أَوَّلًا :. هَذَا لَا يَصِحُّ فِي الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ فَإِنَّهُمَا مُتَقَابِلَانِ تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ ؛ فَيَلْزَمُ مِنْ رَفْعِ أَحَدِهِمَا ثُبُوتُ الْآخَرِ وَأَمَّا مَا ذَكَرْته مِنْ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ : فَهَذَا اصْطِلَاحٌ اصْطَلَحَتْ عَلَيْهِ الْمُتَفَلْسِفَةُ الْمَشَّاءُونَ وَالِاصْطِلَاحَاتُ اللَّفْظِيَّةُ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ الْحَقَائِقِ الْعَقْلِيَّةِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ؟ ﴾ فَسَمَّى الْجَمَادَ مَيِّتًا وَهَذَا مَشْهُورٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ ﴾

التوضيح :

هذه الأصناف المتقابلة التي نفاها الباطنية على نوعين :

الأول : الوجود والعدم : و التقابل بينهما لا يصح كونه من تقابل الملكة والعدم لأنهما من قبيل السلب والإيجاب فهما نقيضان عند عامة العقلاء فيستحيل أن يكون شيء ما موصوفا بالوجود والعدم معا كما يستحيل أن يخلو شيء عنهما فلاهو موجود ولاهو معدوم .

النوع الآخر : تقابل الحياة والموت أو العلم والجهل : فاعتباره من تقابل الملكة وعدمها اصطلاح أحدثه الفلاسفة المشاؤون[1] ـ وهم أتباع أرسطو وسموا بذلك لأنه كان يلقي الدرس وهو يتمشى والتلاميذ يسيرون حوله[2] ـ وهذا الاصطلاح مردود لوجوه منها :

---

١ ـ بغية المرتاد ص : ١٧٢

٢ ـ تاريخ الفلسفة ليوسف كرم ص : ١١٢ ومابعدها : مستفاد من تحقيق التدمرية للسعوي ص:٣٧ .

أولا : أنه معلوم عقلا أن ماليس بحي فهو ميت وماليس بعالم فهو جاهل والاصطلاحات لا تدل على نفي الحقائق العقلية الثابتة .

ثانيا : أن الله وصف الجمادات بالموت ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ النحل :[٢١]

ثالثا : أن تسمية الجمادات بالأموات مشهور في لغة العرب كتسميتهم الأرض الجرداء بالميتة ويقال إحياء الموات وغيره كثير[١] .

رابعا : أن تصنيف الصفات المتقابلة إلى النقائض والأضداد و الملكات والإضافات أمر اصطلاحي وليس برهانا علميا كما سيأتي نقضه في القاعدة السابعة .

الوجه الثاني : على فرض التسليم .

قوله : ﴿ وَقِيلَ لَك ثَانِيًا : فَمَا لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْعَمَى وَالْبَصَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْمُتَقَابِلَاتِ أَنْقَصُ مِمَّا يَقْبَلُ ذَلِكَ - فَالْأَعْمَى الَّذِي يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِالْبَصَرِ أَكْمَلُ مِنْ الْجَمَادِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ وَاحِدًا مِنْهُمَا فَأَنْتَ فَرَرْت مِنْ تَشْبِيهِهِ بِالْحَيَوَانَاتِ الْقَابِلَةِ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَوَصَفْته بِصِفَاتِ الْجَامِدَاتِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ ذَلِكَ وَأَيْضًا فَمَا لَا يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ : أَعْظَمُ امْتِنَاعًا مِنْ الْقَابِلِ لِلْوُجُودِ وَالْعَدَمِ ؛ بَلْ وَمِنْ اجْتِمَاعِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ وَنَفْيِهِمَا جَمِيعًا فَمَا نَفَيْت عَنْهُ قَبُولَ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ . كَانَ أَعْظَمَ امْتِنَاعًا مِمَّا نَفَيْت عَنْهُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ وَإِذَا كَانَ هَذَا مُمْتَنِعًا فِي صَرَائِحِ الْعُقُولِ فَذَاكَ أَعْظَمُ امْتِنَاعًا ؛ فَجَعَلْت الْوُجُودَ الْوَاجِبَ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعَدَمَ هُوَ أَعْظَمُ الْمُمْتَنِعَاتِ وَهَذَا غَايَةُ التَّنَاقُضِ وَالْفَسَادِ ﴾

١ ـ لسان العرب: (٢ / ٩٣)

التوضيح :

على التسليم بأن التقابل بين هذه الصفات من تقابل الملكة وعدمها سواء مطلقا أو في حق الله فقط ، وأن الله تبارك وتعالى ليس محلا قابلا للملكة وبالتالي فإنه يصح عنه نفي هذه المتقابلات كما يصح نفي العمى والبصر والعلم والجهل عن الحجر مثلا .

فإنه يترتب على هذا القول من اللوازم الباطلة أشنع مما يترتب على إثبات كونه محلا قابلا للملكة وضدها . ولا شك أن بطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم . فمن تلك اللوازم الباطلة :

١) : أن الخالق أنقص من المخلوق الناقص .

بيانه : أنه بناء على تقسيمهم فإن الموجودات باعتبار كونها محلا للملكة قسمان :

قسم قابل للملكة وقسم غير قابل . والقسم القابل للملكة أفراده إما أن يكون متصفا بالملكة أو لا. ولنأخذ ملكة الإبصار مثلا فالموجودات قسمان قسم لديه تلك الملكة كالبشر وقسم ليس لديه تلك الملكة كالحجر ، والقسم الأول بدوره أفراده نوعان إما مبصر وإما أعمى

ولا إشكال أن المبصر أكمل من الأعمى لأن صفة العمى صفة نقص وصفة الأبصار صفة كمال . ولاشك أن الموجود الذي لديه ملكة الإبصار ـ وإن كان أعمى ـ أكمل من فاقد تلك الملكة لأن من يجوز في حقه أن يتصف بصفة الكمال أكمل ممن يمتنع ذلك في حقه. فصارت الموجودات على ثلاث مراتب : أدناها فاقد الملكة وأوسطها القابل للملكة الفاقد لصفة الكمال وأعلاها القابل للملكة الواجد لصفة الكمال . وفي مثالنا أدناها الحجارة وأوسطها العميان وأعلاها المبصرون .

فهؤلاء فروا من وصف الله بصفة الكمال وهي أعلى المراتب فوقعوا في وصفه بصفة أدنى مراتب الموجودات وهي الفاقد لأصل القابلية للاتصاف بصفة الكمال .

٢) أن الخالق أنقص من المعدومات .

ولو اقتصروا على نفي هذه الصفات التي صنفها المشاؤون تحت الملكة وعدمها لكفاهم غلوا ولكنهم شطوا وراء ذلك فسلبوا عنه النقيضين فلم يقنعوا بوصف ربهم بشيء من الأوصاف التي تتفرع عن الوجود وهي المراتب الثلاث السابقة . بل لم يرتضوا له إلا أدنى مراتب التصورات الذهنية فإن التصورات الذهنية منها ما يقبل الوجود في الخارج ومنها مالا يقبله وهو الممتنع ، والذي يقبل الوجود إما أنه وجد فعلا وهو الموجود وإما أنه لم يوجد فهو المعدوم فهذه ثلاث مراتب لما يتصوره الذهن أعلاها الموجودات وأوسطها المعدومات وأدنى الممتنعات فأبى القوم لربهم إلا أدنى مراتب الوجود بل أدنى مراتب الصور الذهنية فاستحقوا بذلك وصف الشيخ بأنهم غلاة الغلاة . إذ لا يتصور غلو بعد هذا .

وقد سبق ترتيب الأشياء حسب الوجود والعدم إمكانا ووقوعا كمايلي :

١ ـ واجب الوجود .　　　٢ ـ الموجود الممكن

٣ ـ المعدوم الممكن .　　　٤ ـ المعدوم الممتنع .

والممتنع هذا يرجع امتناعه لأحد أمور ثلاثة :

أ ـ لعدم قبول النقيضين . كامتناع وجود شيء غير قابل للاتصاف بالوجود أو العدم . وهو أعظمها امتناعا .

ب ـ ولاجتماع النقيضين فيه .كامتناع وجود شيء موجود معدوم في آن واحد .

ج ـ ولارتفاع النقيضين عنه .كامتناع وجود شيء لاهو موجود ولاهو معدوم .

وهؤلاء لازم قولهم أن يكون واجب الوجود ممتنع الوجود لثلاثة أمور :ـ

ـ أما الأول فلأنهم قالوا : إن الوجود والعدم من الملكة والعدم والله ليس محلا لها .

ـ وأما الثاني فلأنهم يعتقدون أنه موصوف بالنقيضين لأن وصفي (لاموجود) و (لا معدوم) نقيضان .

ـ وأما الثالث فلانهم رفعوا عنه النقيضين وهما الوجود والعدم فقالوا لا موجود ولا معدوم .

استطراد في بيان أقسام الباطنية :

قوله : ﴿ وَهَؤُلَاءِ الْبَاطِنِيَّةُ مِنْهُمْ مَنْ يُصَرِّحُ بِرَفْعِ النَّقِيضَيْنِ : الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ ؛ وَرَفْعُهُمَا كَجَمْعِهِمَا . وَمَنْ يَقُولُ لَا أُثْبِتُ وَاحِدًا مِنْهُمَا فَامْتِنَاعُهُ عَنْ إثْبَاتِ أَحَدِهِمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا يَمْنَعُ تَحَقُّقَ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَإِنَّمَا هُوَ كَجَهْلِ الْجَاهِلِ وَسُكُوتِ السَّاكِتِ الَّذِي لَا يُعَبِّرُ عَنْ الْحَقَائِقِ﴾

التوضيح :

استطرد شيخ الإسلام هنا في بيان قسمين للباطنية مع أنه لم تكتمل وجوه الرد ، فقال :ـ

الباطنية قسمان : ـ

الأول : من يصرح برفع النقيضين وهم من سبق الرد عليهم .

الثاني : من يمتنع من إثبات الوجود ويمتنع من إثبات العدم .

والرد على القسم الثاني :

أن امتناعه عن الإثبات لا يمنع تحقق أحدهما في الحقيقة وإنما امتناعه كجهل الجاهل وسكوت الساكت لا يعبر عن الحقائق نفيا ولا إثباتا ، قال شيخ الإسلام

في شرح حديث النزول : (فامتناعك من إثبات أحد النقيضين لا يستلزم رفع النقيضين في نفس الأمر فإن النقيضين لا يمكن رفعهما بل في نفس الأمر لا بد أن يكون الشيء إما موجودا وإما ألا يكون ، وليس بين النفي والإثبات واسطة أصلا .. فإعراض الإنسان عن رؤية الشمس والقمر والكواكب والسماء لا يدفع وجودها ولا يرفع ثبوت أحد النقيضين)[1] ، وهذا كلام نفيس يدل على وحدة المنهج في مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

تكملة الجواب على اعتراض الباطنية :

٣) اللازم الثالث من الوجه الثاني :

قوله : ﴿وَإِذَا كَانَ مَا لَا يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَلَا الْعَدَمَ أَعْظَمَ امْتِنَاعًا مِمَّا يُقَدَّرُ قَبُولُهُ لَهُمَا – مَعَ نَفْيِهِمَا عَنْهُ – فَمَا يُقَدَّرُ لَا يَقْبَلُ الْحَيَاةَ وَلَا الْمَوْتَ وَلَا الْعِلْمَ وَلَا الْجَهْلَ وَلَا الْقُدْرَةَ وَلَا الْعَجْزَ وَلَا الْكَلَامَ وَلَا الْخَرَسَ وَلَا الْعَمَى وَلَا الْبَصَرَ وَلَا السَّمْعَ وَلَا الصَّمَمَ : أَقْرَبُ إِلَى الْمَعْدُومِ الْمُمْتَنِعِ مِمَّا يُقَدَّرُ قَابِلًا لَهُمَا – مَعَ نَفْيِهِمَا عَنْهُ – وَحِينَئِذٍ فَنَفْيُهُمَا مَعَ كَوْنِهِ قَابِلًا لَهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْوُجُودِ وَالْمُمْكِنِ وَمَا جَازَ لِوَاجِبِ الْوُجُودِ – قَابِلًا – وَجَبَ لَهُ ؛ لِعَدَمِ تَوَقُّفِ صِفَاتِهِ عَلَى غَيْرِهِ ؛ فَإِذَا جَازَ الْقَبُولُ وَجَبَ ؛ وَإِذَا جَازَ وُجُودُ الْقَبُولِ وَجَبَ وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وبيّنَ وُجُوب اتِّصَافِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي لَا نَقْصَ فِيهَا بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ﴾

التوضيح

هذه العبارة تعتبر اللازم الثالث من اللوازم الفاسدة على اعتراض الباطنية ـ على فرض التسليم باعتراضهم ـ في تجويز نفي المتقابلات عن رب البريات بدعوى خلو المحل من القابلية للملكة وحاصله :

---

١ ـ شرح حديث النزول ص : ١٢٢ .

أنه قد سبق لنا بيان أن مالايقبل النقيضين أعظم امتناعا مما يُقدّر قبوله لهما مع نفيهما عنه ، مع أن كليهما محال في نفس الأمر ، لكن عدم قبوله للنقيضين أشد امتناعا من قبوله لهما مع نفيهما عنه ، ومقتضى ذلك : أن نفيهما عنه مع تقديره قابلا لها أقرب إلى الإمكان ، هذا على فرض التسليم بالامتناع وإلا فهي ممكنة في حق الله ﷻ لعدم الاستحالة العقلية ، وماكان مقبولا لله تعالى فإنه يصبح واجبا في حقه ، فكل ما جاز في حقه وكان كمالا مطلقا فإنه متصف به ﷻ لا محالة ، وهذه من القواعد العقلية التي برهن عليها شيخ الإسلام في رسالته الأكملية حيث قال : (فَإِذَا كَانَ الْكَمَالُ الْمُمْكِنُ الْوُجُودَ مُمْكِنًا لِلْمَفْضُول فَلِأَنْ يُمْكِنَ لِلْفَاضِلِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى ؛ لِأَنَّ مَا كَانَ مُمْكِنًا لِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ نَاقِصٌ فَلِأَنْ يُمْكِنَ لِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ أَكْمَلُ مِنْهُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى لَا سِيَّمَا وَذَلِكَ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَيَمْتَنِعُ اخْتِصَاصُ الْمَفْضُول مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بِكَمَال لَا يَثْبُتُ لِلْأَفْضَلِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بَلْ مَا قَدْ ثَبَتَ مِنْ ذَلِكَ لِلْمَفْضُول فَالْفَاضِلُ أَحَقُّ بِهِ ؛ فَلِأَنْ يَثْبُتَ لِلْفَاضِلِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى . وَلِأَنَّ ذَلِكَ الْكَمَالَ إنَّمَا اسْتَفَادَهُ الْمَخْلُوقُ مِنْ الْخَالِقِ وَاَلَّذِي جَعَلَ غَيْرَهُ كَامِلًا هُوَ أَحَقُّ بِالْكَمَال مِنْهُ ... وَإِذَا ثَبَتَ إمْكَانُ ذَلِكَ لَهُ ؛ فَمَا جَازَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ الْكَمَال الْمُمْكِنِ الْوُجُودَ فَإِنَّهُ وَاجِبٌ لَهُ... بَلْ مَا جَازَ لَهُ مِنْ الْكَمَال وَجَبَ لَهُ كَمَا أَقَرَّ بِذَلِكَ الْجُمْهُورُ مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّصَوُّفِ وَالْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ وَغَيْرِهِمْ ؛ .... وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَحَقُّ بِالْكَمَال مِنْ غَيْرِهِ وَأَنَّ غَيْرَهُ لَا يُسَاوِيهِ فِي الْكَمَالِ فِي مِثْلِ قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ النحل :[١٧] وَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ الْخَلْقَ صِفَةُ كَمَال وَأَنَّ الَّذِي يَخْلُقُ أَفْضَلُ مِنْ الَّذِي لَا يَخْلُقُ وَأَنَّ مَنْ عَدَلَ هَذَا بِهَذَا فَقَدْ ظَلَمَ ...) [1]

---

١ ـ الرسالة الأكملية ص : ١٢ ـ ١٤ مفردة بتحقيق : أحمد حمد إمام .

إذن فكل كمال جاز في حقه ﷻ فيكون واجبا له ﷻ .

ومثاله : العلم والجهل : فكون الله ﷻ غير قابل لهما أعظم امتناعا من قبوله لهما مع نفيهما عنه ، فيكون قبوله لهما أقرب إلى الإمكان ، و العلم أكمل من الجهل وهو قابل له جائز في حقه فيكون اتصافه به واجبا لعدم توقف صفاته على غيره فهو سبحانه القيوم أي القائم بنفسه المقيم لغيره [1] .

الوجه الثالث في الجواب على اعتراض الباطنية :

قوله : ﴿ وَقِيلَ لَهُ أَيْضًا : اتِّفَاقُ الْمُسَمَّيَيْنِ فِي بَعْضِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ : لَيْسَ هُوَ التَّشْبِيهَ وَالتَّمْثِيلَ الَّذِي نَفَتْهُ الْأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّاتُ وَالْعَقْلِيَّاتُ وَإِنَّمَا نَفَتْ مَا يَسْتَلْزِمُ اشْتِرَاكَهُمَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِ الْخَالِقُ مِمَّا يَخْتَصُّ بِوُجُوبِهِ أَوْ جَوَازِهِ أَوْ امْتِنَاعِهِ ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَشْرَكَهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ وَلَا يَشْرَكَهُ مَخْلُوقٌ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَمَّا مَا نَفَيْته فَهُوَ ثَابِتٌ بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ وَتَسْمِيَتُك ذَلِكَ تَشْبِيهًا وَتَجْسِيمًا تَمْوِيهٌ عَلَى الْجُهَّالِ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ كُلَّ مَعْنًى سَمَّاهُ مُسَمٍّ بِهَذَا الِاسْمِ يَجِبُ نَفْيُهُ ؛ وَلَوْ سَاغَ هَذَا لَكَانَ كُلُّ مُبْطِلٍ يُسَمِّي الْحَقَّ بِأَسْمَاءٍ يَنْفِرُ عَنْهَا بَعْضُ النَّاسِ لِيُكَذِّبَ النَّاسُ بِالْحَقِّ الْمَعْلُومِ بِالسَّمْعِ وَالْعَقْلِ وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ : أَفْسَدَتْ الْمَلَاحِدَةُ عَلَى طَوَائِفِ النَّاسِ عَقْلَهُمْ وَدِينَهُمْ حَتَّى أَخْرَجُوهُمْ إلَى أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَالْجَهَالَةِ وَأَبْلَغِ الْغَيِّ وَالضَّلَالَةِ ﴾

---

١ ـ شرح الطحاوية ص٩١.

التوضيح :

قد سبق هذا الوجه وهو باختصار : أن اتفاق الشيئين في بعض الأسماء والصفات ليس هو التشبيه والتمثيل الذي نفته الأدلة النقلية والعقلية بين الخالق والمخلوق ، وإنما التشبيه المنفي هو الذي يستلزم اشتراك المخلوق فيما يختص به الخالق ، فما يجب على الله يختلف عما يجب على المخلوق كذلك ما يمتنع على الله يختلف عما يمتنع على المخلوق وهكذا الجواز ، فخصائص الخالق فيما يجب عليه ويمتنع ويجوز لا يمكن أن تشترك مع خصائص المخلوق فيما يجب عليه ويمتنع ويجوز يوضح ذلك الجدول التالي :

الصفات	في حق الله	في حق المخلوق
الواجبة	كل صفة كمال لا نقص فيها بوجه فالله متصف بها . كالحياة الأزلية والعلم الذاتي المحيط والقدرة المطلقة	صفات النقص كالافتقار إلى الله في الإيجاد والهداية والبقاء ، والضعف العام كما قال شيخ الإسلام : (الفقر لي وصف ذاتٍ لازم أبدا كما الغنى أبدا وصف له ذاتي)
الجائزة	كل صفة كمال متعلقة بالمشيئة كالكلام بالقرآن والنزول والمجيء والخلق	صفات الكمال كالعلم والسمع والبصر فهي ممكنة للمخلوق وليست واجبة له وفيها نقص من وجوه
الممتنعة	صفات النقص كالمرض والنوم والمماثلة للمخلوق	كل صفة اختص الله بها كالخلق من عدم و إدخال الجنة و كمال العلم

وأما ما نفاه هؤلاء فهو ثابت له ﷻ وإنما سموه تشبيها وتجسيما ليموهوا على العوام وينفروا الجهال عن إثبات صفات الجلال والجمال والكمال ، وبهذا

أفسدوا على الناس دينهم . وهذه طريقة أهل البدع قديما وحديثا فإنه يلقبون أهل السنة ومعتقداتهم بألقاب شنيعة لينفروا الناس عن الحق ، فمن ذلك رمي الجهمية لأهل السنة بالتشبيه والتجسيم ، وإطلاق الرافضة عليهم أنهم نواصب[١] ، والمرجئة[٢] بأنهم شكاكة [٣]، والقدرية بأنهم جبرية[٤] . قال ابن أبي حاتم[٥] : (وسمعت أبي[٦] يقول : وعلامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر ، وعلامة الزنادقة : تسميتهم أهل السنة حشوية [٧]، يريدون إبطال الآثار ، وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة ، وعلامة القدرية تسميتهم أهل السنة مجبّرة ، وعلامة المرجئة تسميتهم أهل السنة مخالفة ونقصانية[٨] ، وعلامة الرافضة تسميتهم أهل السنة ناصبة . ولا يلحق أهل السنة إلا اسم واحد ويستحيل أن تجمعهم هذه الأسماء)[٩]

---

١ ـ النواصب : من النصب وهو العداوة وتطلق على من أبغض عليا وأصحابه وناصبهم العداء ويدخل فيهم الخوارج ، أما الرافضة فيطلقون ذلك على أهل السنة لأنهم يتولون أبابكر وعمر كما سيأتي في الرسالة . مقالات الإسلاميين : (١ / ١٦٧)

٢ ـ المرجئة : من الإرجاء وهو التأخير سموا بذلك لإخراجهم العمل عن مسمى الإيمان ، وقيل لإفراطهم في الرجاء ،و هم فرق شتى من غلاتهم الجهمية . انظر الملل والنحل : (١ / ١٦١) ، الفرق بين الفرق ص : ١٨ .

٣ ـ الشكاكة :من الشك وهو ضد اليقين أطلقه المرجئة على أهل السنة لأنهم يجوزون الاستثناء في الإيمان . انظر الفتاوى : (٧/ ٤٢٩)

٤ ـ الجبرية : هم الذين يسلبون اختيار العبد ويقولون بأنه مجبور على فعله . وهم فرق كثيرة منهم الجهمية والأشاعرة . انظر لوامع الأنوار : (١ / ٩٠)

٥ ـ هو عبد الرحمن بن محمد بن إدريس أبو محمد الرازي إمام الجرح والتعديل كان ذا عبادة وسنة ، توفي سنة : ٣٢٧ . السير : (١٣ / ٢٦٣)

٦ ـ هو أبو حاتم محمد بن إدريس بن المنذر إمام حافظ توفي سنة : ٢٧٧ . السير : (١٣ / ٢٤٧)

٧ ـ الحشوية : مأخوذ من الحشو وهو الفضل الذي لا يعتمد عليه ، ومرادهم أنهم من العامة الذين هم حشو الناس أول من أطلقه على أهل السنة عمرو بن عبيد المعتزلي ، أطلقه فيما قيل على الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. الفتاوى : (٤ / ٢٣ ، ١٤٤ و ١٢ / ١٧٦)

٨ ـ النقصانية : لأن أهل السنة يقولون : إن الإيمان يزيد وينقص .

٩ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي : (١ / ١٧٩)

بل لقد أخذ هذا الزمان نصيبه من هذا الافتراءات فـأهل البـدع يلقبـون أهـل التوحيد والسنة بالوهابية وغير ذلك مما هو معلوم والله المستعان .

خلاصة أوجه الرد على الباطنية :

أولا :ـ على فرض المنع :

١ ـ منع كون الوجود والعدم من تقابل الملكة وعدمها .

٢ ـ تسمية الحياة والموت بالملكة والعدم مجرد اصطلاح مردود من وجوه .

ثانيا :ـ على فرض التسليم :

١ ـ ما لا يقبل الاتصاف بالملكة أنقص مما يقبلها .

٢ ـ كل كمال جاز في حق الله تعالى فهو واجب له .

٣ ـ الاتفاق في الأسماء ليس هو التشبيه الذي نفته الأدلة .

ثالثا: الرد على الفلاسفة وأتباعهم في شبهة التركيب:

قوله : ﴿ وَإِنْ قَالَ نُفَاةُ الصِّفَاتِ : إِثْبَاتُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ مُسْتَلْزِمٌ تَعَدُّدَ الصِّفَاتِ وَهَذَا تَرْكِيبٌ مُمْتَنِعٌ قِيلَ : وَإِذَا قُلْتُمْ : هُوَ مَوْجُودٌ وَاجِبٌ وَعَقْلٌ وَعَاقِلٌ وَمَعْقُولٌ وَعَاشِقٌ وَمَعْشُوقٌ وَلَذِيذٌ وَمُلْتَذٌّ وَلَذَّةٌ . أَفَلَيْسَ الْمَفْهُومُ مِنْ هَذَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ هَذَا ؟ فَهَذِهِ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ مُتَغَايِرَةٌ فِي الْعَقْلِ وَهَذَا تَرْكِيبٌ عِنْدَكُمْ وَأَنْتُمْ تُثْبِتُونَهُ وَتُسَمُّونَهُ تَوْحِيدًا فَإِنْ قَالُوا : هَذَا تَوْحِيدٌ فِي الْحَقِيقَةِ وَلَيْسَ هَذَا تَرْكِيبًا مُمْتَنِعًا قِيلَ لَهُمْ : وَاتِّصَافُ الذَّاتِ بِالصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ لَهَا تَوْحِيدٌ فِي الْحَقِيقَةِ ؛ وَلَيْسَ هُوَ تَرْكِيبًا مُمْتَنِعًا ﴾

التوضيح :

أولا : من شبه الفلاسفة ومن تبعهم من المعتزلة وغيرهم من نفاة الصفات :

دعوى أن إثبات الصفات لله مستحيل ،وبيانه عندهم في مقدمتين :

ـ الأولى :أن إثبات الصفات يستلزم التركيب[1] .

ـ الثانية : وواجب الوجوب ـ وهو الله ﷻ ـ يستحيل عليه التركيب .

ـ النتيجة : يستحيل إثبات الصفات لله تعالى .

* بيان المقدمة الأولى من وجهين:

الأول : أنكم ـ يا مثبتة الصفات ـ تزعمون أن الصفات متغايرة ، وأن الموصوف بها واحد ، وهذا يقتضي التركيب .

الثاني : أنكم تزعمون أن الصفة غير الموصوف وهذا تركيب .

فإثباتكم للصفات يستلزم التركيب باعتبارين باعتبار التغاير بين الصفات بعضها مع بعض وباعتبار التغاير بين الصفات وبين الذات . والتغاير هو التركيب .

وهاتان مسألتان محدثتان ضل بسببهما طوائف من النفاة أعني مسألة هل الصفات عين الذات وهل الصفات متغايرة .

* بيان المقدمة الثانية :

أن واجب الوجود بسيط غير مركب لأن تركبه من أجزاء يعني توقف وجوده على وجود أجزائه لأن المركب لا يوجد بما هو مركب إلا بعد وجود أجزائه جميعا وهذا يترتب عليه لوازم باطلة منها :ـ

١ـ التشبيه والتجسيم لأن التركيب من خصائص المخلوق عندهم .

---

١ ـ انظر درء التعارض : (٨/ ١٢٣) . منهاج السنة : (١/ ١٤٩). الملل والنحل : (١/ ٤٤)

٢ـ تعدد القدماء[1] ، لأن المركب إذا كان قديما فلا بد و أن أجزاءه كلها قديمة بقدمه . فكل صفة قديمة والذات قديمة فيتعدد القدماء . و للأسف فإن تعدد القدماء عندهم يعني الشرك الأكبر . ولذلك كانت أخص صفات الله عند القوم القدم وأخص صفات الخلق عندهم الحدوث والتركب .

٣ـ وصف الله بالافتقار إذ بناء على التركيب فإن ذاته تفتقر إلى صفاته الذاتية والفقر من أخص صفات المخلوق فكان تشبيها بالمخلوق . إلى لوازم أخرى ليس هذا مقام بسطها

قال الغزالي[2] في حكاية قول الفلاسفة : (التركيب بالصفات بتقدير العلم والقدرة والإرادة فإن هذه الصفات إن كانت واجبة الوجود كان وجوب الوجود مشتركا بين الذات وبين هذه الصفات ولزمت كثرة في واجب الوجود وانتفت الوحدة)[3] وقال التفتازاني[4] في حكاية قول المعتزلة : (لو كان موصوفا بصفات قائمة بذاته لكانت حقيقة الإلهية مركبة من تلك الذات والصفات)[5]

ثانيا : الرد عليهم .

وذلك من ثلاثة أوجه ذكر هنا الوجه الأول وتفصيله مايلي :

---

١ ـ وسيأتي شيخ الإسلام في القاعدة السادسة على هذه الشبهة وينقضها من أوجه أربعة

٢ ـ هو الملقب بحجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي انتحل مذهب الأشاعرة وغلا في التصوف توفي سنة ٥٠٥ ، تهذيب السير : (٢/ ٤٩٢)

٣ ـ تهافت الفلاسفة :ص١٦٣

٤ ـ هو سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني لغوي ومنطقي ماتريدي توفي سنة :٧٩١ . انظر : الدرر الكامنة لابن حجر :(٤/ ٣٥٠)

٥ ـ شرح المقاصد:(٤/ ٨٣) بواسطة الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم:(٢/ ١٥٦)

الوجه الأول : على فرض التسليم : (وهو رد على الفلاسفة) :ـ

أي على فرض التسليم بأنه تركيب فأنتم أيضا تقولون في الله هو موجود وعقل وعاقل ومعقول وعاشق ومعشوق ولذيذ وملتذ ولذة[1] ، وهذه المعاني متعددة متغايرة المعنى وأنتم تثبتونها ، فهو تركيب كذلك على مذهبكم وأنتم تسمونه توحيدا وهذا غاية الاضطراب .

ـ وهذه المعاني مع كونها دليلا عليهم لم يرد بها النص وفيها ما ينزه عنه ﷻ و لا يليق به ﷻ من النقص ، فالعقل : مأخوذ من المنع لأنه يضبط النفس لما فيها من القصور ، وهذا لا يليق وصف الله ﷻ به .

والعشق : هو الحب المفرط المتعلق بالشهوة وهذا باطل ينزه الله عنه .

واللذة : لم ترد بها النصوص الشرعية كذلك . فجميع هذه المعاني باطلة ، وإن تعسفوا في تفسيرها .

ـ(اعتراض) : إن قالوا :هذا الإطلاقات توحيد وليست تركيبا ممتنعا .

ـ(الجواب) : أن اتصاف الذات بالصفات اللازمة لها توحيد كذلك وليس بتركيب ممتنع ، بل هو أولى لدلالة النقل عليها وموافقة العقل لها كالعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر ونحوها .

الوجه الثاني : على فرض المنع :

قوله : ﴿ وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ فِي صَرِيحِ الْعُقُولِ أَنَّهُ لَيْسَ مَعْنَى كَوْنِ الشَّيْءِ عَالِمًا هُوَ مَعْنَى كَوْنِهِ قَادِرًا وَلَا نَفْسُ ذَاتِهِ هُوَ نَفْسُ كَوْنِهِ عَالِمًا قَادِرًا ؛ فَمَنْ جَوَّزَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصِّفَةُ هِيَ الْمَوْصُوفَ فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ سَفْسَطَةً ثُمَّ إنَّهُ مُتَنَاقِضٌ فَإِنَّهُ إنْ جَوَّزَ ذَلِكَ جَازَ أَنْ يَكُونَ وُجُودُ هَذَا هُوَ وُجُودَ هَذَا فَيَكُونُ الْوُجُودُ وَاحِدًا بِالْعَيْنِ لَا بِالنَّوْعِ وَحِينَئِذٍ فَإِذَا كَانَ وُجُودُ الْمُمْكِنِ هُوَ وُجُودَ

---

[1] ـ كما في النجاة لابن سينا :ص٢٢٧.

الْوَاجِبِ كَانَ وُجُودُ كُلِّ مَخْلُوقٍ يُعْدَمُ بعد وُجُودِهِ وَيُوجَدُ بَعْدَ عَدَمِهِ : هُوَ نَفْسُ وُجُودِ الْحَقِّ الْقَدِيمِ الدَّائِمِ الْبَاقِي الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعَدَمَ وَإِذَا قُدِّرَ هَذَا كَانَ الْوُجُودُ الْوَاجِبُ مَوْصُوفًا بِكُلِّ تَشْبِيهٍ وَتَجْسِيمٍ وَكُلِّ نَقْصٍ وَكُلِّ عَيْبٍ ؛ كَمَا يُصَرِّحُ بِذَلِكَ (أَهْلُ وَحْدَةِ الْوُجُودِ الَّذِينَ طَرَدُوا هَذَا الْأَصْلَ الْفَاسِدَ وَحِينَئِذٍ فَتَكُونُ أَقْوَالُ نُفَاةِ الصِّفَاتِ بَاطِلَةً عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ»

التوضيح :

هذا الجواب مبني على منع قولهم إن جميع الصفات بمعنى واحد و أنها هي عين ذاته لا شيئا زائدا ويكون المنع بالإبطال من ثلاثة وجوه :ـ

١) : أنه من المعلوم بصريح العقل الاختلاف بين كون الشيء عالما وبين كونه قادرا ، وبين نفس الذات ومعاني الصفات ، فإن كون الموصوف عالما قادرا أمر زائد على مجرد الذات . فمن جوز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى أو هذه الصفة هي الموصوف فهو من أعظم الناس سفسطة وتمويها ومكابرة لصريح المعقول وصحيح المنقول .

٢) :ثم في قولهم هذا تناقض واضح[١]، بيانه :ـ

أنه إن لم يكن للواجب ـ وهو الله ﷻ ـ صفات تميزه عن غيره لم يكن واجب الوجود ، لأن الشيء المجرد عن جميع الصفات ممتنع الوجود ، وما كان ممتنع الوجود لا يكون واجب الوجود ضرورة .

فاضطروا إلى إثبات صفة له وهي الوجوب لتمييزه عن سائر الموجودات الممكنة

فالتركيب بهذا المعنى لا بد منه لكل موجود لأن نفس كونه واجبا أو ممكنا صفة له تميزه عن غيره .ونفس هذا التركيب ينافي عندهم الوجوب لأن الواجب لا يكون إلا بسيطا فصار نفي التركيب ضروريا ـ عندهم ـ لوجود الواجب .

---

١ ـ انظر الفتاوى : (٦/ ٣٤٥)

٣) إذا جوزنا أن تكون الصفة عين الذات (عين الموصوف) جاز أن يكون وجود هذا هو وجود هذا ، وحيث إنهم في دعواهم لم يفرقوا بين الصفة اللازمة كالحياة والصفة المتعدية كالخلق ، فإذا كانت الصفة المتعدية كالخلق والإيجاد هي عين الخالق الموجِد صار محل الفعل وهو المخلوق عين الخالق إذ كانت الصفة المتعدية لا تقوم إلا بطرفين فاعل ـ وهو الخالق ـ وما وقع عليه الفعل وهو المخلوق فمقتضى كونها عين الخالق أن يكون المخلوق عين الخالق ، وهذا يقتضي أن الوجود واحد بالعين أي متحد بين الخالق ومخلوقاته وليس مشتملا على أفراد متنوعة . وهذا هو مدخل أهل وحدة الوجود[1] وهم الذين لا يثبتون وجودا متنوعا بل عندهم وجود واحد والخالق هو المخلوق تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وعليه يكون وجود الممكن المخلوق هو عين وجود الواجب الذي لا يقبل العدم ، وهذا القول هو الذي يفضي إليه زعمهم بأن الصفات عين الذات ، والله أعلم .

الوجه الثالث : الاستفصال :

وهذا جواب لم يأت به شيخ الإسلام في هذه الرسالة مع أنه كرره في مواضع من كتبه . وكان ينبغي تقديمه وإنما أخرته لعدم ذكره في الرسالة .و خلاصة هذا الوجه الاستفصال كمايلي :

إن لفظ التركيب أصبح من الألفاظ المحدثة و المجملة التي عارض بها المتبدعة النصوص ، وقد بين شيخ الإسلام حكم هذه الألفاظ المجملة بقوله : (والمقصود أن الأئمة الكبار كانوا يمنعون من إطلاق الألفاظ المبتدعة المجملة لما فيها من لبس الحق بالباطل مع ما توقعه في الاشتباه والاختلاف والفتنة)[2] وقال : (فمن لم يستفصل عنها المتكلمَ بها .. كما

---

١ ـ انظر بغية المرتاد ص : ٣٩٥ .

٢ ـ درء التعارض : (١ / ٢٧١)

كان السلف والأئمة يفعلون صار متناقضا أو مبتدعا من حيث لا يشعر)[1] وسيأتي تفصيل ذلك في القاعدة الثانية بإذن الله تعالى.

فيقال : التركيب له معان منها :

١ ـ المركب : ما كان متفرقا فركبه غيره ، وهذا لا يجوز وصف الله به ، بل لم يعتقده أحد من طوائف الأمة .

٢ ـ المركب : ما له أبعاض مختلفة ، ويقبل التفريق والانفصال والله تعالى مقدس عن ذلك .

٣ ـ المركب : ما يقبل الانقسام والتفريق وإن كان بسيطا غير مركب من أعضاء كالماء والله منزه عنه أيضا .

فهذه المعاني لا نختلف في نفيها مع الفلاسفة والمعتزلة ، ولكنهم لا يعنون بنفيهم للتركيب ما سبق ، بل لكل منهم اصطلاحات خاصة في لفظ التركيب أوجبوا نفيها وزعموا أن التوحيد لا يتم إلا بنفيها ، قال شيخ الإسلام : (وهؤلاء أحدثوا اصطلاحا لهم في التركيب لم يسبقهم إليه أحد من أهل اللغة ولا من طوئف أهل العلم)[2] ومنها :

ـ أن التركيب هو ما تركب من الذات والصفات كمسمى الحيّ والعالم والقادر وهذا إن سلمنا أنه تركيب فنفيه باطل كما سبق في الوجه الثاني[3] .

نتيجة الأصل الأول :

(وهو أن القول في بعض الصفات كالقول في بعض)

---

١ ـ المرجع السابق : (٢ / ١٠٤)

٢ ـ شرح حديث النزول ص : ٨٩ .

٣ ـ وللتوسع انظر ما سبق مع الفتاوى : (٦ /٣٤٦)،ودرء التعارض : (٥ / ١٤٥) ، وكتاب الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم في الصفات للدكتور عبد القادر محمد : (٣ / ٩٩) إلى آخر المجلد فقد جمع شبهات المبتدعة وأجوبة شيخ الإسلام عليها من مظانها .

قوله : ﴿ وَهَذَا بَابٌ مُطَّرِدٌ فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ النُّفَاةِ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ الصِّفَاتِ : لَا يَنْفِي شَيْئًا فِرَارًا مِمَّا هُوَ مَحْذُورٌ إِلَّا وَقَدْ أَثْبَتَ مَا يَلْزَمُهُ فِيهِ نَظِيرُ مَا فَرَّ مِنْهُ فَلَا بُدَّ فِي آخِرِ الْأَمْرِ مِنْ أَنْ يُثْبِتَ مَوْجُودًا وَاجِبًا قَدِيمًا مُتَّصِفًا بِصِفَاتٍ تُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ وَلَا يَكُونُ فِيهَا مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِ فَيُقَالُ لَهُ : هَكَذَا الْقَوْلُ فِي جَمْعِ الصِّفَاتِ وَكُلُّ مَا تُثْبِتُهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ : فَلَا بُدَّ أَنْ يَدُلَّ عَلَى قَدْرٍ تَتَوَاطَأُ فِيهِ الْمُسَمَّيَاتُ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا فُهِمَ الْخِطَابُ ؛ وَلَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّ مَا اخْتَصَّ اللَّهُ بِهِ وَامْتَازَ عَنْ خَلْقِهِ : أَعْظَمُ مِمَّا يَخْطِرُ بِالْبَالِ أَوْ يَدُورُ فِي الْخَيَالِ . ﴾

التوضيح :

كل من نفى الصفات الواردة في الكتاب والسنة فرارا من محذور كالتشبيه بالموجودات فإنه يلزمه نظير ما فرّ منه كالتشبيه بالجمادات أو المعدومات أو الممتنعات كما مرّت أمثلة ذلك تفصيلا . فلا بد في نهاية الأمر أن يثبت موجودا واجبا بنفسه متصفا بصفات تميزه عن غيره ، وإلا فكيف يحصل التمييز بين الخالق والمخلوق والخالق والمعدوم، وهذه الصفات لا تكون مماثلة لخلقة فيجب طرد هذا الباب في جميع الأسماء والصفات . وكما أن هذه الصفات لا تكون مماثلة لخلقه كذلك لا بد أن تتفق هذه الأسماء والصفات لله ﷻ في قدر مشترك مع الأسماء والصفات لخلقه وهو المعنى الكلي الذي تتواطأ فيه المسميات ، وفائدة هذا القدر المشترك هي فهم خطاب الله تعالى ولذلك ضل من جعل هذا القدر من المتشابه بل هو من أجل ماحوته نصوص الوحيين من المحكم لتعلقه بأعظم ما تضمنه الوحي وهو بيان صفات الله ﷻ ، وليعلم أن هذا القدر المشترك لا يستلزم الاتفاق في الكيفيات . ولكن مع هذا الاتفاق في اللفظ والمعنى العام فإننا نقطع بأن ما اختص به الخالق

جل وعلا من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال أعظم مما يخطر بالبال أو

يدور في الخيال[١] ، كما سيأتي في مثال الجنة .

وهذا الذي قيل لازم لجميع الطوائف لو تفكروا فيه بالعقول ، وتدبروا ما ورد به من المنقول

فقدّر الإله حق القدر ❊ وخالف البلبال[٢] في ذا الفكر[٣]

ويزيده اتضاحا ما سيقرره شيخ الإسلام في الأصل الثاني .

الأصل الثاني :
القول في الصفات كالقول في الذات

قوله : ﴿ وَهَذَا يَتَبَيَّنُ (بِالْأَصْلِ الثَّانِي وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : (الْقَوْلُ فِي الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي الذَّاتِ) ، فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ . فَإِذَا كَانَ لَهُ ذَاتٌ حَقِيقَةً لَا تُمَاثِلُ الذَّوَاتَ فَالذَّاتُ مُتَّصِفَةٌ بِصِفَاتٍ حَقِيقَةً لَا تُمَاثِلُ سَائِرَ الصِّفَاتِ ﴾

التوضيح :

معنى هذا الأصل أن ما يجب اعتقاده في الذات يجب اعتقاده في الصفات فكما أننا نثبت ذاتا لائقة بالله عزوجل فكذلك نثبت صفات لائقة بالله ﷻ وقد قلت في هذا الأصل في منظومتي الدرة الأثرية [٤] :

---

١ ـ انظر قريبا من ذلك كتاب الاختلاف في اللفظ للإمام ابن قتيبة : ص٤١. طبعة الكتب العلمية محشوة بسموم الكوثري الماتريدي كما ذكره شيخنا د. شمس الدين الأفغاني رحمه الله في كتابه الماتريدية: (٣/ ١٩)

٢ ـ البلبال : شدة الوسوسة والهمّ . القاموس المحيط : ص١٢٥١.

٣ ـ منظومتي الدرة السنية في تلخيص العقيدة السنية رقم :[٥٥]

٤ ـ الدرة الأثرية في تلخيص العقيدة السلفية ، البيت : [٣٥]

فربنــا منفــرد بــالذات * وهكــذا الإثبــات للصفــات

وقال صاحب الكفاية[١] :

وثاني الأصلين قـل والقـول في * صفاته كـالقول في الـذات يفـي

وقال ناظم مختصر خليل[٢] :

ومـا نقـول في صفـات قدسـه * فـرع الـذي نقولـه في نفسـه

وقد توافرت أقوال الأئمة في تأصيل هذا الأصل قبل شـيخ الإسـلام فكـان شيخ الإسلام من خير خلف لأولئك السلف أتباع الرسل فمـن هـذه الأقـوال مـا يلي :-

١) قال الإمام أبو الحسن الأشعري : (وأجمعوا على أن صفته ﷻ لا تشـبه صفات المحدثين كما أن نفسه لا تشـبه أنفـس المخلوقـين)[٣] ، فـالقول في الصفـات كالقول في الذات .

٢) وقال الإمام السجزي : (ومع ذلك فلازم لهم في إثبات الذات مثـل مـا يلزمون أصحابنا في الصفات)[٤]

٣) وقال الخطيب البغدادي[٥] : (والأصـل في هـذا أن الكـلام في الصفـات فرع عن الكلام في الذات ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله فإذا كان معلوما أن إثبـات

---

١ ـ الكفاية في العقيدة والفرق والمذاهب ص : ١٩ .

٢ ـ مجمل اعتقاد السلف ، ص : ١٦ ، رقم البيت : [٣٦]

٣ ـ رسالة إلى أهل الثغر ص : ٦٥ .

٤ ـ كلام السجزي في الرد على من أنكر الحرف والصوت ص : ١٨٥ .

٥ ـ هو الإمام أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد البغدادي الحافظ الشافعي له عدة مصنفات وكان إمام السنة في المشرق توفي سنة : ٤٦٣ . انظر طبقات الشافعية : (٣ / ١٢) والسير : (١٨ / ٢٧٠)

الباري ﷻ إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف)[1]

٤) وقال الإمام أبو القاسم التيمي[2]: (هذا لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، و إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية فكذلك إثبات الصفات .. ثم قال : .. وعلى هذا مضى السلف كلهم)[3]

ومرادهم بإثبات الوجود دون إثبات الكيفية أن الوحي في موارد إثبات وجود الله ووجود صفاته إنما هو بصدد إثبات الصفة لله لا إثبات كيفية اتصافه بها إذ علمنا بالكيفية فرع عن إحاطة علمنا بالموصوف ، وهو سبحانه لا تدركه الأبصار ولا تحيط به علوم البشر . فليس في عباراتهم ما يفيد إنكار الكيفية .

إلى غير ذلك مما اجتمع عليه سلف الأمة وعلماؤنا الأئمة .

ـ والكلام على هذه الفقرة يقع في مسائل :ـ

الأولى : من يردّ عليهم بهذا الأصل :

يرد الشيخ بهذا الأصل ـ الثاني ـ على جميع طوائف المبتدعة لأن الجميع يثبت الذات الإلهية ، فيشمل المعطلة بما فيهم المفوضة ، كما أنه يشمل الممثلة الخائضين في الكيفية .

١ ـ جواب الخطيب ص : ٦٤ . بتحقيق عزون ، وانظر السير : (١٨ / ٢٨٤) وذم التأويل ص : ١٥ ، والعلو ص : ٣٢٦ .

٢ ـ هو الإمام أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني التيمي الملقب بقوام السنة توفي سنة ٥٣٥ . انظر البداية والنهاية : (١٢ / ٢١٧) ،و السير : (٢٠ / ٨٠)

٣ ـ الحجة في بيان المحجة : (١ / ١٨٩)

الثانية : العلاقة بين الأصلين :ـ

هذان الأصلان الأول والثاني متقاربان ومن يرد عليهم بـالأول يـرد عليـهم بالثاني إلا أن هذا الأصل أعم لأنه يشمل الرد على المشبهة ، فبـدأ بـالأصل الأول ليقرر مبدأ إثبات الصفات إذ ما من معطل إلا ويثبـت شيئا مـن الصفـات فألزمـه بالأصل الأول طرد الإثبات لسائر الصفات، وبعد الفراغ من إثبات كـل الصفـات قرر الأصل الثاني ليبين به أن إثبات تلـك الصفـات لا يسـتلزم التشـبيه ، كمـا أن إثبات الذات لا يستلزم التشبيه . فقطب رحى هذه الأصول والقواعد هـو ماسبق من الإثبات بلا تمثيل والتنزيه بلا تعطيل .

الثالثة : معنى الذات :ـ

أصلها في اللغة : (ذات مؤنث ذو) بمعنى صاحب وصاحبة ثـم استعملت ذات الشيء بمعنى حقيقته وعينه[١] ، ومنه قول ابن عباس : (تفكـروا في كـل شـيء ولا تتفكروا في ذات الله)[٢] وقال التيميّ في الحجة[٣] : (فصل في بيان ذكـر الـذات وقال قوم من أهل العلم ذات الله حقيقته). واختلف في دخول (ال) عليها علـى قولين :

الأول : أنها تدخل عليها وهي عربية وهو قول جماعة من السلف .

الثاني : أنها لا تدخل عليها بل هي مما شاع عند المتأخرين فـهو لفـظ مولـد وهو قول المحققين واختاره شيخ الإسلام[٤] .

---

١ ـ مفردات القرآن للراغب ص : ٣٣٣ .

٢ ـ رواه البيهقي في الصفات باب : (ما يذكر في الذات) : (٢ / ٤٦) برقم : [٦١٨] وغيره ، وحسنه الحافظ في الفتح : (١٣ / ٣٨٣) والألباني في السلسلة الصحيحة : (٤ / ٣٩٦)

٣ ـ الحجة في بيان المحجة : (١ / ١٨٥)

٤ ـ الفتاوى : (٦ / ٣٤١) ، والفتح : (١٣ / ٣٨١)

ـ والصواب أنها تلتزم الإضافة وشواهده من الكتاب والسنة واللغة كثيرة منها مايلي :

١ ـ في القرآن :﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ آل عمران :[١٥٤]

٢ ـ ومن السنة قوله ﷺ : « إن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله »[1]

٣ ـ ومن اللغة أبيات خبيب الأنصاري في مقتله ، فإنه قال :

ولست أبالي حين أقتل مسلما * على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ * يبارك على أشلاء شلو ممزع[2]

الرد على من سأل عن الكيفية :

قوله : ﴿فَإِذَا قَالَ السَّائِلُ : كَيْفَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ؟ قِيلَ لَهُ كَمَا قَالَ رَبِيعَةُ وَمَالِكٌ وَغَيْرُهُمَا رضي الله عنهما : اِلاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْ الْكَيْفِيَّةِ بِدْعَةٌ لِأَنَّهُ سُؤَالٌ عَمَّا لَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ وَلَا يُمْكِنُهُمْ الْإِجَابَةُ عَنْهُ وَكَذَلِكَ إذَا قَالَ : كَيْفَ يَنْزِلُ رَبُّنَا إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ؟ قِيلَ لَهُ : كَيْفَ هُوَ ؟ فَإِذَا قَالَ : لَا أَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ قِيلَ لَهُ : وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ نُزُولِهِ إذْ الْعِلْمُ بِكَيْفِيَّةِ الصِّفَةِ يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِكَيْفِيَّةِ الْمَوْصُوفِ وَهُوَ فَرْعٌ لَهُ وَتَابِعٌ لَهُ ؛ فَكَيْفَ تُطَالِبُنِي بِالْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَتَكْلِيمِهِ وَاسْتِوَائِهِ وَنُزُولِهِ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ ذَاتِهِ وَإِذَا كُنْت تُقِرُّ بِأَنَّ لَهُ حَقِيقَةً ثَابِتَةً فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مُسْتَوْجِبَةً لِصِفَاتِ الْكَمَالِ

---

١ ـ رواه البخاري : [٣٣٥٨] ومسلم : [٢٣٧١] عن أبي هريرة .

٢ ـ رواه البخاري : [٣٠٤٥] عن أبي هريرة ، وانظر الاستيعاب : (١ / ٤٣٠)

لَا يُمَاثِلُهَا شَيْءٌ فَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَكَلَامُهُ وَنُزُولُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ ثَابِتٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي لَا يُشَابِهُهُ فِيهَا سَمْعُ الْمَخْلُوقِينَ وَبَصَرُهُمْ وَكَلَامُهُمْ وَنُزُولُهُمْ وَاسْتِوَاؤُهُمْ﴾

التوضيح :

إذا سأل السائل عن كيفية استواء الله تعالى فيجاب عليه بجوابين أثريّ وعقليّ:

- أولا: الجواب الأثري:

١ ـ قول الإمام ربيعة[1] ومالك وغيرهما : (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)[2]

فالاستواء أي استواء الله على عرشه معلوم المعنى وقد فسره أئمة التابعين كما في البخاري[3] عن مجاهد[4] أنه استوى بمعنى : علا ، وعن أبي العالية[5] بمعنى : ارتفع ، وفي هذا رد على المفوضة الذين زعموا أن الاستواء بإضافته إلى الله يصبح مجملا ففوضوا حقيقة الاستواء إلى الله ففتحوا بذلك الباب على مصراعيه للفلاسفة والمتكلمين يؤلون الاستواء المجمل ـ زعموا ـ بما يوافق أهواءهم .

---

١ ـ ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ أبو عثمان مولى آل المنكدر ، معروف بربيعة الرأي أدرك جماعة من الصحابة ، شيخ الإمام مالك ، توفي سنة ١٣٦ . وفيات الأعيان : (٢ / ٢٨٨) ، صفة الصفوة : (٢ / ٨٣)

٢ ـ هذا الأثر صحيح عن ربيعة ومالك رواه جمع من أئمة السلف ، انظر عقيدة السلف للصابوني : ص ١٧ . واللالكائي : (٣ / ٣٩٨) والدارمي : ص ٥٥ . والبيهقي : (٢ / ٣٠٤) وابن عبد البر في التمهيد : (٧ / ١٥١) وصححه ابن تيمية عنهما في مواضع منها الحموية (٥ / ٤٠) والذهبي في العلو والألباني في مختصر العلو : ص ١٤١ .

٣ ـ أخرجه البخاري عن مجاهد وأبي العالية في كتاب التوحيد باب : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ : (١٣ / ٤٠٣) مع الفتح تعليقا بصيغة الجزم ، وانظر تفسير ابن جرير (١ / ١٥٠)

٤ ـ هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي شيخ القراء والمفسرين ومن كبار تلامذة ابن عباس رضي الله عنهما ، توفي سنة ١٠٣. السير : (٤ / ٤٤٩) ، الطبقات الكبرى : (٥ / ٤٦٦)

٥ ـ سبقت ترجمته .

والكيف مجهول لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ طـه :[١١٠]
فإذا كنا لا نحيط علما بالذات فما أضيف إليها من الصفات أولى . وهذا رد على النفاة الذين أحالوا الكيف في حق الله بدعوى اختصاصه بالمخلوق . وما نقل من عباراتهم السلف في نفي الكيف فالمراد به أحد أمرين :

أ ـ إما منع السؤال عن الكيفية لأنه بدعة .

ب ـ وإما نفي إدراكنا له لا نفي وجوده وحقيقته واقعا .

والسؤال عن كيفيته بدعة فهو سؤال عما لايعلمه البشر ولا يمكنهم الإجابة عنه .

وهذا باب مطرد في جميع الصفات الثابتة لرب البريات ، على هذا مضى السلف وأقوالهم متوافرة متواترة ومنها :

٢ ـ قول الإمام أبي حنيفة في النزول : (ينزل بلا كيف)[١] فأثبت الصفة ونفى العلم بالكيفية .

٣ ـ قول الإمام الشافعي : (ما صح أن رسول الله ﷺ قاله فلا يقال فيه لم ولا كيف)[٢]

٤ ـ قول الإمام ابن المبارك : (ينزل بلا كيف)[٣]

٥ ـ ومثله قول الإمام إسحاق بن راهويه ـ وقد سئل عن النزول ـ : (بلا كيف)[٤] .

---

١ ـ الصابوني في عقيدة السلف : ص ٦٠ ، والبيهقي [٤٥٦] بتعلقات الكوثري ، وذكره ابن ابي العز في شرح الطحاوية : ص ٢٤٥ . وملا القاري في شرح الفقه الأكبر : ص ٦٠ .

٢ ـ أخرجه ابن بطة في الإبانة : الكتاب الثالث : (٣ / ٢٠٣) برقم : [١٥٧] بإسناد صحيح ، والآجري في الشريعة : ص ٧٤٠ .

٣ ـ رواه الصابوني : ص ٤٧ ، و البيهقي برقم : [٩٥٦]

٤ ـ رواه البيهقي برقم : [٩٥٣] بإسناد صحيح والذهبي في العلو برقم : [٢٣٦]

٦ ـ قول الإمام ابن خزيمة : (فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول غير متكلفين القول بصفته أوبصفة الكيفية إذ النبي ﷺ لم يصف لنا كيفية النزول)[1]

٧ ـ قول الإمام الإسماعيلي : (وأنه ﷻ ينزل إلى السماء الدنيا على ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ بلا اعتقاد كيفية)[2]

٨ ـ قول الإمام الصابوني : (فمجيئه و إتيانه ونزوله على حسب ما يليق بصفاته من غير تشبيه وكيف)[3] .

٩ ـ وقال السرخسي[4] : (وأهل السنة والجماعة أثبتوا الأصل المعلوم بالنص ـ أي الصفات الثابتة ـ وتوقفوا فيما هو المتشابه وهو الكيفية ولم يجوزوا الاشتغال في طلب ذلك)[5]

وهذه الأجوبة الأثرية متوافقة مع الأدلة النقلية كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ طه :[١١٠]

ثانيا : الجواب العقلي :

١) يقال للسائل : كيف هو أي كيف ذاته ﷻ ؟

فإذا قال : لا أعلم كيفية ذاته ﷻ . قيل له : ونحن لا نعلم كيفية نزوله ، فإن العلم بكيفية الصفة يتوقف على العلم بكيفية الذات الموصوفة . فكيف تسألنا عن كيفية نزوله واستوائه ونحن لا نعلم كيفية ذاته .

---

١ ـ كتاب التوحيد : (١ / ٢٩٠) .

٢ ـ اعتقاد أئمة أهل الحديث : ص ٦٢ .

٣ ـ عقيدة السلف أصحاب الحديث: ص ٦١ .

٤ ـ هو أبو بكر محمد بن أحمد السرخسي نسبة إلى سرخس بخرسان فقيه حنفي وأصولي : توفي سنة ٤٩٠ . الجواهر المضيئة : (٣ / ٧٨) نقلا عن أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة : ص ٢٩٠ .

٥ ـ شرح الفقه الأكبر للقاري : ص ٦٠ . بواسطة أصول الدين : ص ٢٩٠ .

٢) فإذا كنت تقرّ بأن لـه ذاتـا حقيقيـة ثابتـة مستوجبة لصفـات الكمـال لا يماثلها شيء فسمعه وبصره ونزوله واستواؤه ثابت متصف بالكمال المطلق الـذي لا يشابهه فيه شيء من صفات المخلوقين .

والردّ العقلي هو تطبيق لهذا الأصل ـ الثاني ـ كما هو واضح .

استطراد :

رجوع لمناقشة من يثبت بعض الصفات دون بعض :

قوله : ﴿وَهَذَا الْكَلَامُ لَازِمٌ لَهُمْ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَفِي تَأْوِيلِ السَّمْعِيَّاتِ : فَإِنَّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا وَنَفَى شَيْئًا بِالْعَقْلِ - إذًا - أُلْزِمَ فِيمَا نَفَاهُ مِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ نَظِيرَ مَا يَلْزَمُهُ فِيمَا أَثْبَتَهُ وَلَوْ طُولِبَ بِالْفَرْقِ بَيْنَ الْمَحْذُورِ فِي هَذَا وَهَذَا : لَمْ يَجِدْ بَيْنَهُمَا فَرْقًا وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ لِنُفَاةِ بَعْضِ الصِّفَاتِ دُونَ بَعْضٍ - الَّذِينَ يُوجِبُونَ فِيمَا نَفَوْهُ : إمَّا التَّفْوِيضَ ؛ وَإِمَّا التَّأْوِيلَ الْمُخَالِفَ لِمُقْتَضَى اللَّفْظِ - قَانُونٌ مُسْتَقِيمٌ . فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : لِمَ تَأَوَّلْتُمْ هَذَا وَأَقْرَرْتُمْ هَذَا وَالسُّؤَالُ فِيهِمَا وَاحِدٌ ؟ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ صَحِيحٌ فَهَذَا تَنَاقُضُهُمْ فِي النَّفْيِ وَكَذَا تَنَاقُضُهُمْ فِي الْإِثْبَاتِ ؛ فَإِنَّ مَنْ تَأَوَّلَ النُّصُوصَ عَلَى مَعْنًى مِنْ الْمَعَانِي الَّتِي يُثْبِتُهَا فَإِنَّهُمْ إذَا صَرَفُوا النَّصَّ عَنْ الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ مُقْتَضَاهُ إلَى مَعْنًى آخَرَ : لَزِمَهُمْ فِي الْمَعْنَى الْمَصْرُوفِ إلَيْهِ مَا كَانَ يَلْزَمُهُمْ فِي الْمَعْنَى الْمَصْرُوفِ عَنْهُ فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ : تَأْوِيلُ مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَسَخَطِهِ : هُوَ إرَادَتُهُ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ؛ كَانَ مَا يَلْزَمُهُ فِي الْإِرَادَةِ نَظِيرَ مَا يَلْزَمُهُ فِي الْحُبِّ وَالْمَقْتِ وَالرِّضَا وَالسَّخَطِ وَلَوْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِمَفْعُولَاتِهِ وَهُوَ مَا يَخْلُقُهُ مِنْ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُ فِي ذَلِكَ نَظِيرُ مَا فَرَّ مِنْهُ فَإِنَّ الْفِعْلَ لَا بُدَّ أَنْ يَقُومَ أَوَّلًا بِالْفَاعِلِ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ الْمَفْعُولُ إنَّمَا يَكُونُ عَلَى فِعْلِ

مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَيَسْخَطُهُ وَيُبْغِضُهُ الْمُثِيبُ الْمُعَاقِبُ فَهُمْ إِنْ أَثْبَتُوا الْفِعْلَ عَلَى مِثْلِ الْوَجْهِ الْمَعْقُولِ فِي الشَّاهِدِ لِلْعَبْدِ مَثَّلُوا وَإِنْ أَثْبَتُوهُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَكَذَلِكَ سَائِرُ الصِّفَاتِ﴾

التوضيح :

رجع شيخ الإسلام هنا مرة أخرى لإلزام الأشاعرة وغيرهم ممن يثبتون بعض الصفات دون بعض .

وهذا الاستطراد أراد أن يختم به الكلام على الأصلين فقال :

إن التسوية بين جميع الصفات مع اعتقاد عدم التمثيل لازم لهم عقلا ونقلا ، فإنه يلزمهم فيما نفوه نظير ما يلزمهم فيما أثبتوه ـ كما سبق في مثال الغضب والإرادة ، وإذا طولب بالفرق بين ما نفاه وما أثبته لم يجد فرقا صحيحا ، ولهذا لا يوجد لهؤلاء قانون مستقيم يسيرون عليه في باب الصفات الإلهية فهم متناقضون في النفي والإثبات كمايلي :

١ـ تناقضهم في النفي :

إذا قيل لهم : لم تأولتم هذا وأقررتم هذا ؟ لم يكن لهم جواب صحيح ، إذ ما نفوه من الصفات لا يختلف من حيث الثبوت والدلالة عما أقروا به .

٢ ـ تناقضهم في الإثبات :

وذلك أنهم عندما يؤولون ظاهر النص إلى معنى آخر فإن ما حملهم على تأويل الظاهر إلى هذا المعنى المؤول ـ كالفرار من التشبيه والتمثيل ـ باق على حاله لأن سبب تأويلهم ـ عند التحقيق ـ ليس ما يزعمونه من الفرار من التشبيه والتمثيل

بل نفس إضافة الصفة المشتركة إلى الله تبارك وتعالى ، وهم عند التأويل لا ينفون حقيقة الإضافة بل ينفون حقيقة الصفة المضافة إلى الله وهذا هو روح الفرق بين موقف السلف من وهم التشبيه وبين موقف النفاة ، فالسلف فوضوا الكيف الناشيء عن الإضافة وسلموا بالصفة المضافة ، والنفاة سلموا الإضافة ظاهرا وفوضوا أو عطلوا الصفة المضافة وأحالوا الكيف فنقضوا بذلك ظاهر ما سلموا به

فهدى الله أهل السنة لمنشأ الوهم وضلّ عنه النفاة فأخطؤوا العلاج فمهما أولوا الظاهر بمعنى آخر لزمهم فيه ما توهموه لازما في الظاهر . وإليك التوضيح ببعض الأمثلة :

ـ تأويلهم للمحبة والرضا بإرادة الثواب ، و الغضب والسخط بإرادة العقاب ، بدعوى أن إثبات المحبة والرضا والغضب والسخط يقتضي إضافة خصائص المخلوق إلى الخالق أي التشبيه ، فيقال : إن الإرادة يلزم من إضافتها إلى الله ما يلزم من إضافة تلك الصفات إلى الله ، فإن تلك المعاني تتوقف على قلب وكذلك الإرادة تتوقف على القلب وأنتم لا تثبتون القلب لله ، فما يلزمهم من إثبات الإرادة يلزمهم من إثبات غيرها .

ـ وإن تألوا تلك الصفات بمخلوقاته فالمحبة بالثواب والبغض بالعقاب فيجاب بجوابين :

الأول : أن الفعل المعقول أي الذي يعقله العقلاء لا بد أن يقوم أولا بالفاعل لأنه عنه يصدر فالثواب فعل الله يفعله الله في مخلوقاته فلا بد أن يوصف الفاعل بالإثابة لأنه فاعل الثواب فهو مثيب ، وكذلك العقاب فحينئذ أثبتم الفعل لله ، والعبد يوصف بالفعل وهذا نظير ما فررتم منه ، فإن الإثابة والمعاقبة افعال يتصف بها المخلوق فإن أثبتموها على الوجه الذي يتصف به المخلوق وقعتم في التشبيه ، وإن أثبتموها كما يليق بالله سلمتم للشارع وبرئتم من وصمة التشبيه فطردوا ذلك في جميع الصفات .

الثاني : أن الثواب والعقاب المفعول إنما يكون على ما يحبه المثيب ويرضاه وعلى ما يسخطه المعاقب ويبغضه ، فلزم من إثبات الثواب والعقاب إثبات تلك الصفات بطريق اللزوم .

ـ ملحوظة :ذكر شيخ الإسلام أن للأشاعرة في الصفات مسلكين :

الأول : التأويل ، وقد سبق وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لغير دليل كقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ص: [٧٥] قالوا: أي بقدرتي .

الثاني : التفويض : هو إمرار النصوص على ظاهرها من غير اعتقاد معنى لها ، ففي المثال السابق يقولون : (اليد) لفظ لا يعلم معناه بل هو بمنزلة الحروف المقطعة في القرآن .

وكلا المسلكين يرجع عند التحقيق إلى التعطيل لأنهما يرجعان إلى ردّ المعنى الصحيح الذي أرد الله إثباته لنفسه . لذلك يقول اللقاني[١] صحاب جوهرة توحيدهم[٢] :

٤٠ ـ وكل نص أوهم التشبيها ❊ أوّله أو فوّض و رُمْ تنزيها

فما التفويض إلا أحبولة شيطانية تعانقت مع التأويل لتعطيل صفات العلي الجليل[٣] ﷻ .

---

١ ـ اللقاني : هو إبراهيم بن الحسن اللقاني المصري المتكلم الأشعري الصوفي ألّف الجوهرة بإشارة من شيخه الشرنوبي . توفي سنة ١٠٤٠ . انظر شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف : ص ٢٩١ .

٢ ـ عون المريد : (١ / ٤٤٢) برقم : [٤٠]

٣ ـ هذا الاسم مما اختلف العلماء في تسمية الله به ، ولكن إذا أطلق عليه جل وعلا فهو من باب الإخبار وهو أوسع من باب الأسماء الحسنى . انظر معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى د . التميمي : ص ٢٠٤ .

خلاصة ما في الأصلين الشريفين

١ ـ الأصل الأول : (القول في بعض الصفات كالقول في بعض)

٢ ـ يردّ هذا الأصل على الأشاعرة والمعتزلة والجهمية وأتباعهم .

٣ ـ كل من نفى الصفات فرارا من محذور فإنه يلزمه نظير ما فرّ منه .

٤ ـ الأصل الثاني : (القول في الصفات كالقول في الذات)

٥ ـ يردّ هذا الأصل على جميع الطوائف المثبتة للذات الإلهية من ممثلة ومعطلة .

٦ ـ مضى السلف الأبرار على إثبات المعنى ونفي الكيف .

٧ ـ للأشاعرة مسلكان في التعطيل : التأويل والتفويض . وكلاهما يفضي إلى نفي الصفات .

المناقشة ؟

١. وضّح المقصود بالأصل الأول : (القول في بعض الصفات كالقول في بعض) مع التمثيل .
٢. على من يردّ الشيخ بهذا الأصل ؟
٣. عرّف بالأشاعرة وبمذهبهم في الصفات و بين الردّ عليهم من خلال ما سبق
٤. إذا احتج الأشاعرة بدلالة العقل على ما يثبتونه من الصفات فكيف ترد عليهم ؟
٥. ما معنى العلة الغائية والعلة الفاعلية ؟
٦. ما مذهب الجهمية وشبهتهم ؟ وكيف يجاب عليها ؟
٧. ما الاعتراض المشهور للباطنية وما الجواب عليه باختصار ؟
٨. تكلم عن شبهة التركيب من حيث معناها والقائلون بها والرد عليهم.
٩. وضّح المقصود بالأصل الثاني: (القول في الصفات كالقول في الذات)
١٠. على من يردّ الشيخ بهذا الأصل ؟
١١. اذكر أقوال أئمة السلف المؤيدة لهذا الأصل .
١٢. تكلم عن معنى الذات مع ذكر الخلاف في أصلها .
١٣. ما الرد على من سأل عن كيفية الصفات أثرا وعقلا ؟
١٤. كيف تجيب الأشعري إذا قال : المحبة والغضب عبارة عما يخلقه الله من الثواب للطائعين والعقاب للعاصين ؟
١٥. اذكر المسلكين اللذين سلكهما الأشاعرة في معتقدهم ممايفضي إلى التعطيل .

المثلان المضروبان

المثل الأول : (الجنة)

قوله : ﴿ فصل : وأما (المثلان المضروبان : فإن الله - سبحانه وتعالى - أخبرنا عما في الجنة من المخلوقات : من أصناف المطاعم والملابس والمناكح والمساكن ؛ فأخبرنا أن فيها لبنا وعسلا وخمرا وماء ولحما وحريرا وذهبا وفضة وفاكهة وحورا وقصورا وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : (ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء) ، وإذا كانت تلك الحقائق التي أخبر الله عنها هي موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا وليست مماثلة لها ؛ بل بينهما من التباين ما لا يعلمه إلا الله تعالى : فالخالق - سبحانه وتعالى - أعظم مباينة للمخلوقات منه مباينة المخلوق للمخلوق ومباينته لمخلوقاته : أعظم من مباينة موجود الآخرة لموجود الدنيا إذ المخلوق أقرب إلى المخلوق الموافق له في الاسم من الخالق إلى المخلوق وهذا بين واضح﴾

التوضيح :

- أولا : المراد بهذا المثل أن التشابه بين موجودات الدنيا وموجودات الآخرة في الأسماء والمعاني دون الخصائص والكيفيات ، فإذا كان هذا التباين واقعا بين المخلوقات فمن باب أولى أن يقع بين الخالق ومخلوقاته .

- ثانيا : شرح المثل : أن الله تعالى أخبرنا عما في الجنة من المخلوقات من المطاعم والمساكن وغيرهما قال تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ الطور : [٢٢] وقال : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ محمد : [١٥] وقال: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾ الإنسان : [١٥] وقال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ فاطر : [٣٣]

◆ ومع علمنا بهذه الأشياء أخبرنا بأننا لا نعلم حقائقها وكيفياتها وأدلة ذلك :

١) قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ السجدة : [١٧]

٢) قوله تعالى في الحديث القدسي : ﴿ أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴾[١]

٣) قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله ﷻ ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ : البقرة : [٢٥] (ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء)[٢] .

◆ والدليل على علمنا بمعاني هذه الأشياء ما يلي :

---

١ ـ رواه البخاري : (٦ / ٢٣٠) ، ومسلم : [٢٨٤٢] وغيرهما عن أبي هريرة .

٢ ـ رواه ابن جرير : (١ / ١٣٥) ، وابن أبي حاتم : (١ / ٨٩) وجود إسناده المنذري في الترغيب (٤ / ٢٧٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة : (٥ / ٢١٩) برقم : [٢١٨٨] .

١ ـ قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ يوسف :[٢] وأمثالها كثير في الكتاب المبين ، فما خاطبنا الله به كان معلوما من جهة لغة العرب .

٢ ـ أن الله تعالى نبهنا وشوّقنا إلى هذه الأشياء فإذا لم تكن معلومة المعنى لما حصل المقصود من الإخبار بها .

٣ ـ أن فائدة الاتفاق في المعنى العام هو فهم الخطاب ، فقد سبق في الكلام عن الأصل الأول أنه لا بد من إثبات قدر مشترك تتفق فيه المعاني العامة بين المسميات ثم يدرك التفاوت في هذا المعنى كل بحسب ما يضاف إليه بناء على المنقول والمعقول .

ـ ثالثا : على من يردّ بهذا الأصل ؟

يرد على من زعم أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه ، بناء على الاتفاق في الاسم ، فإن جميع ما في الجنة يتفق مع ما في الدنيا ، ومع ذلك لم يستلزم التشبيه ، فإذا كان هذا بين مخلوقين ، فكيف يسلتزم التشبيه إذا كان بين الخالق والمخلوق ، ومباينة الخالق لمخلوقاته أعظم من مباينة بعض مخلوقاته لبعضها الآخر وأعظم من مباينة موجود الآخرة لموجود الدنيا وهذا جد واضح والحمد لله . وقد سبق الإمام الدارميُّ شيخ الإسلام في التمثيل بالجنة في مقام رده على المريسي العنيد[1] .

افتراق الناس فيما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر :

قوله : ﴿ وَلِهَذَا افْتَرَقَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ ثَلَاثَ فِرَقٍ :

١ ـ نقض عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي الجهمي العنيد : (١/ ٣٠٣)

فَالسَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ وَأَتْبَاعُهُمْ : آمَنُوا بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِالْمُبَايَنَةِ الَّتِي بَيْنَ مَا فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مُبَايَنَةَ اللَّهِ لِخَلْقِهِ أَعْظَمُ *

وَالْفَرِيقُ الثَّانِي : الَّذِينَ أَثْبَتُوا مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَنَفَوْا كَثِيرًا مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ الصِّفَاتِ ؛ مِثْلُ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ المعتزلة ومن وافقهم *

وَالْفَرِيقُ الثَّالِثُ : نَفَوْا هَذَا وَهَذَا كَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَالْفَلَاسِفَةِ أَتْبَاعِ الْمَشَّائِينَ وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ حَقَائِقَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ

التوضيح :

بعد ضرب المثل الأول استطرد المؤلف فذكر مذاهب الناس في الأمور الغيبية وهي هنا الأسماء والصفات واليوم الآخر ، فذكر ثلاثة مذاهب :

الأول : مذهب السلف والأئمة وأتباعهم : آمنوا بجميع ذلك مع علمهم بالمباينة بين ما في الآخرة وما في الدنيا ، وأن مباينة الله لخلقه أعظم وأولى كما صرحت بذلك الأدلة .

الثاني : الذين أثبتوا ما أخبر الله به عن الآخرة ونفوا كثيرا مما أخبر به عن نفسه فمنهم من نفاه جميعا كالجهمية ، ومنهم من نفى الصفات كالمعتزلة ،و منهم من نفى بعضها كالأشاعرة والماتريدية ، فالجميع يؤمنون بما جاء عن اليوم الآخر وينفي تفاصيل الصفات إذا اعتبرنا مسألة الرؤية في الآخرة من مسائل الصفات لأنهم ينفونها باعتبار تعلقها بالله تعالى ويزعمون امتناعها في حقه .

* تنبيه : هناك طوائف من المعتزلة كمعتزلة بغداد أولوا عذاب القبر والميزان والصراط وأنكرت المعتزلة الشفاعة في أهل الكبائر ونار الجهنميين فخلدوا أهل التوحيد في الجحيم وهذه تأويلات ولكن الكلام هنا عن غالبيتهم . قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى : (والقول الثالث الشاذ قول من يقول ان البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب بل لا يكون ذلك حتى تقوم القيامة الكبرى كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم الذين ينكرون عذاب القبر ونعيمه بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن وان البدن لا ينعم ولا يعذب فجميع هؤلاء الطائفتين ضلال فى امر البرزخ لكنهم خير من الفلاسفة لانهم يقرون بالقيامة الكبرى)[1]

الثالث : نفوا جميع ذلك وهم القرامطة الباطنية والفلاسفة المشاؤون ، وزعموا أن أخبار اليوم الآخر خيالات جاءت بها الرسل لإصلاح الخلق أو ما يسمونه (بمصلحة الجمهور) .

الفريق الأول هم أهل التنزيل ، والثاني هم أهل التعطيل ، والثالث هم أهل التخييل .

الكلام عن الباطنية :

قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ مِنْ هَذَا الْبَابِ ؛ فَيَجْعَلُونَ الشَّرَائِعَ الْمَأْمُورَ بِهَا وَالْمَحْظُورَاتِ الْمَنْهِيَّ عَنْهَا : لَهَا تَأْوِيلَاتٌ بَاطِنَةٌ تُخَالِفُ مَا يَعْرِفُهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا كَمَا يَتَأَوَّلُونَ مِنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ فَيَقُولُونَ : إنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ مَعْرِفَةُ أَسْرَارِهِمْ ، وَإِنَّ صِيَامَ رَمَضَانَ كِتْمَانُ أَسْرَارِهِمْ ، وَإِنَّ حَجَّ الْبَيْتِ السَّفَرُ إلَى

---

١ ــ مجموع الفتاوى : ٤ / ٢٨٤ .

شُيُوخِهِمْ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ التَّأْوِيلاتِ الَّتِي يُعْلَمُ بِالاضْطِرَارِ أَنَّهَا كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ عَلَى الرُّسُلِ - صلوات الله عليهم - وَتَحْرِيفٌ لِكَلامِ اللهِ وَرَسُولِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَإِلْحَادٌ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَقَدْ يَقُولُونَ الشَّرَائِعُ تَلْزَمُ الْعَامَّةَ دُونَ الْخَاصَّةِ فَإِذَا صَارَ الرَّجُلُ مِنْ عَارِفِيهِمْ وَمُحَقِّقِيهِمْ وَمُوَحِّدِيهِمْ: رَفَعُوا عَنْهُ الْوَاجِبَاتِ وَأَبَاحُوا لَهُ الْمَحْظُورَاتِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي الْمُنْتَسِبِينَ إلَى التَّصَوُّفِ وَالسُّلُوكِ مَنْ يَدْخُلُ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ وَهَؤُلَاءِ الْبَاطِنِيَّةُ : هُمْ الْمَلَاحِدَةُ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُمْ أَكْفَرُ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَمَا يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى الْمَلَاحِدَةِ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْإِثْبَاتِ : يَحْتَجُّ بِهِ كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْإِثْبَاتِ عَلَى مَنْ يُشْرِكُ هَؤُلَاءِ فِي بَعْضِ إلْحَادِهِمْ فَإِذَا أَثْبَتَ لِلَّهِ تَعَالَى الصِّفَاتِ وَنَفَى عَنْهُ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقَاتِ - كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ - كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْحَقَّ الَّذِي يُوَافِقُ الْمَعْقُولَ وَالْمَنْقُولَ وَيَهْدِمُ أَسَاسَ الْإِلْحَادِ وَالضَّلَالَاتِ»

التوضيح :

استطرد المؤلف أيضا فذكر بعض ما يتعلق بالباطنية فيمايلي :

ـ أولا : مذهبهم في الأحكام .

كثير منهم جعل الأمر والنهي ـ أي الشرائع ـ من هـذا البـاب أي مـن بـاب الأمور التي لها ظاهر وباطن كالغيبيات عندهم ، فتأويلاتهم سارية في عامـة أبـواب الدين .

ـ ثانيا : أمثلة لتأويلاتهم في الأحكام :

١ ـ الصلوات الخمس : معرفة أسرارهم .

٢ ـ صيام رمضان : كتمان أسرارهم .

٣ ـ حج البيت : السفر إلى شيوخهم .

٤ ـ الربا : الرغبة في الإكثار .

٥ ـ الزنا : إيصال المستجيب من غير شاهد .

ونحو ذلك من أنواع التحريف والإلحاد [1].

ثالثا : من تلزمه الشرائع عندهم : يقولون إن هذه الشرائع ـ المحرفة ـ تلزم العامة دون الخاصة فإذا صار الرجل من عارفيهم و موحديهم رفعوا عنه الواجبات وأباحوا له المحرمات .

رابعا : أنواع الباطنية : هم نوعان :

١) باطنية قرامطة : وهم بعض فرق الرافضة .

) باطنية صوفية : وقد تبنوا رفع الشرائع عن الخاصة وغيرها .

ـ خامسا : حكم الباطنية [2]:

أجمع المسلمون على أن الباطنية الملاحدة أكفر من اليهود والنصارى لوجهين :

الأول : أن كفر الباطنية باطن كالمنافقين وأما اليهود والنصارى فهم يعلنون كفرهم .

الثاني : أن الباطنية حقيقتهم إنكار الرسالات وإنكار الخالق والمعاد ، بينما اليهود والنصارى يقرون بالخالق والمعاد وجنس النبوة والرسالات فهم أقل كفرا ممن ينكر أصلها .

ـ سادسا : ـ خطرهم :

والباطنية أخطر على الأمة من المنافقين على عهد النبي ﷺ لوجهين :

---

١ ـ انظر تأويل الدعائم : (٢ / ٨٨) مستفاد من جناية التأويل ص : ٣٨٠

٢ ـ انظر حكمهم في الفرق بين الفرق ص : ٢٢٢ .

الأول : أن المنافقين دخلوا في الإسلام خوفا لحقن دمائهم وحفظ أموالهم ، أما الباطنية فدخلوه للكيد فيه والنيل من أتباعه .

الثاني : أن المنافقين كانوا يقرون بما يقر به أهل زمانهم من إثبات الخالق والمعاد وقد يقرون بنبوة النبي ﷺ باطنا لكنهم لم يتابعوه ، وأما الباطنية فجحدوا الشرائع والنبوات ظاهرا وباطنا [١] .

ثم قال شيخ الإسلام : ﴿وَمَا يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى الْمَلَاحِدَةِ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْإِثْبَاتِ : يَحْتَجُّ بِهِ كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْإِثْبَاتِ عَلَى مَنْ يشْرِكُ هَؤُلَاءِ فِي بَعْضِ إلْحَادِهِمْ فَإِذَا أَثْبَتَ لِلَّهِ تَعَالَى الصِّفَاتِ وَنَفَى عَنْهُ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقَاتِ - كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ - كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْحَقَّ الَّذِي يُوَافِقُ الْمَعْقُولَ وَالْمَنْقُولَ وَيَهْدِمُ أَسَاسَ الْإِلْحَادِ وَالضَّلَالَاتِ﴾ هكذا باختصار وهذا رجوع إلى المثل المضروب .

الأمثال والأقيسة في حق الله جل جلاله

قوله : ﴿وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا تُضْرَبُ لَهُ الْأَمْثَالُ الَّتِي فِيهَا مُمَاثَلَةٌ لِخَلْقِهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مَثِيلَ لَهُ ؛ بَلْ لَهُ " الْمَثَلُ الْأَعْلَى " فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُشْرِكَ هُوَ وَالْمَخْلُوقَاتُ فِي قِيَاسِ تَمْثِيلٍ وَلَا فِي قِيَاسِ شُمُولٍ تَسْتَوِي أَفْرَادُهُ وَلَكِنْ يُسْتَعْمَلُ فِي حَقِّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا اتَّصَفَ بِهِ الْمَخْلُوقُ مِنْ كَمَالٍ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِهِ ، وَكُلَّ مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ مِنْ نَقْصٍ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِالتَّنْزِيهِ عَنْهُ ، فَإِذَا كَانَ الْمَخْلُوقُ مُنَزَّهًا عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقِ مَعَ الْمُوَافَقَةِ فِي الِاسْمِ : فَالْخَالِقُ أَوْلَى أَنْ يُنَزَّهَ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقِ ، وَإِنْ حَصَلَتْ مُوَافَقَةٌ فِي الِاسْمِ﴾

---

١ ـ انظر مذكرات أ . د . الخميّس ، ومذكرة شرح الشيخ البراك .

التوضيح :

بعد أن ضرب شيخ الإسلام المثل على عدم التشبيه أراد أن يبين أن ضرب المثل هنا ليس فيه تمثيل بخلقه فإن الأمثال والأقيسة على ثلاثة أقسام كما يلي :

القسم الأول : قياس التمثيل :

وهو القياس الأصولي وهو مساواة فرع بأصل في حكمه لعلة جامعة بينهما . وهذا القياس ممتنع في حق الله ﷻ لأنه يستلزم التمثيل بينه وبين خلقه فإن فيه التسوية بين المقيس والمقيس عليه .

ومثاله قياس المتكلمين في استدلالهم على إنكار صفات الله الاختيارية ، فإنهم إنما حكموا باستلزامها التشبيه و التمثيل بهذا القسم من القياس بجامع القدر المشترك ، ولنضرب مثلا بالاستواء .

قالوا : الأصل : استواء المخلوق . الفرع : استواء الخالق على العرش ، العلة الجامعة : الاستواء ، الحكم : الافتقار أي افتقار المستوي للمستوى عليه بحيث لولاه لخرّ كما أن المخلوق المستوي على شيء مفتقر إليه .

وهذا ما يسمى بقياس الغائب على الشاهد ، فبعد هذا يفرون من هذا التمثيل إلى التعطيل فينفون استواء الله تعالى علىعرشه فرارا من لازم الافتقار .

القسم الثاني : قياس الشمول : وهو القياس المنطقي وهو ما كان مركبا من مقدمتين فأكثر ونتيجة بحيث تستوي الأفراد في كليّ يشملها .

- حكمه في حق الله تعالى : وهذا ممتنع في حق الله تعالى لأن فيه تمثيلا لله بمخلوقاته

ومثاله عند المتكلمين : كل متصف بالصفات فهو جسم ، والله متصف بالصفات فالنتيجة أن الله جسم ، فركبوا القياس ثم نفوا الصفات حتى لا يقعوا في التجسيم وهذا مسلك المعتزلة .

فهذا القياسان قياس الشمول وقياس التمثيل لا يجوز استعمالهما في حق الله ﷻ وهما اللذان ينصبّ عليهما نهي السلف كما نقل إجماعهم على ذلك الإمام ابن عبد البر بقوله : (لا خلاف بين فقهاء الأمصار وسائر أهل السنة وهم أهل الفقه والحديث في نفي القياس في التوحيد و إثباته في الأحكام)[1]

القسم الثالث : قياس الأولى :

وهو أن كل كمال اتصف به المخلوق فالخالق أولى به و كل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزيه عنه وهذا يجوز في حق الله بضابطين :

الأول : أن يكون الكمال ليس فيه نقص بوجه من الوجوه . فالأكل والشرب كمال عند المخلوق ولكن فيه نقص من وجه وهو الافتقار والحاجة إليهما ، فلا يصح أن يتصف الخالق بهما لهذا النقص فإن الله غني عن كل شيء تبارك وتعالى .

الثاني : أن يكون وصف الكمال قد دلّ عليه النقل ثم يأتي القياس تعضيدا وتعزيزا فقط لأن صفات الله توقيفية .

فمن هذا نعلم أن مثال شيخ الإسلام كان من هذا النوع لأنه لما أثبت المباينة بين مخلوقات الآخرة ومخلوقات الدنيا ، بيّن أن المباينة بين الخالق والمخلوق أولى وأعظم وهكذا سيفعل في المثل الثاني كما سيأتي .

وقياس الأولى مستفاد من نصوص منها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ النحل [٦٠][2] أي وصف الكمال المطلق

---

١ ـ جامع بيان العلم وفضله :ص ٤٧ . وانظر عقيدة ابن عبد البر : ص ٢٨٩ . وأصول الدين : ص٣٠٠ .

٢ ـ وانظر تفسير ابن كثير : (٢ / ٥٩٤)

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ الروم :[٢٧]

* فائدة :ـ

التحقيق أنه لا فرق بين قياس التمثيل الأصولي وقياس الشمول المنطقي بل كل منهما يمكن استبداله بالآخر قوة وصيغة ، وهو الذي حققه شيخ الإسلام كما في كتابه المتين الرد على المنطقيين[1] ، بحجج قاطعة وبراهين ساطعة ، وتابعه عليه العلامة الشنقيطي في كتابه آداب البحث والمناظرة[2] ، وإنما ذكر شيخ الإسلام التقسيم المشهور عند المتكلمين في هذا المقام . بل نسبه شيخ الإسلام إلى جمهور العقلاء من جهة إفادة كل منهما الظن أو القياس[3] .

المثل الثاني : الروح

أولا : مذاهب الناس في الروح

قوله : ﴿ وهكذا القول في (المثل الثاني . وهو أن (الروح التي فينا – فإنها قد وصفت بصفات ثبوتية وسلبية وقد أخبرت النصوص أنها تعرج وتصعد من سماء إلى سماء وأنها تقبض من البدن وتسل منه كما تسل الشعرة من العجينة والناس مضطربون فيها ؛ فمنهم طوائف من أهل الكلام يجعلونها جزءا من البدن أو صفة من صفاته كقول بعضهم : إنها النفس أو الريح التي تردد في البدن وقول بعضهم : إنها الحياة أو المزاج أو نفس البدن ومنهم

١ ـ الرد على المنطقيين : ص ٣٦٤
٢ ـ آداب البحث والمناظرة : (٢/ ١٠٢)
٣ ـ انظر درء العارض : (٧ / ١٥٣)

طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْفَلْسَفَةِ يَصِفُونَهَا بِمَا يَصِفُونَ بِهِ وَاجِبَ الْوُجُودِ عِنْدَهُمْ وَهِيَ أُمُورٌ لَا يَتَّصِفُ بِهَا إِلَّا مُمْتَنِعُ الْوُجُودِ فَيَقُولُونَ : لَا هِيَ دَاخِلَةٌ فِي الْبَدَنِ وَلَا خَارِجَةٌ وَلَا مُبَايِنَةٌ لَهُ وَلَا مُدَاخِلَةٌ لَهُ وَلَا مُتَحَرِّكَةٌ وَلَا سَاكِنَةٌ وَلَا تَصْعَدُ وَلَا تَهْبِطُ وَلَا هِيَ جِسْمٌ وَلَا عَرَضٌ وَقَدْ يَقُولُونَ : إنها لَا تُدْرِكُ الْأُمُورَ الْمُعَيَّنَةَ وَالْحَقَائِقَ الْمَوْجُودَةَ فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا تُدْرِكُ الْأُمُورَ الْكُلِّيَّةَ الْمُطْلَقَةَ وَقَدْ يَقُولُونَ: إنَّهَا لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا مُبَايِنَةً لَهُ وَلَا مُدَاخِلَةً وَرُبَّمَا قَالُوا لَيْسَتْ دَاخِلَةً فِي أَجْسَامِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَةً عَنْهَا مَعَ تَفْسِيرِهِمْ لِلْجِسْمِ بِمَا لَا يَقْبَلُ الْإِشَارَةَ الْحِسِّيَّةَ فَيَصِفُونَهَا بِأَنَّهَا لَا يُمْكِنُ الْإِشَارَةُ إلَيْهَا وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ الَّتِي تُلْحِقُهَا بِالْمَعْدُومِ وَالْمُمْتَنِعِ﴾

التوضيح :

تحدث شيخ الإسلام حول هذا المثل وبدأه بتمهيد عن الروح ذكر فيه مذاهب الناس على سبيل الإجمال وهي :

أولا : مذهب أهل السنة والجماعة :

أنها حقيقة موجودة موصوفة بصفات ثبوتية وصفات سلبية ، وقد أخبرت النصوص بأنها (تعرج وتصعد) كما قوله تعالى :﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ المعارج : [٤] وتقبض من البدن كما في قوله ﷺ : ((إن الروح إذا قبض تبعه البصر))[1]وتخرج من البدن كما تخرج القطرة من في السقاء وغيرذلك من صفات الروح كما في حديث البراء بن عازب[2] .

١ ـ رواه مسلم: (٢ / ٦٣٤) وأحمد : (٦ / ٢٩٧) عن أم سلمة .

٢٢ ـ أخرجه أحمد : (٤ / ٢٨٧) والحاكم : (١ / ٣٧) وصححه ووافقه الذهبي والألباني في أحكام الجنائز : ص ١٥٩ .

 ثانيا : مذهب أهل الكلام وهم على قولين :

الأول : من يقول إنها من جنس الأجسام المشاهدة ثم يختلفون في تفسيرها كما يلي :

١ ـ أنها نفس البدن كما نقل عن الأصم [١].

٢ ـ أو أنها جزء من البدن .

٣ ـ أو أنها هي النفَس أو الريح المتردد في البدن كما نقل عن الباقلاني [٢].

القول الثاني : من يقول إنها صفة من صفات البدن أي من جنس الأعراض ثم يفسرونها بما يلي :

١ ـ أنها الحياة .

٢ ـ أو المزاج . وغيرها من التفاسير .

 ثالثا : مذهب الفلاسفة :

يصف الفلاسفة الروح بما يصفون به إلههم واجب الوجود ، فلا يصفونها إلا بالصفات السلبية الممتنعة كما سبق ؛ فيقولون :

---

١ ـ هو عبد الرحمن بن كيسان الأصم من معتزلة البصرة له مصنفات توفي سنة ٢٠٠ . الفهرست : ص ٢١٤ .

٢ ـ هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني المالكي المتكلم توفي سنة ٣٠٤ . انظر شجرة النور الزكية : ص ٩٢ .

١) لا هي داخل البدن ولا خارجه ، ولا مباينة ولا مداخلة ، ولا متحركة ولا ساكنة ، ولا تصعد ولا تهبط ولا جسم ولا عرض ...

٢) أنها لا تدرك الأمور المعينة والحقائق الموجودة في الخارج وإنما تدرك الأمور الكلية الموجودة في الذهن .

٣) ومنهم من يقول : إنها لا داخل العالم ولا خارجه ولامباينة ولا مداخلة فتصبح مماثلة لصفات إلههم .

٤) وربما قالوا ليست داخلة في أجسام العالم ولا خارجة عنها مع أن الجسم عندهم هو ما يقبل الإشارة الحسية ، فيصفون الروح بأنها لا تقبل الإشارة الحسية مخالفين بذلك النقل والعقل . إلى آراء أخرى لهم في هذا المقام .

وقد ذكر الشوكاني[1] أن الأقوال في الروح تصل إلى (١٨٠٠) قولا ، ثم قال : (فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته)[2]

قال ابن القيم : (الروح : جسم مخالف بالماهية ـ لهذا المحسوس ـ لطيف شفاف نوراني علوي يسري في البدن سريان الماء في الورد والدهن في الزيت والنار في الفحم)[3]

ـ ولكن ما حكم الكلام في الروح وقد قال ﷻ:﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء : [٨٥]

---

١ ـ هو الإمام الأصولي المحدث الفقيه محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني الصنعاني صاحب التصانيف المشهورة توفي سنة ١٢٥٥ .

٢ ـ فتح القدير : (٣ / ٣٦٤) . دار الفكر ١٤١٥ هجرية .

٣ ـ الروح : ص ٢٤٢ ، وانظر مذكرات أ.د. الخميّس .

- الجواب :

إن هذه الآية دليل على جهلنا بكيفية الروح ، أما بعض الصفات فقد وردت بها النصوص فلذلك جاز الكلام عن الروح في الإطار الشرعي للإيمان بما وردت به النصوص ثم لمعرفة الحق من الباطل في أقوال الناس . والله أعلم .

ثانيا : مناقشة الفلاسفة في الروح .

قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : إِثْبَاتُ مِثْلِ هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي ضَرُورَةِ الْعَقْلِ قَالُوا : بَلْ هَذَا مُمْكِنٌ بِدَلِيلِ أَنَّ الْكُلِّيَّاتِ مُمْكِنَةٌ مَوْجُودَةٌ وَهِيَ غَيْرُ مُشَارٍ إِلَيْهَا وَقَدْ غَفَلُوا عَنْ كَوْنِ الْكُلِّيَّاتِ لَا تُوجَدُ كُلِّيَّةً إِلَّا فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْعِيَانِ ؛ فَيَعْتَمِدُونَ فِيمَا يَقُولُونَهُ فِي الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْخَيَالِ الَّذِي لَا يَخْفَى فَسَادُهُ عَلَى غَالِبِ الْجُهَّالِ ﴾

التوضيح :

إن قيل لهؤلاء الفلاسفة إن إثبات مثل هذه الروح ممتنع في ضرورة العقل قالوا : بل هو ممكن ، والدليل على إمكانه أن الكليات موجودة ومع ذلك فهي غير مشار إليها ، و (الكليات) جمع كليّ وهو ما لا يمنع نفس تصوره من اشتراك كثيرين فيه مثل (الإنسان) فإنه كليّ لأن تصور معناه في الذهن لا يمنع من اشتراك كثيرين فيه مثل زيد وعمرو وبكر .. بينما تصور (زيد) المعين يمنع من اشتراك غيره فيه فلا يصدق (زيد) العلم على معين إلا على مسماه وهو واحد وهذا يسمى عندهم جزئي لأن تصوره يمنع من وقع اشتراك كثيرين فيه.

* الردّ عليهم : أن هذه الكليات لا توجد كلية إلا في الذهن أما في الخارج فلا حقيقة لها إلا ضمن الجزئيات أما بماهي كلي فلا وجود لها في الأعيان ،فالإنسان بما هو كليّ لا يوجد في الخارج إلا ضمن زيد وعمرو وبكر ..

ولهم مثل هذه الخيالات الباطلة والتمويهات الغالطة فيما يلي :

أولا : في المبدأ . أي بداية العالم فهم يقولون : إنــه قديــم ، لأن الله ﷻ عندهم علة فاعلة للعالم ، ومن مسلمات قانون العِليّة عندهم وجــوب التجـانس بين العلة والمعلول وإلا لجاز أن يكون كل شيء علة لكــل شــيء ، ورتبـوا علـى ذلك إحدى المقولات الباطلة ألا وهي قدم العالم ، فإن العلة ـ وهـي الله عندهـم ـ إذا كانت قديمة تعين أن يكون المعلول ـ وهو العالم ـ قديما .

ثانيـا : المعـاد : أي البعـث عندهـم بعـث لـلأرواح فقـط ، لأن البعــث ـ عندهم ـ خيالات فهي لا تناسب إلا الروح .

وكلا الأمرين مبني على مقدمــات غـير مسـلمة فـالصحيح أن الله يفعـل باختياره كما يشاء وليس علاقته بمفعولاته علاقة العلـة بـالمعلول الـتي يجـب مـن وجودها وجوده ومن عدمها عدمه ويتعين التجانس بينـهما . وأمـا كـون البعـث خيالات فهي مجرد دعوى لا برهان عليها وهي مصادمة لمسلمات المسلمين .

وهاتان المقولتان مع إنكار حقيقة النبوة وزعمهم أنها مكتسبة كـانت سـببا رئيسا في إكفار طوائف من المسلمين لهـم إلى أبـاطيل أخـر ترتبـت علـى مبانيـهم الفاسدة وقواعدهم الموهومة .

ثالثا : أسباب الاضطراب في الروح

قوله : ﴿ وَاضْطِرَابُ النُّفَاةِ وَالْمُثْبِتَةِ فِي الرُّوحِ كَثِيرٌ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ – الَّتِي تُسَمَّى بِالنَّفْسِ النَّاطِقَةِ عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ – لَيْسَتْ هِيَ مِنْ جِنْسِ هَذَا الْبَدَنِ وَلَا مِنْ جِنْسِ الْعَنَاصِرِ وَالْمُوَلَّدَاتِ مِنْهَا ؛ بَلْ هِيَ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ مُخَالِفٍ لِهَذِهِ الْأَجْنَاسِ فَصَارَ هَؤُلَاءِ لَا يَعْرِفُونَهَا إلَّا بِالسُّلُوبِ الَّتِي تُوجِبُ مُخَالَفَتَهَا لِلْأَجْسَامِ الْمَشْهُودَةِ وَأُولَئِكَ يَجْعَلُونَهَا مِنْ جِنْسِ الْأَجْسَامِ الْمَشْهُودَةِ وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ ﴾

التوضيح :

والاضطراب في الروح كثير وأسبابه مايلي:

١) أن الروح وهي المسماة عند الفلاسفة بالنفس الناطقة ليست من جنس هذا البدن ولا من جنس العناصر المشاهدة التي يتركب منها البدن ولا المتولدة منها بل هي من جنس آخر مخالف لهذه الأجناس ، فأراد الفلاسفة وصفها بما يخالف الشاهد فوقعوا في السلوب والنفي المحض ، بينما وصفها المتكلمون بما يجعلها من الأجناس المشاهدة ، و هدى الله أهل السنة إلى إثبات مالها من صفات مع الكفّ عن الكيفية . وقد عرف الجرجاني النفس الناطقة بأنها العاقلة المفكرة المدبرة التي تدرك الأمور الكلية والجزئية [1].

٢) بعدهم عن الوحي ونفيهم لما ورد فيه مع خوضهم فيما نهي عنه .

رابعا : حكم إطلاق القول بأن الروح جسم .

قوله : ﴿ وَإِطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا جِسْمٌ أَوْ لَيْسَتْ بِجِسْمٍ يَحْتَاجُ إلَى تَفْصِيلٍ فَإِنَّ لَفْظَ الْجِسْمِ لِلنَّاسِ فِيهِ أَقْوَالٌ مُتَعَدِّدَةٌ اصْطِلَاحِيَّةٌ غَيْرُ مَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ فَإِنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ يَقُولُونَ : الْجِسْمُ هُوَ الْجَسَدُ وَالْبَدَنُ وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَالرُّوحُ لَيْسَتْ جِسْمًا ؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ : الرُّوحُ وَالْجِسْمُ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾وَأَمَّا أَهْلُ الْكَلَامِ : فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ الْجِسْمُ هُوَ الْمَوْجُودُ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ وَكُلُّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : إنَّهُ مُشَارٌ إلَيْهِ إشَارَةً حِسِّيَّةً

---

١ ـ التعريفات للجرجاني : ص ٢٤٤ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : لَيْسَ مُرَكَّبًا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا بَلْ هُوَ مِمَّا يُشَارُ إلَيْهِ وَيُقَالُ : إنَّهُ هُنَا أَوْ هُنَاكَ ؛ فَعَلَى هَذَا إنْ كَانَتْ الرُّوحُ مِمَّا يُشَارُ إلَيْهَا وَيَتْبَعُهَا بَصَرُ الْمَيِّتِ – كَمَا قَالَ صلى الله عليه وسلم : (أَنَّ الرُّوحَ إذَا خَرَجَتْ تَبِعَهَا الْبَصَرُ وَأَنَّهَا تُقْبَضُ وَيُعْرَجُ بِهَا إلَى السَّمَاءِ) – كَانَتْ الرُّوحُ جِسْمًا بِهَذَا الِاصْطِلَاحِ.

التوضيح :

الصحيح أن إطلاق القول بأن الروح جسم أو ليس بجسم يحتاج إلى تفصيل لاختلاف الناس في لفظ الجسم فلذلك بين شيخ الإسلام معنى الجسم واختلاف الناس في معناه الاصطلاحي :

أولا المعنى اللغوي للجسم : هو الجسد والبدن[1] ،و بهذا الاعتبار فليست الروح جسما ، بل يقال :الروح والجسم ، وهو البدن الخارجي كما قال تعالى : ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ المنافقون : [٤] وقال تعالى :﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ ﴾ وَٱلْجِسْمِ البقرة : [٢٤٧]إذا فلا يصح أن تسمى الروح في اللغة جسما .

ثانيا : أما عند المتكلمين فقد اختلفوا في معناه الاصطلاحي على عدة أقوال منها :

١ ـ أن الجسم هو الموجود ، وبهذا الإطلاق يصح تسمية الروح جسما .

---

١ ـ لسان العرب : (١٢ / ٩٩)

٢ ـ أن الجسم هو القائم بنفسه ويصدق هذا على الروح بعد القبض لأنها تستقل عن الجسد . مرادهم بالقيام بنفسه أن وجوده لا يتوقف على وجود غيره خارجا كالجواهر في مقابلة الأعراض التي لا تقوم إلا في غيرها .

٣ ـ أن الجسم هو المركب من الجواهر المفردة ، وهذا لا يصدق على الروح .

والجواهر المفردة : هي الأجزاء التي لا تقبل انقساما لا في الخارج ولا في الفرض العقلي[1] .

وهذه النظرية ـ الجوهر الفرد ـ عند المتكلمين يخالفهم فيها جمهور العقلاء فإنهم يقولون إن جميع الأجسام تتركب من أجزاء لا تتجزأ أبدا وهي الجواهر المفردة والجمهور يقولون إنه ما من جزء إلا ويقبل التجزؤ حتى ينعدم عن وصفه الأول ويستحيل إلى شيء آخر كالبخار ونحوه ، كما قاله شيخ الإسلام وقد ظهر عند علماء المادة تفجير الذرة وهذا يقوي القول ببطلان نظرية الجواهر المفردة[2] وأما الانعدام المطلق ففيه نظر ، والله أعلم .

٤ ـ الجسم هو المركب من المادة والصورة : وهذ لا يصدق على الروح أيضا . والمادة : هي أصل الشيء والجوهر الذي تقوم عليه الأشياء كالطين مثلا وتسمى عندهم الهيُولي[3] أيضا .

والصورة : هي وضع الشيء وشكله بعد تركيبه ، وهو العرض القائم بالمادة كتشكيل ذلك الطين . فاجتماع الطين مع شكله يكون جسما .

وجميع هؤلاء يقولون إن الجسم مشار إليه بإشارة حسية .

---

١ ـ تعريفات الجرجاني : ص ٧٥

٢ ـ انظر المعجم الفلسفي : ص ٨٨ . وانظر مذكرات الدكتور الخميس .

٣ ـ التعريفات : ص ٢٥٧ .

٥ ـ منهم من يقول : ليس بمركب من هذا ولا هذا بل مشار إليه ، و هـذا يصدق على الروح لأنها مما يشار إليه ويتبعها البصر كما في حديث مسلم عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : ((إن الروح إذا خرج تبعه البصر))[1] ، وتقبض ويعرج بها إلى السماء كما سبق .

خامسا : المقصود من هذا المثل :

قوله : ﴿وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ الرُّوحَ إِذَا كَانَتْ مَوْجُودَةً حَيَّةً عَالِمَةً قَادِرَةً سَمِيعَةً بَصِيرَةً : تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ وَتَذْهَبُ وَتَجِيءُ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ ، وَالْعُقُولُ قَاصِرَةٌ عَنْ تَكْيِيفِهَا وَتَحْدِيدِهَا ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا لَهَا نَظِيرًا . وَالشَّيْءُ إنَّمَا تُدْرَكُ حَقِيقَتُهُ بِمُشَاهَدَتِهِ أَوْ مُشَاهَدَةِ نَظِيرِهِ . فَإِذَا كَانَتْ الرُّوحُ مُتَّصِفَةً بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مَعَ عَدَمِ مُمَاثَلَتِهَا لِمَا يُشَاهَدُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ : فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِمُبَايَنَتِهِ لِمَخْلُوقَاتِهِ مَعَ اتِّصَافِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ؛ وَأَهْلُ الْعُقُولِ هُمْ أَعْجَزُ عَنْ أَنْ يَحُدُّوهُ أَوْ يُكَيِّفُوهُ مِنْهُمْ عَنْ أَنْ يَحُدُّوا الرُّوحَ أَوْ يُكَيِّفُوهَا . فَإِذَا كَانَ مَنْ نَفَى صِفَاتِ الرُّوحِ جَاحِدًا مُعَطِّلًا لَهَا وَمَنْ مَثَّلَهَا بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ جَاهِلًا مُمَثِّلًا لَهَا بِغَيْرِ شَكْلِهَا وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ ثَابِتَةٌ بِحَقِيقَةِ الْإِثْبَاتِ مُسْتَحِقَّةٌ لِمَا لَهَا مِنْ الصِّفَاتِ : فَالْخَالِقُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مَنْ نَفَى صِفَاتِهِ جَاحِدًا مُعَطِّلًا وَمَنْ قَاسَهُ بِخَلْقِهِ جَاهِلًا بِهِ مُمَثِّلًا " وَهُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ثَابِتٌ بِحَقِيقَةِ الْإِثْبَاتِ مُسْتَحِقٌّ لِمَا لَهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ .﴾

---

١ ـ رواه مسلم : (٢ / ٦٣٤) وأحمد : (٦ / ٢٩٧)

التوضيح :

مقدمة :

تضمن كلام الشيخ قاعدة مهمة حاصلها أن لإدراك حقائق الأشياء طريقين:

أحدهما : الإدراك المباشر كالمعاينة والمشاهدة .

الثاني : مشاهدة نظير ذلك الشيء .

ماذا أراد شيخ الإسلام من ضرب المثل بالروح ؟

أولا : أن الروح إذا كانت موجودة موصوفة بعدة صفات كالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والصعود والنزول والذهاب والمجيء وغيرها مما دلت عليه النصوص والعقول رغم ذلك قاصرة عن تكييفها وتحديدها ، فإذا كانت متصفة بهذه الصفات مع عدم مماثلتها لما يشاهد من المخلوقات رغم أنها مخلوقة ـ كما قرره ابن قيم الجوزية في الروح ـ فالخالق جل وعلا أولى بمباينته لمخلوقاته مع اتصافه بما يستحقه من الصفات وقصور عقولنا عن إدراك كيفية صفاته وكنهها فعجز أهل العقول عن أن يحدوه أو يكيفوه أظهر وأشد من عجزهم عن أن يحدوا الروح أو يكيفوها فإن العجز عن تكييف الخالق والإحاطة به وبصفاته أولى من العجز عن تكييف المخلوق .

وإذا كان الحكم على الشيء نفيا وإثباتا فرعا عن تصوره فكيف حكّم هؤلاء عقولهم في صفات الرب نفيا وإثباتا بل كيف ردوا ما أخبر به عن نفسه وتأولوه بما يوافق عقولهم ، فهذا المثل يدل على أن باب الصفات إنما يدخل إليه من طريق النقل لا العقل المجرد .

الثاني : إذا كان من نفى صفات الروح جاحدا معطلا لها ومن مثّلها بما يشاهده كان جاهلا ممثّلا لها فالخالق تعالى أولى أن يكون من نفى صفاته جاحدا

معطلا ومن قاسه بخلقه جاهلا ممثلا ، فهو سبحانه حق ومستحق لما له من الأسماء والصفات .

وهنا أيضا استخدم المؤلف قياس الأولى كما سبقت الإشارة إليه ، وخلاصته أنه إذا كان بعض المخلوقات يعجز عن تكييفها فالخالق أولى بأن يعجز الخلق عن تكييفه كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ طه : [١١٠]

خلاصة مافي المثلين المضروبين

١ ـ مثال الجنة يبين أن التشابه في الأسماء لا يستلزم التشابه في الخصائص والكيفيات .

٢ ـ الناس فيما أخبر الله به من المغيبات ثلاث فرق : أهل التنزيل وأهل التعطيل وأهل التخييل .

٣ ـ لا يجوز في حق الله تعالى قياس التمثيل ولا قياس الشمول ويجوز في حقه قياس الأولى فيما هو ثابت بالنقل تصريحا أوتلويحا .

٤ ـ مثل الروح يبين أنه قد تعلم معاني الأشياء وتجهل كيفياتها وأن من جحد صفات الروح الواردة في النصوص كان معطلا ، فمن نفى صفات الله تعالى كان جاحدا معطلا بقياس الأولى .

٥ ـ اضطرب الناس في الروح اضطرابا شديدا لمخالفتها للمحسوسات في عالم المادة ولبعدهم عن النقليات .

المناقشة ؟

١. ما المقصود بضرب المثال بالجنة ؟

٢. اذكر مواقف الناس فيما أخبر الله به من المغيبات .

٣. ما مذهب الباطنية في الأحكام ؟

٤. اذكر الأقيسة الجائزة وغير الجائزة في حق الله تعالى مع التعليل ؟

٥. ما المقصود بضرب المثال بالروح ؟ وما مذاهب الناس في الروح ؟

٦. ما أسباب الاضطراب الذي وقع فيه المتكلمون والفلاسفة في الروح؟

٧. عرّف مايلي : النفس الناطقة ، الجسم ، الجوهر الفرد ، الهيولى ، الصورة ، المادة ، أهل التخييل .

الخاتمة الجامعة

لسبع قواعد نافعة

القاعدة الأولى

صفات الله تعالى نفي وإثبات

قوله : ﴿ فصل : وأما الخاتمة الجامعة ففيها قواعد نافعة :.

القاعدة الأولى : أن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفي فالإثبات كإخباره بأنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه سميع بصير ونحو ذلك والنفي كقوله لا تأخذه سنة ولا نوم وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتا وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال ؛ لأن النفي المحض عدم محض ؛ والعدم المحض ليس بشيء وما ليس بشيء فهو كما قيل : ليس بشيء ؛ فضلا عن أن يكون مدحا أو كمالا ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال﴾

التوضيح:

وصف الله تعالى نفسه بالإثبات كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ البقرة : [٢٩] وقوله :﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آل عمران : [٢٩]
ووصف نفسه بالنفي كقوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ البقرة : [٢٥٥]

الكلام في النفي :

من أصول السلف كما سبق أن النفي متضمن لإثبات كمال الضد ، فإن النفي المحض ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتا للكمال ، وذلك للأسباب التالية :

١) لأن النفي المحض غير المتضمن للإثبات عدم محض والعدم المحض ليس بشيء لأنه عدم ، ومادام عدما وليس بشيء فلا يكون كمالا وما لم يكن كمالا كيف يوصف به رب العالمين . وسيأتي التفصيل في مسألة هل المعدوم شيء أم ليس بشيء ؟

٢) ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم فيقال :ليس بموجود ولا حي و غير ذلك ، بل ويوصف به الممتنع فيقال ليس بممكن ولا موجود وكلاهما لا يوصفان بمدح ولا كمال فمن ثم كان النفي المحض في حق الله ﷻ نقصا .

٣) ولأن النفي المحض قد يكون لعدم قابلية الموصوف لذلك النفي . فإذا قيل الجدار لا يظلم فهذا ليس بمدح لعدم قابلية الجدار للظلم أصلا .

٤) ولأن النفي إن لم يتضمن إثبات كمال الضد فقد يكون لنقص الموصوف أو عجزه كقول الحماسي[1] يهجو قومه :

---

١ ـ حماسة أبي تمام : (١ / ٣٠) .

ولكن قومي وإن كانوا ذوي عـدد * ليسوا من الشر في شـيء وإن هانـا

فهم ليسوا من الشر لا لكمال عفوهم وإنما لعجزهم بدليل قوله :

فليـت لي بـهمو قومـا إذا ركبـوا * شـنوا الإغـارة ركبانـا وفرسـانا

وكذلك قول الشاعر النجاشي :

قبيلـة لا يغـدرون بذمـة * ولا يظلمـون النـاس حبـة خـردل

أراد بنفي الغدر والظلم بيان عجزهـم لا مدحـهم بدليـل تصغـيرهم بقولـه (قُبيّلة)

٥) ولأن النفي المحض فيه إساءة أدب ، قال ابن أبي العـز : (وهـذا النفـي المجرد مع كونه لا مدح فيه ، فيه إساءة أدب فإنك لـو قلـت للسـلطان أنـت لسـت بزبال ولا كساح ولاحجام ولا حائك لأدّبك)[1]

وكما قال الشاعر :

ألم تـر أن السـيف ينقـص قـدره * إذا قيل : إن السيف أمضى مـن العصـى

أمثلة للنفي المتضمن لكمال الضد

قوله : ﴿ فَلِهَذَا كَانَ عَامَّةُ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ النَّفْيِ مُتَضَمِّنًا لِإِثْبَاتِ مَدْحٍ كَقَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إلَى قَوْلِهِ : (وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) فَنَفْيُ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ : يَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْحَيَاةِ وَالْقِيَامِ ؛ فَهُوَ مُبَيِّنٌ لِكَمَالِ أَنَّهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ

---

١ ـ شرح الطحاوية : ص ٧٠ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : (وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا) أَيْ لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ وَذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَتَمَامِهَا بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ الْقَادِرِ إِذَا كَانَ يَقْدِرُ عَلَى الشَّيْءِ بِنَوْعِ كُلْفَةٍ وَمَشَقَّةٍ فَإِنَّ هَذَا نَقْصٌ فِي قُدْرَتِهِ وَعَيْبٌ فِي قُوَّتِهِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) فَإِنَّ نَفْيَ الْعُزُوبِ مُسْتَلْزِمٌ لِعِلْمِهِ بِكُلِّ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) فَإِنَّ نَفْيَ مَسِّ اللُّغُوبِ الَّذِي هُوَ التَّعَبُ وَالْإِعْيَاءُ دَلَّ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَنِهَايَةِ الْقُوَّةِ بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يَلْحَقُهُ مِنَ التَّعَبِ وَالْكَلَالِ مَا يَلْحَقُهُ

التوضيح

فجميع ما وصف الله به نفسه من النفي المتضمن لإثبات كمالٍ ومدحٍ .

وأمثلة ذلك يوضحها الجدول التالي :

	الآيـــــة	تضمنها لكمال الضد
١.	﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ البقرة : [٢٥٥]	لكمال حياته وقيوميته
٢.	﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ البقرة : [٢٥٥] أي لا يكرثه ولا يثقله [١]	لكمال قدرته التي لا تتخللها مشقة

١ ـ لسان العرب : (٢ / ٥٩٦)

تابع الجدول السابق :

	الآيـــــــــة	تضمنها لكمال الضد
٣.	﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ سبأ:[٣]	لكمال علمه
٤.	﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ ق : [٣٨]	لكمال قدرته ونهاية قوته
٥.	﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ الأنعام : [١٠٣] أي تحيط به	لكمال عظمته
٦.	﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٤٩) الكهف : [٤٩]	لكمال عدله .

استطراد في معنى الإدراك :

قوله : ﴿ وكذلك قوله : (لا تدركه الأبصار) إنما نفى الإدراك الذي هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء ولم ينف مجرد الرؤية ؛ لأن المعدوم لا يرى وليس في كونه لا يرى مدح ؛ إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحا وإنما المدح في كونه لا يحاط به وإن رئي ؛ كما أنه لا يحاط به وإن علم فكما أنه إذا علم لا يحاط به علما : فكذلك إذا رئي لا يحاط به رؤية فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحا وصفة كمال وكان ذلك دليلا على إثبات الرؤية لا على نفيها لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها وإذا تأملت ذلك : وجدت كل نفي لا يستلزم ثبوتا هو مما لم يصف الله به نفسه ﴾

التوضيح:

في معنى الإدراك قولان لأهل السنة :

القول الأول : وهو لجمهور السلف أن الإدراك هو الإحاطة كما قال شيخ الإسلام هنا ﴿ إِنَّمَا نَفَى الْإِدْرَاكَ الَّذِي هُوَ الْإِحَاطَةُ كَمَا قَالَهُ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ ﴾ [1]

القول الثاني : وهو لبعض السلف أن الإدراك بمعنى الرؤية وحملوا الآية على نفي الرؤية في الدنيا لقوله ﷺ : ((إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا))[2] وهذا قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ حيث استدلت بالآية على نفي رؤية النبي ﷺ لربه في ليلة الإسراء ، مما يدل على أنها فهمت من الآية عدم الرؤية في الدنيا دون الآخرة ، وبه قال الإمام أحمد في رده على الجهمية [3] ونص عليه الإمام الملطي[4] حيث قال : (فأما تفسير الآية ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ يعني لا يراه الخلق في الدنيا دون الآخرة)[5]

وأما عامة المعتزلة والخوراج فالإدراك عندهم بمعنى الرؤية ويستدلون بالآية على نفيها مطلقا في الدنيا والآخرة ، وقولهم هذا مخالف للكتاب والسنة والإجماع ويرد على استدلالهم بما يلي :

---

١ ـ انظر التوحيد لابن خزيمة : (٢ / ٤٥٩) ، والشريعة للآجري : (٢ / ١٠٤٨) ، والإبانة لابن بطة : الكتاب الثالث : (٣ / ١٥) ، حادي الأرواح : ص ٢٢٩ . الفصل لابن حزم : (٣ / ٢)

٢ ـ أخرجه مسلم : (٨ / ١٩٣)

٣ ـ الرد على الجهمية : ص ٥٩ .

٤ ـ هو الإمام الفقيه المحدث أبو الحسن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي العسقلاني الشافعي ، من أوائل من صنف في الملل والنحل ، توفي سنة ٣٧٧ . الأعلام : (٥ / ٣١١)

٥ ـ التنبيه والرد : ص ٦٠ ، وقد نقله اللالكائي عن جماعة من السلف منهم أبو العالية ونعيم بن حماد وغيرهما كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة : (٣ / ٥٢٠ ـ ٥٢٢) .

١) بالأدلة المصرّحة بالرؤية في الآخرة كقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ القيامة : [٢٢ ـ ٢٣] . و النظر إذا أسند إلى العين وعدي بإلى كان نصا في الرؤية البصرية دون سائر معاني النظر .

ومن السنة قوله ﷺ : ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر .. الحديث))[1]

٢) الآيات الدالة على أن الإدراك بمعنى الإحاطة كقوله تعالى :﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ الشعراء : [٦١] ، ففرق بين الرؤية التي وقعت وبين الإدراك والإحاطة التي لم تقع. فدل على أن الإحاطة أخص لأنها رؤية وإحاطة .

٣) ليس في نفي الرؤية كمال بل الكمال في إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة لإظهار عظمته كما أنه تعالى يُعلم ولا يحاط به علما فكذلك يرى ولا يحاط به رؤيةً .

٤) إذا ثبت أن الإدراك أخص من الرؤية ، فنفي الإدراك لا يقتضى نفي الرؤية ، لأن نفي الأخص لا يقتضي نفي الأعم ، كما أن نفي إحاطتنا بكيفية صفاته ﷻ لا يقتضي نفي علمنا بالصفة . بل إن نفي الأخص قد يدل على ثبوت الأعم لأنه لو أراد نفي الأعم وهو الرؤية لصرح بنفيها ثم تدخل الإحاطة في النفي [2].

٥) أنه تعالى قال:﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ الأنعام : [١٠٣] ومعناها أنه يحيط بالأبصار وليس المعنى مجرد رؤية الأبصار كقوله تعالى ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ ﴿١٩﴾ غافر : [١٩]

---

١ ـ أخرجه البخاري : [٢٠٦] ومسلم : [١٨٢] وهو من الأحاديث المتواترة .

٢ ـ انظر مذكرات الشيخ البراك حفظه الله تعالى .

أي يحيط بالأبصار فالتناسق القرآني يدل على أن الإدراك في الموضعين بمعنى واحد وهو الإحاطة لوحدة السياق .

وقد أجمع أهل السنة على ثبوت الرؤية في الآخرة ، قال أبو الحسن الأشعري : (وأجمعوا على أن المؤمنين يرون الله يوم القيامة بأعين وجوههم) [1] .
و لهذا وصراحةِ النصوص وجلاء المسألة في عقائد المسلمين كان إنكار الرؤية كفرا عند عامة السلف [2].

* تذييل :

و من أحكَمَ الجوابَ على أهل الكلام في مسألة إنكار الصفات بحجة التجسيم والتحيز والجهة اندفعت عنده الشبه العقلية التي ارتكز عليها استدلالهم في إنكار الرؤية لأنهم إنما أنكروها لاستلزامها ـ في عقيدتهم ـ التجسيم والجهة فإن أهل السنة يسلمون بتوقف الرؤية على كون المرئي في جهة ويؤمنون بأن ربهم في العلو المطلق ومن ثم تخبط الأشاعرة في الباب إذ أثبتوا الرؤية وأنكروا العلو .

مخالفة أهل السلوب

قوله : فَالَّذِينَ لَا يَصِفُونَهُ إلَّا بِالسُّلُوبِ : لَمْ يُثْبِتُوا فِي الْحَقِيقَةِ إلَهًا مَحْمُودًا بَلْ وَلَا مَوْجُودًا وَكَذَلِكَ مَنْ شَارَكَهُمْ فِي بَعْضِ ذَلِكَ كَالَّذِينَ قَالُوا لَا يَتَكَلَّمُ أَوْ لَا يَرَى أَوْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ أَوْ لَمْ يَسْتَوِ عَلَى الْعَرْشِ وَيَقُولُونَ : لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا مُبَايِنًا لِلْعَالَمِ وَلَا مُحَايِثًا لَهُ ؛ إذْ هَذِهِ الصِّفَاتُ يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ بِهَا الْمَعْدُومُ ؛ وَلَيْسَتْ هِيَ صِفَةً مُسْتَلْزِمَةً صِفَةَ ثُبُوتٍ وَلِهَذَا " قَالَ مَحْمُودُ بْنُ سبُكْتِكِينَ " لِمَنْ ادَّعَى ذَلِكَ فِي الْخَالِقِ : مَيِّزْ لَنَا بَيْنَ هَذَا الرَّبِّ الَّذِي

---

١ ـ رسالة إلى أهل الثغر : ص ٢٣٧ .
٢ ـ الفتاوى : (٦ / ٤٨٦)

تُثْبِتُهُ وَبَيْنَ الْمَعْدُومِ . وَكَذَلِكَ كَوْنُهُ لَا يَتَكَلَّمُ أَوْ لَا يَنْزِلُ لَيْسَ فِي ذَلِكَ صِفَةُ مَدْحٍ وَلَا كَمَالٍ ؛ بَلْ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِيهَا تَشْبِيهٌ لَهُ بِالْمَنْقُوصَاتِ أَوْ الْمَعْدُومَاتِ فَهَذِهِ الصِّفَاتُ : مِنْهَا مَا لَا يَتَّصِفُ بِهِ إلَّا الْمَعْدُومُ وَمِنْهَا مَا لَا يَتَّصِفُ بِهِ إلَّا الْجَمَادَاتُ وَالنَّاقِصُ»

التوضيح:

هنا رجوع لمن يصف الله تعالى بالسلب وهو النفي المحض فإنه في حقيقة أمره لم يثبت إلها موصوفا بالكمال مستحقا للحمد والثناء ، بل إنه لم يثبت إلها موجودا . وهكذا الشأن عند المعتزلة القائلين بنفي الكلام والرؤية والعلو وبقية الصفات فإنهم لم يمدحوا الله بل وصفوه بالنقائص وهكذا الأشاعرة الذين وافقوهم في بعض هذا النفي .

لهذا كان قول المبتدعة : إن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا مباين له ولا محايث ـ أي مداخل ، إنما هو وصف للمعدوم وقد ردّ الأمير محمود بن سبكتكين[1] على ابن فورك[2] الأشعري لما ادعى هذا النفي فقال له : (ميّز لنا بين هذا الرب الذي تثبته وبين المعدوم)

فالحاصل : أن نفي هؤلاء لا يخرج عن أحد أمرين :

أحدهما : أنه يفضي إلى التشبيه بالمنقوصات والجمادات وذلك إذا قال : لا يتكلم أو لا ينزل أو لا يسمع إلى غيرها من صفات النقص .

ثانيهما :يفضي إلى التشبيه بالمعدومات كمن قال : لا داخل العالم ولا خارجه ، فإن ذلك معدوم ، فلا يخرج نفيهم عن وصفه بصفات الجمادات أو المعدومات .

---

١ ـ هو السلطان الغزنوي أبو القاسم محمود بن سبكتكين توفي سنة : ٤٢١ . امتدت سلطته من أقاصي الهند إلى نيسابور . البداية والنهاية : (١٢ / ٢٧ ـ ٣١) من تحقيق السعوي : ص ٦٠ .

٢ ـ ابن فورك بضم الفاء وفتح الراء هو محمد بن الحسن أبو بكر الفقيه الأصولي المتكلم الأشعري الشافعي كان كثير التصانيف توفي سنة : ٤٠٦ . السير : (١٧ / ٢١٤) طبقات الشافعية: (٤ / ١٢٧)

رجوع إلى شبهة عدم قبوله تعالى للصفات

قوله : ﴿ فَمَنْ قَالَ : لَا هُوَ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ وَلَا مُدَاخِلٌ لِلْعَالَمِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَالَ : لَا هُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ وَلَا قَدِيمٌ وَلَا مُحْدَثٌ وَلَا مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْعَالَمِ وَلَا مُقَارِنٌ لَهُ وَمَنْ قَالَ : إِنَّهُ لَيْس بِحَيٍّ وَلَا مَيِّتٍ وَلَا سَمِيعٍ وَلَا بَصِيرٍ وَلَا مُتَكَلِّمٍ لَزِمَهُ أَنْ يَكُونَ مَيِّتًا أَصَمَّ أَعْمَى أَبْكَمَ . فَإِنْ قَالَ : الْعَمَى عَدَمُ الْبَصَرِ عَمَّا مَنْ شَأْنُهُ أَنْ يَقْبَلَ الْبَصَرَ وَمَا لَمْ يَقْبَلِ الْبَصَرَ كَالْحَائِطِ لَا يُقَالُ لَهُ أَعْمَى وَلَا بَصِيرٌ ﴾

التوضيح

هنا رجع شيخ الإسلام إلى إلزام النفاة بوصف الله بالنقائص إذا نفوا عنه الكمال وقسمهم إلى قسمين بناء على ماسبق من أن النفاة إما أن يقعوا بنفيهم في التشبيه بالمعدومات أو بالجمادات فقال :

أولا : من قال : (إن الله لا مباين للعالم ولا مداخل له) مثل من قال : (إن الله لا قائم بنفسه ولا بغيره ولا قديم ولا محدث ولا متقدم على العالم ولا مقارن له) فكما أن نفي القيام بالنفس وبالغير معا ممتنع فكذلك نفي كونه داخل العالم أو خارجه ممتنع ، وكما أن نفي القدم والحدوث والتقدم والتأخر ممتنع فكذلك نفي كونه داخل العالم أو خارجه ممتنع فإن جميع هذه الأوصاف من المتناقضات التي لايصح ارتفاعها معا كما سبق في النقيضين .

ثانيا : ومن قال ليس بحيّ ولا سميع ولابصير ولا متكلم لزمه أن يكون ميتا أصم اعمى أبكم .

دليل الملازمة : أن القابلية للحياة والسمع والبصر كمال ممكن في حق المخلوق فبقانون الأكملية تثبت القابلية في حق الله ، فمن نفى عن ربه السمع والبصر والحياة لزمه وصفه بأضدادها .

فإن اعترض باعتراضه المشهور : وهو أن العمى هو عدم البصر عن المحل الذي من شأنه أن يوصف بالبصر ، و أما ما لا يقبل الاتصاف بالبصر كالجدار فلا يقال له أعمى ولا بصير ، وهكذا السمع والكلام والعلم وغيرها يشترط فيها صلاحية المحل لها . فهذاشيخ الإسلام يجيب على هذه الشبهة من أربعة أوجه .

الجواب عن الشبهة من أربعة أوجه

وجهان على فرض المنع ووجهان على فرض التسليم .

أولا : الوجهان الأولان على فرض المنع :

قوله : ﴿ قِيلَ لَهُ : هَذَا اصْطِلَاحٌ اصْطَلَحْتُمُوهُ وَإِلَّا فَمَا يُوصَفُ بِعَدَمِ الْحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ : يُمْكِنُ وَصْفُهُ بِالْمَوْتِ وَالْعَمَى وَالْخَرَسِ وَالْعُجْمَةِ وَأَيْضًا فَكُلُّ مَوْجُودٍ يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ وَنَقَائِضِهَا فَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى جَعْلِ الْجَمَادِ حَيًّا كَمَا جَعَلَ عَصَى مُوسَى حَيَّةً ابْتَلَعَتْ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ ﴾

التوضيح

هنا ذكر الشيخ وجهين على فرض منع قولهم بعدم جواز إطلاق الصفات ونقائصها على الموجودات :

الوجه الأول : أن هذا اصطلاح اصطلحتموه أنتم والفلاسفة كما سبق ـ وهوماسبق تسميته بالملكة والعدم أي أنه يصح رفع النفي والإثبات عن المحل الذي لا يصلح له ـ وإلا فإن الأصل أن ما يوصف بعدم الحياة يجوز وصفه بالموت كما

سمى الله الجمادات أمواتا في قوله: ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ النحل : [٢١] وهكذا بقية الصفات .

الوجه الثاني : أن كل موجود يقبل الاتصاف بهذه الصفات ونقائضها بقدرة الله ، فإذا أدخلنا القدرة في الاعتبار صارت المتقابلات بالملكة والعدم في حكم النقيضين ، فكيف إذا كان الكلام عن الله نفسه ﷻ ، لا جرم يلزم من نفي الكلام الخرس ومن نفي السمع الصمم وهكذا .

ودليل ذلك : أن العصى ـ بحسب كلام الفلاسفة ـ لا تقبل الحياة ومع ذلك انقلبت حيّة كما حصل مع عصى موسى ـ عليه السلام .

وهكذا الطين نفخ فيه عيسى عليه السلام فكان طيرا بإذن الله . وهكذا حنين الجذع عند النبي ﷺ[1] . فهذه جمادات اتصفت بصفات الحيوان بإذن الله .

ثانيا : الوجهان الأخيران على فرض التسليم

قوله : ﴿ وَأَيْضًا فَالَّذِي لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ أَعْظَمُ نَقْصًا مِمَّنْ يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِهَا مَعَ اتِّصَافِهِ بِنَقَائِضِهَا . فَالْجَمَادُ الَّذِي لَا يُوصَفُ بِالْبَصَرِ وَلَا الْعَمَى وَلَا الْكَلَامِ وَلَا الْخَرَسِ : أَعْظَمُ نَقْصًا مِنْ الْحَيِّ الْأَعْمَى الْأَخْرَسِ * فَإِذَا قِيلَ : إنَّ الْبَارِي لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِذَلِكَ : كَانَ فِي ذَلِكَ مِنْ وَصْفِهِ بِالنَّقْصِ أَعْظَمُ مِمَّا إذَا وُصِفَ بِالْخَرَسِ وَالْعَمَى وَالصَّمَمِ وَنَحْوَ ذَلِكَ ؛ مَعَ أَنَّهُ إذَا جُعِلَ غَيْرَ قَابِلٍ لَهَا كَانَ تَشْبِيهًا لَهُ بِالْجَمَادِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِوَاحِدِ مِنْهَا . وَهَذَا تَشْبِيهٌ بِالْجَمَادَاتِ ؛ لَا بِالْحَيَوَانَاتِ ، فَكَيْفَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ غَيْرُهُ مِمَّا يَزْعُمُ أَنَّهُ تَشْبِيهٌ بِالْحَيِّ . وَأَيْضًا فَنَفْسُ نَفْيِ هَذِهِ الصِّفَاتِ نَقْصٌ كَمَا أَنَّ إثْبَاتَهَا كَمَالٌ فَالْحَيَاةُ

---

[1] ـ رواه البخاري في المناقب باب علامات النبوة في الإسلام : (٦ / ٦٨٠) وأصحاب السنن .

مِنْ حَيْثُ هِيَ هِيَ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ تَعْيِينِ الْمَوْصُوفِ بِهَا صِفَةُ كَمَالٍ ، وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ وَالْفِعْلُ وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ وَمَا كَانَ صِفَةَ كَمَالٍ : فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَحَقُّ أَنْ يَتَّصِفَ بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فَلَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهِ مَعَ اتِّصَافِ الْمَخْلُوقِ بِهِ : لَكَانَ الْمَخْلُوقُ أَكْمَلَ مِنْهُ .

التوضيح

وهنا ذكر وجهين على فرض التسليم بأن الله تعالى لا يقبل هذه الصفات ونقائضها :

الوجه الثالث :

أن الذي لا يقبل الاتصاف بها أصلا أعظم نقصا ممن يقبل الاتصاف بها مع الاتصاف بنقيضها ، فالجماد الذي لا يقبل الاتصاف بالعمى أعظم نقصا من الحي الأعمى مثلا .

فإذا قلتم : إن الله لا يقبل الاتصاف بذلك ، كان وصفه بعدم القابلية للاتصاف بها أعظم نقصا مما إذا وصف بالخرس والعمى والصمم .

دليل الأولوية : أن نفي القابلية من صفات الجمادات والخرس والعمى والصمم من صفات الحيوانات والجمادات أنقص من الحيوانات . فكيف بمن ينكر من قال ذلك على غيره حين يزعم أنه شبهه بالأحياء مع أنه شبهه بالجمادات وهي أعظم نقصا .

الوجه الرابع :

يقرر شيخ الإسلام في هذا الوجه مسألة غفل عنها كثير من المتكلمين مما أوقعهم في التعطيل وهو ما أسميناه القدر المشترك للصفة وهو النظر الى الصفات بقطع النظر عن الموصوفين هل هي صفة كمال أم صفة نقص فإن الصفة من حيث

هي هي إما أن تكون صفة كمال بإطلاق أو صفة نقص بإطلاق أو نسبية فالحياة صفة كمال والموت صفة نقص والزوجية صفة كمال نسبية أي بالنسبة إلى الإنسان كمال بينما بالنسبة إلى الله نقص .

ولذلك فإن نفس نفي الصفات نقص بقطع النظر عن تعيين الموصوف بها فالعلم والقدرة والحياة والسمع و البصر والكلام والفعل ونحو ذلك كلها كمال ، كما قال تعالى :﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ﴿٩﴾ الزمر : [٩] وقال :﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ النحل [١٧] وكما حكى عن إبراهيم قوله : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ ﴿٤٢﴾ مريم : [٤٢] وذم الله عجل قوم موسى بقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ الأعراف : [١٤٨] فنفي هذه الصفات نقص وإثباتها كمال .

فالله أحق بالاتصاف بها لأنه لو لم يتصف بها لكان المخلوق أكمل منه .

مقارنة بين من ينفون عن الله النقيضين ومن يصفونه بالنفي فقط

قوله : ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ الْجَهْمِيَّةَ الْمَحْضَةَ كَالْقَرَامِطَةِ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ : يَنْفُونَ عَنْهُ تَعَالَى اتِّصَافَهُ بِالنَّقِيضَيْنِ حَتَّى يَقُولُونَ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا حَيٍّ وَلَا لَيْسَ بِحَيٍّ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْخُلُوَّ عَنْ النَّقِيضَيْنِ مُمْتَنِعٌ فِي بَدَائِهِ الْعُقُولِ كَالْجَمْعِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ . وَآخَرُونَ وَصَفُوهُ بِالنَّفْيِ فَقَطْ فَقَالُوا لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا سَمِيعٍ وَلَا بَصِيرٍ ؛ وَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ كُفْرًا مِنْ أُولَئِكَ مِنْ وَجْهٍ

وَأُولَئِكَ أَعْظَمُ كُفْرًا مِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ وَجْهٍ فَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ هَذَا مُسْتَلْزِمٌ وَصْفَهُ بِنَقِيضِ ذَلِكَ كَالْمَوْتِ وَالصَّمَمِ وَالْبُكْمِ قَالُوا إِنَّمَا يَلْزَمُ ذَلِكَ لَوْ كَانَ قَابِلًا لِذَلِكَ وَهَذَا الِاعْتِذَارُ يَزِيدُ قَوْلَهُمْ فَسَادًا»

التوضيح:

أشار شيخ الإسلام هنا إلى طائفتين :

- الأولى : من ينفون عنه النقيضين : وهم الجهمية المحضة أي الخالصة الغالية كالقرامطة الباطنية فيقولون :ليس بموجود ولا ليس بموجود وليس بحي ولا ليس بحي أي ليس بموجود ولا معدوم وهكذا . وإنما عبرو عن الثاني بنفي الأول احترازا من قول المعتزلة الذين أثبتوا واسطة بين الموجود والمعدوم سموها الحال على ما سيأتي في القاعدة السادسة .

- الثانية : من يصفونه بالنفي فقط ، وهم الجهمية والمعتزلة : ليس بحي ولا سميع ولا بصير .

وبين الشيخ أن النسبة بين الطائفتين باعتبار أيهما أعظم كفرا هي العموم والخصوص الوجهي فكل من الطائفتين أعظم كفرا من جهة :

فالطائفة الأولى أكفر من جهة أنهم شبهوه بالممتنعات وهو أقبح من من مجرد العدم . والثانية أكفر من جهة أنهم لم يصرحوا بنفي النقائص عن الله بل قالوا : ليس بحي ولم يقولوا : ليس بميت ، فتنزيههم أقل من الطائفة الأولى التي صرحت بنفي النقائص . فكل من الطائفتين أكفر من الأخرى من جهة .

وشبهة الطائفة الثانية : أن الله غير قابل لهذه الصفات كما سبق . فإذا قيل لهم : قولكم إن الله ليس بحي ولا سميع يستلزم اتصافه بالموت والصمم ، قالوا : إنما يلزم ذلك لو كان قابلا لها لكنه غير قابل لها . وجوابهم هذا يزيد قولهم فسادا

لأن نفي قبول الصفة أشنع و أبشع من تقدير قبولها مع نفيها فيقاربون الطائفة الأولى .

شبهة لنفاة العلو والرد عليها

قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ مَنْ ضَاهَى هَؤُلَاءِ – وَهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ : لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ إذَا قِيلَ هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي ضَرُورَةِ الْعَقْلِ كَمَا إذَا قِيلَ : لَيْسَ بِقَدِيمِ وَلَا مُحْدَثٍ – وَلَا وَاجِبٍ وَلَا مُمْكِنٍ وَلَا قَائِمٍ بِنَفْسِهِ وَلَا قَائِمٍ بِغَيْرِهِ قَالُوا هَذَا إنَّمَا يَكُونُ إذَا كَانَ قَابِلًا لِذَلِكَ وَالْقَبُولُ إنَّمَا يَكُونُ مِنْ الْمُتَحَيِّزِ فَإِذَا انْتَفَى التَّحَيُّزُ انْتَفَى قَبُولُ هَذَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ . فَيُقَالُ لَهُمْ عِلْمُ الْخَلْقِ بِامْتِنَاعِ الْخُلُوِّ مِنْهُ هَذَيْنِ النَّقِيضَيْنِ : هُوَ عِلْمٌ مُطْلَقٌ لَا يُسْتَثْنَى مِنْهُ مَوْجُودٌ وَالتَّحَيُّزُ الْمَذْكُورُ : إنْ أُرِيدَ بِهِ كَوْنُ الْأَحْيَازِ الْمَوْجُودَةِ تُحِيطُ بِهِ فَهَذَا هُوَ الدَّاخِلُ فِي الْعَالَمِ ؛ وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّهُ مُنْحَازٌ عَنْ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ أَيْ مُبَايِنٌ لَهَا مُتَمَيِّزٌ عَنْهَا فَهَذَا هُوَ الْخُرُوجُ فَالْمُتَحَيِّزُ يُرَادُ بِهِ تَارَةً مَا هُوَ دَاخِلُ الْعَالَمِ وَتَارَةً مَا هُوَ خَارِجُ الْعَالَمِ فَإِذَا قِيلَ لَيْسَ بِمُتَحَيِّزِ كَانَ مَعْنَاهُ لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ ، فَهُمْ غَيَّرُوا الْعِبَارَةَ لِيُوهِمُوا مَنْ لَا يَفْهَمُ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ أَنَّ هَذَا مَعْنًى آخَرَ وَهُوَ الْمَعْنَى الَّذِي عُلِمَ فَسَادُهُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ ؛ كَمَا فَعَلَ أُولَئِكَ بِقَوْلِهِمْ لَيْسَ بِحَيِّ وَلَا مَيِّتٍ وَلَا مَوْجُودٍ وَلَا مَعْدُومٍ وَلَا عَالِمٍ وَلَا جَاهِلٍ . ﴾

التوضيح

هذا اعتقاد متأخري الأشاعرة والماتريدية تبعوا فيه المعتزلة والفلاسفة وهو قولهم : إن الله لا داخل العالم ولاخارجه[1] ، فإذا قيل لهم هذا ممتنع في ضرورة العقل

---

١ ـ و انظر رسالة نقض قول من تبع الفلاسفة في دعواهم أن الله لا داخل العالم ولا خارجه لشيخنا د. الخميس .

وهو مماثل للقول بأنه ليس بقديم ولا محدث ولا واجب ولا ممكن ولا قائم بنفسه ولا بغيره .

أجابوا بشبهة الباطنية نفسها وهي : إنما يمتنع ذلك إذا كان الله قابلا لها والقبول للدخول والخروج إنما يكون للمتحيز والله منزه عن التحيز فانتفى قبوله لها.

والجواب عليهم من ثلاثة وجوه :

الأول : أن امتناع الخلو من هذين النقيضين عام لا يستثنى منه موجود فالتفريق بين المتحيز وغيره باطل .

الثاني : أن التحيز المذكور يراد به معنيان : إما أن الأحياز تحيط به فهذا هو الداخل في العالم وهذا ينزه الله عنه ، وإما أنه منحاز عن العالم فهذا هو الخارج المباين وهو الذي يوصف الله به .

الثالث : المتحيز يراد به ماهو داخل العالم وماهو خارجه ، فهم يقولون : ليس بمتحيز ويحملونه على المعنيين وهو لا داخل العالم ولا خارجه فكان معنى التحيز عندهم هو عين قولهم لا داخل العالم ولا خارجه وإنما غيروا العبارة ليموهوا على من لا يفهم حقيقة قولهم ، وهو معلوم الفساد بضرورة العقل كقول أولئك الباطنية .

خلاصة القاعدة الأولى

١ ـ الله تعالى موصوف بالنفي والإثبات

٢ ـ النفي المحض لا مدح فيه إلا إذا تضمن إثبات كمال الضد .

وذلك لما يلي :

أ ـ لأن النفي المحض عدم ، والعدم ليس بشيء .

ب ـ لأن النفي المحض يوصف به العدم وليس بكمال .

ج ـ قد يكون النفي لعدم قابلية الموصوف وليس بمدح .

د ـ النفي المحض قد يكون لنقص الموصوف .

هـ ـ النفي المحض فيه إساءة أدب .

٣ ـ نفي الإدراك في قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ عند جمهور أهل السنة بمعنى نفي الإحاطة وهي أعم من الرؤية ، وقد فسر بنفي الرؤية في الدنيا خاصة .

المناقشة ؟

١. بين أوجه كون النفي المحض لا مدح فيه .
٢. اذكر خلاف السلف في معنى الإدراك في قوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾
٣. كيف ترد على من استدل على نفي الرؤية بقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ ؟
٤. أجب عن شبهة التقابل وهي أن الله غير قابل لهذه الصفات من أربعة أوجه
٥. كيف ترد على من نفى العلو بحجة أن ذلك يستلزم التحيز ؟
٦. قارن بين مذهب من ينفي النقيضين ومن يصف الله بالنفي فقط ؟

القاعدة الثانية

حكم مايضاف إلى الله سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات

قوله : ﴿ الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ أَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ عَنْ رَبِّهِ فَإِنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ – سَوَاءٌ عَرَفْنَا مَعْنَاهُ أَوْ لَمْ نَعْرِفْ – لِأَنَّهُ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ؛ فَمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَجَبَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ الْإِيمَانُ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَاهُ وَكَذَلِكَ مَا ثَبَتَ بِاتِّفَاقِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا مَعَ أَنَّ هَذَا الْبَابَ يُوجَدُ عَامَّتُهُ مَنْصُوصًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَمَا تَنَازَعَ فِيهِ الْمُتَأَخِّرُونَ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا فَلَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَلْ وَلَا لَهُ : أَنْ يُوَافِقَ أَحَدًا عَلَى إثْبَاتِ لَفْظِهِ أَوْ نَفْيِهِ حَتَّى يَعْرِفَ مُرَادَهُ فَإِنْ أَرَادَ حَقًّا قُبِلَ وَإِنْ أَرَادَ بَاطِلًا رُدَّ وَإِنْ اشْتَمَلَ كَلَامُهُ عَلَى حَقٍّ وَبَاطِلٍ لَمْ يُقْبَلْ مُطْلَقًا وَلَمْ يُرَدَّ جَمِيعُ مَعْنَاهُ بَلْ يُوقَفُ اللَّفْظُ وَيُفَسَّرُ الْمَعْنَى ﴾

التوضيح

أولا : مدار القاعدة على أن مايذكر من الألفاظ في باب الأسماء والصفات نوعان :

الأول : ما ورد به الكتاب أو السنة أو ثبت باتفاق سلف الأمة وأئمتها .

الثاني : ما لم يرد في الكتاب ولا السنة . ولا ثبت اتفاق الأمة عليه .

ثانيا : حكم النوع الأول : يجب الإيمان به سواء عرفنا معناه أو لم نعرفه لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾ النساء : [١٧٠] وغيرها من الآيات .

ثالثا : هل في هذا الباب شيء ثابت بالإجماع دون النصّ ؟

نعم ، وذلك نحو البينونة (بائن من خلقه) و المعية العامة (وهو معهم بعلمه) والقرآن (غير مخلوق) ، وما أثبته السلف لايعدو كونه فهما للوحيين وغالب ما نقل عنهم في هذا الباب جاء منصوصا في الكتاب والسنة .

رابعا : قوله : ﴿وَإِنْ لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَاهُ﴾ لا يريد أن شيئا من النصوص لا يعلم معناها عند عامة الخلق بل قد يتأخر الفهم عن البعض وليس لازم الكلام المفهوم أن يفهمه كل الناس من أول وهلة ولكن الله يفتح على من يشاء ، وقد بين هذا الكلام شيخ الإسلام في غير هذا المقام[1] .

خامسا : حكم النوع الثاني .

والألفاظ التي لم ترد في الشرع وتنازع في إثباتها ونفيها المتأخرون فالناس منها على قسمين :

الأول : من لم يعرف مراد من تكلم بها .

الثاني : من عرف مراد من تكلم بها .

فحكم القسم الأول : التوقف فلا ينفيها ولا يثبتها حتى يصير من القسم الثاني باستفسار واستفصال قائلها عن معناها.

وحكم القسم الثاني : أن يصنف تلك الألفاظ حسب مراد قائلها إلى نوع من ثلاثة الأنواع التالية :

١) ما كان حقا فيقبله لموافقته معنى ثبت شرعا أو لازمه .

٢) ما كان باطلا فيرده .

---

١ ـ انظر القاعدة المراكشية من الفتاوى : (٥ / ١٥٧) وتفسير سورة الإخلاص : (١٧ / ٣٩٦) ونقض التأسيس : (٢ / ٢٠٣) .

٣) ما اشتمل على حق وباطل فيقبل الأول ويردّ الثاني على قائله .

هذا باعتبار المعنى ، أما باعتبار اللفظ فإن كان المقام مقام الإخبار فكذلك وإن كان المقام مقام الصفات والأسماء فلا يقبل فيهما من الألفاظ إلا ماجاء به الشرع فيقال المعنى حق ويتوقف في اللفظ أو المعنى باطل واللفظ يتوقف فيه .

تطبيقات للقاعدة

التطبيق الأول : (الجهة) :

قوله : ﴿كَمَا تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الْجِهَةِ وَالتَّحَيُّزِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَلَفْظُ الْجِهَةِ قَدْ يُرَادُ بِهِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ غَيْرُ اللَّهِ فَيَكُونُ مَخْلُوقًا كَمَا إذَا أُرِيدَ بِالْجِهَةِ نَفْسُ الْعَرْشِ أَوْ نَفْسُ السَّمَوَاتِ وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا إذَا أُرِيدَ بِالْجِهَةِ مَا فَوْقَ الْعَالَمِ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِي النَّصِّ إثْبَاتُ لَفْظِ الْجِهَةِ وَلَا نَفْيُهُ كَمَا فِيهِ إثْبَاتُ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِوَاءِ وَالْفَوْقِيَّةِ وَالْعُرُوجِ إلَيْهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ مَا ثَمَّ مَوْجُودٌ إلَّا الْخَالِقَ وَالْمَخْلُوقَ وَالْخَالِقُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَيْسَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ ؛ وَلَا فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ . فَيُقَالُ لِمَنْ نَفَى الْجِهَةَ : أَتُرِيدُ بِالْجِهَةِ أَنَّهَا شَيْءٌ مَوْجُودٌ مَخْلُوقٌ ؟ فَاَللَّهُ لَيْسَ دَاخِلًا فِي الْمَخْلُوقَاتِ أَمْ تُرِيدُ بِالْجِهَةِ مَا وَرَاءَ الْعَالَمِ ؟ فَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَالَمِ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقَاتِ وَكَذَلِكَ يُقَالُ لِمَنْ قَالَ اللَّهُ فِي جِهَةٍ : أَتُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَالَمِ ؟ أَوْ تُرِيدُ بِهِ أَنَّ اللَّهَ دَاخِلٌ فِي شَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ ؟ فَإِنْ أَرَدْت الْأَوَّلَ فَهُوَ حَقٌّ وَإِنْ أَرَدْت الثَّانِيَ فَهُوَ بَاطِلٌ﴾

التوضيح:

ذكر شيخ الإسلام مثالين على القاعدة في النوع الثاني وهـي الألفـاظ الـتي لم ترد في الشرع وهما لفظا الجهة والمتحيز . فالموقف فيهما ما سبق وهـو الاستفصال عن المعنى مع التوقف في اللفظ .

وقلت في هذه القاعدة في درّتي الأثرية :

١٢ـ ولاتخضْ في هـذه الكِلْمَـاتِ * الحــدّ والمكـــان والجـــهات

١٣- كـذا تحيّز ولفــظ الجسـم * وجوهــر وعـــرض للسّـــلم

١٤ - فلم يرد شـرع بذكـر ذاكـا * فقـف ودومـا خـالفن هواكـا

وقال صاحب الكفاية[1] :

والنـاس إن تنـازعوا في أمـرِ * كجهـــةٍ تحـــيّزٍ وغـــيرِ

فليـس للإنسـان أن يوافقـا * نفيـا وإثباتـا عليـه مطلقـا

لجهلـه المـراد ثـم إن عـرف * إن كان حقا قبله أو ليس كفّ

فلنطبق هذه القاعدة الذهبية على هذا المثال : (الجهة) كما يلي :

١ ـ لم يرد لفظ الجهة في الشرع بل ورد العلـو والاستواء والفوقيـة والعـروج إليه والصعود .

٢ ـ وباتفاق العقلاء ليس هنـا مـن موجـود إلا الخـالق والمخلـوق ، والنسـبة بينهما التباين فلاشيء من الخالق في خلقـه ولا شـيء مـن الخلـق في خالقـهم فـهما متباينان .

---

١ ـ متن الكفاية في العقيدة والفرق والمذاهب لعبد العزيز الحربي : ص ٢٧ .

٣ ـ فيقال لمن نفى الجهة ـ لينفي العلـو ـ : أتريـد بالجهـة أنـها شـيء مخلـوق كالسماوات والعرش ؟ فهذه من خلـق الله وليـس الله فيـها واللفـظ نتوقـف فيـه . وهذا الاستفصال لايحقق مراده .

ونقول له : أتريد بالجهة ماوراء العـالم وفوقـه ؟ فمـاثم إلا الله وقـد تواتـرت النقول بأن الله فوق العالم ﷻ . وهـذا الاسـتفصال يكشـف باطلـه وضـلال مـراده وتلبيسه على النـاس وهـذا هـو مـراد مـن نفـى الجهـة مـن المتكلمـين مـن المعتزلـة والأشعرية والماتريدية وغيرهم .

٤ ـ ويقال لمن أثبت الجهة نحو ماقلنا للنـافي فـإن أراد بالجهـة الجهـة المخلوقـة فهذا باطل للمباينة المتقررة وإن أراد بالجهة الجهة غير المخلوقة وهو العلـو والفوقيـة المطلقة على العالم فهذا حق وهو مراد من أطلق لفـظ الجهـة مـن السـلف كمـا قـال الإمام القرطبي : (وقد كان السلف الأول رضي الله عنـهم لا يقولـون بنفـي الجهـة ولا ينطقون بذلك بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق في كتابه وأخـبرت به رسله ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة ..)[1]

ـ فإن قلت : فكيف مثل الشيخ بهذا المثال للنوع الثاني وهو من النـوع الأول لدخوله فيما أجمع عليه السلف . كان الجواب : أن المقسّم إلى نوعين هو اللفـظ ومـا أجمع عليه السلف هو العلو لفظا ومعنى وأما لفظ الجهة فليـس مـراد القرطـبي وإنمـا مراده معناها المرادف للعلو فقصد بالجهة العلو والاستواء على العرش كما هو ظاهر .

٥ ـ ففي كلتا الحالتين ـ النفي والإثبات ـ نتوقـف في لفـظ الجهـة وإنمـا نثبـت المعنى الحق ونرد المعنى الباطل ونعبر عنه بتعبير الشارع كالعلو والفوقية والاستواء ونحوها

---

١ ـ تفسير القرطبي : (٧ / ٢١٩) وقد زعم بعض متأخري الأشعرية من المبطلين الأحباش نفـاة الجهـة والعلـو أن هذا الحرف مدسوس في تفسيره .

التطبيق الثاني : لفظ المتحيز :

قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ لَفْظُ المتحيز : إِنْ أَرَادَ بِهِ أَنَّ اللَّهَ تَحُوزُهُ الْمَخْلُوقَاتُ فَاللَّهُ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ ؛ بَلْ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : { يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ ؟ } وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : { وَإِنَّهُ لَيَدْحُوهَا كَمَا يَدْحُو الصِّبْيَانُ بِالْكُرَةِ } وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ : { مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ إلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ } . وَإِنْ أَرَادَ بِهِ أَنَّهُ مُنْحَازٌ عَنْ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ أَيْ مُبَايِنٌ لَهَا مُنْفَصِلٌ عَنْهَا لَيْسَ حَالًّا فِيهَا : فَهُوَ سُبْحَانَهُ كَمَا قَالَ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ : فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ﴾

التوضيح:

لفظ المتحيز مما نفاه المتكلمون عن الله وهم نفاة العلو وتطبيقا للقاعدة نقول:

١ـ لم يرد لفظ المتحيز في الشرع .

٢ ـ فنستفصل عنه : إن أريد بالمتحيز أن الله تحوزه وتحيط به مخلوقاته ؟ فهذا باطل والله أعظم وأكبر من ذلك والأدلة عليه كثيرة منها :

أ ـ قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ البقرة : [٢٥٥]

ب ـ قوله ﷻ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ ﴾ الزمر : [٦٧]

ج ـ قوله ﷺ : ((يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟))[١]

د ـ قوله ﷺ : ((وإنه ليدحوها كما يدحو الصبيان بالكرة))[٢]

هـ ـ قول ابن عباس : (ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم)[٣]

٣ـ وإن أراد به أنه منحاز عن المخلوقات أي مباين لها منفصل عنها ليس حالا فيها فهو سبحانه كما قال أهل السنة : (فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه)[٤] وقد ثبت ذلك عن الأئمة أحمد وابن المبارك وأبي حاتم وأبي زرعة الرازيين وإسحاق[٥] وغيرهم كثير .

---

١ ـ رواه البخاري : (٢ / ٤٨١) ومسلم : (٧ / ٢٧٨) عن أبي هريرة .

٢ ـ أخرجه ابن جرير (٢٤ / ١٦) وسنده ضعيف فيه أسامة بن زيد العدوي وهو ضعيف من قبل حفظه كما في التقريب : ص ١٢٣ . وأبوحازم سلمة بن دينار التمار الأعرج لم يسمع من ابن عمر كما في التهذيب : (٢ / ٧١) وأورده الحافظ في الفتح بلفظ الرمي لاالدحو :(١٣/ ٣٩٦).

٣ ـ أخرجه ابن جرير : (٢٤ / ٢٥) من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ، واحتج به شيخ الإسلام وابن القيم في مواضع من كتبهما ، وسنده حسن : انظر : شرح حديث النزول : ص ٣٣٩ . والأجوبة المرضية : ص ١٤٢ . ومثله لا يقال من قبل الرأي فكان مرفوعا حكما وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٢ / ٤٧٦) قال المحقق القحطاني وفيه عنعنة أبي الجوزاء .

٤ ـ صحح هذا الأثر الذهبي والألباني كما في مختصر العلو عن أحمد ص١٩١ ، وعن ابن المبارك : ص ١٩١ ، وعن أبي حاتم وأبي زرعة : ص ٢٠٤ وعن إسحاق بن راهويه : ص ١٩١ . وانظر غيرهم : ص ١٧٢ و ١٨١ و١٨٣ . وانظر اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص ١٣١ ومابعدها ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة : (٢ / ١٦ و ٣ / ٣٨٧) وغيرها .

٥ ـ سبقت تراجم هؤلاء الأئمة ، أما أبو زرعة الرازي فهو عبيد الله بن عبد الكريم القرشي مولاهم ، من حفاظ الحديث جالس الإمام أحمد ، قيل عنه : كل حديث لا يعرفه أبو زرعة ليس له أصل . ولد سنة ٢٠٠ وتوفي بالري سنة ٢٦٤ . وانظر تذكرة الحفاظ : (٢ / ١٢٤) .

خلاصة القاعدة الثانية

١) الألفاظ المضافة إلى الله قسمان :

الأول : ما ورد به دليل شرعي وجب الإيمان به .

الثاني : ما لم يرد به دليل شرعي فلا يثبت ولا ينفي حتى يعرف مراد قائله به، فإن كان حقا قبل المعنى مع التوقف في اللفظ وإن كان باطلا ردّ .

٢) من تطبيقات القاعدة الجهة والمتحيز ، لم يرد بهما دليل فلا يثبتان ولا يردان حتى يعلم مراد قائلهما . فيقال مايلي :

أ) الجهة : لم ترد النصوص بها فإن أريد بإثباتها لله أن الله في شيء من مخلوقاته فهذا منفي وإن أريد أن الله فوق خلقه فهذا ثابت تواترت به النصوص.

ب) المتحيّز : لم ترد في النصوص فإن أريد أن الله تحوزه المخلوقات فهذا منفي وإن أريد أنه بائن من خلقه فهذا صحيح دلت عليه النصوص .

المناقشة ؟

١. على ماذا تدور القاعدة الثانية ؟
٢. فصّل القول في إطلاق لفظ الجهة في حق الله نفيا وإثباتا .
٣. فصّل القول في إطلاق لفظ المتحيّز في حق الله ﷻ .
٤. هل في الكتاب أو فيما أخبر به الرسول ﷺ عن ربه ما لا يُعلم معناه ؟
٥. اذكر الأدلة على إحاطة الله بخلقه من الكتاب والسنة والآثار .

القاعدة الثالثة

هل ظاهر النصوص مراد للشارع أو غير مراد؟

قوله : ﴿ الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ إِذَا قَالَ الْقَائِلُ : ظَاهِرُ النُّصُوصِ مُرَادٌ أَوْ ظَاهِرُهَا لَيْسَ بِمُرَادٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ : لَفْظُ الظَّاهِرِ فِيهِ إِجْمَالٌ وَاشْتِرَاكٌ فَإِنْ كَانَ الْقَائِلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَهَا التَّمْثِيلُ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ أَوْ مَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِمْ فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُرَادٍ ؛ وَلَكِنَّ السَّلَفَ وَالْأَئِمَّةَ لَمْ يَكُونُوا يُسَمُّونَ هَذَا ظَاهِرًا وَلَا يَرْتَضُونَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ كُفْرًا وَبَاطِلًا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ الَّذِي وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ لَا يَظْهَرُ مِنْهُ إلَّا مَا هُوَ كُفْرٌ أَوْ ضَلَالٌ .

وَالَّذِينَ يَجْعَلُونَ ظَاهِرَهَا ذَلِكَ يَغْلَطُونَ مِنْ وَجْهَيْنِ : تَارَةً يَجْعَلُونَ الْمَعْنَى الْفَاسِدَ ظَاهِرَ اللَّفْظِ حَتَّى يَجْعَلُوهُ مُحْتَاجًا إلَى تَأْوِيلٍ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ وَلَا يَكُونُ كَذَلِكَ ، وَتَارَةً يَرُدُّونَ الْمَعْنَى الْحَقَّ الَّذِي هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ بَاطِلٌ ﴾

التوضيح:

أولا : المراد بظاهر الكلام :

هو المعنى الذي يتبادر ويسبق إلى الأفهام السليمة العارفة بلغة الخطاب ، أو هو المعنى الراجح من الكلام[1] . ويراعى في معرفة الظاهر أمور :

١) دلالة اللفظ . ٢) دلالة السياق .

---

١ ـ انظر منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد : (١ / ٣٩٦)

٣) حال المتكلم .   ٤) سائر القرائن المحتفة بالخطاب [١].
وسيأتي بسط لهذه الأمور عند الكلام عن كون الظاهر مرادا أو لا .

ثانيا : ما ظواهر نصوص الصفات ؟

الناس فيها على قولين :

الأول : عامة المتكلمين على أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين . فظاهرها الكفر عندهم [٢] كما قال الصاوي في حاشيته على الجلالين : (.. لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر)[٣]

الثاني : السلف والأئمة لا يرتضون أن يكون ظاهر النصوص هو التمثيل بل الله أحكم من أن يكون كلامه الذي وصف به نفسه لا يظهر منه إلا الكفر والضلال . لذلك قال الخطيب البغدادي : (أما الكلام في الصفات فإن ماروي منها في السنن الصحاح مذهب السلف رضوان الله عليهم إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها)[٤].

ـ تنبيه :

٢ ـ هناك طائفة أخرى زعمت أن المتبادرمن النصوص لاهو التمثيل ولا هو مذهب السلف بل ما تأولوه هم جعلوه هو الظاهر بقرينة ليس كمثله شيء النقلية و استحالة التشبيه العقلية ، فيقولون ظاهر اليد القدرة وظاهر الوجه الذات وليس هو الظاهر لالغة ولاشرعا ، وهؤلاء يصرحون بأن هذا هو الظاهر خلافا

---

١ ـ انظر بدائع الفوائد : (٤ / ٩)

٢ ـ أقوالهم في أساس التقديس : ص ١٠٩ . شرح العقائد النسفية : (١ / ٢٠٤)

٣ ـ حاشية الصاوي على الجلالين : (٣ / ٩) وقال الأمين الشنقيطي في رده عليه : (وأما قوله : إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر فهذا أيضا من أشنع الباطل وأعظمه وقائله من أعظم الناس انتهاكا لحرمة كتاب الله وسنة رسوله ... ولا يصدر ألبتة عن عالم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإنما يصدر عمن لا علم له بالكتاب والسنة أصلا) أضواء البيان : (٧ / ٤٣٨)

٤ ـ جواب الخطيب البغدادي : ص ٦٤ . بتحقيق عزون .

لأسلافهم من المتكلمين وهؤلاء هم بعض الأشاعرة المعاصرين ويدّعون أن هذا الفهم هو فهم السلف والصحابة ومثلهم الرافضة يدعون أن الظاهر هو التأويل .
وفرق بين الطائفة الأولى والثالثة فإن ضلال الأولى بيّن بينما تلبس الثالثة على العامة بأنهم أتباع السلف ولهم تعلقات ببعض كلمات السلف كنفي المعنى ونفي الكيفية .

ثالثا : من يجعل ظاهرها التمثيل والكفر يغلطون من وجهين :

الأول : أنهم يجعلون المعنى الفاسد الكفري هو الظاهر ثم يجعلونه محتاجا إلى التأويل . وسوف يذكر الشيخ ثلاثة أمثلة لهذا الوجه يبين بها فحش غلطهم .
الثاني : قد يفسرون الظاهر بمعنى صحيح لكنهم يردونه لاعتقادهم أنه باطل

رابعا : إطلاق القول بأن الظاهر مراد أو غير مراد :

الأصل المطابقة بين الظاهر من الكلام ومراد المتكلم منه ولذلك لما كان هذا الأصل متقررا عند السلف والأئمة وكان متقررا عندهم استحالة أن يكون مراد النصوص الكفروالتمثيل نقل الشيخ أن مذهبهم أنهم لايرون التمثيل ظاهرا من النصوص ولا يرتضون هذه التسمية المنكرة
ولما كان الظاهر نسبيا تختلف فيه الأفهام بحسب المدارس العقدية فصّل الشيخ في إطلاق المراد على الظاهر بين ما يستظهره السلف من نصوص الصفات وما يستظهره المعطلة والممثلة
١) إن كان يعتقد أن الظاهر هو التمثيل فلا ريب أنه غير مراد بل ليس هو الظاهر .
٢) وإن كان يعتقد باعتقاد السلف وهو أن الظاهر ما يليق بالله تعالى فهو مراد .

أمثلة الوجه الأول لغلط المتكلمين

قوله : ﴿ فـالأَوَّلُ كَمَا قَالُوا فِي قَوْلِهِ : (عَبْدِي جُعْت فَلَمْ تُطْعِمْنِي) الْحَدِيثَ وَفِي الْأَثَرِ الْآخَرِ : (الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ صَافَحَهُ أَوْ قَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللَّهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ) وَقَوْلِهِ : (قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ) فَقَالُوا : قَدْ عُلِمَ أَنْ لَيْسَ فِي قُلُوبِنَا أَصَابِعُ الْحَقِّ﴾

التوضيح

ذكرشيخ الإسلام ثلاثة أمثلة على الوجه الأول من غلط المتكلمين وهو جعلهم المعنى الفاسد هو ظاهر النص ويحتاج إلى تأويل ، وهي :

١ـ الإخبار عن الحجر الأسود أنه يمين الله في الأرض .

٢ ـ إضافة الجوع إلى الله في مقام خطاب العبد المقصر في حق الجائع .

٣ ـ الإخبار عن كون القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن .

ولم يمثل للوجه الثاني وهو ردهم للمعنى الصحيح لاعتقادهم أنه باطل ولعل السبب في ذلك أن جميع من نفى الصفات داخل في هذا الوجه لأنه يعتقد أن في إثباتها تشبيها ، فأمثلته كثيرة جدا لذلك لم يذكرها والله أعلم

وإليك مناقشة شيخ الإسلام ثلاثة أمثلة للوجه الأول .

المثال الأول

قوله ﷺ :((الحجر الأسود يمين الله في الأرض فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه))

قوله : ﴿فَيُقَالُ لَهُمْ : لَوْ أَعْطَيْتُمْ النُّصُوصَ حَقَّهَا مِنْ الدَّلَالَةِ لَعَلِمْتُمْ أَنَّهَا لَمْ تَدُلَّ إلَّا عَلَى حَقٍّ أَمَّا الْوَاحِدُ فَقَوْلُهُ : (الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ صَافَحَهُ وَقَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللَّهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ) صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ لَيْسَ هُوَ صِفَةً لِلَّهِ وَلَا هُوَ نَفْسُ يَمِينِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : (يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) وَقَالَ : (فَمَنْ قَبَّلَهُ وَصَافَحَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللَّهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ) وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُشَبَّهَ لَيْسَ هُوَ الْمُشَبَّهَ بِهِ فَفِي نَفْسِ الْحَدِيثِ بَيَانُ أَنَّ مُسْتَلِمَهُ لَيْسَ مُصَافِحًا لِلَّهِ ؛ وَأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ نَفْسَ يَمِينِهِ فَكَيْفَ يُجْعَلُ ظَاهِرُهُ كُفْرًا لِأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إلَى التَّأْوِيلِ . مَعَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ إنَّمَا يُعْرَفُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؟﴾

التوضيح

الشبهة : ظاهره أن الحجر الأسود هو يد الله اليمنى ، وهذا محال فهو يدل على أن ظواهر النصوص محالة وغير مرادة .

الجواب :

أولا : من ناحية السند .

الحديث ضعيف ، كما قاله المحققون ؛ قال شيخ الإسلام : (لا يثبت) [1] ، وقال ابن الجوزي : (لا يصح)[2] وقال ابن العربي : (هذا حديث باطل فلا يلتفت

---

١ ـ الفتاوى : (٦ / ٣٩٧)

٢ ـ الواهيات : (٦ / ٨٤)

إليه)[1] ، وإنما المشهور أنه من كلام ابن عباس رضي الله عنهما مع أن في إسناده ضعفا كذلك[2] .

ثانيا : من ناحية المتن :

١ ـ أنه قال : (يمين الله في أرضه) فقيده بالأرض وحكم المقيد يخالف حكم المطلق ، فإن الله في السماء ، فهذا كما يقول الأمير : (فلان يميني في الشام وهكذا) ولله المثل الأعلى .

٢ ـ أنه قال : (فمن صافحه وقبله فكأنما ..) فهنا تشبيه ، ومعلوم أن المشبه ليس هو المشبه به ، فظاهر الحديث أن مصافح الحجر ومقبله ليس مصافحا لله وليس الحجر نفس يمين الله .

فكيف يقال إن الظاهر كفر غير مراد فيحتاج إلى تأويل ؟ ثم تجعل هذه قاعدة عامة في الظواهر ؟!

المثال الثاني :

قوله ﷺ : ((إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم مرضت فلم تعدني ؟))[3]

قوله : وأما الحديث الآخر : فهو في الصحيح مفسرا : (يقول الله عبدي ! جعت فلم تطعمني فيقول : رب ! كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلانا جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي عبدي ! مرضت فلم تعدني فيقول :

---

١ ـ فيض القدير : (٣ / ٥٤٣) . والحديث رواه ابن عدي : (١ / ٣٤٢) والخطيب في التاريخ : (٦ / ٣٢٨) ، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة وقال : منكر : (١ / ٣٩٠) برقم : [٢٢٣]

٢ ـ رواه موقوفا ابن قتيبة في غريب الحديث : (٣ / ٩٦) وحسنه العجلوني في كشف الغطاء : (١ / ٣٤٨) ، لكن في سنده إبراهيم الخوزي وهو متروك كما قال الألباني في الضعيفة : (١ / ٣٩١)

٣ ـ أخرجه مسلم : (٤ / ١٩٩٠) ، وابن حبان : (١ / ٣٠٥)

رَبِّ ! كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَوْ عُدْتَه لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ) وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَمْرَضْ ولم يَجُعْ وَلَكِنْ مَرِضَ عَبْدُهُ وَجَاعَ عَبْدُهُ فَجَعَلَ جُوعَهُ جُوعَهُ وَمَرَضَهُ مَرَضَهُ مُفَسِّرًا ذَلِكَ بِأَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَه لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي وَلَوْ عُدْتَه لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ ؛ فَلَمْ يَبْقَ فِي الْحَدِيثِ لَفْظٌ يَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلٍ﴾

التوضيح

ـ الشبهة : قول بعض الغالطين : إن ظاهرالحديث أن الله تعالى يمرض ويجوع ، وهذا محال فيجب تأويله ، وهذا دليل على أن ظواهر النصوص تفيد الباطل والتمثيل وهو محال فتحتاج إلى تأويل.

فهنا ادعاءان :

١) أن ظاهرالحديث هو أن الله يمرض ويجوع .

٢) أن هذا الظاهر محال غير مراد فيستحيل على الله أن يمرض أو يجوع أو يعطش .

ـ الجواب :

أما عن الثاني وهو استحالة المرض والجوع والعطش على الله ﷻ فصحيح

وأما الأول : وهو أن الظاهر هو أن الله يمرض ويجوع فهو باطل .

ودليل بطلانه[1] : أن الحديث صريح في أن الله لم يمرض ولم يجع وإنما مرض عبده وجاع عبده ، لأن الظاهر المعتبر ما أخذ فيه بمجموع الكلام وفي الحديث قوله تعالى :﴿ أما علمت أن عبدي فلانا جاع فلم تطعمه ﴾ فالظاهر بمجموع الحديث لا آحاد ألفاظه أن الجائع هو العبد والمريض هو العبد ، ولا يجوز الحكم على أول

---

١ ـ وانظر خمسة أوجه في الجواب عن الاستدلال بالحديث في كتابي (خلاصة الوحيين في نقض منصة الحسين) :ص١٤٥.

الكلام دون بقيته كما في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون : ٤ ، ٥] فيجب تفسيرها بما بعدها ، كما قال أبو نواس[١] منتحلا لهذا المبدأ :

ماقال ربك ويل للأولى سكروا * بل قال ربك : ويل للمصلينا

ملاحظة :

قوله : ﴿ أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ! ﴾ هذه العندية تتضمن القرب والمعية الخاصة والرعاية ولا تتحقق إلا في عيادة العبد المؤمن دون الكافر والفاجر ، وهذا نحو قوله ﷺ ((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد))[٢] وقوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

ولم يقل في الإطعام (لوجدتني عنده) وإنما قال : ﴿ لوجدت ذلك عندي؟ ﴾ أي الأجر والثواب ليدل على أن الإطعام عام للمؤمن والكافر ، أما المعية فخاصة

---

١ ـ هو أبو علي الحسن بن هاني ولد سنة ١٤٥ وتوفي سنة ١٩٨ وله أبيات بديعة قالها لما حضرته الوفاة منها :

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة * فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن * فبمن يلوذ ويستجير المجرم

أدعوك رب كما أمرت تضرعا * فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم

مالي إليك وسيلة إلا الرجا * وجميلُ عفوك ثم أنيْ مسلم

وانظر جواهر الأدب : (٢ / ١٧١) ، وشرح الشيخ البراك حفظه الله .

٢ ـ أخرجه مسلم : (٢ / ٤٩) وأحمد : (٢ / ٤٢١) عن أبي هريرة .

بعيادة المريض المؤمن . على أنه قد جاءت رواية في عيادة المريض بلفظ « لوجدت ذلك عندي »[1] بالشك ، وعلى هذه الرواية فلا إشكال في الدلالة على الأجر.

المثال الثالث :

قوله ﷺ : ((قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن))[2]

قوله : ﴿ (فَالْأَوَّلُ كَمَا قَالُوا فِي قَوْلِهِ : « عَبْدِي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي » الْحَدِيثَ وَفِي الْأَثَرِ الْآخَرِ : (الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ صَافَحَهُ أَوْ قَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللَّهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ) وَقَوْلِهِ : ((قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ)) فَقَالُوا : قَدْ عُلِمَ أَنْ لَيْسَ فِي قُلُوبِنَا أَصَابِعُ الْحَقِّ ﴾

التوضيح:

الشبهة : أن ظاهر الحديث محال فلا بد من التأويل . والشبهة تتركب من مقدمتين :

ـ الأولى : أن ظاهر الحديث أن الأصابع في جوف القلب ، والقلب متصل بها مماس لها .

ـ الثانية : أن هذا محال ينزه عنه الله .

أما الثانية فمسلمة لما تقرر من مباينة الله لخلقه . وأما الأولى فباطلة لأن البينية لا تقتضي المماسة والمداخلة والمخالطة فإذا قال قائل : هذا بين يدي لم يقتض

---

١ ـ صحيح الأدب المفرد للألباني حديث رقم : [٤٠٢]

٢ ـ أخرجه مسلم : (٤ / ٢٠٤٥) وأحمد : (٢ / ١٦٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

المباشرة ولا المماسة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ البقرة : [١٦٤] فإنه لا يقتضي مماسة السحاب للسماء والأرض .
وإنما تستفاد المماسة في بعض الموارد من قرائن أخرى فبينية كل شيء بحسبها .

طريقة أخرى لتعطيل ظواهر النصوص

قوله : ﴿وَمِمَّا يُشْبِهُ هَذَا الْقَوْلَ أَنْ يُجْعَلَ اللَّفْظُ نَظِيرًا لِمَا لَيْسَ مِثْلَهُ كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ؟﴾ فَقِيلَ هُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ؟ ﴾ فَهَذَا لَيْسَ مِثْلَ هَذَا﴾

التوضيح:

كانت الطريقة السابقة التي سلكها المعطلة للتوصل إلى التعطيل هي إبطال ظواهر النصوص بدعوى أن لازمها باطل وكفر ومحال .

وههنا تعرض الشيخ لطريقة أخرى سلكوها في التلبيس على الدهماء للتوصل إلى تعطيل ظواهر النصوص هي قياس آيات الصفات على آيات الربوبية ـ التي يؤمن بها حتى الكفار ـ بالمقابلة والمناظرة بين الدلالات المشتركة وإلغاء الدلالات المختلفة فلايبقى لآيات الصفات مدلول زائد على مدلول آيات الربوبية.

وإذا تأملت الطريقتين لهؤلاء المعطلة وجدت عجبا ففي الطريقة الأولى عميت أعينهم عن القرائن المتصلة بنفس النص وفي الطريقة الثانية أبصرت أعينهم ماتوهموه قرائن خارجة حتى عن السورة برمتها . وهذا إن دل فإنما يدل على أنهم اعتقدوا قبل أن يستدلوا فضلوا وأضلوا

ومثل شيخ الإسلام لهذه الطريقة بتسوية قوله تعالى : قَالَ ﴿ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾ ص :[٧٥] بقوله تعالى : أَوَلَمۡ ﴿ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَـٰمًا ﴾ يس : [٧١] .

غرض هذه الطريقة :

وغرضهم من هذه التسوية بين الآيتين نفي اليدين عن الله تبارك وتعالى لأنه يقول إن آدم لم يخلق بيدي الله تبارك وتعالى كما أن الأنعام لم تخلق بيديه اتفاقا . وإنما اليدان مجاز عن الذات كما أن المراد بـ عملت أيدينا أي عملنا وهذه الشبهة من تأسيسات المريسي [١] وتابعه عليها شيوخ المعتزلة [٢] والأشاعرة [٣] وغيرهم

الجواب عن هذه التسوية:

أن بين الآيتين فرقا يمتنع معها أن يحمل ظاهر إحداهما على الأخرى وإليك توضيح هذه الفروق :

الفروق بين الآيتين من أربعة أوجه :

الفرق الأول والثاني :

قوله : ﴿ ؛ لِأَنَّهُ هُنَا أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَى الْأَيْدِي ؛ فَصَارَ شَبِيهًا بِقَوْلِهِ : (فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) وَهُنَا أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَيْهِ فَقَالَ : (لِمَا خَلَقْت) ثُمَّ قَالَ : (بِيَدَيَّ) ﴾

١ ـ هو بشر بن غياث بن أبي كريمة العدوي مولاهم إمام المبتدعة ذمه العلماء وكفره بعضهم هلك سنة ٢١٨ . السير (١/ ١٩٩) ، البداية والنهاية : (١٠ / ٢٨١) وانظر نقض عثمان بن سعيد على المريسي العنيد : (١ / ٢٣٠)

٢ ـ انظر متشابه القرآن لعبد الجبار المعتزلي : ص ٢٣١ .

٣ ـ انظر أساس التقديس للرازي الأشعري : ص ١٦٥ .

التوضيح:

الوجه الأول : الفاعل . ففي قوله : ﴿ مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ ﴾ يس : [٧١] أسند الفعل إلى الأيدي كقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ الشورى : [٣٠] . بينما في قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ص : [٧٥] أسند الفعل إلى نفسه تبارك وتعالى .

الوجه الثاني :التعدية إلى الصفة . ففي قوله ﴿ عملت أيدينا ﴾ لم يعد الفعل بالباء بل اقتصر على إسناده إلى الأيدي وفي قوله : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ عدى الفعل بالباء إلى اليدين فكان سبحانه هو الخالق وكان خلقه واقعا بيده ، كقولك كتبت بالقلم فالكاتب هو الفاعل والقلم هو الذي حصلت به الكتابة فكانت صريحة في أن ثمة جهتان الجهة الفاعلة والجهة التي باشرت الفعل فلو كانت اليدان هما الذات كما هو ظاهر ﴿ عملت أيدينا ﴾ لكان الجمع بين تاء الفاعل واليدين لغوا فضلا عن التعدية إلى الباء . ولم يقل : ﴿ لما خلقتْ يديّ ﴾

ثانيا : الوجهان الثالث والرابع :ـ

قوله : وَأَيضًا : فَإِنَّهُ هُنَا ذَكَرَ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ وَفِي الْيَدَيْنِ ذَكَرَ لَفْظَ التَّثْنِيَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) وَهُنَاكَ أَضَافَ الْأَيْدِيَ إلَى صِيغَةِ الْجَمْعِ فَصَارَ كَقَوْلِهِ : (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) . وَهَذَا فِي (الْجَمْعِ نَظِيرُ قَوْلِهِ : (بِيَدِهِ الْمُلْكُ) وَبِيَدِهِ الْخَيْرُ فِي (الْمُفْرَدِ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَذْكُرُ نَفْسَهُ تَارَةً بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ مُظْهَرًا أَوْ مُضْمَرًا وَتَارَةً بِصِيغَةِ الْجَمْعِ كَقَوْلِهِ : (إنَّا فَتَحْنَا لَك فَتْحًا مُبِينًا) وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَلَا يَذْكُرُ نَفْسَهُ

بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ قَطُّ ؛ لِأَنَّ صِيغَةَ الْجَمْعِ تَقْتَضِي التَّعْظِيمَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ ؛ وَرُبَّمَا تَدُلُّ عَلَى مَعَانِي أَسْمَائِهِ وَأَمَّا صِيغَةُ التَّثْنِيَةِ فَتَدُلُّ عَلَى الْعَدَدِ الْمَحْصُورِ وَهُوَ مُقَدَّسٌ عَنْ ذَلِكَ فَلَوْ قَالَ : (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) لَمَا كَانَ كَقَوْلِهِ : (مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا) وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ : (بِيَدِهِ الْمُلْكُ) وَبِيَدِهِ الْخَيْرُ وَلَوْ قَالَ خَلَقْتُ بِصِيغَةِ الْإِفْرَادِ لَكَانَ مُفَارِقًا لَهُ ؛ فَكَيْفَ إذَا قَالَ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ؟ بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ﴾

التوضيح:

الوجه الثالث : في قوله ﴿ خلقت بيدي ﴾ ذكر نفسه بصيغة المفرد في ياء المتكلم وفي قوله﴿ عملت أيدينا ﴾ ذكر نفسه بالجمع في ضمير المتكلم [المفرد المعظم نفسه] (نا)

الوجه الرابع : في قوله : ﴿ خلقت بيدي ﴾ ذكر اليدين بصيغة التثنية ، وهذا صريح في إرادة الحقيقة فإن الله تعالى يذكر ذاته بالإفراد تارة وبالجمع أخرى للتعظيم كقوله تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ الفتح : [١] ونحوها ، ولا يذكر ذاته بالتثنية المضافة إلى الضمير ألبتة لأن التثنية لا تستخدم إلا في حقيقة العدد كقوله تعالى : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ المائدة : [٦٤]. قال الإمام الدارمي : (فلما قال الله عزوجل : ﴿ خلقت بيدي ﴾ استحال فيهما كل معنى إلا اليدين كما قال العلماء الذين نقلنا عنهم) [١]

وأما قوله ﴿ عملت أيدينا ﴾ فذكراليد بصيغة الجمع وكذلك نفسه بصيغة الجمع فأصبح نظير قوله ﷻ : ﴿ تجري بأعيننا ﴾ القمر : [١٤] والجمع مثل

---

١ ـ نقض عثمان بن سعيد على المريسي العنيد : (١ / ٢٩١)

الإفراد لا يدلان على العدد ، و إن دلا على أصل الصفة كقوله تعالى : ﴿ بيدك الخير ﴾آل عمران : [٢٦] وقوله : ﴿ بيده الملك ﴾الملك [١] .

ولو قال : (خلقت بيديْ) بالإضافة إلى المفرد لكان مفارقا لقوله ﴿ عملت أيدينا ﴾ لوجود الباء الدالة على مباشرة الخلق باليدين ، فكيف وقد ذكرها بصيغة التثنية الدالة على حقيقة العدد كما سبق .

والخلاصة :

إن في قوله : ﴿ خلقت بيدي ﴾ :

١ ـ نسب الخلق إلى نفسه . ٢ ـ وذكر نفسه بالمفرد .

٣ ـ وعدى الفعل بالباء ٤ ـ وذكر اليد بالتثنية .

و في قوله : ﴿ عملت أيدينا ﴾ :

١ ـ نسب الفعل إلى الأيدي . ٢ ـ وذكر نفسه بالجمع

٣ ـ ولم يعد الفعل بالباء . ٤ ـ وذكر اليد بالجمع .

فهذه الفروق اللفظية أدت إلى الاختلاف في المعنى فكانت الأولى لإثبات خلق آدم باليدين ، والثانية لإثبات مطلق الخلق[1] .

أدلة إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى :

قوله : ﴿هَذَا مَعَ دَلَالَاتِ الْأَحَادِيثِ الْمُسْتَفِيضَةِ بَلْ الْمُتَوَاتِرَةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ عَلَى مِثْلِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ مِثْلُ قَوْلِهِ : ((الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى

١ ـ انظر في ذلك الفتاوى : (٦ / ٣٦) والصواعق المرسلة : (١ / ٢٦٨) والإبانة لأبي الحسن الأشعري : ص ٥٥ .

منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا (وأمثال ذلك﴾

التوضيح

الأدلة على إثبات اليدين لله تعالى كثيرة جدا من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة

أولا : الكتاب وقدسبق :

١ ـ قوله تعالى : مَا ﴿ مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ص:[٧٥]

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ المائدة :[٦٤]

ثانيا : السنة :

١ ـ قوله ﷺ : ((إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)) [١]

٢ ـ قوله ﷺ ـ في حديث الشفاعة حكاية عن قول أهل المحشر : ((يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده)) [٢]

ثالثا : إجماع السلف :

١ ـ قال الإمام أبو الحسن الأشعري : (أجمعوا على أنه ﷻ يسمع ويرى وأن له تعالى يدين مبسوطتين وأن الأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه من غير أن يكون جوازا ...)[١] أي من غير أن يكون ذلك مجازا .

---

١ ـ أخرجه أحمد (٢ / ١٦٠) ومسلم : [١٨٢٧] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

٢ ـ أخرجه البخاري : [٣٣٤٠] ومسلم : [١٩٤]

٢ ـ وقال الإمام أبو حنيفة : (لـه يـد ووجـه ونفـس كمـا ذكـر الله تعـالى في القرآن ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف ولا يقـال : إن يـده قدرتـه لأن فيه إبطال الصفة وهو قول أهل القدر والاعتزال .) [٢]

٣ ـ وقال إمام الأئمة ابن خزيمة : (باب ذكر إثبات اليد للخالق البـاري جـل وعلا والبيان أن الله تعالى له يدان كما أعلمنا في محكم تنزيله .. وذكر الأدلة)[٣]

٤ ـ وقال الإمام الإسمـاعيلي : (وخلـق آدم بيـده ويـدان مبسـوطتان ينفـق كيف يشاء بلا اعتقاد كيف يداه إذ لم ينطق كتاب الله تعالى فيه بكيف) ذكره في نقلـه لاعتقاد أئمة أهل الحديث [٤]

٥ ـ وقال قوام السنة الأصبهاني:(فصل في إثبات اليدين لله تعالى صفة له.) [٥]

٦ ـ قال ابن قتيبة : (فنحن نقول كما قال الله تعـالى وكمـا قـال رسـوله ولا نتجاهل ولا يحملنا ما نحن فيه من نفي التشـبيه علـى أن ننكـر مـا وصـف بـه نفسـه ولكنالا نقول كيف اليدان وإن سئلنا نقتصر على جملة ما قال ونمسك عما لم يقل) [٦]

٧ـ قال الإمام الآجري: (يقال للجهمي الذي ينكر أن الله عزوجل خلق آدم بيده : كفرت بالقرآن ورددت السنة وخالفت الأمة)[٧]

٨ ـ وقال الإمام السجزي: (وأهل السنة متفقون على أن لله سبحانه يديـن ، بذلك ورد النص في الكتاب والأثر ..)[٨]

---

١ ـ رسالة إلى أهل الثغر : ص ٦٩ .

٢ ـ الفقه الأكبر شرح القاري : ص ١٦٧ ، الفقه الأبسط : ص ٥٦ ، شرح الفقه الأكبر :ص ٧١ ، الرد على الجهمية لابن منده : ص ٢٢ .

٣ ـ كتاب التوحيد : (١ / ١١٨)

٤ ـ اعتقاد الإسماعيلي : ص ٥١ .

٥ ـ الحجة في بيان المحجة : (١ / ١٨٥)

٦ ـ الاختلاف في اللفظ : ص ٨ .

٧ ـ الشريعة ص ٣٢٣

٨ ـ رسالة السجزي لأهل زبيد ص ١٧٣

٩ ـ ونقل إجماعهم الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة [٢].

فائدتان :

الأولى : قوله ﷺ : ((وكلتا يديه يمين)) ذهب الإمام الدارمي والفراء في جماعة آخرين من الأئمة إلى أن معنى الحديث أي كلتا يديه منزهة عن النقص والضعف وأثبتوا لله الشمال لرواية مسلم : ((ثم يطوي الأرضين بشماله)) [٣]. وذهب جماعة من الأئمة منهم الإمام أحمد وابن خزيمة إلى القول بظاهر الحديث وأنه تعالى لا يوصف بالشمال ، وحكموا على رواية الشمال بالشذوذ . وقالوا : كلتا يديه يمين ، وعليه فالخلاف بين السلف حديثي تطبيقي لا تأصيلي [٤] .

الثانية : نقل الغزالي عن أحدالحنابلة أن الإمام أحمد صرح بتأويل ثلاثة أحاديث[٥] هي : (الحجر الأسود يمين الله في الأرض) و ((قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن)) و (إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن)[٦] ونقله الرازي عنه أيضا[٧] .وهذا الكلام الذي ذكر الغزالي كذب على الإمام أحمد ولا يعرف له إسناد ولم ينقله أحد من أصحاب أحمد . فإن الإمام الغزالي قليل التميز

---

١ ـ رسالة السجزي لأهل زبيد ص ١٧٣

٢ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : (٣ / ٤١٢)

٣ ـ صحيح مسلم برقم : [٢٧٨٨]

٤ ـ انظر تفصيل ذلك في كتاب صفات الله لعلوي السقاف : ص ٢٧٦ ـ ٢٨٣ .

٥ ـ كلامه في قواعد العقائد : ص ١٣٥ . ت : موسى محمد .

٦ ـ أخرجه الإمام أحمد : (٢ / ٥٤١) وأورده الهيثمي في المجمع : (١٠ / ٥٦) وضعفه الألباني في الضعيفة : (٣ / ٢١٦) برقم : [١٠٩٧]

٧ ـ أساس التقديس : ص ١٠٧ ت : أحمد حجازي السقا ط ١٤٠٦ الأزهر ، ولكن بتغيير حديث (قلوب العباد) بحديث (أنا جليس من ذكرني) .

باعترافه حيث قال : (وبضاعتي في الحديث مزجاة)[1] وإن كان هو أجل من أن يتعمد الكذب ولكنه لا يميز بين المنقولات .

قال شيخ الإسلام : (فهذه الحكاية كذب على أحمد لم ينقلها أحد عنه بإسناد ولا يعرف أحد من أصحابه نقل ذلك عنه ، وهذا الحنبلي الذي ذكره عنه أبو حامد مجهول لا يعرف لاعلمه بما قال ولا صدقه فيما قال)[2] ثم إن مذهب الإمام أحمد في الصفات معلوم مشهور ، وهذه الأحاديث سبق بيان المراد منها فهي غير محتاجة إلى تأويل أما حديث : « إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن » فعلى فرض صحته فمعناه تنفيس الرحمن أي تفريجه على المؤمنين فالنفس هو الفرَج [3]فإن أهل اليمن هم الذين قاتلوا أهل الردة وفتحوا الأمصار ولهم فضائل معلومة [4].

مناقشة الأشاعرة في ظاهر النصوص من خلال الأصلين المتقدمين :

قوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ الْقَائِلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَ النُّصُوصِ الْمُتَنَازَعِ فِي مَعْنَاهَا مِنْ جِنْسِ ظَاهِرِ النُّصُوصِ الْمُتَّفَقِ عَلَى مَعْنَاهَا – وَالظَّاهِرُ هُوَ الْمُرَادُ فِي الْجَمِيعِ – فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَاتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَأَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ هَذَا عَلَى ظَاهِرِهِ وَأَنَّ ظَاهِرَ ذَلِكَ مُرَادٌ : كَانَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا بِهَذَا الظَّاهِرِ أَنْ يَكُونَ عِلْمُهُ كَعِلْمِنَا وَقُدْرَتُهُ كَقُدْرَتِنَا وَكَذَلِكَ لَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ حَيٌّ حَقِيقَةً عَالِمٌ حَقِيقَةً قَادِرٌ حَقِيقَةً ؛

---

١ ـ قانون التأويل للغزالي : ص ٢٤٦ .

٢ ـ شرح حديث النزول : ص ٢٠٥ . بتحقيق أ . د .الخميس .

٣ ـ لسان العرب : (٦ / ٢٢٦)

٤ ـ مجموع الفتاوى : (٦ / ٣٩٨) ولي مخطوطة للإمام الشوكاني بعنوان القول الحسن في فضائل أهل اليمن قمت بتحقيقها يسر الله إتمامها وإخراجها .

لَمْ يَكُنْ مُرَادُهُمْ أَنَّهُ مِثْلُ الْمَخْلُوقِ الَّذِي هُوَ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ؛ فَكَذَلِكَ إِذَا قَالُوا فِي قوله تعالى : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أَنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَمْ يَقْتَضِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ اسْتِوَاءً كَاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِ وَلَا حُبًّا كَحُبِّهِ وَلَا رِضًا كَرِضَاهُ فَإِنْ كَانَ الْمُسْتَمِعُ يَظُنُّ أَنَّ ظَاهِرَ الصِّفَاتِ تُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ لَزِمَهُ أَنْ لَا يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ ظَاهِرِ ذَلِكَ مُرَادًا وَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَهَا مَا يَلِيقُ بِالْخَالِقِ وَيَخْتَصُّ بِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَفْيُ هَذَا الظَّاهِرِ وَنَفْيُ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا إلَّا بِدَلِيلِ يَدُلُّ عَلَى النَّفْيِ ؛ وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ وَلَا السَّمْعِ مَا يَنْفِي هَذَا إلَّا مِنْ جِنْسِ مَا يَنْفِي بِهِ سَائِرَ الصِّفَاتِ فَيَكُونُ الْكَلَامُ فِي الْجَمِيعِ وَاحِدًا»

التوضيح:

هذا الكلام يحتاج إلى ترتيب كما يلي :

أولا : مذهب أهل السنة في الظاهر :

أنه مراد في جميع النصوص مالم تصرف بنص أو إجماع . ففي قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ البقرة : [٢٨٢] وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آل عمران : [٢٩] اتفق أهل السنة على أنه على ظاهره ولم يريدوا بالظاهر أن علمه كعلمنا أو قدرته كقدرتنا ، وكذلك قوله : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقوله : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وقوله : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ إذا قالوا على ظاهره لم يقتض أن ظاهره حب كحب المخلوق أو رضا كرضاه أو استواء كاستوائه ، وهكذا وكما سبق عن الخطيب البغدادي قوله : (أما

الكلام في الصفات فأما ما روي منها في الصحاح فمذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها) [١] وقال الإمام الشافعي : (القرآن عربي والأحكام فيه على ظاهرها وعمومها وليس لأحد أن يحيل ظاهرا إلى باطن ولا عاما إلى خاص إلا بدلالة من كتاب الله تعالى فإن لم تكن فسنة رسول الله ﷺ أو إجماع من عامة العلماء) [٢]

ثانيا : إلزام الأشاعرة :

إن كان القائل الأشعري بأن الظاهر مراد أو غير مراد يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع في معناها بين أهل السنة والأشاعرة كنصوص المحبة والغضب والاستواء وغيرها مثل النصوص المتفق على معناها كالصفات السبع فله أحد احتمالين :

الأول : إن كان يظن أن ظاهر الصفات تماثل صفات المخلوقين لزمه ألا يكون شيء من ظواهرالنصوص مرادا سواء المتنازع فيها أو المتفق عليها فيلزمه نفي الجميع .

الثاني : وإن كان يعتقد أن ظاهرها هو ما يليق بالخالق ويختص به لم يكن له نفي هذا الظاهر ونفي أن يكون مرادا ، إلا بدليل يدل على النفي ، وليس في العقل ولا في السمع ما ينفي هذا إلا من جنس ما ينفي به سائر الصفات فالكلام فيها واحد ، أما أن يفرق بين الصفات السبع وغيرها فهذا تناقض سبق بيانه .

---

١ ـ جواب الخطيب : ص ٦٤ .

٢ ـ الأم : (٧/ ٢٧ ـ ٢٨)

تفصيل الرد على الأشاعرة

قوله : ﴿ وَبَيَانُ هَذَا أَنَّ صِفَاتِنَا مِنْهَا مَا هِيَ أَعْيَانٌ وَأَجْسَامٌ وَهِيَ أَبْعَاضٌ لَنَا كَالْوَجْهِ وَالْيَدِ : وَمِنْهَا مَا هُوَ مَعَانٍ وَأَعْرَاضٌ وَهِيَ قَائِمَةٌ بِنَا : كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ . ثُمَّ إِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرَّبَّ لَمَّا وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ : لَمْ يَقُلِ الْمُسْلِمُونَ إِنَّ ظَاهِرَ هَذَا غَيْرُ مُرَادٍ لِأَنَّ مَفْهُومَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ مِثْلُ مَفْهُومِهِ فِي حَقِّنَا ؛ فَكَذَلِكَ لَمَّا وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ خَلَقَ آدَمَ بِيَدَيْهِ لَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ غَيْرَ مُرَادٍ لِأَنَّ مَفْهُومَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ كَمَفْهُومِهِ فِي حَقِّنَا بَلْ صِفَةُ الْمَوْصُوفِ تُنَاسِبُهُ . فَإِذَا كَانَتْ نَفْسُهُ الْمُقَدَّسَةُ لَيْسَتْ مِثْلَ ذَوَاتِ الْمَخْلُوقِينَ فَصِفَاتُهُ كَذَاتِهِ لَيْسَتْ كَصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَنِسْبَةُ صِفَةِ الْمَخْلُوقِ إِلَيْهِ كَنِسْبَةِ صِفَةِ الْخَالِقِ إِلَيْهِ وَلَيْسَ الْمَنْسُوبُ كَالْمَنْسُوبِ وَلَا الْمَنْسُوبُ إِلَيْهِ كَالْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ ؛ كَمَا قَالَ صلى الله عليه وسلم : ((تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)) فَشَبَّهَ الرُّؤْيَةَ بِالرُّؤْيَةِ وَلَمْ يُشَبِّهِ الْمَرْئِيَّ بِالْمَرْئِيِّ . ﴾

التوضيح

ومما يبين الإلزام السابق للأشاعرة الردُّ عليهم بهذين الوجهين :

الأول : أن صفات الموجودات قسمان :

القسم الأول : أعيان وأجسام وهي أبعاض لنا كالوجه واليدين والرجلين.

القسم الثاني : معان وأعـراض وهـي قائمـة بنـا كالسـمع والبصـر والكـلام والقدرة وغيرها .

ولما وصف الله نفسه بالحياة والعلم والقدرة لم يقل المسلمون إنه غير مراد لأنه تمثيل بأعراضنا فكذلك لما وصف الله نفسه بأنه خلق آدم بيده لم يوجب أن يكون ظاهره غير مراد او أنه يقتضي تمثيلا .

وهذا الرد متضمن للأصل الأول وهو أن القول في بعض الصفات كالقول في بعض .

الوجه الثاني : فإذا كانت نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين فصفاته كذلك ليست مثل صفات المخلوقين ونسبة صفة المخلوق إلى ذاته كنسبة صفة الخالق إلى ذاته ، وليس المنسوب كالمنسوب أي ليست صفة الخالق كصفة المخلوق ، وليس المنسوب إليه كالمنسوب إليه أي وليس الموصوف وهو ذات الله كالمنسوب إليه وهو ذات المخلوق .

وهذا مثل قوله ﷺ : ((إنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر))[1] فشبه رؤية المؤمنين لربهم [في الآخرة] برؤية الناس للشمس والقمر [في الدنيا] ، فهنا شبه رؤية برؤية لا مرئيا ـ وهو الله ـ بمرئي ـ وهو الشمس والقمر .

وهنا استخدم الأصل الثاني وهو : أن القول في الصفات كالقول في الذات .

ـ وجوه الشبه بين رؤية الله في الآخرة ورؤية الشمس والقمر في الدنيا :

١ ـ انها رؤية من أسفل إلى أعلى .　　　٢ ـ أنها واضحة جلية .

٣ ـ أنها بصرية عيانية .　　　٤ ـ أنها رؤية بلا إحاطة . كما تقدم[2] .

---

١ ـ أخرجه البخاري : [٥٥٢ ، ٥٧٣ ، ٤٨٥١ ، ٧٤٣٤] ومسلم : [١٨٢] ، وله ألفاظ عديدة وقد ذكره الشيخ بالمعنى . وأحاديث الرؤية متواترة وليس فيها خلاف بين السلف كما سبق ، انظر رؤية الله وتحقيق الكلام فيها : ص ٩٦ لأحمد بن ناصر .

٢ ـ مذكرة الدكتور الخميس مع شرح البراك .

خلاصة القاعدة الثالثة

١ ـ الواجب في النصوص إجراؤها على ظاهرها .

٢ـ عامة السلف على أن ظاهر النصوص يليق بالله ولا يقتضي التشبيه .

٣ ـ الذين يجعلون ظاهر النصوص هو التمثيل يغلطون من وجهين:

أ ـ يجعلون المعنى الفاسد هو الظاهر ويظنون محتاجا إلى تأويل .

ب ـ وتارة يردون المعنى الحق الذي هو الظاهر لاعتقادهم أنه باطل وهو الأكثر .

٤ ـ استدل المتكلمون على أن ظاهر النصوص محال [بآثار] كما يلي :

أ ـ ((أن الحجر الأسود يمين الله في أرضه))

ب ـ ((عبدي مرضت فلم تعدني))

ج ـ ((قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن))

وأجاب أهل السنة عن الأول بأنه حديث ضعيف ، وعلى فرض صحته ففي الحديث قرينتان متصلتان تمنعان من المعنى المحال هما : تقييد اليمين بالأرض والتشبيه المتضمن للمغايرة بين المشبه والمشبه به في قوله ((فمن صافحه فكأنما صافح الله)) .

وعن الثاني بأصل لغوي وهو أن الظاهر يفهم بمجموع الكلام لا بآحاد ألفاظه وقد بين الله مراده فقال ((أما علمت أن عبدي فلانا مرض))

وعن الثالث بأن البينية لا تقتضي الاختلاط كبينية السحاب للسماء والأرض فلا مماسة ولا اختلاط .

٤ ـ هناك فرق بين قوله تعالى : ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ وقوله : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ففي الأولى أضاف الخلق إلى اليد وجمع الضمير واليد ولم يتعد الفعل بالباء وفي الثانية أضاف الخلق إلى نفسه وعدى الفعل بالباء وأفرد الضمير وثنّى اليد .

وبناء عليه : كان معنى الأولى إثبات مجرد الخلق ومعنى الثانية بيان مباشرة اليدين للخلق .

المناقشة ؟

١) ما مذهب عامة السلف في الظاهر وما قول المخالفين ؟

٢) ماحكم القول بأن ظاهر النصوص مراد أو غير مراد ؟

٣) أجب عما استدل به المتكلمون على أن ظاهر النصوص محال ، وأدلتهم هي : « الحجر الأسود يمين الله في أرضه » و « عبدي مرضت فلم تعدني » و « قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن » .

٤) ما أوجه الفرق بين قوله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ و ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ والتي تمنع حمل الأولى على الأخرى لفظا ومعنى ؟

٥) ما غرض المتكلمين من التسوية بين الآيتين السابقتين ؟

٦) اذكر أدلة إثبات اليدين لله تعالى من الكتاب والسنة وإجماع الأمة .

٧) كيف تناقش الأشاعرة في دعواهم أن ظواهر النصوص التمثيل مستعينا بالأصلين الأول والثاني ؟

٨) هل ثبت عن الإمام أحمد تأويله لتلك النصوص وكيف ترد على من زعم ذلك ؟

٩) اشرح قوله ﷺ : « وكلتا يديه يمين » من خلال أقوال الأئمة .

القاعدة الرابعة

المحاذير التي وقع فيها من توهم التمثيل فعطل

قوله : ﴿ وَهَذَا يَتَبَيَّنُ بِالْقَاعِدَةِ الرَّابِعَةِ وَهُوَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَتَوَهَّمُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ أَوْ كَثِيرٍ مِنْهَا ؛ أَوْ أَكْثَرِهَا أَوْ كُلِّهَا أَنَّهَا تُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يَنْفِيَ ذَلِكَ الَّذِي فَهِمَهُ فَيَقَعُ فِي أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ مِنْ الْمَحَاذِيرِ :

- أَحَدُهَا كَوْنُهُ مَثَّلَ مَا فَهِمَهُ مِنْ النُّصُوصِ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَظَنَّ أَنَّ مَدْلُولَ النُّصُوصِ هُوَ التَّمْثِيلُ .

- الثَّانِي أَنَّهُ إذَا جَعَلَ ذَلِكَ هُوَ مَفْهُومَهَا وَعَطَّلَهُ بَقِيَتْ النُّصُوصُ مُعَطَّلَةً عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ إثْبَاتِ الصِّفَاتِ اللَّائِقَةِ بِاَللَّهِ . فَيَبْقَى مَعَ جِنَايَتِهِ عَلَى النُّصُوصِ ؛ وَظَنِّهِ السَّيِّئِ الَّذِي ظَنَّهُ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ - حَيْثُ ظَنَّ أَنَّ الَّذِي يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِهِمَا هُوَ التَّمْثِيلُ الْبَاطِلُ - قَدْ عَطَّلَ مَا أَوْدَعَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِي كَلَامِهِمَا مِنْ إثْبَاتِ الصِّفَاتِ لِلَّهِ وَالْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةِ اللَّائِقَةِ بِجَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى

- الثَّالِثُ أَنَّهُ يَنْفِي تِلْكَ الصِّفَاتِ عَنْ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ فَيَكُونُ مُعَطِّلًا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ

- الرَّابِعُ : أَنَّهُ يَصِفُ الرَّبَّ بِنَقِيضِ تِلْكَ الصِّفَاتِ مِنْ صِفَاتِ الْأَمْوَاتِ وَالْجَمَادَاتِ أَوْ صِفَاتِ الْمَعْدُومَاتِ فَيَكُونُ قَدْ عَطَّلَ بِهِ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا الرَّبُّ وَمَثَّلَهُ بِالْمَنْقُوصَاتِ

وَالْمَعْدُومَاتِ وَعَطَّلَ النُّصُوصَ عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ الصِّفَاتِ وَجَعَلَ مَدْلُولَهَا هُوَ التَّمْثِيلَ بِالْمَخْلُوقَاتِ . فَيُجْمَعُ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَفِي اللَّهِ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ يَكُونُ مُلْحِدًا فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ»

التوضيح

خلاصة هذه الفقرة

بعد أن تكلم شيخ الإسلام عن الظاهر ناسب أن يتكلم عما يترتب على القول بأن الظاهرالتمثيل ، فإن أصل شبهة المعطلة أن الإثبات يستلزم التشبيه ، ثم ينفون الصفات بناء على هذا الوهم فيقعون في أربعة محاذير :

◆ أولا : محذوران يتعلقان بالنصوص :

١ـ اعتقاده التمثيل أي أن مدلول أدلة الصفات الإلهية مماثل لصفات المخلوق

وجه كونه محذورا : إساءة ظنه بربه إذ ظن ما يتمدح الله به نفسه ذما ونقصا ويلزم عن هذا المحذور

٢ ـ تعطيل النصوص . أي تعطيل أدلة الصفات عن مدلولها المراد اللائق برب العباد

وجه كونه محذورا : أنه تكذيب لكلام الله ورد لخبر رسوله ﷺ إذ ما جيء بالألفاظ إلا توصلا للمراد .

◆ ثانيا : المحاذير المتعلقة بالله تعالى :

٣ ـ تعطيل الله عما يستحقه من الصفات بغير علم . فإن سبيل معرفة ما يستحقه الله من الصفات السمع فإذا تعطلت أدلة الصفات بغير علم تعطل الموصوف عما يستحقه .

٤ ـ وصف الله بالنقائص . فإن الممثل لما عطّل الأدلة عن مدلولها المراد لله المناسب لكماله فرض لها مدلولا يتناسب وسوء ظنه بمولاه والمناسب لنقصه وعجزه فجعله هو المراد من أدلة الصفات . ومن نفى عن الله صفات الكمال فأي شيء يبقى لله إلا صفات النقص من صفات الأموات والجمادات .

* ترتب هذه المحاذير بعضها على بعض :

أساء الظن بربه فتوهم أن نسبة صفاته إليه كنسبة صفات المخلوقين إليهم فوقع في التمثيل ولما كان التمثيل محالا أول اللفظ إلى معنى لاتمثيل فيه ـ حسب ظنه ـ فوقع في التأويل ، وجعل هذا المعنى المؤول هو المراد فوقع في تعطيل المراد اللائق بالله من آي الصفات ، فترتب على تعطيل النص عن المراد تعطيل الله عن لائق الصفات لأن بابها التوقيف وقد تم تعطيله . فيكون قد جمع بين تمثيلين وتعطيلين :

فالتمثيلان : حيث اعتقد تشبيهه بالمخلوقات أولا ، ثم حيث فر من ذلك فشبهه بالجمادات أو المعدومات .

والتعطيلان : حيث عطل آي الصفات الدالة على التنزيه والكمالات ، ثم لزم عن ذلك تعطيل الله عن صفاته .

قوله : ﴿مِنْ صِفَاتِ الْأَمْوَاتِ وَالْجَمَادَاتِ أَوْ صِفَاتِ الْمَعْدُومَاتِ﴾ هذه اللوزام لا تلزم جميع طوائف المعطلة ولكن كل بحسب تعطيله فهو إلزام للمجموع لا الجميع .

تطبيقات المحاذير الأربعة بمثالي : الاستواء والعلو

قوله : ﴿مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ النُّصُوصَ كُلَّهَا دَلَّتْ عَلَى وَصْفِ الْإِلَهِ بِالْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ ـ فَأَمَّا عُلُوُّهُ وَمُبَايَنَتُهُ لِلْمَخْلُوقَاتِ فَيُعْلَمُ بِالْعَقْلِ الْمُوَافِقِ لِلسَّمْعِ

وَأَمَّا الِاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ فَطَرِيقُ الْعِلْمِ بِهِ هُوَ السَّمْعُ . وَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَصْفٌ لَهُ بِأَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا مُبَايِنَهُ وَلَا مُدَاخِلَهُ﴾

التوضيح

الفروق بين الاستواء والعلو

الوجه	العلو	الاستواء
١. نوع الصفة	ذاتية لا تنفك عن الله ﷻ أزلا وأبدا	اختيارية فعلية فعلها بعد أن لم تكن بمشيئته
٢. ثبوتها	بالنقل والعقل والفطرة	بالنقل فحسب
٣. نسبتها	العلو مطلق على جميع الكائنات	الاستواء مختص لا ينسب إلا إلى العرش

وهاتان الصفتان هما الفيصل بين أهل السنة وأهل البدعة فقد نفاهما جميع الفرق الكلامية من الفلاسفة والباطنية والمعتزلة والجهمية والأشعرية والماتريدية . وآمن -بهما أهل السنة النبوية.

ووصف المبتدعة له بأنه لا داخل العالم ولا خارجه ولامباينه ولا مداخله ليس له أصل نقلي ولا عقلي معتبر . وإنما نبه الشيخ على ذلك لأن نفاة العلو والاستواء استبدلوا بالاستواء والعلو وصفه بهذه السلوب المناسبة للمعدوم .

قوله : ﴿ فَأَمَّا عُلُوُّهُ وَمُبَايَنَتُهُ لِلْمَخْلُوقَاتِ ﴾ هذه جملة اعتراضية لبيان الفرق بين العلو والاستواء . ومن أجلها ذكرت هذا المبحث .

المثال الأول : الاستواء

قوله : ﴿فَيَظُنُّ الْمُتَوَهِّمُ أَنَّهُ إِذَا وُصِفَ بِالاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ : كَانَ اسْتِوَاؤُهُ كَاسْتِوَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَى ظُهُورِ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ ؛ كَقَوْلِهِ : (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) (لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ) ، فَيَتَخَيَّلُ لَهُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَى الْعَرْشِ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ كَحَاجَةِ الْمُسْتَوِي عَلَى الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ فَلَوْ غَرِقَتْ السَّفِينَةُ لَسَقَطَ الْمُسْتَوِي عَلَيْهَا وَلَوْ عَثَرَتْ الدَّابَّةُ لَخَرَّ الْمُسْتَوِي عَلَيْهَا . فَقِيَاسُ هَذَا أَنَّهُ لَوْ عَدِمَ الْعَرْشُ لَسَقَطَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثُمَّ يُرِيدُ بِزَعْمِهِ أَنْ يَنْفِيَ هَذَا فَيَقُولُ : لَيْسَ اسْتِوَاؤُهُ بِقُعُودِ وَلَا اسْتِقْرَارٍ﴾

التوضيح

بدأ شيخ الإسلام بذكر شبهة نفاة الاستواء ،و نبينها في ثلاث نقاط كمايلي :

١ ـ إذا وصف الله بالاستواء كان كاستواء الإنسان على ظهورالفلك والأنعام على نحو قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾الزخرف : [١٢ ـ ١٣]

٢ ـ ويلزم منه الاحتياج إلى العرش كاحتياج المستوى علىالفلك والأنعام فلو انخرقت السفينة وعثرت الدابة سقط المستوي عليها .

٣ ـ وهذا تمثيل لا يليق بالله فبناء عليه ينفي ذلك فيقول ليس استواؤه بقعود ولا باستقرار لئلا يلزم منه الاحتياج .

* الجواب من طريقين :

الطريق الأول : على فرض التسليم

قوله : ﴿ وَلَا يُعْلَمُ أَنَّ مُسَمَّى الْقُعُودِ وَالِاسْتِقْرَارِ يُقَالُ فِيهِ مَا يُقَالُ فِي مُسَمَّى الِاسْتِوَاءِ ؛ فَإِنْ كَانَتْ الْحَاجَةُ دَاخِلَةً فِي ذَلِكَ : فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الِاسْتِوَاءِ وَالْقُعُودِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَلَيْسَ هُوَ بِهَذَا الْمَعْنَى مُسْتَوِيًا وَلَا مُسْتَقِرًّا وَلَا قَاعِدًا وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي مُسَمَّى ذَلِكَ إلَّا مَا يَدْخُلُ فِي مُسَمَّى الِاسْتِوَاءِ فَإِثْبَاتُ أَحَدِهِمَا وَنَفْيُ الْآخَرِ تَحَكُّمٌ . وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ بَيْنَ مُسَمَّى الِاسْتِوَاءِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْقُعُودِ فُرُوقًا مَعْرُوفَةً . وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا أَنْ يُعْلَمَ خَطَأُ مَنْ يَنْفِي الشَّيْءَ مَعَ إثْبَاتِ نَظِيرِهِ ﴾

التوضيح

في هذا الطريق من الجواب نسلم للخصم استدلاله ونفرضه صحيحا ونكشف عن تناقضه حيث فرق بين المتماثلات وقد تقدم في الأصل الأول القاعدة العقلية وهي وجوب التسوية بين المتماثلات فمن فرق تناقض .

وقبل بيان تناقضهم نقدم بمقدمة في نقطتين :

الأولى : وهي ما علاقة مسميات كل من الاستواء والقعود والاستقرار أما من جهة الاشتراك فتشترك في الثبوت في مكان بنحو ما ، أما الاستواء ففيه بيان جهة الفعل وهو العلو والارتفاع وأما الاستقرار - فقد يقال - فيه زيادة تمكن ولبث[1] ولذلك قال ابن عبد البر : الاستواء الاستقرار في العلو [2] وأما القعود ففيه بيان لهيئة خاصة للفاعل حال الثبوت في المكان والمهم هنا أن المسميات الثلاثة يتوقف تحققها على مكان تحصل فيه .

---

١ ـ التحفة المهدية : ص ٢٠٢ .

٢ ـ حاشية ابن القيم ١٣ / ٢٠ ، اجتماع الجيوش ١ / ٧٩

خاصة للفاعل حال الثبوت في المكان والمهم هنا أن المسميات الثلاثة يتوقف تحققها على مكان تحصل فيه .

الثانية : هل تتوقف هذه المسميات الثلاثة على احتياج فاعلها إلى هذا المكان أم تصدق بمجرد صحة انتسابه إلى المكان والاحتياج معنى أجنبي عن مدلولها . بمعنى أن القاعد على مكان ما لا يسمى قاعدا إلا إذا كان بنحو لوزال هذا المكان لعجز أو عسر عليه القعود ؟

يقول الشيخ : إن الحاجة ليست داخلة في مدلول هذه الأسماء وإنما يرجع الاحتياج وعدمه بحسب الفاعل . وهذا من المواطن التي زلت فيها أقدام وضلت بسببها أفهام فإن عامة المعطلة يعرفون الصفة مجردة بما تختص به مضافة إلى المخلوق وقد تقدم التنبيه إلى هذا الزلل .

إذا : فتصور الاستواء والاستقرار والقعود لا يتوقف على تصور حالة الاحتياج بين الفاعل والمكان .

بيان تناقض النفاة :

بناء على ماسبق : فقد أراد النفاة تنزيه الرب عن الاحتياج فأثبتوا له استواءً بلا قعود ولا استقرار رغم أن القعود والاستقرار من جهة الاحتياج و عدمه سواء هي والاستواء وهذا تناقض واضح . فسواء قالوا بعدم اشتراط الاحتياج ـ كما هو رأي الشيخ والراجح ـ أم قالوا باشتراطه في المسمى فلا فرق من هذه الحيثية بين ثلاثة المسميات كما أنه لافرق بينها من جهة أصل استلزامها لمكان الفعل . فكأنهم قالوا استوى ولكنه لم يستو .

الطريق الثاني :على فرض المنع

قوله : ﴿ وَكَأَنَّ هَذَا الْخَطَأَ مِنْ خَطَئِهِ فِي مَفْهُومِ اسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ حَيْثُ ظَنَّ أَنَّهُ مِثْلُ اسْتِوَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَى ظُهُورِ الْأَنْعَامِ وَالْفُلْكِ ﴾

التوضيح

هنا طريق منع أصل شبهتهم وهي ظنهم أن مفهوم استواء الله على العرش مثل استواء الإنسان على ظهور الأنعام والفلك ، وهذا الظن باطل لوجوه عديدة ذكر الشيخ بعضها ، ولزيادة التوضيح نقسمها إلى خمسة أوجه :

الوجه الأول

قوله : ﴿ وَلَيْسَ فِي هَذَا اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ أَضَافَ الِاسْتِوَاءَ إِلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ كَمَا أَضَافَ إِلَيْهِ سَائِرَ أَفْعَالِهِ وَصِفَاتِهِ . فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ ثُمَّ اسْتَوَى كَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ قَدَّرَ فَهَدَى وَأَنَّهُ بَنَى السَّمَاءَ بِأَيْدٍ وَكَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ مَعَ مُوسَى وَهَارُونَ يَسْمَعُ وَيَرَى وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . فَلَمْ يَذْكُرْ اسْتِوَاءً مُطْلَقًا يَصْلُحُ لِلْمَخْلُوقِ وَلَا عَامًّا يَتَنَاوَلُ الْمَخْلُوقَ كَمَا لَمْ يَذْكُرْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ صِفَاتِهِ وَإِنَّمَا ذَكَرَ اسْتِوَاءً أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ ﴾

١ ـ ليس في لفظ الاستواء مايدل على المماثلة لأنه تعالى أضاف الاستواء إلى نفسه كما أضاف سائر أفعاله وصفاته إليه فقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ السجدة : [٤] فكما أنه ذكر خلقا خاصا به فكذلك ذكر استواءا خاصا به وهكذا ذكر أنه قدر فهدى كما قال : ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ الأعلى : [٣] ، وذكر أنه مع موسى يسمع ويرى كما قال تعالى : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ طه : [٤٦] ، و أنه بنى السماء بأيد كما قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ الذاريات : [٤٧] أي بقوة فالأيد في هذه الآية

ليس جمعا لليد ـ كما توهمه بعض المعطلة العصريين وآخرين[١] ـ بل هي مصدر آد أيدا بمعنى قوة كقوله تعالى : ﴿ دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾ ص : [١٧] على (فَعْل) فالهمزة أصلية بينما الأيدي فعلى على وزن (أفعِل) فالهمزة زائدة للجمع[٢].
وأصرح منه أن الآية ليست من آيات الصفات لعدم إضافة الأيد إلى الله .

* تنبيه :

يحاول المعطلة المعاصرون أن يتوصلوا إلى أدلة تثبت أن السلف أولوا شيئا من الصفات ليستحلوا التأويل ويفتحوا الباب على مصراعيه فمن ذلك ما نقله آنفا عن الغزالي أن الإمام أحمد أول ثلاثة أحاديث ومن ذلك هذه الآية أعني آية الذاريات قالوا : هذا ابن عباس أوّل الأيد بالقوة ، وهكذا موارد عديدة كالجنب والساق والنسيان ومجيء الرب . [٣]

الوجه الثاني

قوله : ﴿فَلَوْ قُدِّرَ – عَلَى وَجْهِ الْفَرْضِ الْمُمْتَنِعِ – أَنَّهُ هُوَ مِثْلُ خَلْقِهِ – تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ – لَكَانَ اسْتِوَاؤُهُ مِثْلَ اسْتِوَاءِ خَلْقِهِ أَمَّا إِذَا كَانَ هُوَ لَيْسَ مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِ﴾

التوضيح

٢ـ أن الله تعالى ليس مثل خلقه ولو قدر على الفرض الممتنع أنه مثل خلقه لكان استواؤه مثل استوائهم ولكنه تعالى لا يماثل خلقه فكذلك استواؤه لا يماثل استواءهم وفي هذا الوجه تطبيق للقاعدة السلفية السابقة وهي الأصل الثاني : أن القول في الصفات كالقول في الذات . وفي قوله :(أما إذا كان هو ليس مماثلا لخلقه)

---

١ ـ فتح المعين لحسن السقاف الذي رام به نقض الأربعين لشيخ الإسلام الهروي .

٢ ـ أضواء البيان للشنقيطي : (٧ / ٦٦٩) .

٣ ـ انظر المصدر السابق

فالظاهر أن في العبارة نقصا والتقدير : (فلا) والمعنى : أما إذا كان هو ليس مماثلا لخلقة فليس استواؤه مثل استوائهم . والله أعلم .

الوجه الثالث

قوله : ﴿ بَلْ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ الْغَنِيُّ عَنْ الْخَلْقِ وَأَنَّهُ الْخَالِقُ لِلْعَرْشِ وَلِغَيْرِهِ وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ مُفْتَقِرٌ إلَيْهِ وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ ﴾

التوضيح

٣ ـ أنه قد علم بالشرع وبالعقل والفطرة أن الله تعالى هو الغني عن جميع خلقه ، وجميع خلقه مفتقرون إليه كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران : [٩٧] وقال : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ فاطر : [١٥] فكيف يقال بعد ذلك إنه إن استوى على العرش كان مفتقرا إليه بل العرش وسائر المخلوقات قائمة بأمر الله كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ ﴾ الرعد :[٣٣] وقال تعالى : ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ ﴾ في ثلاثة مواضع من كتابه : البقرة : [٢٥٥] ، آل عمران : [٢] ، طه : [١١١] . ومعنى القيوم القائم بنفسه المقيم لغيره [1] .

الوجه الرابع

قوله : ﴿ وَهُوَ لَمْ يَذْكُرْ إلَّا اسْتِوَاءً يَخُصُّهُ لَمْ يَذْكُرْ اسْتِوَاءً يَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ وَلَا يَصْلُحُ لَهُ ـ كَمَا لَمْ يَذْكُرْ فِي عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَرُؤْيَتِهِ وَسَمْعِهِ وَخَلْقِهِ إلَّا مَا يَخْتَصُّ بِهِ ـ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ

---

١ ـ انظر زاد المسير لابن الجوزي : (١ / ٢٦٤)

يَتَوَهَّمَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَى الْعَرْشِ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ وَأَنَّهُ لَوْ سَقَطَ الْعَرْشُ لَخَرَّ مَنْ عَلَيْهِ ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا هَلْ هَذَا إِلَّا جَهْلٌ مَحْضٌ وَضَلَالٌ مِمَّنْ فَهِمَ ذَلِكَ وَتَوَهَّمَهُ أَوْ ظَنَّهُ ظَاهِرَ اللَّفْظِ وَمَدْلُولَهُ أَوْ جَوَّزَ ذَلِكَ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ الْغَنِيِّ عَنْ الْخَلْقِ ؟ بَلْ لَوْ قُدِّرَ أَنَّ جَاهِلًا فَهِمَ مِثْلَ هَذَا وَتَوَهَّمَهُ لَبُيِّنَ لَهُ أَنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ وَأَنَّهُ لَمْ يَدُلَّ اللَّفْظُ عَلَيْهِ أَصْلًا كَمَا لَمْ يَدُلَّ عَلَى نَظَائِرِهِ فِي سَائِرِ مَا وَصَفَ بِهِ الرَّبُّ نَفْسَهُ . فَلَمَّا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ) فَهَلْ يَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ أَنَّ بِنَاءَه مِثْلُ بِنَاءِ الْآدَمِيِّ الْمُحْتَاجِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى زِنْبِيلٍ وَمَجَارِفَ وَضَرْبِ لَبِنٍ وَجَبْلِ طِينٍ وَأَعْوَانٍ ؟

التوضيح

٤ ـ هذا الوجه شبيه بالوجه الأول وخلاصته أن الله تعالى لم يذكر استواء مطلقا وإنما ذكر استواء يخصه كما أنه في بقية الصفات ذكر صفات تخصه كالعلم والقدرة والرؤية والسمع والخلق ، فكما أن هذه الصفات لا يتوهم فيها النقص فالواجب كذلك أن لا يتوهم النقص في استوائه على العرش ، وما هذا التوهم وهو احتياجه إلى العرش إلا جهل عظيم لا يجوز في حق رب العالمين . فكما أننا لم نقل إنه في بنائه للسموات لم يحتج إلى ما يحتاج إليه الآدمي من زنبيل[١] أي وعاء وأدوات كالمجارف أو مواد كاللبن والأعواد[٢] فكذلك في استوائه لم يحتج إلى عرشه وهذا تطبيق للأصل الأول وهو أن القول في بعض الصفات كالقول في بعض .

---

١ ـ لسان العرب : (١١ / ٣٥٥)

٢ ـ المصدر السابق : (١٣ / ٣٧٥)

الوجه الخامس

قوله : ﴿ثُمَّ قَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْعَالَمَ بَعْضَهُ فَوْقَ بَعْضٍ وَلَمْ يَجْعَلْ عَالِيَهُ مُفْتَقِرًا إلَى سَافِلِهِ فَالْهَوَاءُ فَوْقَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ مُفْتَقِرًا إلَى أَنْ تَحْمِلَهُ الْأَرْضُ وَالسَّحَابُ أَيْضًا فَوْقَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ مُفْتَقِرًا إلَى أَنْ تَحْمِلَهُ وَالسَّمَوَاتُ فَوْقَ الْأَرْضِ وَلَيْسَتْ مُفْتَقِرَةً إلَى حَمْلِ الْأَرْضِ لَهَا ؛ فَالْعَلِيُّ الْأَعْلَى رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ إذَا كَانَ فَوْقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ : كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا إلَى خَلْقِهِ أَوْ عَرْشِهِ ؟ أَوْ كَيْفَ يَسْتَلْزِمُ عُلُوُّهُ عَلَى خَلْقِهِ هَذَا الِافْتِقَارَ وَهُوَ لَيْسَ بِمُسْتَلْزَمٍ فِي الْمَخْلُوقَاتِ ؟ وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ مَا ثَبَتَ لِمَخْلُوقِ مِنْ الْغِنَى عَنْ غَيْرِهِ فَالْخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَحَقُّ بِهِ وَأَوْلَى﴾

التوضيح

٥ ـ أنه مما يشاهد أن الله خلق بعض المخلوقات فوق بعض فالسماء فوق الأرض وهكذا الهواء والسحاب فإنها فوق الأرض ومع ذلك فليست هذه المخلوقات مفتقرة إلى الأرض أن تحملها فإذا كان ذلك جائزا بين المخلوقات فكيف يكون الله تعالى محتاجا إلى خلقه أو عرشه وكيف يستلزم استواؤه الافتقار مع أنه ليس بمستلزم في المخلوقات وكما سبق في قياس الأولى يقال إذا ثبت غنى بعض المخلوقات عن بعض فالخالق أحق بهذا الغنى و أولى به لكونه خالقا لها .

- تطبيق المحاذير الأربعة على المثال الأول (الاستواء) :

١ ـ اعتقدوا دلالة الاستواء على الافتقار .

٢ ـ عطلوا النصوص عن دلالتها على صفة الاستواء .

٣ ـ عطلوا الله تعالى عن هذه الصفة .

٤ ـ أثبتوا له النقص بسلبهم كماله الذي اتصف به وهو الاستواء على العرش أي العلو والارتفاع عليه وهو من الكمال وضده نقص .

المثال الثاني : العلو

قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ مُقْتَضَى هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ فِي دَاخِلِ السَّمَوَاتِ فَهُوَ جَاهِلٌ ضَالٌّ بِالِاتِّفَاقِ﴾

التوضيح

➢ شبهة نفاة العلو :

في قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الملك : [١٦] توهموا أن الآية تدل على أن الله تعالى داخل السماوات ، وهذا القول باطل ، ولايصدر إلا عن جاهل ضال بالاتفاق ، ويتبين بطلانه من خلال الأوجه الثلاثة التالية :

الوجه الأول :

قوله : ﴿وَإِنْ كُنَّا إِذَا قُلْنَا : إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ فِي السَّمَاءِ يَقْتَضِي ذَلِكَ فَإِنَّ حَرْفَ (فِي مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ وَبِمَا بَعْدَهُ - فَهُوَ بِحَسَبِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ وَلِهَذَا يُفَرَّقُ بَيْنَ كَوْنِ الشَّيْءِ فِي الْمَكَانِ وَكَوْنِ الْجِسْمِ فِي الْحَيِّزِ وَكَوْنِ الْعَرَضِ فِي الْجِسْمِ وَكَوْنِ الْوَجْهِ فِي الْمِرْآةِ وَكَوْنِ الْكَلَامِ فِي الْوَرَقِ فَإِنَّ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ خَاصَّةً يَتَمَيَّزُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ حَرْفُ (فِي مُسْتَعْمَلًا فِي ذَلِكَ فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ : الْعَرْشُ فِي السَّمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ؟ لَقِيلَ فِي السَّمَاءِ وَلَوْ قِيلَ : الْجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ ؟ لَقِيلَ الْجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ ؛ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ

ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ دَاخِلَ السَّمَوَاتِ بَلْ وَلَا الْجَنَّةُ فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : (إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ) فَهَذِهِ الْجَنَّةُ سَقْفُهَا الَّذِي هُوَ الْعَرْشُ فَوْقَ الْأَفْلَاكِ . مَعَ أَنَّ الْجَنَّةَ فِي السَّمَاءِ

التوضيح

هذا الوجه يتعلق بالكلام حول الحرف (في) من حروف المعاني ، فإنه يدل على المعنى بحسب ما قبله وما بعده أي سياق الكلام ، فإذا قيل : إن الشمس والقمر في السماء يقتضي أنهما داخل السماء ، ولكن هذا ليس مطردا بل المعنى متعلق بما يضاف إليه وذكر هنا خمسة تراكيب اختلفت فيها معاني (في) توضيحها كمايلي :

١ ـ إذا قيل : الشي في المكان : فيدل على أنه موجود فيه ، ولا يقتضي استيعاب الشي للمكان كله .

٢ ـ وإذا قيل الجسم في الحيز : والحيز هو الفراغ الذي يملأه الجسم ، فهذا يقتضي استيعاب الجسم للحيز كله .

٣ ـ وإذا قيل : الكلام في الورق ، فالمعنى وجوده الخطي والرسمي لا عين الكلام .

٤ ـ وإذا قيل الوجه في المرآة ف   ود صورته وليست ذاته

٥ ـ وإذا قيل : العرض في الجسم ، فالمعنى أنه قائم به كالألوان وغيرها من الصفات فإنها لا تقوم بنفسها .

وهكذا إذا قيل العرش في السماء والجنة في السماء لم يلزم أنهما داخلان في السماء إلا أن الجنة قد ورد فيها النص بأن سقفها هو العرش ومعلوم أن العرش

فوق السماء لا فيها كما في قوله ﷺ ((إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنها أعلى الجنة وسقفها عرش الرحمن))[1]

فهي في السماء لأن سقفها العرش والعرش فوق الأفلاك أي فوق السماء فماتحت العرش يكون في السماء لامحالة .

فالخلاصة أن لفظ في يتغير معناه بتغير السياق[2] وهذا تمهيد لما سيأتي في الوجه الثالث ، والله أعلم .

الوجه الثاني

قوله : ﴿ وَالسَّمَاءُ يُرَادُ بِهِ الْعُلُوُّ سَوَاءٌ كَانَتْ فَوْقَ الْأَفْلَاكِ أَوْ تَحْتَهَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ وَلَمَّا كَانَ قَدْ اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِ الْمُخَاطَبِينَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى ؛ وَأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ كَانَ الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ : إنَّهُ فِي السَّمَاءِ أَنَّهُ فِي الْعُلُوِّ وَأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ . وَكَذَلِكَ الْجَارِيَةُ لَمَّا قَالَ لَهَا : (أَيْنَ اللَّهُ ؟ (قَالَتْ فِي السَّمَاءِ إنَّمَا أَرَادَتْ الْعُلُوَّ مَعَ عَدَمِ تَخْصِيصِهِ بِالْأَجْسَامِ الْمَخْلُوقَةِ وَحُلُولِهِ فِيهَا . وَإِذَا قِيلَ : الْعُلُوُّ فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ مَا فَوْقَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا فَمَا فَوْقَهَا كُلِّهَا هُوَ فِي السَّمَاءِ وَلَا يَقْتَضِي هَذَا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ ظَرْفٌ وُجُودِيٌّ يُحِيطُ بِهِ إذْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ إلَّا اللَّهُ كَمَا لَوْ قِيلَ : الْعَرْشُ فِي السَّمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ فِي شَيْءٍ آخَرَ مَوْجُودٌ مَخْلُوقٌ ﴾

---

١ ـ أخرجه البخاري : (٤ / ٣٨٨) وأحمد : (٢ / ٣٣٥) وغيره عن أبي هريرة ﷺ .

٢ ـ مغني اللبيب : (١/ ٢٢٣) ـت : مازن المبارك .

التوضيح

٢ ـ هذا الوجه متعلق بالكلام حول لفظ السماء ، والسماء لها معنيان :

ـ الأول : العلو مطلقا سواء كان فوق الأفلاك أو تحتها ،

ـ الثاني : الأفلاك ومحل الكلام عليه الوجه الثالث الآتي .

أما المعنى الأول فله شواهده كثيرة منها :

أليس الأجود أن نفصل بين نوعين من العلو علو نسبي وعلو مطلق فالأول بين الخلق والآخر أزلي أبدي مختص بالله ﷻ وكلاهما أطلقت عليه النصوص السماء فنجعل الآيتين من الأول وحديث الجارية من الثاني ويكون هذا من الاشتراك المعنوي .

١ـ قوله تعالى: فَلْيَمْدُدْ ﴿ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الحج : [١٥] أي سقف بيته على المشهور من أقوال المفسرين [1]

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ الفرقان:[٤٨] أي من العلو.

٣ ـ قول الجارية لما سألها الرسول ﷺ : ((أين الله ؟)) قالت :(في السماء)[2] فإنها إنما أرادت العلو مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة فإنه قد استقر في الفطر علو الله تعالى وأنه فوق كل شيء لذا قيل : (في السماء)أي في العلو فوق كل شيء .

ـ وهذا لا يقتضي أن يكون هناك ظرف موجود يحيط به لأنه ليس فوق العالم شيء موجود إلا الله تعالى ، فكذلك إذاقيل : العرش في السماء . لم يقتض أن يكون

---

١ ـ فتح القدير : (٣ / ٦٣) ، أضواء البيان : (٥ / ٣٢) .

٢ ـ أخرجه مالك : ص ٥٩٥ ، وأحمد : (٥ / ٤٤٧) أخرجه مسلم : (١ / ٣٨١) وأبوداود : (١ / ٢٤٤) والنسائي في الكبرى : (١ / ٣٦٢)

داخلا في مخلوق آخر وإلا لزم ألا يكون مخلوق إلا داخلا في مخلوق آخر وهذا باطل إذ العرش سقف المخلوقات وليس وراءه مكان مخلوق .

الوجه الثالث

قوله : ﴿ وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّ السَّمَاءَ الْمُرَادُ بِهَا الْأَفْلَاكُ : كَانَ الْمُرَادُ إِنَّهُ عَلَيْهَا كَمَا قَالَ : ﴿ ولأُصَلِّبَنَّكُم فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾وَكَمَا قَالَ : ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ وَكَمَا قَالَ : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ ﴾وَيُقَالُ : فُلَانٌ فِي الْجَبَلِ وَفِي السَّطْحِ وَإِنْ كَانَ عَلَى أَعْلَى شَيْءٍ فِيهِ . ﴾

التوضيح

٣ ـ تقدم في الوجه الثاني بيان النقض على نفاة العلو على تقدير أن السماء هي مطلق العلو وهذا النقض على تقدير المعنى الآخر وهو أن يراد بالسماء الأفلاك المعهودة ، عندئذ يكون معنى قولنا أن الله في السماء أي عليها لأن (في) تأتي بمعنى (على) ، وهذا الوجه تابع للوجه الأول فإن شيخ الإسلام بعد أن بين اختلاف المفهوم من لفظ (في) بحسب السياق أراد أن يدلل هنا أنها تأتي بمعنى (على) فيكون المقصود من الآية﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي في العلو .

١ ـ قوله تعالى :﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾طه:[٧١] أي على جذوع النخل وليس المقصود داخلها .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الأنعام:[١١] أي عليها .

٣ ـ وقوله تعالى : ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ۝٢ التوبة : [٢] أي عليها .

٤ ـ وفي اللغة يقال :فلان في الجبل وفي السطح وإن كان على أعلى شيء منه

فالخلاصة :

أن هذه الآية ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ تحتمل ثلاثة معان وهي :

الأول : باطل . أي (داخل السماء) أي الأفلاك وهـذا قـول الغـالطين مـن المبتدعة .

الثاني : في العلو فتكون السماء بمعنى العلو مطلقا

الثالث : على السماء . فتكون في بمعنى (علـى) كمـا هـو مشـهور في اللغـة وتكون السماء بمعنى الأفلاك .

والمعنيان الحق قال بهما أهل السنة والجماعة [1] .

والمحاذير الأربعة المترتبة على هذا الغلط هي عين ماسبق في الاستواء.

خلاصة القاعدة الرابعة

- أولا : من ينفي الصفات بحجة التمثيل يقع في أربعة محاذير

١ ـ تمثيل ما فهمه من صفات الله بصفات المخلوقين .

٢ ـ تعطيل النصوص عما دلت عليه من الصفات اللائقة بالله .

٣ ـ تعطيل الله تعالى عن صفات الكمال .

٤ ـ تمثيل الله بالمنقوصات من الجمادات أو الأموات أو المعدومات .

أي أنه يقع في تمثيلين وتعطيلين .

---

١ ـ شرح العقيدة الطحاوية : ص ٣٨٣ .

ـ ثانيا : من الأمثلة المضروبة على القاعدة (الاستواء) و (العلو) :ـ

* الأول : الاستواء :

من ينفيه بحجة أن إثباته يستلزم الافتقار يرد عليه بما يلي:

١ـ أن الاستواء مضاف إلى الله تعالى مختص به فلايلزم مماثلته لاستواء خلقه .

٢ ـ أن الله تعالى ليس مثل خلقه فكذلك استواؤه ليس مثل استوائهم .

٣ ـ ثبت بالضرورة غنى رب العالمين عنهم وافتقارهم إليه فلا يلزم من استوائه على العرش افتقاره إليه .

٤ ـ لايتوهم في شيء من صفات الله النقص بوجه من الوجوه الذاتية والفعلية فكذلك العلو والاستواء .

٥ ـ إذا كان من المتقرر أن بعض المخلوقات فوق بعض ولم يلزم من ذلك افتقار الأعلى إلى الأدنى كالسماء والأرض فالله الأعلى أولى بعدم الافتقار إلى العرش.

* الثاني: العلو

من توهم أن معنى قوله ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ أي داخل السماء ، ثم نفى العلو يجاب عنه بمايلي :

١ ـ أن (في) يختلف معناها بحسب السياق ،وهذا جواب إجمالي يدخل تحته الجواب الثالث .

٢ ـ أن السماء يراد بها العلو فيكون المعنى : أأمنتم من في العلو .

٣ ـ أن (في) تأتي بمعنى (على) الاستعلاء فيكون المعنى : أأمنتم من على السماء .

المناقشة ؟

١) اذكر المحاذير الأربعة التي يقع فيها من يتوهم التمثيل ثم ينفي الصفات

٢) كيف تجيب على من ينفي الاستواء بحجة أن إثباته يستلزم الافتقار؟

٣) كيف تجيب على من فسر قوله تعالى ﴿ ءأمنتم من في السماء ﴾ أي داخل السماء بمعنى الأفلاك ؟

٤) ما قول أهل السنة في معنى قوله تعالى : ﴿ في السماء ﴾ ؟

٥) ما الفروق بين العلو والاستواء ؟

٦) ما أوجه الافتراق والاتفاق بين مسمى الاستواء والاستقرار والقعود ؟

٧) طبق القاعدة بذكر المحاذير اللازمة للنفاة على مثالي : (العلو) و (الاستواء) .

القاعدة الخامسة

علمنا بصفات الله من وجه دون وجه

قوله : ﴿ الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ أَنَّا نَعْلَمُ لِمَا أُخْبِرْنَا بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ . فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ : { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } وَقَالَ : {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ } وَقَالَ : { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ} وَقَالَ : { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } . فَأَمَرَ بِتَدَبُّرِ الْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾

التوضيح

أولا : المراد من القاعدة :

أننا نعلم ما أخبرنا الله ورسوله به من الغيبيات من وجه وهو المعنى الكلي المطلق المجرد عن الإضافة ونجهلها من وجه آخر وهو الكيفية والخصوصيات الناشئة عن إضافة المعنى الكلي إلى الله تبارك وتعالى كما سبق في مثالي الجنة والروح .

والمقصود بهذه القاعدة صفات الله تعالى . وعلى هذا مضى السلف كما سبق النقل عنهم . قال البزدوي الحنفي[1]: (إثبات اليد والوجه حق عندنا معلوم بأصله متشابه بوصفه ، ولا يجوز إبطال الأصل بالعجز عن إدراك الوصف بالكيف ، و إنما ضلت المعتزلة من هذا الوجه)[2] ، أقول : وتبعهم الأشاعرة والماتريدية من حيث لا يشعرون .

---

١ ـ هو علي بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم فقيه الحنفية بما وراء النهر توفي سنة ٨٨ . الجواهر المضيئة : (٢ / ٥٩٤) عن أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة : ص ٢٩٩ .

٢ ـ أصول البزدوي مع شرحه كشف الأسرار : (١ / ٦٠) بواسطة أصول الدين : ص ٢٩١

ثانيا : على من يرد الشيخ بهذه القاعدة :

هذه القاعدة فيها رد على المفوضة القائلين بعدم العلم بالمعاني مطلقا ، وتتضمن أيضا ردا على المشبهة في دعواهم العلم بالكيفية ، ويدخل فيهم المعطلة لأنهم إنما عطلوا فرارا من التشبيه والتشبيه فرع العلم بالكيفية ، فبين لهم الشيخ أننا نثبت الصفة دون الكيف ، فهذه القاعدة من القواعد الجامعة في الردّ على أصناف المبتدعة .

ثالثا : أدلة القاعدة :

تتركب أدلة القاعدة من قسمين من الأدلة يتكفل القسم الأول بيان علمنا بمعاني آي الصفات من وجه ويتكفل القسم الثاني بيان جهلنا بآي الصفات من وجه آخر .
وبضم القسمين إلى بعض نستدل على القاعدة .

القسم الأول : أدلة علمنا بالصفات من وجه :

ويمكن تصنيف أدلة هذا القسم إلى أربع مجموعات :

الأولى : الآيات الآمرة بتدبر الكتاب كله ، فتدخل آي الصفات ضمنا مما يدل على علمنا بمعانيها ، إذ لا يمكن التدبر لما لايفهم معناه .فمن ذلك

١ـ قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء : [٨٢]

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ المؤمنون : [٦٨]

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ص : [٢٩]

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ محمد [٢٤]

المجموعة الثانية : الآيات الدالة على أن القرآن عربي وهذا معناه أن معانيه مفهومة بلغة العرب لا أن حروفه عربية ومعانيه لا يفهمها العربي فإن الله لم يقتصر على وصفه بالعربية بل رتب على هذا الوصف مايدل على أن العرب تفهم معانيه فمن ذلك .

١ ـ قوله ﷻ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ الشعراء : [١٩٥]

٢ـ قوله ﷻ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يوسف : [٢]

٣ ـ قوله:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ الشورى : [٧]

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فصلت [٣]

المجموعة الثالثة : الآيات الدالة على أن القرآن حسن البيان والإيضاح ومنها :

١ ـ قوله تعالى :﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران : [١٣٨]

٢ ـ قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ المائدة : [١٥]

ومبين من بان يَبين اللازمة ومن أبان يُبين المتعدية فيكون واضحا في نفسه موضحا لغيره .

٣ـ قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ النحل : [٨٩]

الجموعة الرابعة : الآيات الدالة على ذم من لايفهم الكتاب مما يدل على أن معانيه مفهومة ومنها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ البقرة : [٧٨] أي لايعلمون إلا التلاوة واللفظ .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ البقرة : [١٧١]

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ محمد [١٦] .

٤ ـ قوله : ﴿ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ النساء : [٧٨]

وغير ذلك من الوجوه الدالة على فهم المعنى حتى أوصلها شيخ الإسلام إلى مائة دليل ثم قال : (وما لم يذكركثير جدا)[1]

القسم الثاني : أدلة جهلنا بالصفات من وجه آخر :

أما الدليل على الجهل بالوجه الآخر وهو الكيفية فمنها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ ﴾ آل عمران : [٧] فذكر علما من وجه وجهلا من وجه آخر . وقد أشار إليها شيخ الإسلام في كلامه وستأتي .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ طه : [١١٠]

---

١ ـ نقض التأسيس : (٢ / ١١)

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ الأنعام : [١٠٣]

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ الشورى :[١١]

٥ ـ قوله تعالى :﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ الروم [٢٧]

٦ ـ قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ مريم : [٦٥]

٧ ـ قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ البقرة :[٢٢]

٨ ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ الإخلاص : [٤]

فهذه وغيرها من الأدلة تدل بالمطابقة أو بالملازمة على إحالة إدراكنا لكيفية ذاته وصفاته ﷻ .

* الجمع بين القسمين :

والجمع بين القسمين الأول والثاني بالنحو الذي قرره الشيخ في هذه القاعدة هو الحق وهو مسلك السلف الصالح ومن غلّب أحد القسمين على الآخر كان من إحدى الفرق التي ذكرنا أن القاعدة ترد عليه وخطؤهم في الجمع هو سرّ ضلالهم .

الخلاف في تأويل المتشابه

قوله : ﴿وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ وَجُمْهُورُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلَفِهَا عَلَى أَنَّ الْوَقْفَ عَلَى قَوْلِهِ :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾وَهَذَا هُوَ الْمَأْثُورُ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمْ وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ وَتَفْسِيرٌ تَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ مَنْ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَطَائِفَةٍ : أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ وَقَدْ قَالَ مُجَاهِدٌ : عَرَضْت الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْ تَفْسِيرِهَا»

التوضيح

بعد أن استدل شيخ الإسلام بالآية على الوجه المجهول الذي لا يعلمه إلا الله أراد بيان الخلاف الواقع بين السلف في الوقف في الآية ،و هم فيه على قولين :

القول الأول: قول جمهورالسلف وهو الوقف عند قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ آل عمران : [٧] وهو المأثور عن ابن عباس رضي الله عنه حيث كان يقرأ : (وما يعلم تأويله إلا الله ـ ويقول ـ الراسخون في العلم آمنا به [١]، وقال أيضا : التفسير على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهله ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله من ادعى علمه فهو كاذب)[٢]

---

١ ـ رواه ابن جرير : (٦ / ٢٠٢) والحاكم : (٢ / ٢٨٦) وصححه ووافقه الذهبي وانظر الاتقان للسيوطي : (٢ / ٣)

٢ ـ رواه ابن جرير : (١ / ٧٥) وفي إسناده ضعف مرفوعا وموقوفا . انظر مقدمة تفسير ابن كثير ت : الحويني . لكن معناه صحيح انظر الأجوبة المرضية :ص١٧٥ .

قال الزركشي في البرهان ـ في قول ابن عباس : هذا تقسيم صحيح [١]. وثبت أيضا عن ابن مسعود حيث قرأ : (إن حقيقة تأويله إلا عن الله ، والراسخون في العلم يقولون : آمنا به)[٢] وعن أبي بن كعب أيضا وبه قال جماعة من المفسرين [٣]

القول الثاني : قول جماعة من السلف ـ أيضا ـ وهو الوصل في قوله : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾ قال ابن عباس : (أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله)[٤] وقال مجاهد : (عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية أسأله عن تفسيرها)[٥]

وهذا يدل أن لابن عباس ﷺ قولين في الآية كما سيتضح عند الجمع بين الأقوال .

الجمع بين القولين

قوله : ﴿ وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ التَّحْقِيقِ فَإِنَّ لَفْظَ (التَّأْوِيلِ قَدْ صَارَ بِتَعَدُّدِ الِاصْطِلَاحَاتِ مُسْتَعْمَلًا فِي ثَلَاثَةِ مَعَانٍ : - ﴾

التوضيح

بعد أن بين شيخ الإسلام قولي السلف في الوقف في الآية جمع بين القولين مبينا أنه لا منافاة بينهما أصلا ، ولذلك وجدنا لابن عباس كلا القولين . وتوضيح ذلك كما سيأتي مفصلا : أن من قال إنه يعلم تأويله أراد أنه يعلم معناه وتفسيره .

---

١ ـ الاتقان : (٢ / ٤٨٠)

٢ ـ ورواه أبو داود في المصاحف : ص ٦٩ وانظرابن كثير (١ / ٣٤٧) البغوي : (١ / ٢٧٠)

٣ ـ انظرتفسير البغوي : (١ / ٢٨٠) والقرطبي : (٤ / ١٦) وزاد المسير : (١ / ٣٥٤) والفتاوى : (١٣ / ٦١)

٤ ـ رواه ابن جرير : (٦ / ٢٠٣) وانظر ابن كثير : (١ / ٢٤٧)

٥ ـ رواه بن جرير : (١ / ٩٠) و ابن أبي شيبة : (٦ / ١٥٤) بسند صحيح .

و من قال لايعلم تأويله إلا الله أراد أنه لا يعلم حقيقته إلا الله ، كما في مثال الجنة السابق فالمنفي العلم بالحقائق لا العلم بالمعاني .

وذلك لأن للفظ التأويل معان ثلاثة يستعمل فيها ، وبيانها كمايلي :

المعنى الأول :

قوله : ﴿ أَحَدُهَا – وَهُوَ اصْطِلَاحُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْفِقْهِ وَأُصُولِهِ – أَنَّ (التَّأْوِيلَ هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ ؛ لِدَلِيلٍ يَقْتَرِنُ بِهِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي عَنَاهُ أَكْثَرُ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي تَأْوِيلِ نُصُوصِ الصِّفَاتِ وَتَرْكِ تَأْوِيلِهَا ؛ وَهَلْ ذَلِكَ مَحْمُودٌ أَوْ مَذْمُومٌ أَوْ حَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ ؟ . . ﴾

التوضيح

المعنى الأول للتأويل : هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به .

وهذا هو المعنى الاصطلاحي عند الفقهاء والأصوليين ، وهو المقصود عند المتأخرين الذين تكلموا في تأويل نصوص الصفات ، وكما سبق فإن الأصل في النصوص الظاهر ولا يصار إلى التأويل إلا بدليل ، وبناء عليه فالتأويل قسمان : صحيح وفاسد .

فأما التأويل الصحيح فيشترط له شروط أربعة هي :

١ ـ أن يكون اللفظ المراد تأويله محتملا للمعنى المؤول لغة أو شرعا[1] أو في عرف التخاطب .

---

١ ـ الصواعق : (١ / ٢٨٩) ، إرشاد الفحول : ص ١٧٧ ، الروضة : ص ١٥٨

٢ ـ ألا يكون في السياق قرينة مانعة من التأويل . ومثال مافيه قرينة مانعة النظر في آية القيامة حيث عدي بإلى وأسند إلى الوجه فامتنع حمله على معنى الانتظار وتعين حمله على الرؤية البصرية[1].

ومرجع هذين الشرطين إلى أمر واحد وهو ألا يكون اللفظ نصًا في غير المعنى المؤول ، لأن التأويل يعرض على الظواهر لا النصوص .

٣ـ وجود دليل أو قرينة معينة لإرادة المتكلم المعنى المؤول من اللفظ[2].

٤ـ أن يسلم دليل التأويل من معارض أقوى منه .

مثال التأويل الصحيح الذي توفرت فيه الشروط :

قوله تعالى : ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ التوبة : [٦٧] وقوله : ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ الجاثية : [٣٤] وغيرها من الآيات التي ورد فيها نسبة النسيان إلى الله ﷻ ،فقد ثبت عن ابن عباس وغيره أن النسيان هو الترك[3]، وقد دلّ الدليل على امتناع النسيان على الله كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ مريم : [٦٤] وقوله : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ طه : [٥٢] فلذلك جاز حمل الآية على ذلك المعنى .

مثال : التأويل الفاسد[4] الذي اختلّت فيه بعض الشروط :

---

١ ـ الصواعق : (١ / ٢٨٩)

٢ ـ الإحكام للآمدي : (٣/ ٥٤)

٣ ـ رواه ابن جرير : (١٢ / ٤٧٦)

٤ ـ انظر : موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة : (٢ / ٥٣٧)

تأويل الاستواء بالاستيلاء . لانتفاء المقتضي فالاستواء لا يجيء لغة بمعنى الاستيلاء فضلا عن سائر الشروط . بل عينت الأدلة معنى الاستواء وهو العلو والارتفاع والفوقية دون ماذكر .

المعنى الثاني للتأويل :

قوله : ﴿(الثَّانِي) : أَنَّ التَّأْوِيلَ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ عَلَى اصْطِلَاحِ الْمُفَسِّرِينَ لِلْقُرْآنِ كَمَا يَقُولُ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَمْثَالُهُ - مِنْ الْمُصَنِّفِينَ فِي التَّفْسِيرِ - وَاخْتَلَفَ عُلَمَاءُ التَّأْوِيلِ وَمُجَاهِدٌ إمَامُ الْمُفَسِّرِينَ ؛ قَالَ الثَّوْرِيُّ : " إذَا جَاءَك التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُك بِهِ " وَعَلَى تَفْسِيرِهِ يَعْتَمِدُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُمَا فَإِذَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ فَالْمُرَادُ بِهِ مَعْرِفَةُ تَفْسِيرِهِ﴾

التوضيح

◆ المعنى الثاني للتأويل :

التفسير أي الإيضاح والبيان ، وهو من المعاني اللغوية وهو الذي عناه المفسرون كابن جرير حيث يقول : (تأويل قوله تعالى .. واختلف علماء التأويل)[1] ويقصد به التفسير ،و عليه يحمل قول ابن عباس ومجاهد أنهم يعلمون تأويل المتشابه ثم ذكرشيخ الإسلام شيئا من المكانة العلمية لتفسير مجاهد ،و منها أنه التفسير الذي اعتمد عليه الأئمة كالشافعي وأحمد والبخاري ، وأنه قال فيه سفيان الثوري[2] : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به).[1]

---

١ ـ انظرمثلا من جامع البيان لابن جرير: (٦ / ٢٢٣) و (٦ / ٢٥١) و (٦ / ٤٣٧)

٢ ـ هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب الثوري الكوفي الإمام المجتهد توفي سنة١٦١ . سير أعلام النبلاء : (٧ / ٢٢٩)



المعنى الثالث للتأويل

قوله : ﴿ الثَّالِثُ مِنْ مَعَانِي التَّأْوِيلِ : هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يُؤَوَّلُ إِلَيْهَا الْكَلَامُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) . فَتَأْوِيلُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَخْبَارِ الْمَعَادِ هُوَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِيهِ مِمَّا يَكُونُ : مِنْ الْقِيَامَةِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ يُوسُفَ لَمَّا سَجَدَ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ قَالَ : (يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ) فَجَعَلَ عَيْنَ مَا وُجِدَ فِي الْخَارِجِ هُوَ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا ﴾[1]

التوضيح

المعنى الثالث للتأويل : الحقيقة التي يؤول إليها الكلام ،و هذا من معانيه اللغوية ومنه قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ الأعراف : [٥٣] فتأويل الأخبار هو وجودها في الخارج ، وتحققها على وفق ماأخبربه ، ومنه قوله تعالى في قصة يوسف : ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ يوسف : [١٠٠] فجعل تأويل الرؤيا هو تحققها في الخارج[2] .

---

١ ـ رواه ابن جرير : (١ / ٣١)

٢ ـ الفتاوى : (١٧ / ٣٦٥)

إيضاح للمعنيين الثاني والثالث

قوله : ﴿الثَّانِي : هُوَ تَفْسِيرُ الْكَلَامِ وَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يُفَسَّرُ بِهِ اللَّفْظُ حَتَّى يُفْهَمَ مَعْنَاهُ أَوْ تُعْرَفَ عِلَّتُهُ أَوْ دَلِيلُهُ وَهَذَا (التَّأْوِيلُ الثَّالِثُ هُوَ عَيْنُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ وَمِنْهُ قَوْلُ عَائِشَةَ . (كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي) يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ يَعْنِي قَوْلَهُ : (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ) وَقَوْلُ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ : السُّنَّةُ هِيَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَإِنَّ نَفْسَ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ : هُوَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ بِهِ وَنَفْسَ الْمَوْجُودِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ هُوَ تَأْوِيلُ الْخَبَرِ وَالْكَلَامُ خَبَرٌ وَأَمْرٌ﴾

التوضيح

رجع الشيخ إلى الحديث عن المعنى الثاني ثم توسع في المعنى الثالث ، وسبب توسعه في هذين المعنيين أنهما هما اللذان جريا على لسان السلف وهما اللذان جاءت بهما النصوص الشرعية ودلت عليهما اللغة العربية .

فقال : إن التأويل الثاني هو تفسير الكلام وإيضاحه حتى يفهم ومن هذا المعنى قوله ﷺ لابن عباس : ((اللهم فقهه الدين وعلمه التأويل))[1] أي التفسير حتى يفهم المعنى أو تعرف العلة أو الدليل .

أما المعنى الثالث فتفصيله أن الكلام إما خبر وإما أمر أي طلب كما سبق .

---

١ ـ رواه ـ بهذا اللفظ ـ أحمد : (٤ / ١٢٧) وصححه أحمد شاكر ، ورواه الشيخان بألفاظ متقاربة ، انظر البخاري : [١٣٤] ومسلم : [٢٤٧٧] .

❁ أما الأخبار فتأويلها هو نفس وجودها ، مثل المعاد وما يكون فيه من القيامة والحساب والجزاء فتأويلها وقوعها كما سبق في الآية: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ الأعراف : [٥٣] وكذلك تأويل الرؤيا وقوعها كما سبق في قصة يوسف . وقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ يوسف : [١٠٠] .

❁ وأما الأوامر فنفس الفعل المأمور به ومنه قول عائشة رضي الله عنها : « كان النبي ﷺ يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، يتأول القرآن »[1] يعني قوله :﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ النصر : [٣] .

قال الحافظ ابن حجر : (يتأول القرآن أي يفعل ما أمر به فيه)[2] . لذلك قال سفيان : السنة هي تأويل الأمر والنهي . أي الامتثال [3].

والفرق بينهما من جهتين :

١ـ أنه يجب معرفة تأويل الأمر والنهي حتى يفعل بخلاف تأويل الخبر فلا تجب معرفته فإنه يقع وإن جهل .

٢ـ أن تأويل الأمر والنهي لا بد من امتثاله والعمل به بخلاف تأويل الخبر .

---

١ ـ البخاري : (١ / ١٩٩) ومسلم : (١ / ٣٥)

٢ ـ الفتح : (٢ / ٢٩٩)

٣ ـ انظر درء التعارض : (١ / ٢٠٦)

الفقهاء أعلم بتأويل الأمر والنهي

قوله : ﴿ وَلِهَذَا يَقُولُ أَبو عُبَيْدٍ وَغَيْرُهُ : الْفُقَهَاءُ أَعْلَمُ بِالتَّأْوِيلِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ كَمَا ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ اشْتِمَالِ الصَّمَّاءِ ؛ لِأَنَّ الْفُقَهَاءَ يَعْلَمُونَ تَفْسِيرَ مَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ ؛ لِعِلْمِهِمْ بِمَقَاصِدِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم كَمَا يَعْلَمُ أَتْبَاعُ بُقْرَاط وَسِيبَوَيْهِ وَنَحْوِهِمَا مِنْ مَقَاصِدِهِمَا مَا لَا يُعْلَمُ بِمُجَرَّدِ اللُّغَةِ ؛ وَلَكِنَّ تَأْوِيلَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِخِلَافِ تَأْوِيلِ الْخَبَرِ . ﴾

التوضيح

فلما كان تأويل الأمر والنهي - وهو امتثالهما - يحتاج إلى العلم به كان الفقهاء أعلم بتأويل الأحكام من أهل اللغة لأنهم يعلمون مقاصدالشريعة ، ولهم ممارسة لألفاظ الوحيين ، لهذا قال الإمام ابن خزيمة : (ومحال أن يكون أهل الشعر أعلم بلفظ الحديث من علماء الأثر الذين يعنون بهذه الصناعة يروونها ويسمعونها من ألفاظ العلماء ويحفظونها ، وأكثر طلاب العربية إنما يتعلمون من الكتب المشتراة والمستعارة من غير سماع)[1]

مثال ذلك :

« أن النبي ﷺ نهى عن اشتمال الصماء »[2] قال الأصمعي[1] : أي أن يشتمل الرجل بثوبه فيجلل به جسده كله ولا يرفع منه جانبا ولا يخرج منه يده ، فهذا قول أهل اللغة .

---

١ ـ كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب : (١ / ٢٧٧)

٢ ـ البخاري : (١ / ٤٧٦) ومسلم : (٣ / ١٦٦١)

قال أبو عبيد[٢] : (والفقهاء يقولون : هو أن يشتمل بثوب واحد ليس عليه غيره ثم يرفعه من أحد جانبيه على منكبيه فيبدو منه فرجه . والفقهاء أعلم بالتأويل في هذا ، وذاك أصح لغة)[٣] ولكن كلا من التفسيرين معمول به عند الفقهاء ، والله أعلم . وهكذا فإن أهل كل فن أعلم بمقاصده من غيرهم ، فمثلا يعلم بقراط[٤] في الطب ما لايعلمه غيره عن الطب بمجرد معرفته للغة ، وهكذا سيبويه[٥] في النحو فمثلا إذا قيل : محمد قائم ، أو قام محمد ، فالظاهر أن محمدا فاعل في العبارتين لكن عند النحاة محمد مبتدأ في الأولى وفاعل في الثانية[٦] .

ثم ذكر الفرق بين تأويل الأمر والنهي وتأويل الخبر وقد سبق وهو وجوب معرفة الأول والعمل به دون الثاني .

فائدة معرفة المعنى الثالث للتأويل

قوله : ﴿إِذَا عُرِفَ ذَلِكَ : فَتَأْوِيلُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُتَّصِفَةِ بِمَا لَهَا مِنْ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ هُوَ حَقِيقَةٌ لِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُتَّصِفَةِ بِمَا لَهَا مِنْ حَقَائِقِ الصِّفَاتِ وَتَأْوِيلِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ تَعَالَى مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ هُوَ نَفْسُ مَا يَكُونُ مِنْ الْوَعْدِ

---

١ ـ هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أجمع بن ظهر الباهلي لغوي معروف ، انظر البيان والتبيين للجاحظ : (١ / ٩ ، ٢٣ ، ٣٧ ..) والفهرست لابن النديم : ص ٧٨ .

٢ ـ هو أبو عبيد القاسم بن سلام اشتغل بالحديث والفقه والأدب له تصانيف وتوفي سنة ٢٢٤ ، السير : (١٠ / ٤٩٠) ، البداية والنهاية : (١٠ / ٢٩١)

٣ ـ غريب الحديث لأبي عبيد : (٢ / ١١٧)

٤ ـ هو بقراط بن اير اقليس ، انتهت إليه رئاسة الطب وعلّمه غيره . توفي سنة ٣٥٧ ق.م . انظر تاريخ الحكماء : ص ٩٠ .و الفهرست ص : ٣٤٨ . ط. الجديدة .

٥ ـ هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر إمام نحاة البصرة وله أعظم كتاب في النحو وهو :(الكتاب) . توفي سنة ١٨٠ . وفيات الأعيان : (٣ / ٢٦٣)

٦ ـ انظر مذكرات الشيخ البراك حفظه الله تعالى .

وَالْوَعِيدِ وَلِهَذَا مَا يَجِيءُ فِي الْحَدِيثِ نَعْمَلُ بِمُحْكَمِهِ وَنُؤْمِنُ بِمُتَشَابِهِهِ لِأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ فِيهِ أَلْفَاظٌ مُتَشَابِهَةٌ يُشْبِهُ مَعَانِيهَا مَا نَعْلَمُهُ فِي الدُّنْيَا كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ لَحْمًا وَلَبَنًا وَعَسَلًا وَخَمْرًا وَنَحْوَ ذَلِكَ وَهَذَا يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا لَفْظًا وَمَعْنًى ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ مِثْلَهُ وَلَا حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَتِهِ فَأَسْمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتُهُ أَوْلَى وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ أَسْمَاءِ الْعِبَادِ وَصِفَاتِهِمْ تَشَابُهٌ أَنْ لَا يَكُونَ لِأَجْلِهَا الْخَالِقُ مِثْلَ الْمَخْلُوقِ ، وَلَا حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَتِهِ»

التوضيح

إذا عرفت أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام ـ بناء على المعنى الثالث ـ فإن تأويل ما أخبر الله به عن نفسه من الأسماء والصفات هو حقيقة ذاته وصفاته . وكذلك تأويل ما أخبر الله به عن الوعد والوعيد هو حقيقة ما سيكون ويقع في اليوم الآخر . وهذا يطلق عليه متشابه من جهة أن فيه ألفاظا تشبه معانيها ما نعلمه في الدنيا كما سبق في قوله تعالى : ﴿ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ البقرة : [٢٥] فالله تعالى أخبر أن في الجنة لحما ولبنا وعسلا وماء وخمرا ونحو ذلك كما في قوله تعالى :﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٍ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١ ﴾ الواقعة : [٢٠ ـ ٢١] وقوله:﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٍ وَأَنۡهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٌ مِّنۡ خَمۡرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٌ مِّنۡ عَسَلٍ مُّصَفًّىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ محمد [١٥] فجميع هذه الأشياء تشبه مافي الدنيا في اللفظ والمعنى ، وإن كانت تخالفها في الخصائص

والكيفية فإذا كان هذا التشابه لايقتضي مماثلة فالتشابه بين الأسماء والصفات التي بيننا وبين الخالق لا تقتضي مماثلة من باب أولى ، وقد سبق هذا الاستدلال عند الكلام عن المثل الأول .

فذلك يجب العلم بالمحكم والإيمان بالمتشابه الذي هو كيفية هذه الأشياء من غير خوض فيها .

فائدة الإخبار عن الغيب بالأسماء المعلومة

قوله : ﴿ وَالْإِخْبَارُ عَنْ الْغَائِبِ لَا يُفْهَمُ إنْ لَمْ يُعَبَّرْ عَنْهُ بِالْأَسْمَاءِ الْمَعْلُومَةِ مَعَانِيهَا فِي الشَّاهِدِ وَيُعْلَمُ بِهَا مَا فِي الْغَائِبِ بِوَاسِطَةِ الْعِلْمِ بِمَا فِي الشَّاهِدِ ؛ مَعَ الْعِلْمِ بِالْفَارِقِ الْمُمَيِّزِ وَأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْغَيْبِ أَعْظَمُ مِمَّا يُعْلَمُ فِي الشَّاهِدِ وَفِي الْغَائِبِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَنَحْنُ إذَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ بِالْغَيْبِ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ : مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ عَلِمْنَا مَعْنَى ذَلِكَ وَفَهِمْنَا مَا أُرِيدَ مِنَّا فَهْمُهُ بِذَلِكَ الْخِطَابِ وَفَسَّرْنَا ذَلِكَ وَأَمَّا نَفْسُ الْحَقِيقَةِ الْمُخْبَرِ عَنْهَا مِثْلُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ بَعْدُ ؛ وَإِنَّمَا تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَذَلِكَ مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ ﴾

التوضيح

أي أن فائدة الاتفاق بين معاني مافي الغائب ومعاني مافي الشاهد هي فهم الخطاب ثم بعد فهمنا للخطاب يدل الخطاب على الفارق المميز بين المعنيين ، فمثلا أخبرنا الله تعالى عما في الجنة من أنواع النعيم ثم بين الفارق بينهم كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ السجدة : [١٧]

وقال في الحديث القدسي : ﴿ أعددت لعبادي الصالحين في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴾[١].

فهذا المعنى المشترك مفهوم لدينا وأما كيفية ما أخبر به فهو من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله .

فهم السلف لهذه القاعدة

قوله : ﴿ وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ عَنْ قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) قَالُوا : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ ، وَكَذَلِكَ قَالَ رَبِيعَةُ شَيْخُ مَالِكٍ قَبْلَهُ : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَمِنْ اللَّهِ الْبَيَانُ وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْإِيمَانُ فَبَيَّنَ أَنَّ الِاسْتِوَاءَ مَعْلُومٌ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ مَجْهُولَةٌ ، وَمِثْلُ هَذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي كَلَامِ السَّلَفِ ، وَالْأَئِمَّةُ يَنْفُونَ عِلْمَ الْعِبَادِ بِكَيْفِيَّةِ صِفَاتِ اللَّهِ وَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ اللَّهُ إلَّا اللَّهُ فَلَا يَعْلَمُ مَا هُوَ إلَّا هُوَ ، ﴾

التوضيح

ومن أصرح مايدل على تأصل هذه القاعدة عند السلف قول الإمام مالك لما سئل عن الاستواء : (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة) ومثله قول شيخه ربيعة قبله : (الاستواء معلوم والكيف مجهول ومن الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا الإيمان)[٢]

---

١ ـ سبق تخريجه : البخاري : (٦ / ٢٣٠) ومسلم : [٢٨٢٤] عن أبي هريرة .

٢ ـ سبق تخريجه .

فالوجه الذي نعلمه هو المعنى ، والوجه الذي نجهله هو الكيف ، وعلى هذا مضى عامة السلف ، وأقوالهم في العلم بالمعنى ونفي الكيفية كثيرة جدا ، ومنها قول الأوزاعي[1] و الثوري وابن عيينة[2] والليث[3] وأحمد وغيرهم : (أمرّوها كما جاءت بلا كيف)[4] فقولهم بلا كيف دليل على فهمهم لمعنى الصفة وإلا لما كان لنفيهم للكيفية معنى فإنما يحتاج إلى نفي العلم بالكيفية إذا أثبتت الصفات إذ نفي الكيفية عما ليس بثابت لغو [5].

فثبت بذلك علمهم بمعاني الصفات وتفويضهم لكيفياتها .

هل لأسمائه ﷻ عدد محصور ؟

قوله : ﴿ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ : { لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْك أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْت عَلَى نَفْسِك } وَهَذَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : { اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَك سَمَّيْت بِهِ نَفْسَك أَوْ أَنْزَلْته فِي كِتَابِك أَوْ عَلَّمْته أَحَدًا مِنْ خَلْقِك أَوْ اسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَك } وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الْمُسْنَدِ ، وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ وَقَدْ أَخْبَرَ فِيهِ أَنَّ لِلَّهِ مِنْ الْأَسْمَاءِ مَا اسْتَأْثَرَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ فَمَعَانِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ بِهَا فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ لَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ . ﴾

---

١ ـ هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد إمام الشام في عهد أتباع التابعين . نظير معمر في اليمن والثوري في الكوفة ومالك في المدينة والليث في مصر وحماد في البصرة توفي سنة ١٥٧ . تهذيب السير : رقم [١٠٦٣] .

٢ ـ هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران مولى محمد بن مزاحم من شيوخ الإسلام توفي سنة ١٩٨ . الجرح والتعديل : (١ / ٣٢)

٣ ـ هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث الفهمي الإمام الحافظ توفي سنة ١٧٥ .السير : (٨ / ١٣٦)

٤ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة : (٣ / ٥٢٧) والتمهيد : (٧ / ١٤٨) وذم التأويل لابن قدامة : ص ١٩ .

٥ ـ الفتاوى : (٥ / ٤١)

التوضيح

أراد شيخ الإسلام أن يستدل على علمنا بالمعنى دون الكيفية فذكر هذه الأحاديث ، وهي تدل على أن أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد ، كما هو قول الجمهور وهذه الأحاديث هي :

١ ـ قوله ﷺ: ((أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ))[1] فجعل أسماء الله تعالى على ثلاثة أقسام :

أ ـ قسم استأثر الله به في علم الغيب .

ب ـ وقسم أنزله في كتابه .

ج ـ وقسم علمه أحدا من خلقه .

وهذا الأخير كقوله ﷺ في حديث الشفاعة : ((ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي))[2] فهذا مما علمه أحدا من خلقه .

٢ ـ قوله ﷺ [في سجوده] : ((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ))[3]

---

١ ـ صحيح . أخرجه أحمد : [٣٧١٢] وابن حبان : [٢٣٧٢] والحاكم : (١ / ٥٠٩) وانظر السلسلة الصحيحة : (١ / ٣٨٣) رقم [١٩٩] . من حديث ابن مسعود وتمامه : ﴿ مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ـ ثم ذكره ـ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا . قَالَ فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَتَعَلَّمُهَا فَقَالَ بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا ﴾ .

٢ ـ صحيح البخاري : فتح [٤٧١٢] ، مسلم : [١٩٤] من حديث أبي هريرة ﷺ.

٣ ـ أخرجه مسلم : [٤٨٦] وأصحاب السنن من حديث عائشة رضي الله عنها [قَالَتْ فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً مِنْ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ : فذكره .]

وخالف في ذلك ابن حزم[١] : فزعم أن أسماء الله تسعة وتسعون اسما فقط[٢] . واستدل بما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))[٣]

والجواب عن الحديث :

أن الحديث كله جملة واحدة المقصود منه أن من أحصى هذا العدد وحفظه دخل الجنة ،و هذا مثل قولك : عندي مائة درهم أعددتها للزكاة . فهذا لا يمنع أن يكون عندك أكثر .[٤]

❖ فائدتان :

الأولى : أنه لم يصح الحديث في تعيين الأسماء الحسنى وحصرها وإنما رواه الترمذي وابن ماجه[٥] وهو ضعيف جدا باتفاق أهل الحديث كما قال الحافظ وشيخ الإسلام[٦] وهو الذي يعلق الآن في جدران الدور وصدرو المجالس فينبغي التنبه .

الثانية : معنى الإحصاء الحفظ لفظا والفهم معنى ، وتمامه الدعاء بها والتعبد بمقتضاها فيتعبد باسم العليم والسميع والبصير بدوام مراقبته في السر والعلن كما قال ﷺ في الإحسان : ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[٧] . وبالرحيم والغفور برجائه واستغفاره كما قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ

---

١ ـ هو أبو محمد علي بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح الفارسي الأندلسي القرطبي حافظ وفقيه أصولي مجتهد ولد سنة ٣٨٣ ، وتوفي سنة ٤٥٦ . انظر السير : (١٨ / ١٩٣) ، تذكرة الحفاظ : (٣ / ١١٤٧) .

٢ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل : (١ / ٤٢١) فما بعدها .

٣ ـ رواه البخاري : فتح [٢٧٣٦] ، ومسلم : [٢٦٧٧] .

٤ ـ وانظر القواعد المثلى للشيخ ابن عثيمين رحمه الله .

٥ ـ الترمذي في الدعوات : [٣٥٠٧] وابن ماجه في الدعاء [٣٨٦١]

٦ ـ الفتح : (١١ / ٢١٦) والفتاوى : (٨ / ٦٠ و ٢٢ / ٢٨٢) ط. جديدة .

٧ ـ حديث جبريل أخرجه مسلم : (١ / ١٤٥) عن عمر والبخاري : [٤٤٩٩] عن أبي هريرة

سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ ثم قال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ الزمر : [٩] . فتمام العلم إنما هو العمل بمقتضى المعلوم ، قال الإمام البربهاري [١] : (واعلم رحمك الله أن العلم ليس بكثرة الرواية والكتب إنما العالم من اتبع العلم والسنن)[٢] والله الموفق .[٣]

وخلاصة هذه الفقرة : أن هناك أسماء لا يعلمها إلا الله وكل ما أعلمنا به فإنه معلوم المعنى لدينا وإن كان مجهول الكيفية والكنه .

هل أسماء الله ﷻ مترادفة أم متباينة ؟

التوضيح

قوله : ﴿ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ غَفُورٌ رَحِيمٌ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ . فَنَحْنُ نَفْهَمُ مَعْنَى ذَلِكَ وَنُمَيِّزُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَبَيْنَ الرَّحْمَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ ، وَنَعْلَمُ أَنَّ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا اتَّفَقَتْ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ذَاتِ اللَّهِ مَعَ تَنَوُّعِ مَعَانِيهَا فَهِيَ مُتَّفِقَةٌ مُتَوَاطِئَةٌ مِنْ حَيْثُ الذَّاتُ مُتَبَايِنَةٌ مِنْ جِهَةِ الصِّفَاتِ وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مِثْلُ مُحَمَّدٍ وَأَحْمَدَ وَالْمَاحِي وَالْحَاشِرِ وَالْعَاقِبِ . وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ مِثْلُ الْقُرْآنِ وَالْفُرْقَانِ وَالْهُدَى وَالنُّورِ وَالتَّنْزِيلِ وَالشِّفَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ تَنَازَعَ النَّاسُ

---

١ ـ هو أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري إمام أهل السنة في عصره وأثنى عليه عامة العلماء توفي سنة ٣٢٩ . طبقات الحنابلة : (٢ / ١٨) ، السير : (١٥ / ٩٠)

٢ ـ شرح السنة : ص ١٠٢ . بتحقيق : الردادي .

٣ ـ وانظر في معنى الإحصاء فتح الباري كتاب الدعوات : (١١ / ٢٢٥)

فِيهَا هَلْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَرَادِفَةِ - لِاتِّحَادِ الذَّاتِ - أَوْ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَبَايِنَةِ لِتَعَدُّدِ الصِّفَاتِ ؟ كَمَا إِذَا قِيلَ : السَّيْفُ وَالصَّارِمُ وَالْمُهَنَّدُ وَقُصِدَ بِالصَّارِمِ مَعْنَى الصَّرْمِ وَفِي الْمُهَنَّدِ النِّسْبَةُ إِلَى الْهِنْدِ ؛ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهَا مُتَرَادِفَةٌ فِي الذَّاتِ مُتَبَايِنَةٌ فِي الصِّفَاتِ

التوضيح

هنا متابعة للاستدلال على أننا نعلم معاني هذه الأسماء وذلك أننا نميز بين كونه سميعا بصيرا قديرا عليما ونعلم أن هذه الأسماء تتنوع معانيها مع دلالتها على ذات الله تعالى .

◆ فإذا قيل : هل أسماء الله مترادفة أو متباينة ؟

المذهب الأول :مذهب أهل السنة والجماعة التفصيل في ذلك ؛ فيقولون : هي مترادفة ـ أو متفقة أو متواطئة ـ من جهة دلالتها على الذات ، ومتباينة من جهة دلالتها على الصفات . إذ كل صفة تدل على معنى قام في ذات الموصوف ـ خلافا للمعتزلة الذين ينفون عن الصفة معناها فيقولون مثلا عليم بلا علم سميع بلاسمع ـ فإذا تعددت الصفات والموصوف واحد صارت متحدة المدلول باعتبار الذات متعددة المدول باعتبار المعنى .

المذهب الثاني :مذهب المعتزلة : أنها مترادفة مطلقا فهي لا تتنوع معانيها بناء على نفيهم للصفات التي تتضمنها الأسماء .

التمثيل للمذهب الحق بثلاثة أمثلة :

المثال الأول : أسماء النبي ﷺ :ـ

فالثابت منها في الصحيحين هو : (محمد وأحمد والماحي والحاشر و العاقب)[1] فإنها تدل على موصوف ومسمى واحد وهو النبي ﷺ ، وباعتبار المعاني تتنوع في

---

١ ـ البخاري : [٣٥٣٢] ومسلم : [٢٣٥٤] عن جبير بن مطعم .

الأوصاف فالماحي الذي يمحو الشرك والحاشر يحشر الناس على قدميه والعاقب الذي لانبي بعده .

المثال الثاني : أسماء وأوصاف القرآن :

فمنها الفرقان والهدى والنور والتنزيل والشفاء وغيرها[1] فالفرقان كما في قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ الفرقان : [١] ،و الهدى والشفاء كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ فصلت : [٤٤] ، والنور كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ النساء : [١٧٤] والتنزيل كما في قوله ﷻ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وغير ذلك كتسميته روحا كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الشورى : [٥٢] وتذكرة كقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ الحاقة : [٤٨] والمجيد كقوله : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ ﴿٢١﴾ والبلاغ كقوله : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ إبراهيم :[٥٢]، والأمر كقوله : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ﴾ الطلاق:[٥] ، فكل إطلاق من هذه الإطلاقات له معنى وإن كانت كلها مترادفة لدلالتها على كتاب واحد هو القرآن .

المثال الثالث : الأسماء المترادفة المتنازع فيها في اللغة .

ومثل ذلك الأسماء التي تنازع الناس فيها أهي مترادفة أم متباينة كالسيف والصارم والمهند .والتحقيق أنها مترادفة في الذات متباينة في الصفات ؛ فالصارم بمعنى الصرم والمهند نسبة إلى الهند ، وهكذا .

---

١ ـ انظر الاتقان : (١ / ٦٧)

معنى الإحكام والتشابه

قوله : ﴿ وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ اللَّهَ وَصَفَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ وَبِأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ جَعَلَ مِنْهُ مَا هُوَ مُحْكَمٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَعُمُّهُ ؛ وَالْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَخُصُّ بَعْضَهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ) فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَحْكَمَ آيَاتِهِ كُلَّهَا ، وَقَالَ تَعَالَى : (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ) فَأَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّهُ مُتَشَابِهٌ ﴾

التوضيح

أي ومما يوضح اختلاف الأوصاف للشيء الواحد أن الله تعالى وصف القرآن بأنه محكم كله كما في قوله تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ﴾ هود : [١-٢] ووصفه بأنه متشابه كله كما في قوله : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ الزمر : [٢٣] وأخبر بأن منه ماهو محكم ومنه ما هو متشابه كما سبق في آية آل عمران :﴿ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ ﴾ آل عمران : [٧]

كيفية الجمع بين الوصفين

أولا : معنى الإحكام :

قوله : ﴿ وَالْحُكْمُ هُوَ الْفَصْلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ فَالْحَاكِمُ يَفْصِلُ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ ، وَالْحُكْمُ فَصْلٌ بَيْنَ الْمُتَشَابِهَاتِ عِلْمًا وَعَمَلًا إِذَا مَيَّزَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ فِعْلَ النَّافِعِ وَتَرْكَ الضَّارِّ فَيُقَالُ :

حكمت السفيه وأحكمته إذا أخذت على يديه وحكمت الدابة وأحكمتها إذا جعلت لها حكمة وهو ما أحاط بالحنك من اللجام وإحكام الشيء إتقانه فإحكام الكلام إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره وتمييز الرشد من الغي في أوامره ، والقرآن كله محكم بمعنى الإتقان فقد سماه الله حكيما بقوله : الٓرۚ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ ﴾ يونس : [١] فالحكيم بمعنى الحاكم ؛ كما جعله يقص بقوله : إِنَّ ﴿ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ۝٧٦ النمل : [٧٦]، وجعله مفتيا في قوله : وَيَسْتَفْتُونَكَ ﴿ فِى ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ﴾ ٱلنِّسَآءِ النساء : [١٢٧] أيْ ما يُتْلى عَلَيْكمْ يُفْتِيكمْ فِيهِنَّ وَجَعَلَهُ هَادِيًا وَمُبَشِّرًا فِي قَوْلِهِ : إِنَّ ﴿ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ ﴾ الإسراء : [٩]

التوضيح

يتبين الجمع بتعريف كل من الإحكام والتشابه .

أولا الإحكام : ـ مأخوذ من الحكم وأصله معنيان :

١ ـ المنع ومنه الفصل بين الشيئين ، والحكمة فصل بين المشتبهات علما وعملا ، وتقول : حكمت السفيه وأحكمته ، إذا أخذت على يديه ، لأن فيه المنع من السفه ، وحكمت الدابة جعلت لها الحكمة وهي ما يحيط بالحنك من اللجام .

٢ ـ إحكام الشيء بمعنى إتقانه[1] .

والمراد هنا : إحكام الكلام أي إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره والغي من الرشد في أوامره . فبهذين الاعتبارين القرآن كله محكم[2]. لذلك سماه الله حكيما وجعله يقص الحق وجعله مفتيا وهاديا ومبشرا.ومن هذا يؤخذ جواز نسبة الأفعال للقرآن فيقال أمر القرآن وقصّ وهدى بمعنى كونه متضمنا للأمر والقصص وغير ذلك ، وأدلة ذلك ما ذكره شيخ الإسلام سابقا.

وهذا ما يسمى بالإحكام العام .

ثانيا : معنى التشابه .

قوله : ﴿وَأَمَّا التَّشَابُهُ الَّذِي يَعُمُّهُ فَهُوَ ضِدُّ الِاخْتِلَافِ الْمَنْفِيِّ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ : (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) وَهُوَ الِاخْتِلَافُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ : (إنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ) (يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) . فَالتَّشَابُهُ هُنَا : هُوَ تَمَاثُلُ الْكَلَامِ وَتَنَاسُبُهُ : بِحَيْثُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ؛ فَإِذَا أَمَرَ بِأَمْرِ لَمْ يَأْمُرْ بِنَقِيضِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ؛ بَلْ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ بِنَظِيرِهِ أَوْ بِمَلْزُومَاتِهِ ؛ وَإِذَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بَلْ يَنْهَى عَنْهُ أَوْ عَنْ نَظِيرِهِ أَوْ عَنْ مَلْزُومَاتِهِ إذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نَسْخٌ وَكَذَلِكَ إذَا أَخْبَرَ بِثُبُوتِ شَيْءٍ لَمْ يُخْبِرْ بِنَقِيضِ ذَلِكَ بَلْ يُخْبِرُ بِثُبُوتِهِ أَوْ بِثُبُوتِ مَلْزُومَاتِهِ وَإِذَا أَخْبَرَ بِنَفْيِ شَيْءٍ لَمْ يُثْبِتْهُ بَلْ يَنْفِيهِ أَوْ يَنْفِي لَوَازِمَهُ بِخِلَافِ الْقَوْلِ الْمُخْتَلِفِ الَّذِي يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَيُثْبِتُ الشَّيْءَ تَارَةً وَيَنْفِيهِ أُخْرَى أَوْ يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ فَيَمْدَحُ أَحَدَهُمَا وَيَذُمُّ الْآخَرَ

---

١ ـ لسان العرب : (١٢ / ١٤٠) مفردات القرآن : ص ٢٤٨ . الصحاح : (٦ / ٢٢٣٦)

٢ ـ الإتقان : (٢ / ٢) . فتح القدير : (١ / ٣١٧)

فَالْأَقْوَالُ الْمُخْتَلِفَةُ هُنَا : هِيَ الْمُتَضَادَّةُ . وَالْمُتَشَابِهَةُ : هِيَ الْمُوَافِقَةُ وَهَذَا التَّشَابُهُ يَكُونُ فِي الْمَعَانِي وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الْأَلْفَاظُ فَإِذَا كَانَتْ الْمَعَانِي يُوَافِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيُعَضِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيُنَاسِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَشْهَدُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ وَيَقْتَضِي بَعْضُهَا بَعْضًا : كَانَ الْكَلَامُ مُتَشَابِهًا ؛ بِخِلَافِ الْكَلَامِ الْمُتَنَاقِضِ الَّذِي يُضَادُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»

التوضيح

ثانيا : التشابه : هو تناسب الكلام وتماثله ،و المقصود بكون القرآن متشابها أي يتناسب بعضه مع بعض ويصدّق بعضه بعضا وهو ضد الاختلاف الذي نفاه الله تعالى بقوله : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء : [٨٢] فالمنفي مجرد الاختلاف والتضارب والكثير من ذلك من باب أولى انتفاؤه ، وفي قوله ﷻ : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ ﴿٨﴾ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ﴾ الذاريات : [٨ ـ ٩] فإذا أمر بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر ، بل يأمر به أو بنظيره أو بملزوماته ثم قيده ـ الشيخ ـ بشرط ألا يكون نسخا ؛ فالنسخ دال على أن الأمر الأول كان مؤقتا بوقت ثم جاء الأمر الثاني بشيء مثله أو أحس منه كما قال تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ البقرة : [١٠٦] .

أمثلة موضحة :

فمثلا الصلاة إما أن يأمر بها ثم يؤكدها ويبين هيئاتها أو بنظيرها كالصيام والزكاة أو بما تستلزمه الصلاة من قيود وشرائط كالطهارة والاستقبال ، وهكذا إذا

نهى عن شيء كالشرك فإنه لا يأمر به بعد ذلك بل ينـهى عنـه أو عـن نظـيره كنهيـه عن ضرب الأمثال لله تعالى أو عن لوازمه المفضية إليه كـالغلو والذرائـع والوسـائل الشركية هذا في الإنشاء . أما الخبر فإذا أخبر عن خبر ما فإنه لا ينفي ذلـك الخـبر في موضع آخر بل يزيده إيضاحا وتفاصيل كقصص الأنبياء وأخبار بني إسرائيل واليـوم الآخر وهكذا مما يدل على تصديق بعضه لبعض وتناسب آياته لذلك قال تعـالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ الزمـر : [٢٣] وقولـه مثـاني لتثنية القصص وتكريره للأحكام والمواعظ ولأنـه يثنى في التـلاوة فـلا يمـل سـامعه ولايسأم قارئه [١].

أنواع التشابه والإحكام وعلاقاتهما

قوله : ﴿ فَهَذَا التَّشَابُهُ الْعَامُّ : لَا يُنَافِي الْإِحْكَامَ الْعَامَّ بَلْ هُوَ مُصَدِّقٌ لَهُ فَإِنَّ الْكَلَامَ الْمُحْكَمَ الْمُتْقَنَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا بِخِلَافِ الْإِحْكَامِ الْخَاصِّ ؛ فَإِنَّهُ ضِدُّ التَّشَابُهِ الْخَاصِّ ﴾

التوضيح

من خلال ما سبق تبين لنا أن الإحكام نوعان والتشابه نوعان :

إحكام عام بمعنى الإتقان ، وإحكام خاص أو نسبي وهو الذي سبق في آية آل عمران . وتشابه عـام بمعنـى التناسـب والتمـاثل في الصحـة والفصاحـة ، و تشـابه خاص أو نسبي وهو الذي سبق في آية آل عمران .

١ ـ التحفة المهدية : ص ٢٤٥ .

والإحكام العام لا ينافي التشابه العـام ، فإنـه كلمـا كـان الكـلام متقنـا كـان مصدقا بعضه لبعض ومتناسبا بعضه و بعض ، فلذلك وصف القرآن بأنه محكم كلـه ومتشابه كله إذ المعنيان متوافقان بل ومتلازمان .[1]

وأما الإحكام الخاص فإنه ضد التشابه الخاص لذلك ذكر الله تعالى أن بعـض القرآن متشابه وبعضه محكم ، وقد وقع الخـلاف في معنـى كـل مـن المحكـم الخـاص والمتشابه الخاص وتفصيل ذلك في الفقرة التالية .

الخلاف في الإحكام والتشابة في آية آل عمران

قوله : ﴿وَالتَّشَابُهُ الْخَاصُّ هُوَ مُشَابَهَةُ الشَّيْءِ لِغَيْرِهِ مِنْ وَجْهٍ مَعَ مُخَالَفَتِهِ لَهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ بِحَيْثُ يَشْتَبِهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُ هُوَ أَوْ هُوَ مِثْلُهُ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَالْإِحْكَامُ هُوَ الْفَصْلُ بَيْنَهُمَا بِحَيْثُ لَا يَشْتَبِهُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ وَهَذَا التَّشَابُهُ إنَّمَا يَكُونُ بِقَدْرِ مُشْتَرَكٍ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ مَعَ وُجُودِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا ثُمَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ لَا يَهْتَدِي لِلْفَصْلِ بَيْنَهُمَا فَيَكُونُ مُشْتَبِهًا عَلَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْتَدِي إلَى ذَلِكَ ؛ فَالتَّشَابُهُ الَّذِي لَا يَتَمَيَّزُ مَعَهُ قَدْ يَكُونُ مِنْ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ الْإِضَافِيَّةِ بِحَيْثُ يَشْتَبِهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ وَمِثْلُ هَذَا يَعْرِفُ مِنْهُ أَهْلُ الْعِلْمِ مَا يُزِيلُ عَنْهُمْ هَذَا الِاشْتِبَاهَ﴾

التوضيح

أولا : المعنى اللغوي : التشابه من الشبه وهو أن يشـبه أحـد الأمريـن الآخـر حتى يلتبسا[2] .

---

١ ـ تفسير ابن جرير : (٢٣ / ١٣٥)

٢ ـ المفردات : ص ٤٤٣ . والصحاح : (٦ / ٢٢٣٦)

وعرفه شيخ الإسلام بأنه : مشابهة الشيء لغيره من وجه مع مخالفته من وجه آخر بحيث يشتبه على بعض الناس أنه هو أو مثله وليس كذلك [1] .

وأما المحكم في اللغة فقد سبق أنه على معنيين :

أ ـ المنع والفصل بين الشيئين . ب ـ الاتقان .

أما معنى المحكم والمتشابه الواردين في آية : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ آل عمران :[٧]

ففيهما أقوال كثيرة وخلاصتها ما يلي :ـ

القول الأول : المحكم ما استقل بنفسه وظهر معناه ، والمتشابه ما احتاج إلى بيان فيدخل فيه المجمل وغيره . وهو قول مجاهد واختيار الإمام أحمد والشافعي [2]

القول الثاني : المحكم هو المعمول به والمتشابه هو المنسوخ . وهو قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم وغيرهما [3].

القول الثالث : المحكم ما فهمه العلماءو المتشابه ما استأثر الله بعلمه كالغيبيات والحروف المقطعة . وهو قول جابر والثوري ورجحه ابن جرير والقرطبي [4].

القول الرابع : المحكم ما أحكمه الله وفصله كالمواريث والقصص وغيرها ، والمتشابه ما اشتبهت الألفاظ فيه [5].

---

١ ـ انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ص ١٠١

٢ ـ انظر تفسير القرطبي : (٤ / ١١) وزاد المسير : (١ / ٣٠٠ ـ ٣٠١) وشرح الكوكب المنير : (٢ / ١٤٢) والفتاوى : (١٧ / ٤٢٢)

٣ ـ انظر تفسير ابن جرير : (٦ / ١٧٤) والبغوي : (١ / ٢٧٩) والفتاوى : (١٧ / ٤١٨) وإرشاد الفحول : ص ٣٢ .

٤ ـ انظر تفسير ابن جرير : (٦ / ١٧٩) والقرطبي : (٤ / ١٠)

٥ ـ زاد المسير : (١ / ٣٠٠ ـ ٣٠١) والمحرر الوجيز : (٣ / ١٧) والمسودة : ص ١٦٢ .

القول الخامس : الإحكام والتشابه أمران نسبيان من حيث المعنى يفهم بحسب تفاوت أفهام الناس[١] وهو اختيار شيخ الإسلام حيث قال هنا : (فَالتَّشَابُهُ الَّذِي لَا يَتَمَيَّزُ مَعَهُ قَدْ يَكُونُ مِنْ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ الْإِضَافِيَّةِ بِحَيْثُ يَشْتَبِهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ). وهو ماقاله الشاطبي [٢] ومن أدلة هذا القول :ـ

ـ قوله ﷺ : ((إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ))[٣] .

ـ ويدل عليه كذلك أجوبة ابن عباس رضي الله عنهما لنافع بن الازرق[٤] وقد سأله عن آيات في مختلف الأبواب[٥] مما يدل على أن التشابه نسبي إضافي ومثله كذلك ما ذكره الإمام الملطي من عشرات الآيات في مختلف الموضوعات ثم قال : (فهذه جملة مختصرة من تفسير المتشابه بينة كافية نافعة لمن عقل وتدبر)[٦]

ومناقشة هذه الأقوال تطول[٧] والذي تجتمع عليه الأدلة والأقوال هو القول الأخير ـ والله أعلم ـ.

---

١ ـ انظر الفرقان بين الحق والباطل ضمن الفتاوى : (١٣ / ١٤٤)

٢ ـ الموافقات : (٣/ ٩٢) انظر موقف المتكلمين : (١/ ٣٨١)

٣ ـ رواه الجماعة ؛ البخاري : (١ / ١٢٦) رقم : [٥٢] ومسلم : [١٥٩٩] وهذا لفظه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

٤ ـ هو نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي البكري الوائلي رأس الأزارقة الخوارج ونسبوا إليه كان صاحب فتنة ، توفي سنة ٦٥ . ميزان الاعتدال : (٤ / ٢٤١) الملل والنحل : (١ / ١١٨)

٥ ـ القصة ذكرها البخاري تعليقا بصيغة الجزم : (٨/ ٥٥٥) مع الفتح . وصنيع الألباني في مختصره يدل على أنه عنده في حكم المرفوعات إذ أرقمه بجنس المرفوعات دون الموقوفات (مختصر البخاري : ٣ / ٢٦١ رقم : [١٩٥٩]

* غير أن الحافظ قال : كأن هذا الرجل هو نافع بن الأزرق ولم يرد له ذكر في رواية البخاري .

٦ ـ التنبيه والرد للملطي : ص : (٧٠ ـ ٨٠)

٧ ـ انظر موقف المتكلمين للغصن : (١ / ٣٧١) ومنهج الاستدلال لعثمان علي (٢ / ٤٧٤) وشرح لمعة الاعتقاد للعثيمين : ص ١٤ .

والخلاصة :

أن الإحكام الخاص ضد التشابه الخاص ، والتشابه الخاص هو مشابهة الشيء لغيره من وجه مع مخالفته له من وجه آخر بحيث يشتبه على بعض الناس . والإحكام هو الفصل بين الشيئين بحيث لا يشتبهان وهما أمران نسبيان .

صور من التشابه الخاص :

قوله : ﴿كَمَا إِذَا اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ مَا وُعِدُوا بِهِ فِي الْآخِرَةِ بِمَا يَشْهَدُونَهُ فِي الدُّنْيَا فَظَنَّ أَنَّهُ مِثْلُهُ فَعَلِمَ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَهُ وَإِنْ كَانَ مُشْبِهًا لَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الشُّبَهُ الَّتِي يَضِلُّ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ وَهِيَ مَا يَشْتَبِهُ فِيهَا الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ حَتَّى تَشْتَبِهَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ ؛ وَمَنْ أُوتِيَ الْعِلْمَ بِالْفَصْلِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا لَمْ يَشْتَبِهْ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ وَالْقِيَاسُ الْفَاسِدُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ الشُّبُهَاتِ لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ لِلشَّيْءِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ بِمَا لَا يُشْبِهُهُ فِيهِ فَمَنْ عَرَفَ الْفَصْلَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ : اهْتَدَى لِلْفَرْقِ الَّذِي يَزُولُ بِهِ الِاشْتِبَاهُ وَالْقِيَاسُ الْفَاسِدُ ؛﴾

التوضيح

ذكر هنا من صور التشابه ثلاث صور :

أحدها : اشتباه ما أخبر الله تعالى به في اليوم الآخر بما هو موجود في الدنيا فيظن بعض الناس أنهما متماثلان فيهتدي أهل العلم إلى التفاوت العظيم بناء على ما دلت عليه النصوص كما سبق عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ثانيها : الشبه التي يلقيها أهـل البـاطل علـى أهـل الحـق هـي مـن قبيـل المتشابه حيث تشتبه على بعض الناس فيظنها حقـا ، ولكـن أهـل العلـم يـردون ذلك فيميزون بين الحق والباطل والمليء والعاطل كما قـال ﷺ : ((يحمـل هـذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحـال المبطلـين وتـأويل الجاهلين))[1]

ثالثها : القياس الفاسد من المتشابه كذلك ، فإنه كما قال شيخ الإسلام تشـبيه للشيء في بعض الأمور بما لا يشبهه فيه ، كما سبق في قيـاس المتكلمـين اسـتواء الله تعالى باستواء خلقه فكل ذلك من المتشابه .

عامة الضلال من جهة المتشابه

قولـه : ﴿ وَمَا مِنْ شَيْئَيْنِ إلَّا وَيَجْتَمِعَانِ فِي شَيْءٍ وَيَفْتَرِقَانِ فِي شَيْءٍ فَبَيْنَـهُمَا اشْتِبَاهٌ مِنْ وَجْهٍ وَافْتِرَاقٌ مِنْ وَجْهٍ فَلِهَذَا كَانَ ضَلَالُ بَنِي آدَمَ مِنْ قِبَلِ التَّشَابُهِ وَالْقِيَاسِ الْفَاسِدِ لَا يَنْضَبِطُ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : أَكْثَرُ مَا يُخْطِئُ النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّأْوِيلِ وَالْقِيَاسِ ؛ فَالتَّأْوِيلُ : فِي الْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ ، وَالْقِيَاسُ : فِي الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ وَالتَّأْوِيلُ الْخَطَأُ إنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُتَشَابِهَةِ ، وَالْقِيَاسُ الْخَطَأُ إنَّمَا يَكُونُ فِي الْمَعَانِي الْمُتَشَابِهَةِ وَقَدْ وَقَعَ بَنُو آدَمَ فِي عَامَّةِ مَا يَتَنَاوَلُهُ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ ﴾

---

١ ـ أخرجه ابن حبان في الثقات : (٤ / ١٠) وابن عبد البر في التمهيد : (١ / ٥٩) والبيهقي في السنن الكـبرى : (١٠ / ٢٠٩) وابن عدي في الكامل : (١ / ١٤٦) بأسانيد لا تخلـو مـن مقـال لكنـها خفيفـة الضعـف فيحسـن الحديث بمجموعها . انظر شرف أصحاب الحديث : ص ٢٩. وانظر تحقيق الباعث الحثيث : (١/ ٢٨٣) لعلي بـن حسن الأثري .

التوضيح

أي ما من شيئين إلا وبينهما مادة اجتماع و مادة افتراق ، وهـذا عـام في كـل شيء ولذلك أدخـل الشـيخ مـن الزائـدة علـى النكـرة بعـد النفـي ممـا يفيـد تـأكيد التنصيـص علـى العمـوم كمـا هـو محـرر في مظانـه[1]. فيشـمل الاشـتباه في الألفـاظ والذوات والصفات والدلائل العقلية وغيرها .

فمثلا : السواد و البياض يشتركان في اللونية ويختلفان في حقيقة الصفة .

والحديث الصحيح والموضوع يشتركان في كونهما كلاما منسوبا إلى النـبي ﷺ ويختلفان في الصدق والكـذب . والأشـياء المتماثلـة تشـترك لكنـها تختلـف في الحيز والمكان ، وهكذا .وهذا الباب هو سبب ضلال بني آدم كما قال الإمام أحمـد :(أكـثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس)[2] فالتأويل في الأدلة السمعية من نصـوص الكتاب والسنة والقياس في الأدلة العقلية فخطأ التأويل في الألفاظ المتشـابهة وخطـأ القياس في المعاني المتشابهة .

طوائف ضلت من جهة المتشابه

الطائفة الأولى : أهل وحدة الوجود .

قوله : ﴿حَتَّى آلَ الْأَمْرُ إلَى مَنْ يَدَّعِي التَّحْقِيقَ وَالتَّوْحِيدَ وَالْعِرْفَانَ مِنْهُمْ إلَى أَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وُجُودُ الرَّبِّ بِوُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ فَظَنُّوا أَنَّهُ هُوَ فَجَعَلُوا وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ عَيْنَ وُجُودِ الْخَالِقِ مَعَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَبْعَدَ عَنْ مُمَاثَلَةِ شَيْءٍ وَأَنْ يَكُونَ إيَّاهُ أَوْ مُتَّحِدًا بِهِ ؛ أَوْ حَالًّا فِيهِ مِنْ الْخَالِقِ مَعَ الْمَخْلُوقِ فَمَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ وُجُودُ الْخَالِقِ بِوُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا حَتَّى ظَنُّوا

---

١ ـ انظر أوضح المسالك : (٣ / ٢٣) بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط.١٤١٦ هـ.

٢ ـ لم اقف على كلام الإمام أحمد . والله أعلم .

وُجُودَهَا وُجُودَهُ ؛ فَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ ضَلَالًا مِنْ جِهَةِ الِاشْتِبَاهِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْمَوْجُودَاتِ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ فَرَأَوْا الْوُجُودَ وَاحِدًا وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الْوَاحِدِ بِالْعَيْنِ وَالْوَاحِدِ بِالنَّوْعِ»

التوضيح

هذه الطائفة الأولى وهي طائفة ادّعت التحقيق والتوحيد والمعرفة بالله تعالى وهم أهل الإلحاد القائلون بوحدة الوجود . وهنا مسائل :

الأولى : معنى وحدة الوجود والاتحاد والحلول .

وحدة الوجود والاتحاد العام بمعنى واحد ، وهو كون الشيئين شيئا واحدا أي أن يكون وجود المخلوقات هو عين وجود الله تعالى ، وأشار إليه شيخ الإسلام هنا بقوله : (أو أن يكون إياه أو متحدا به)[1]

وأما الحلول فهو أن يحل أحد الشيئين في الآخر فهو إثبات لوجودين

وأما الاتحاد فهو وجود واحد[2].

المسألة الثانية : أقسام الحلول والاتحاد :

كل من الحلول والاتحاد على قسمين عام وخاص .

فالحلول العام : هو اعتقاد أن الله في كل شيء .وهو اعتقاد الجهمية الأولى القائلين بأن الله في كل مكان ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

والحلول الخاص : هو اعتقاد أن الله حلّ في بعض مخلوقاته مع إثبات خالق ومخلوق . كاعتقاد بعض فرق النصارى أن اللاهوت حلّ في الناسوت ، واعتقاد

---

١ ـ انظر شرح النونية لأحمد عيسى : (١ / ١٣٧)

٢ ـ التعريفات للجرجاني : ص ٩٢ . والحلول أنواع : منه السَّرَياني كحلول ماء الورد في الورد ، والجواري كحلول الماء في الإناء ، والحيزي كحلول الجسم في الحيز ، ووصفي كحلول الألوان في الأجسام . انظر الماتريدية لشيخنا د.شمس الدين الأفغاني ـ رحمه الله ـ : (٢ / ٢٤٧) .

غلاة الرافضة أن الله حلّ في عليّ رضي الله عنه ، واعتقاد طوائف من الصوفية أن الله يحلّ في بعض مشائخهم .

والاتحاد الخاص : هو اعتقاد أن الله اتحد ببعض مخلوقاته ، كاعتقاد بعض طوائف النصارى أن اللاهوت اتحد بالناسوت فصارا شيئا واحدا [1].

والاتحاد العام : هو اعتقاد اتحاد وجود الخالق بالمخلوق ، وقد أشرت إليه في التعريف ، وهو معنى وحدة الوجود . وعليه فالظاهر أن الاتحاد أعم من وحدة الوجود ووحدة الوجود نوع من الاتحاد والله أعلم . وهذا الأخير هو قول أهل الإلحاد المقصودين بهذه الفقرة .

الثالثة : أمثلة للقائلين بوحدة الوجود .

منهم ابن عربي[2] وعقيدته في ذلك مشهورة ومن أقواله : (فالإله المطلق لا يسعه شيء لأنه عين الأشياء ، وعين نفسه والشيء لا يقال فيه يسع نفسه ولا يسعها فافهم)[3] وقال :

العبد ربّ ، والربّ عبد * ياليت شعري من المكلّف ؟!

إن قلت : (عبدٌ) فذاك ربٌّ * أو قلت: (ربّ) أنى يكلّف ؟[4]

وابن سبعين[5] . ومن أقواله الشنيعة : (من سمى نفسه الله قال لك : إن كل شيء وجميع من تنادي أنا)[6] .

---

١ ـ التحفة المهدية : ص ٢٥٢ .

٢ ـ هو أبو بكر محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي ولد سنة ٥٦٠ ، تنقل في البلدان حتى توفي في دمشق سنة ٦٣٨ . وقد اختلف فيه أهل العلم فكفّره طائفة منهم . انظر البداية والنهاية : (١٣ / ١٥١) ميزان الاعتدال : (٣ / ٦٥٩)

٣ ـ فصوص الحكم : ص ٤٤٠ .

٤ ـ الفتوحات المكية : (١ ـ ٢) بولاق . نقلا عن قاعدة جامعة ، بتحقيق د . عبد الله البصيري.

٥ ـ هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الإشبيلي الاتحادي له عظائم كفره لأجلها طائفة من العلماء . توفي سنة : ٦٦٧ .لسان الميزان : (٣ / ٣٩٢) . شذرات الذهب : (٥ / ٣٢٩)

٦ ـ رسائل ابن سبعين : ص ١٨٤ .

وابن الفارض[1] صاحب تائية الإلحاد المشهورة . وفيها مخاطبا إلهه :

كلانا مصلٍّ واحدٌ ساجدٌ إلى حقيقته بالجمع في كل سجدة[2]

المسألة الرابعة :

سبب ضلال هذه الطائفة أمران :

الأول : أن الموجودات تشترك في مسمى الوجود فرأوا الوجود واحدا .

الثاني : أنهم لم يفرقوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع . فالواحد بالعين هو الواحد المعين في الخارج الذي يمنع نفس تصوره من وقوع الشركة فيه كزيد ، وهو غير قابل للتنوع إذ لا أفراد تندرج تحته. والواحد بالنوع هو الكلي الذهني الذي تشترك فيه الأفراد وبالتالي يقبل التنوع فإذا وجد في الخارج كان مختصا بخصائصه الخارجية .

فالاتحادية والحلولية خلطوا بين الواحد بالنوع وهو الموجود والواحد بالشخص وهو آحاد أفراد الواحد بالنوع الخارجية فكأن وجود الخالق ووجود المخلوق عين وجود واحد وليسا فردين من نوع واحد .

مع أنه معلوم بضرورة العقل والفطرة أنه لاشيء أبعد عن مماثلة شيء من الخالق مع المخلوق فضلا عن الحلول فيه ، وفضلا عن الاتحاد به ، فإن القول

---

١ ـ هو أبو حفص عمر بن أبي الحسين الحموي المصري كتبه طافحة بالاتحاد . توفي سنة ٦٣٢ . وانظر مجموع الفتاوى : (٤ / ٧٣) و (١١ / ٢٤٧) .

٢ ـ مجموع الفتاوى : (١١ / ٢٤٧)

بالاتحاد أعظم إلحادا من القول بالحلول لأن القـول بالاتحـاد إثبـات لموجـود واحـد فقط ، والقول بالحلول إثبات لموجودين خالق ومخلوق كما سبق توضيحه[1] .

الطائفة الثانية :

قوله : ﴿وَآخَرُونَ تَوَهَّمُوا أَنَّهُ إذَا قِيلَ : الْمَوْجُودَاتُ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ لَزِمَ التَّشْبِيهُ وَالتَّرْكِيبُ فَقَالُوا : لَفْظُ الْوُجُودِ مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ فَخَالَفُوا مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْعُقَلَاءُ مَعَ اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ مِنْ أَنَّ الْوُجُودَ يَنْقَسِمُ إلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَقْسَامِ الْمَوْجُودَاتِ﴾

التوضيح

وآخـرون مـن الجهميـة وبعـض الفلاسـفة وغـيرهم توهمـوا أنـه إذا قيــل : الموجودات تشـترك في مسـمى الوجـود لـزم التشـبيه والـتركيب ، فقـالوا : إن لفـظ (الوجود) ليس من قبيل المشترك المعنوي وإنما هـو مقـول بالاشـتراك اللفظـي : أي أنه لفظ واحد يدل على عدة معـاني كلفـظ (العـين) يـدل علـى الجاريـة والبـاصرة والذهب وغيرها ، ولفظ (القرء) يدل على الحيض والطهر . فقـالوا : إن الوجـود مثل ذلك خروجا من التشبيه والتركيب .

ـ بطلان دعوى أن (الوجود) مشترك لفظي :

إن هناك فرقا بين الاشتراك المعنوي و الاشتراك اللفظـي هـو أن أفـراد الأول أقسام لجامع واحد هو مدلول اللفظ العام بينما أفـراد الثـاني ليسـت أقسـاما لجـامع واحد يدل عليه اللفظ بل اللفـظ يطلـق علـى هـذا بمعنـى وعلـى ذاك بمعنـى آخـر.

---

١ ـ للتوسع في ذلك : انظر بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنيـة وأهـل الإلحـاد القـائلين بـالحلول والاتحاد لشيخ الإسلام :ص ٤١٠ . ومظاهر الانحرافـات العقديـة عنـد الصوفيـة لإدريـس محمـود : (١ / ٢٣٩) ومابعدها .

فالوجود الممكن والواجب أقسام لنفس الوجود فكان مشتركا معنويا بينما الجارية والباصرة ليست أقساما للعين بل لفظ العين يطلق على هذه وهذه فكان مشتركا لفظيا[1]. وقولهم هذا باطل مخالف لما اتفق عليه العقلاء من أن لفظ (الوجود) متحد لفظا ومعنى ولكنه منقسم إلى وجود قديم ووجود محدث مثل لفظ العلم فإنه منقسم إلى علم ضروري وعلم نظري . وهكذا [2].

الطائفة الثالثة :

قوله : ﴿ وَطَائِفَةٌ ظَنَّتْ أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْمَوْجُودَاتُ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْأَذْهَانِ مَوْجُودٌ مُشْتَرَكٌ فِيهِ وَزَعَمُوا أَنَّ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْأَذْهَانِ كُلِّيَّاتٍ مُطْلَقَةً مِثْلَ وُجُودٍ مُطْلَقٍ وَحَيَوَانٍ مُطْلَقٍ وَجِسْمٍ مُطْلَقٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَخَالَفُوا الْحِسَّ وَالْعَقْلَ وَالشَّرْعَ وَجَعَلُوا مَا فِي الْأَذْهَانِ ثَابِتًا فِي الْأَعْيَانِ وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ نَوْعِ الِاشْتِبَاهِ ﴾

التوضيح

وطائفة من الفلاسفة اعتقدت أنه إذا كانت الموجودات تشترك في كونها موجودة لزم أن يكون في الخارج عن الأذهان موجود مشترك كلي أي مطلق عن التقييد فقالوا بالوجود المطلق والحيوان المطلق والجسم المطلق .

وهذا مخالف للحس إذ لا توجد هذه المسميات في الخارج إلا مقيدة بأفرادها، وهكذا خالفوا العقل حيث جعلوا عين ما في الذهن هو عين مافي الخارج ، وخالفوا الشرع كذلك إذ جاء بأحكام تتعلق بأفراد في الواقع . وهذا كله من أعظم أنواع الاشتباه . وقد سبق هذا في مبحث الروح .

---

١ ـ منهاج السنة : (٢/ ١١٩)

٢ ـ شرح حديث النزول : ص (٨١ ـ ٨٣)

* ملحوظة هامة :

هناك فرق بين المشترك اللفظي والمشترك الكلي :

فالمشترك اللفظي أو الاشتراك اللفظي هو اتحاد اللفظ وتعدد المعنى كالعين والقرء . والمشترك الكلي هو المشترك المعنوي ومعناه : الكلي الذي يشترك فيه أفراد كثيرون كجميع الألفاظ العامة في الذهن . فيقال : (الوجود) مشترك كلي في الذهن ولا يقال مشترك لفظي [1]. فالقول بأن اتفاق الأسماء بين الخالق والمخلوق من قبيل الاشتراك اللفظي هو عين القول المنسوب إلى المعتزلة ، لأنه إثبات لألفاظ مختلفة المعنى ، فإذا قيل إطلاق السمع والبصر والكلام على الخالق من قبيل المشترك اللفظي فمعناه أنها مجرد ألفاظ تختلف عن معاني السمع والبصر والكلام عند المخلوق فلازمه عدم إثبات صفات معلومة المعنى للخالق ومن هنا تولد قول المفوضة فتنبه جيدا .

طريق الهداية الجمع بين المحكم والمتشابه

قوله : ﴿ وَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْأُمُورِ وَإِنْ اشْتَرَكَتْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ وَعَلِمَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْجَمْعِ وَالْفَرْقِ وَالتَّشَابُهِ وَالِاخْتِلَافِ ؛ وَهَؤُلَاءِ لَا يَضِلُّونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنْ الْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُحْكَمِ الْفَارِقِ الَّذِي يُبَيِّنُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْفَصْلِ وَالِافْتِرَاقِ وَهَذَا كَمَا أَنَّ لَفْظَ (إنَّا) وَ (نَحْنُ) وَغَيْرَهُمَا مِنْ صِيَغِ الْجَمْعِ يَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ لَهُ شُرَكَاءُ فِي الْفِعْلِ وَيَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَهُ صِفَاتٌ تَقُومُ كُلُّ صِفَةٍ مَقَامَ وَاحِدٍ وَلَهُ أَعْوَانٌ تَابِعُونَ لَهُ ؛ لَا شُرَكَاءَ لَهُ فَإِذَا تَمَسَّكَ النَّصْرَانِيُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ) وَنَحْوَهُ عَلَى تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ

---

[1] ـ انظر الطبعة الثانية من توضيح المقاصد : ص ٤٣

كَانَ الْمُحْكَمُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا مَعْنًى وَاحِدًا يُزِيلُ مَا هُنَاكَ مِنْ الِاشْتِبَاهِ ؛ وَكَانَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ صِيغَةِ الْجَمْعِ مُبَيِّنًا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ الْعَظَمَةِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَطَاعَةِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ

التوضيح

طريق الهداية معرفة الفرق بين الأمور والجمع بين المحكم والمتشابه ، ورد المتشابه إلى المحكم ، ومثال ذلك لفظ (إنّا) و (نحن) يتكلم به الواحد الذي له شركاء في الفعل ويتكلم به الواحد العظيم الذي له صفات تقوم به وله أعوان تابعون لا شركاء له فإذا تمسك النصراني بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الحجر : [٩] ونحو قوله تعالى :﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ : يوسف [٢ ـ ٣] وقوله : ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾ القصص : [٣] على تعدد الآلهة كان المحكم قوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة : [١٦٣] ونحو قوله : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ المائدة : [٧٣] وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ الكهف : [١١٠] فكان ما ذكره من صيغ الجمع مبينا لعظمته وصفاته وطاعة مخلوقاته له .

المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله

قوله : ﴿ وَأَمَّا حَقِيقَةُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَمَا لَهُ مِنْ الْجُنُودِ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي أَفْعَالِهِ فَلَا يَعْلَمُهُمْ إلَّا هُوَ (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) وَهَذَا مِنْ تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ بِخِلَافِ الْمَلِكِ مِنْ الْبَشَرِ إذَا قَالَ : قَدْ أَمَرْنَا لَك بِعَطَاءِ فَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ هُوَ وَأَعْوَانُهُ مِثْلُ كَاتِبِهِ وَحَاجِبِهِ وَخَادِمِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ أُمِرُوا بِهِ وَقَدْ يَعْلَمُ مَا صَدَرَ عَنْهُ ذَلِكَ الْفِعْلُ مِنْ اعْتِقَادَاتِهِ وَإِرَادَاتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَاَللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا يَعْلَمُ عِبَادُهُ الْحَقَائِقَ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا مِنْ صِفَاتِهِ وَصِفَاتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يَعْلَمُونَ حَقَائِقَ مَا أَرَادَ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلَا حَقَائِقَ مَا صَدَرَتْ عَنْهُ مِنْ الْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ ﴾

التوضيح

سبق أن التشابه والإحكام أمر نسبي وهذا فيما يتعلق بالمعنى ، وأما حقائق ما يخبر الله تعالى به فإنه من المتشابه المطلق الذي لا يعلمه إلا الله وهو مراد الجمهور في قراءة الوقف ، وهذا مضمون هذه القاعدة . لذلك فإن صيغ الجمع التي استخدمها الله تعالى في حقه فهمنا منها أن المراد بها بيان عظمته وصفاته ومخلوقاته ، وأما حقائق صفاته وحقائق جنوده الذي يستعملهم فلا يعلمهما إلا الله سبحانه كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ ﴿١١٠﴾ طه : [١١٠] وقال : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ ﴿٣١﴾ المدثر : [٣١] وهذا بخلاف ملوك البشر إذا قال : (قد أمرنا بكذا) يعلم مراده وأعوانه ويعلم سبب صدور الفعل وإرادته

والله تعالى لا تعلم حقائق ماصدرت عنه المشيئة والقدرة والحكمة وهذا خلاصة قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ آل عمران : [٧] .

التشابه في الألفاظ المتواطئة

قوله : ﴿وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ التَّشَابُهَ يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُتَوَاطِئَةِ كَمَا يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِمُتَوَاطِئَةٍ وَإِنْ زَالَ الِاشْتِبَاهُ بِمَا يُمَيِّزُ أَحَدَ النَّوْعَيْنِ : مِنْ إضَافَةٍ أَوْ تَعْرِيفٍ كَمَا إذَا قِيلَ : فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ فَهُنَاكَ قَدْ خَصَّ هَذَا الْمَاءَ بِالْجَنَّةِ فَظَهَرَ الْفَرْقُ بَيْنَهُ ، وَبَيْنَ مَاءِ الدُّنْيَا لَكِنَّ حَقِيقَةَ مَا امْتَازَ بِهِ ذَلِكَ الْمَاءُ غَيْرُ مَعْلُومٍ لَنَا وَهُوَ مَعَ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ - مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ - مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَكَذَلِكَ مَدْلُولُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهَا الَّتِي هِيَ حَقِيقَةٌ لَا يَعْلَمُهَا إلَّا هُوَ ؛﴾

التوضيح

وبما سبق بيانه من صور الاشتباه وأمثلة لطوائف ضلت في هذا الباب يتبين أن التشابه قد يقع في الألفاظ المتواطئة التي لا يتعدد معناها مثل ألفاظ نعيم الجنة وغيرها . وليس التشابه مقصورا على الألفاظ المجملة أو المشتركة التي يتعدد معناها.

ولكن يزول هذا الاشتباه بين هذه الألفاظ عند الإضافة فإذا قال الله تعالى : ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ محمد : [١٥] اختصت الأنهار والماء بالجنة فكانت حقيقة تلك الأنهار مما لا يعلمها إلا الله ،و هكذا سائر الغيبيات

وكل ماذكره شيخ الإسلام هنا فيه تكرار لما سبق لزيادة التأكيد والإيضاح كما هي طريقة شيخ الإسلام في مصنفاته رحمه الله .

أسباب ذم السلف لتأويلات الجهمية

قوله : ﴿وَلِهَذَا كَانَ الْأَئِمَّةُ كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ يُنْكِرُونَ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ - مِنْ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ - تَأْوِيلَ مَا تَشَابَهَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْقُرْآنِ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ كَمَا قَالَ أَحْمَدُ : فِي كِتَابِهِ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي الرَّدِّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ فِيمَا شَكَّتْ فِيهِ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَتَأَوَّلَتْهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ وَإِنَّمَا ذَمَّهُمْ لِكَوْنِهِمْ تَأَوَّلُوهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ وَذَكَرَ فِي ذَلِكَ مَا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ مَعْنَاهُ وَإِنْ كَانَ لَا يَشْتَبِهُ عَلَى غَيْرِهِمْ وَذَمَّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ تَأَوَّلُوهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ وَلَمْ يَنْفِ مُطْلَقَ لَفْظِ التَّأْوِيلِ كَمَا تَقَدَّمَ : مِنْ أَنَّ لَفْظَ التَّأْوِيلِ يُرَادُ بِهِ التَّفْسِيرُ الْمُبَيِّنُ لِمُرَادِ اللَّهِ بِهِ فَذَلِكَ لَا يُعَابُ بَلْ يُحْمَدُ وَيُرَادُ بِالتَّأْوِيلِ الْحَقِيقَةُ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهَا فَذَاكَ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا هُوَ وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ﴾

التوضيح

بعد بياننا لأنواع التأويل والمتشابه نعلم أن السلف الذين ردوا على الجهمية وهم كثير إنما ردوا عليهم لأنهم تأولوا النصوص على غير تأويلها الصحيح أي أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه . ولم يردوا عليهم لمطلق التأويل ، فإن التأويل قد يكون من باب التفسير والبيان كما سبق ، ويظهر ذلك جليا في كتاب الإمام أحمد (الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكّت فيه من متشابه القرآن وتأويله على غير

تأويله)[1] فأنكر عليهم فساد التأويل لا مطلق التأويل ، ولهذا قال ابن حزم : (وهذه الفرق على اختلاف مشاربها لا تتعلق في تأويلاتها بحجة أصلا إلا بدعوى الإلهام والمجاهرة بالكذب)[2] وممن ردّ على الجهمية وبين أصل خطئهم جماعة من الأئمة منهم :

١. الإمام الدرامي المتوفى سنة ٢٨٠ في كتابه : (الرد على الجهمية) .
٢. الإمام ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠ في كتابه (الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة)
٣. الإمام البخاري المتوفي سنة ٢٥٦ في كتابه : (الرد على الجهمية)
٤. الإمام ابن منده المتوفى سنة ٣٩٥ في كتابه (الرد على الجهمية)
٥. الإمام الملطي المتوفى سنة ٣٧٧ في كتابه : (التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع) .
٦. الإمام ابن خزيمة المتوفى سنة ٣١١ في كتابه : (التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ)
٧. الإمام السجزي المتوفى سنة ٤٤٤ في كتابه : (الرد على من أنكر الحرف والصوت)

وغيرهم كثير [3].

١ ـ وقد شكك بعضهم في نسبة الكتاب للإمام أحمد وقد تصدى لهذه التشكيكات د.علي سامي النشار في مقدمة عقائد السلف : ص (١٣ـ١٥) وخلاصة ما ذكر أن الخلال رواه من طريق ابن الإمام أحمد ونص عليه في كتاب السنة له ، وذكره البيهقي في كتابه جامع النصوص وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية : ص ٧٨ ، وابن تيمية في مواضع وصاحب المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد ولم ينكره أحد من أصحابه .

٢ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل : (٢ / ٢٧٢)

٣ ـ وجميع هذه الكتب مطبوعة ومتداولة ، ومالم يطبع منها كثير . انظر رسالة المصادر العلمية للعقيدة السلفية للدكتور المغراوي .

وكلهم بينوا التأويل الصحيح وأنكروا التأويل الفاسد ، وقد بين شيخ الإسلام نحو هذا في مناظرته في العقيدة الواسطية حيث سئل عن ذكره لذم التحريف بدلا عن التأويل فقال : (لأن من المعاني التي قد تسمى تأويلا ما هو صحيح منقول عن السلف فلم أنف ما تقوم الحجة على صحته فإذا قامت الحجة على صحته وهو منقول عن السلف فليس من التحريف)[1]

فتبين بذلك أن حقيقة ما يفعله المبتدعة هو عين التحريف وإنما سموه تأويلا ليدلسوا على الدهماء ويقبل ظاهره عند الناس .

مذهب أهل التفويض

قوله : ﴿ومن لم يعرف هذا : اضطربت أقواله مثل طائفة يقولون إن التأويل باطل وإنه يجب إجراء اللفظ على ظاهره ويحتجون بقوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله) ويحتجون بهذه الآية على إبطال التأويل وهذا تناقض منهم ؛ لأن هذه الآية تقتضي أن هناك تأويلا لا يعلمه إلا الله وهم ينفون التأويل مطلقا وجهة الغلط أن التأويل الذي استأثر الله بعلمه هو الحقيقة التي لا يعلمها إلا هو . وأما التأويل المذموم والباطل : فهو تأويل أهل التحريف والبدع الذين يتأولونه على غير تأويله ويدعون صرف اللفظ عن مدلوله إلى غير مدلوله بغير دليل يوجب ذلك ويدعون أن في ظاهره من المحذور ما هو نظير المحذور اللازم فيما أثبتوه بالعقل ويصرفونه إلى معان هي نظير المعاني التي نفوها عنه فيكون ما نفوه من جنس

---

١ ـ مجموع الفتاوى : (٣/ ١٦٦)

مَا أَثْبَتُوهُ فَإِنْ كَانَ الثَّابِتُ حَقًّا مُمْكِنًا كَانَ الْمَنْفِيُّ مِثْلَهُ وَإِنْ كَانَ الْمَنْفِيُّ بَاطِلًا مُمْتَنِعًا كَانَ الثَّابِتُ مِثْلَهُ»

التوضيح

بعد أن قدم شيخ الإسلام بتلك المباحث من المحكم والمتشابه والتأويل شرع هنا في المقصود من القاعدة وهو الرد على أهل البدع المخالفين فيها وبالأخص أهل التفويض وأراد بيان تناقضهم . أما إبطال مذهبهم جملة وتفصيلا فهو مبثوث في مباحث هذه القاعدة .

والكلام على هذه الفقرة يقع في مسألتين :

الأولى : مذهب المفوضة .

التفويض لغة : من فوّض الأمر أي ردّه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ غافر : [٤٤] أي أردّه وأصيره . ويقال : بات الناس فوضى أي مختلطين متساوين كل فوضّ أمره إلى الآخر .

ومنه قول الشاعر :

لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم * ولاسراة إذا جهالهم سادوا[1]

ومعناه عند أهل الشريعة : ردّ العلم بالنصوص إلى الله تعالى .

وهذا فيه تفصيل :

– فإذا كان المقصود أن كيفية النصوص غير معلومة فهذا صحيح وهو مذهب السلف كما تقدم تقريره .

---

١ ـ لسان العرب : (٧/ ٢١٠) ، والصحاح : (٣/ ١٠٩٩) .

- وإذا كان المقصود أنه يجهل معاني النصوص مع أنها معلومة عند غيره فهذا إنما يحكي جهله وليس هو مذهبا عقديا بهذا المعنى .

- وإذا كان المقصود أن معاني نصوص الصفات لايعلم معناها أحد غير الله فهذا هو حقيقة مذهب أهل التفويض وهو باطل بل هي معلومة المعنى وإن كانت مجهولة الكيفية .

إذا فحقيقة مذهب المفوضة :

أن نصوص الصفات من المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله وهم في الظاهر طائفتان :

الطائفة الأولى : تقول إن هذا الظاهر غير مراد ولا يعلمه أحد من الخلق .

الطائفة الثانية : تقول إنها تجري على ظاهرها وتأويلها باطل ، ومع ذلك لا يعلم معناها إلا الله[1] .

ومؤدى الطائفتين عدم العلم بمعاني نصوص الصفات .

والتفويض كما سبق متفق مع التأويل في كونه يفضي إلى التعطيل ، ومع ذلك فالمفوضة ينسبون مذهبهم إلى السلف ، ومن هنا اشتهرت عبارتهم : (مذهب السلف التفويض ، ومذهب الخلف التأويل)[2] و (مذهب السلف أسلم ، ومذهب الخلف أحكم) وهذه المقالة باطلة في نفسها . فإن الأسلم هو الأحكم والحكمة تقتضي السلامة .

---

١ ـ درء التعارض : (١ / ١٥)

٢ ـ انظر مثلا مناهل العرفان : (٢ / ١٩٧) والملل والنحل : (١ / ٩٢) وراجع في نقض هذه الدعوى : (مذهب أهل التفويض في نصوص الصفات) لأحمد القاضي . و : (علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين) لرضا نعسان . و رسالة : (تبرئة السلف من تفويض الخلف) لمحمد عثمان .

المسألة الثانية : جهة الغلط عندهم من وجهين :

الأول : أنهم جعلوا نصوص الصفات من قبيل المتشابه دون تفصيل لمعنى التشابه المقصود فيها .

الثاني : عدم معرفتهم لإطلاقات التأويل ، فإنهم قالوا : إنها متشابه ، والمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، والتأويل الذي استأثر الله بعلمه إنما هو الحقيقة والكيفية . والتأويل الباطل إنما هو تأويل أهل التحريف وهو صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل بل بمجرد التوهمات الباطلة التي تمجها العقول الفاضلة ، وهم في تأويلاتهم تلك يفرون من محاذير بزعمهم فيقعون في نظيرها، كما سبق ذلك .

تناقض أهل التفويض

قوله : وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْفُونَ التَّأْوِيلَ مُطْلَقًا وَيَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) قَدْ يَظُنُّونَ أَنَّا خُوطِبْنَا فِي الْقُرْآنِ بِمَا لَا يَفْهَمُهُ أَحَدٌ ؛ أَوْ بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ أَوْ بِمَا لَا يُفْهَمُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهَذَا مَعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ فَهُوَ مُتَنَاقِضٌ لِأَنَّا إذَا لَمْ نَفْهَمْ مِنْهُ شَيْئًا لَمْ يَجُزْ لَنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ وَلَا يُوَافِقُهُ ؛ لِإِمْكَانِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعْنًى صَحِيحٌ وَذَلِكَ الْمَعْنَى الصَّحِيحُ : لَا يُخَالِفُ الظَّاهِرَ الْمَعْلُومَ لَنَا فَإِنَّهُ لَا ظَاهِرَ لَهُ عَلَى قَوْلِهِمْ فَلَا تَكُونُ دَلَالَتُهُ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى دَلَالَةً عَلَى خِلَافِ الظَّاهِرِ فَلَا يَكُونُ تَأْوِيلًا وَلَا يَجُوزُ نَفْيُ دَلَالَتِهِ عَلَى مَعَانٍ لَا نَعْرِفُهَا عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ . فَإِنَّ تِلْكَ الْمَعَانِيَ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا قَدْ لَا نَكُونُ عَارِفِينَ بِهَا وَلِأَنَّا إذَا لَمْ نَفْهَمْ اللَّفْظَ وَمَدْلُولَهُ فَلِأَنْ لَا نَعْرِفَ الْمَعَانِيَ الَّتِي لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهَا اللَّفْظُ أَوْلَى ؛ لِأَنَّ إشْعَارَ اللَّفْظِ بِمَا يُرَادُ بِهِ أَقْوَى مِنْ إشْعَارِهِ بِمَا لَا يُرَادُ بِهِ ؛ فَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ لَا إشْعَارَ لَهُ بِمَعْنًى مِنْ الْمَعَانِي وَلَا

يُرَادُ بِهِ أَقْوَى مِنْ إِشْعَارِهِ بِمَا لَا يُرَادُ بِهِ ؛ فَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ لَا إِشْعَارَ لَهُ بِمَعْنًى مِنْ الْمَعَانِي وَلَا يُفْهَمُ مِنْهُ مَعْنًى أَصْلًا لَمْ يَكُنْ مُشْعِرًا بِمَا أُرِيدَ بِهِ فَلَأَنْ لَا يَكُونَ مُشْعِرًا بِمَا لَمْ يُرَدْ بِهِ أَوْلَى فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : إنَّ هَذَا اللَّفْظَ مُتَأَوَّلٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ مَصْرُوفٌ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَالَ : إنَّ هَذَا التَّأْوِيلَ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ . اللَّهُمَّ إلَّا أَنْ يُرَادَ بِالتَّأْوِيلِ مَا يُخَالِفُ ظَاهِرُهُ الْمُخْتَصُّ بِالْخَلْقِ فَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ أَرَادَ بِالظَّاهِرِ هَذَا لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ لَهُ تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ ظَاهِرَهُ .

التوضيح

ذكر شيخ الإسلام هنا بطلان قول المفوضة (إن في القرآن مالا يفهمه إلا الله أو ما لامعنى له) وقد سبق ذلك في أول القاعدة عند ذكر الأدلة الدالة على فهمنا للمعنى وإنما المقصود هنا بيان شيء من تناقضهم .

وقد سبق في الفقرة السابقة بيان وجه من تناقضهم فأخرته هنا حتى يلحق بنظائره ويظهر تناقضهم من وجوه :

◆ الوجه الأول : في الفقرة السابقة وهو أن الآية أثبتت تأويلا يعلمه الله وهم يقولون التأويل باطل . فيحتجون بالآية التي أثبتت التأويل على بطلان التأويل مطلقا فليس في الآية إبطال للتأويل وإنما غاية ما تدل عليه نفي علم الخلق بالتأويل على قراءة الوقف . والوجوه الأخرى فيها شيء من التداخل فأجتهد في ترتيبها كما يلي :

◆ الوجه الثاني : عند قوله : (لأننا إذا لم نفهم منه شيئا ..)

أي أننا إذا لم نفهم من هذه النصوص أي معنى لم يجز أن نقول : إن لها تأويلا يخالف الظاهر أو يوافقه ، لأنه قد يكون الظاهر هو معناها الصحيح فنفي العلم

بالمعنى مع نفي الظاهر تناقض لأن الجاهل بالمعنى جاهل بإرادة الظاهر أو عدم إرادته .

◆ الوجه الثالث : عند قوله : (فإنه لا ظاهرله على قولهم ..)

أي أن مالا يفهم منه شيء فالمفروض أنه لا ظاهر له أصلا لأنه لا معنى له والظاهر والمؤول إنما هما فرعان عن المعنى ، فإن لم يكن له ظاهر كان المعنى الذي نثبته غير مخالف للظاهر فينبغي ألا يكون للظاهر تأويلا عنده لأنه لا يخالف ظاهرا أثبته .

◆ الوجه الرابع : أننا إذا لم نفهم اللفظ ومدلوله المراد فمن باب أولى ألا نعرف المعاني التي لم يدل عليها اللفظ ، لأن دلالة اللفظ على ما يراد به أولى من دلالته على ما لا يراد به ، فإذا كان اللفظ لا دلالة له على معنى من المعاني ولا يفهم منه معنى أصلا لم يكن مشعرا بما أريد به ، فعدم إشعاره بما لم يرد به أولى ، فلايجوز أن يقال هذا اللفظ متأول أي مصروف عن ظاهره فضلا عن أن يقال إن تأويله لا يعلمه إلا الله. إلا إن أراد ظاهره التمثيل فإنه لابد أن يكون له تأويل يخالف ظاهره ، وإن كنا لا نعتقد أن ظاهر النصوص التمثيل كما سبق في القاعدة الثالثة .

◆ خلاصة هذا الإلزام :

إنه لا يجوز أن يقال إن هذا اللفظ بعينه غير مراد أو لا يعلم تأويله إلا الله لعدم الدليل المعين عليه ولعدم دلالة اللفظ على قوله هذا[1] . والله أعلم .

خلاصة إلزام أهل التفويض

قوله : ﴿لَكِنْ إِذَا قَالَ هَؤُلَاءِ : أَنَّهُ لَيسَ لَهَا تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ أَوْ أَنَّهَا تَجْرِي عَلَى الْمَعَانِي الظَّاهِرَةِ مِنْهَا كَانُوا مُتَنَاقِضِينَ وَإِنْ أَرَادُوا بِالظَّاهِرِ هُنَا مَعْنًى وَهُنَاكَ مَعْنًى : فِي

---

١ ـ انظر الصواعق المرسلة : (٣/ ٩٢١) والحموية ضمن الفتاوى : (٥/ ٣٥) ودرء التعارض : (١/ ١٥)

سِيَاقٍ وَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ كَانَ تَلْبِيسًا وَإِنْ أَرَادُوا بِالظَّاهِرِ مُجَرَّدَ اللَّفْظِ أَيْ تَجْرِي عَلَى مُجَرَّدِ اللَّفْظِ الَّذِي يَظْهَرُ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ لِمَعْنَاهُ كَانَ إِبْطَالُهُمْ لِلتَّأْوِيلِ أَوْ إِثْبَاتُهُ تَنَاقُضًا ؛ لِأَنَّ مَنْ أَثْبَتَ تَأْوِيلًا أَوْ نَفَاهُ فَقَدْ فَهِمَ مَعْنًى مِنْ الْمَعَانِي . وَبِهَذَا التَّقْسِيمِ يَتَبَيَّنُ تَنَاقُضُ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ مِنْ نُفَاةِ الصِّفَاتِ وَمُثْبِتِيهَا فِي هَذَا الْبَابِ.

التوضيح

وهؤلاء المفوضة لا يخلو حالهم من ثلاثة احتمالات :

الأول : إذا قالوا : ليس لها تأويل يخالف الظاهر أو تجري على ظاهرها ، وقعوا في التناقض الواضح . فإن قولهم تجري على ظاهرها يعني أنه مراد ، وقولهم السابق إن لها تأويلا لايعلمه إلا الله يعني أنه غير مراد . وهذا التناقض خاص بالطائفة الثانية من المفوضة[1] الذين يقولون بالإجراء على الظاهر مع الجهل بمعانيها.

الاحتمال الثاني : أن يريدوا بالظاهر في قولهم تجري على ظاهرها معنى هو (مايليق بالله) وفي قولهم بنفي الظاهر معنى (التمثيل بالمخلوقين) كان قولهم هذا تلبيسا لأنهم استخدموا الظاهر مرة بمعنى اللائق بالله وأخرى بمعنى التمثيل دون بيان للمقصود ، وهذا إن كان القائل واحدا ،و هذا ما عليه غالب الأشاعرة فإنهم يقولون في نصوص الصفات السبع تجري على ظاهرها وفي غيرها كالنصوص الدالة على صفة الوجه واليدين يقولون الظاهر غير مراد .

الاحتمال الثالث : أن يريدوا بالظاهر مجرد اللفظ من غير معنى وعندها يكون إبطالهم للتأويل أو إثباته تناقضا لأن إثبات التأويل أو نفيه فرع عن فهم المعنى ، كما سبق والله أعلم .

---

١ ـ الفتاوى : (٥ / ٣٥) . درء التعارض : (٥ / ٣٥).

ومن خلال هذه القاعدة وبيان التأويل وأقسامه يظهر تناقض كثير من الطوائف كنفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة ، ومثبتي بعضها كالأشاعرة والماتريدية في باب الأسماء و الصفات .

خلاصة القاعدة الخامسة

١. نعلم ما أخبرنا الله به من جهة المعنى ونجهله من جهة الكيفية .

٢. لا يعلم حقيقة المتشابه إلا الله ، وإن كان أهل العلم يعلمون معناه .

٣. للتأويل ثلاثة معان : الأول : التفسير والبيان ، والثاني : حقيقة الشيء ، والثالث : صرف اللفظ عن ظاهره لدليل يقترن به .

٤. أهل الشريعة أعلم بتأويل النصوص من أهل اللغة .

٥. فائدة الاتفاق في المعنى العام بين الغائب والشاهد فهم الخطاب .

٦. أسماء الله تعالى ليست محصورة بعدد نعلمه .

٧. أسماء الله تعالى مترادفة في دلالتها على الذات متباينة في دلالتها على الصفات .

٨. الإحكام العام في القرآن بمعنى الاتقان ، والتشابه العام بمعنى تصديق بعضه ببعض ، وهما متلازمان .

٩. الإحكام الخاص ضد التشابه الخاص وهما أمران نسبيان .

١٠. عامة ما وقع من الضلال من جهة المتشابه .

١١. طريق الهداية الجمع بين المحكم والمتشابه .

١٢. مذهب أهل التفويض مذهب باطل مخالف لطريقة السلف ، فهو نفي للصفات وطريقة السلف إثبات المعاني ونفي الكيفيات .

المناقشة ؟

١. اشرح مضمون القاعدة الخامسة .
٢. اذكر الأدلة المؤيدة للقاعدة .
٣. على من يرّد بهذه القاعدة ؟
٤. اذكر الخلاف في تأويل المتشابه
٥. اذكرمعاني التأويل . مع التمثيل لكل نوع .
٦. ما شروط التأويل الصحيح ؟
٧. ما فائدة الاتفاق بين معاني الغائب مع معاني الشاهد ؟
٨. هل أسماء الله تعالى محصور بعدد أم لا ؟
٩. هل أسماء الله مترادفة أم متباينة ؟
١٠. عرّف كلا من المحكم العام والخاص و المتشابه العام والخاص .
١١. اذكر أمثلة لطوائف ضلت من جهة المتشابه .
١٢. اذكر مذهب أهل وحدة الوجود وأمثلة لأقوالهم .
١٣. عرف مايلي : الحلول ـ الاتحاد ـ وحدة الوجود . مع بيان أنواعها .
١٤. ما الفرق بين المشترك الكلي والمشترك اللفظي ؟
١٥. ما أسباب ذم السلف لتأويلات الجهمية ؟
١٦. اذكر أسماء بعض كتب السلف في الرد على الجهمية ؟
١٧. اذكر حقيقة مذهب أهل التفويض وجهة الغلط عندهم وشيئا من تناقضهم وخلاصة إلزامهم

القاعدة السادسة

الضابط الذي به يعرف ما يجوز نفيه وإثباته على الله وما لا يجوز

قوله : ﴿ الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ أَنَّهُ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ : لَا بُدَّ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ ضَابِطٍ يُعْرَفُ بِهِ مَا يَجُوزُ عَلَى اللهِ مِمَّا لَا يَجُوزُ فِي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ ﴾

التوضيح :

بعد أن بين شيخ الإسلام التشابه وضلال الطوائف في هذا الباب أراد أن يضع ضابطا يعرف به ما يجوز على الله ﷻ وما لا يجوز عليه . ليتبين بذلك خطأ طريقتين في النفي ـ أي التنزيه ـ للمتكلمين :

الأولى : التنزيه بنفي التشبيه .

الثانية : التنزيه بنفي التجسيم .

وليبين الطريق الصحيح في النفي . ثم يتكلم عن الإثبات فيبين خطأ من اعتمد في الإثبات على نفي التشبيه . ويبين الصواب في كل ذلك :

أولا : الكلام في النفي

قوله : ﴿ إِذْ الِاعْتِمَادُ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ أَوْ مُطْلَقِ الْإِثْبَاتِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ لَيْسَ بِسَدِيدِ وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ شَيْئَيْنِ إِلَّا بَيْنَهُمَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ وَقَدْرٌ مُمَيِّزٌ فَالنَّافِي إِنْ اعْتَمَدَ فِيمَا يَنْفِيهِ عَلَى أَنَّ هَذَا تَشْبِيهٌ قِيلَ لَهُ : إِنْ أَرَدْتَ أَنَّهُ مُمَاثِلٌ لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَهَذَا

بَاطِلٌ ؛ وَإِنْ أَرَدْت أَنَّهُ مُشَابِهٌ لَهُ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ أَوْ مُشَارِكٌ لَهُ فِي الِاسْمِ لَزِمَك هَذَا فِي سَائِرِ مَا تُثْبِتُهُ . وَأَنْتُمْ إنَّمَا أَقَمْتُمْ الدَّلِيلَ عَلَى إبْطَالِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمَاثُلِ الَّذِي فَسَّرْتُمُوهُ بِأَنَّهُ يَجُوزُ عَلَى أَحَدِهِمَا مَا يَجُوزُ عَلَى الْآخَرِ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ وَيَجِبُ لَهُ مَا يَجِبُ لَهُ وَمَعْلُومٌ أَنَّ إثْبَاتَ التَّشْبِيهِ بِهَذَا التَّفْسِيرِ مِمَّا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ يَتَصَوَّرُ مَا يَقُولُ ؛ فَإِنَّهُ يُعْلَمُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ امْتِنَاعُهُ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ هَذَا نَفْيُ التَّشَابُهِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ كَمَا فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْمُتَوَاطِئَةِ وَلَكِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ التَّشْبِيهَ مُفَسَّرًا بِمَعْنًى مِنْ الْمَعَانِي ثُمَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ ذَلِكَ الْمَعْنَى قَالُوا : إنَّهُ مُشَبِّهٌ وَمُنَازِعُهُمْ يَقُولُ : ذَلِكَ الْمَعْنَى لَيْسَ مِنْ التَّشْبِيهِ وَقَدْ يُفَرِّقُ بَيْنَ لَفْظِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ.

التوضيح :

الكلام هنا في النفي أي في طرق تنزيه الله ﷻ . فإن للمتكلمين طرقا في التنزيه منها نفي التشبيه ومنها نفي التجسيم .

الطريق الأول : الاعتماد في التنزيه على نفي التشبيه

ونفي التشبيه ليس بطريق سديد في تنزيه رب العالمين ، لأنه ـ وكما سبق ـ ما من شيئين إلا وبينهما قدر مشترك ـ وهو المعنى العام ، وقدر مميز ـ وهي خصائصه ، فصفات الله تعالى كالحياة والعلم والقدرة بينها وبين صفات المخلوق قدر مشترك وقدر مميز . ولهذه الصفات حالتان ـ كما سبق في الأصل الأول ـ حالة الاشتراك والتجرد عن الإضافة وحالة الإضافة والتمايز وتنحل هذه الحالة إلى حالتين فههنا ثلاث حالات تفصيلا وهي :

ـ حالة الإطلاق وهي المشتركة .

ـ حالة الإضافة إلى الخالق جل وعلا .

ـ حالة الإضافة إلى المخلوق .

فمن نفى الصفات بحجة التشبيه قيل له للتشبيه احتمالات :

الأول : إن أردت أنه مماثل من كل وجه فهو باطل . لأن بين الخالق والمخلوق فروقا تعلم ضرورة ، ويكفي فرقا أن هذا خالق وذاك مخلوق .

الثاني : إن أردت أنه مشابه من وجه دون وجه أو مشارك له في الاسم ، لزمك النفي في سائر ما تثبته لوجود المشاركة ، بل لزمك نفي الوجود لأنه يشترك مع وجود المخلوقات في مسمى الوجود ، وإن قلت بأن وجوده يختص به قلنا : وكذلك ذاته وصفاته تختص به فمجرد الاشتراك من وجه ليس هو التمثيل الذي نفته الأدلة .

قال شيخ الإسلام : (ونفي ذلك القدر المشترك ليس هو نفس التمثيل والتشبيه الذي قام الدليل العقلي والسمعي على نفيه وإنما التشبيه الذي قام الدليل على نفيه ما يستلزم ثبوت شيء من خصائص المخلوقين لله سبحانه وتعالى إذ هو سبحانه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله)[1]

الثالث : وإن أردت به ما فسرتموه بأنه يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر و يمتنع عليه ما يمتنع على الآخر ويجب له ما يجب للآخر ، فإثبات مثل هذا التشبيه لا يقول به عاقل . فهو ممتنع بضرورة العقل ومستلزم للجمع بين النقيضين لأن الله تعالى واجب الوجود والمخلوق ممكن الوجود ، فلو جاز للواجب أن يكون ممكنا أصبح هذا جمعا بين النقيضين، , مثل هذا التشبيه مما لا فائدة منه لأنه غير متحقق عقلا.

---

١ ـ درء التعارض : ٥ / ٣٢٧ .

وإذا ما نفينا هذا التشبيه الأخير لم يلزم منه نفي التشابه من بعض الوجوه كالأسماء والصفات المتواطئة ، ولكن هؤلاء يفسرون التشبيه بمعنى فكل من أثبته قالوا : مشبه ، وإن لم يكن تشبيها في حقيقة الأمر .

الفرق بين التشبيه والتمثيل

أشار شيخ الإسلام إلىأن ثم فرقا بينهما ولكنه لم يبينه ،و الفرق من وجهين :

١ ـ أن التمثيل ورد نفيه بالنص دون التشبيه . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ۝ الشورى : [١١]

٢ ـ أن التمثيل في غالب استعماله مشابهة من جميع الوجود والتشبيه من بعضها[1] .

قال شيخ الإسلام: (وقلت له أيضا ذكرت فى النفى التمثيل ولم أذكر التشبيه لان التمثيل نفاه الله بنص كتابه حيث قال : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقال: ﴿هل تعلم له سميا ﴾وكان أحب الى من لفظ ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله وان كان قد يعنى بنفيه معنى صحيح كما قد يعنى به معنى فاسد) اهـ[2].

فلذلك أصبح لفظ التشبيه مجملا فإنه مع كونه لم يرد نفيه في النصوص فإنه لا يطابق التمثيل واختلفت إطلاقات المتكلمين له وقصدوا به معاني ليست عين ما ذمه الشرع.

شبهتان لمن يزعم أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه

١ ـ انظر مقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها : (١/ ٧٨)

٢ ـ مجموع الفتاوى : (٣/ ١٦٦)

الشبهة الأولى : تعدد القدماء :

قوله : ﴿ وَذَلِك أَنَّ الْمُعْتَزِلَةَ وَنَحْوَهُمْ مِنْ نُفَاةِ الصِّفَاتِ يَقُولُونَ : كُلُّ مَنْ أَثْبَتَ لِلَّهِ صِفَةً قَدِيمَةً فَهُوَ مُشَبِّهٌ مُمَثِّلٌ فَمَنْ قَالَ : إنَّ لِلَّهِ عِلْمًا قَدِيمًا أَوْ قُدْرَةً قَدِيمَةً كَانَ عِنْدَهُمْ مُشَبِّهًا مُمَثِّلًا ، لِأَنَّ الْقَدِيمَ عِنْدَ جُمْهُورِهِمْ هُوَ أَخَصُّ وَصْفِ الْإِلَهِ ، فَمَنْ أَثْبَتَ لَهُ صِفَةً قَدِيمَةً فَقَدْ أَثْبَتَ لِلَّهِ مِثْلًا قَدِيمًا وَيُسَمُّونَهُ مُمثلا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ . وَمُثْبِتَةُ الصِّفَاتِ لَا يُوَافِقُونَهُمْ عَلَى هَذَا بَلْ يَقُولُونَ : أَخَصُّ وَصْفِهِ حقيقة مَا لَا يَتَّصِفُ بِهِ غَيْرُهُ مِثْل كَوْنِهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ إلَهٌ وَاحِدٌ وَنَحْوُ ذَلِك ؛ وَالصِّفَةُ لَا تُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِك .

ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ الصِّفَاتِيَّةِ مَنْ لَا يَقُولُ فِي الصِّفَاتِ إنَّهَا قَدِيمَةٌ بَلْ يَقُولُ : الرَّبُّ بِصِفَاتِهِ قَدِيمٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ قَدِيمٌ وَصِفَتُهُ قَدِيمَةٌ وَلَا يَقُولُ : هُوَ وَصِفَاتُهُ قَدِيمَانِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ وَصِفَاتُهُ قَدِيمَانِ ؛ وَلَكِنْ يَقُولُ : ذَلِك لَا يَقْتَضِي مُشَارَكَةَ الصِّفَةِ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ فَإِنَّ الْقِدَمَ لَيْسَ مِنْ خَصَائِصِ الذَّاتِ الْمُجَرَّدَةِ بَلْ مِنْ خَصَائِصِ الذَّاتِ الْمَوْصُوفَةِ بِصِفَاتِ وَإِلَّا فَالذَّاتُ الْمُجَرَّدَةُ لَا وُجُودَ لَهَا عِنْدَهُمْ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَخْتَصَّ بِالْقِدَمِ وَقَدْ يَقُولُونَ : الذَّاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَالصِّفَاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَلَيْسَتْ الصِّفَاتُ إلَهًا وَلَا رَبًّا كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ مُحْدَثٌ وَصِفَاتُهُ مُحْدَثَةٌ وَلَيْسَتْ صِفَاتُهُ نَبِيًّا فَهَؤُلَاءِ إذَا أَطْلَقُوا عَلَى الصِّفَاتِيَّةِ اسْمَ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ : كَانَ هَذَا بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِمْ الَّذِي يُنَازِعُهُمْ فِيهِ أُولَئِكَ ثُمَّ تَقُولُ لَهُمْ أُولَئِكَ : هَبْ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ

يُسَمَّى فِي اصْطِلَاحِ بَعْضِ النَّاسِ تَشْبِيهًا فَهَذَا الْمَعْنَى لَمْ يَنْفِهِ عَقْلٌ وَلَا سَمْعٌ وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ نَفْيُ مَا نَفَتْهُ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ وَالْقُرْآنُ قَدْ نَفَى مُسَمَّى الْمِثْلِ وَالْكُفْءِ وَالنِّدِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَلَكِنْ يَقُولُونَ الصِّفَةُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لَيْسَتْ مِثْلَ الْمَوْصُوفِ وَلَا كُفْؤَهُ وَلَا نِدَّهُ فَلَا يَدْخُلُ فِي النَّصِّ وَأَمَّا الْعَقْلُ : فَلَمْ يَنْفِ مُسَمَّى التَّشْبِيهِ فِي اصْطِلَاحِ الْمُعْتَزِلَةِ ﴾

التوضيح :

نرتب مضامين الفقرة على النحو التالي:

أولا : أصل الشبهة :

تتركب شبهة المعتزلة من مقدمات كالتالي :

ـ الصفة تتبع الموصوف فإذا كان الله قديما فلا بد و أن تكون صفاته ـ على فرض ثبوتها ـ قديمة ويمتنع أن تكون محدثة . فصار عندنا صفة قديمة وموصوف قديم فإذا افترضنا أن له عددا من الصفات وأنها متغايرة ومغايرة للذات صار عندنا من القدماء بعدد ما له من الصفات زائدا على الذات . ويظهر جليا الارتباط بين شبهة تعدد القدماء وشبهة التركيب السابقة فإن كليهما يلزم منه التنديد المنافي للتوحيد عندهم .

ويمكن صياغة شبهتهم من خلال المقدمات التالية :

الأولى :ـ أخصّ صفات الله القدم[1] .

الثانية : ـ فإذا شاركه غيره فيها فقد شاركه في أخص صفاته وإذا شاركه في أخصّ صفاته لم يعد الإله واحدا بل صار متعددا بعدد المشاركين له في خصائصه وهذا عين التشريك والكفر بوحدانيته وتشبيه له بخلقه .

---

١ ـ انظر المواقف للإيجي : ص٢٨٧ .

قال الشهرستاني[١] : (والذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بأن الله قديم ، والقدم أخص وصف ذاته)[٢] فبناء عليه لا يجوز القول بتعدد الصفات و يتعين القول بوحدة الصفات و أنها عين الذات لأن القول بتعددها قول بتعدد القدماء عندهم ، وهو تشبيه وتشريك وكفر بإجماعهم[٣].

ثانيا : جواب الصفاتية على شبهة المعتزلة :

والمقصود بالصفاتية هنا جميع من أثبت الصفات أو بعضها فيدخل فيهم الأشاعرة والماتريدية والكرامية[٤] ، وقد يطلقها البعض ويقصدون بهم من قابل المعتزلة ويَدخل فيهم أهل السنة [٥].

وقد أجابوا عن المعتزلة بأربعة أجوبة :

- أولا : نسلم أن وصف الصفات بأخص أوصاف الله تشريك ولكن نمنع أن تكون أخص صفاته القدم .بل أخصّ وصف لله تبارك وتعالى هو ما لا يتصف به غيره مثل رب العالمين وأنه بكل شيء عليم وأنه على كل شيء قدير وأنه لا إله إلا هو وأنه المعبود وأنه إليه يرجع الأمر كله وصفات الله تبارك وتعالى لا توصف بذلك فلا يقال إن علم الله هو رب العالمين ولا قدرته تعلم كل شيء.

ثانيا : إن سلمنا أن القدم أخص صفاته ، فلا نسلم أن وصف الصفات بالقدم يلزم منه تعدد القدماء والآلهة . لأمرين :

الأول : ـ وهو لبعض الصفاتية وهم القائلون بأن الله وصفاته قديمان ـ أن تعدد القدماء إنما يُتصور إذا كانت الذات مجردة عن الصفات وافترضنا قيام الصفة

١ ـ هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح . قال السبكي : كان إماما مبرزا مقدما في علم الكلام سمي بالواقف فقد كان أشعريا ثم رجع وتوقف عن الكلام كماسياتي . توفي سنة ٥٤٨ . طبقات الشافعية : (٦ / ١٢٨)

٢ ـ الملل والنحل : (١/ ٣٨)

٣ ـ وانظر تفصيل الشبهة في كتاب المعتزلة وأصولهم الخمسة للمعتق :ص٨٤.

٤ ـ الفتاوى :(٦/ ٥٢٠)

٥ ـ الملل والنحل:(١/ ١١٦)

القديمة بنفسها أمّا والذات المجردة عن الصفات لا وجود لها إلا في الذهن فما ثم قدماء إنما هو قديم واحد . ووصف الصفة بالقدم لقدم الذات التي قامت بها .

الثاني : إذا قيل إن الصفات متصفة بالقدم فلا تكون إلها لأنها قائمة بذات الله كما أننا لو قلنا إن النبي ﷺ محدث وصفاته محدثة فلا تكون صفاته نبيا .

ثالثا : أن نفي وصف القدم عن صفاته لو كان يستلزم تشريكا لنفاه الشارع عن صفاته فإن آي الكتاب مشحونة بالتنزيه . فدل على بطلان الملازمة المدعاة . برهان ذلك أن الشرع لم ينف هذا التشبيه أي تشبيه صفاته لذاته وإنما نفى (المثل) كما في قوله تعالى :﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ الشورى :[١١] والصفة ليست مثلا للموصوف . وكذلك نفى (الكفء) كما في قوله ﷻ :﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ الإخلاص :[٤] والصفة لا تكون مكافئة للموصوف . وكذلك نفى (الند) كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة :[٧٣] والصفة ليست ندا للموصوف . فالصفات لا تدخل فيما نفاه الشارع عن نفسه فإن الصفة لا تكون في لغة العرب مثل الموصوف ولا نده ولا كفأه فإذا لم تدخل في ذلك كان لها من الكمالات ماللموصوف دون أن يقتضي ذلك معنى نفاه الشارع .

رابعا : وكذلك فإن العقل لم ينف هذا المعنى فإن الصفات قائمة بالذات فوصفها بالقدم لا يدل على التمثيل بل قدم الصفات تابع لقدم الذات ، ويستحيل في الخارج وجود ذات مجردة عن أي صفة بل وجود الشيء حين وجوده لايخرج إحدى حالتين إما أن يقوم بنفسه كالذوات أو يقوم بغيره كالصفات .

- استطراد :

وذكر شيخ الإسلام في معرض جواب الصفاتية على المعتزلة مذاهب الصفاتية في مسألة إطلاق وصف القدم على الصفات والذات فذكر أربعة مذاهب:

الأول : من يقول : الرب بصفاته قديم .

الثاني : من يقول : هو قديم وصفته قديمة .

الثالث : من يقول : هو وصفاته قديمان .

الرابع : الذات متصفة بالقدم والصفات متصفة بالقدم .

وذكروا ذلك عند مناقشتهم للمعتزلة.[1]

الشبهة الثانية : التجسيم والتحييز

قوله : ﴿وَكَذَلِكَ أَيْضًا يَقُولُونَ : إنَّ الصِّفَاتِ لَا تَقُومُ إلَّا بِجِسْمِ مُتَحَيِّزٍ وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ فَلَوْ قَامَتْ بِهِ الصِّفَاتُ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُمَاثِلًا لِسَائِرِ الْأَجْسَامِ وَهَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ وَكَذَلِكَ يَقُولُ : هَذَا كَثِيرٌ مِنْ الصِّفَاتِيَّةِ الَّذِينَ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ وَيَنْفُونَ عُلُوَّهُ عَلَى الْعَرْشِ وَقِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ : الصِّفَاتُ قَدْ تَقُومُ بِمَا لَيْسَ بِجِسْمِ وَأَمَّا الْعُلُوُّ عَلَى الْعَالَمِ فَلَا يَصِحُّ إلَّا إذَا كَانَ جِسْمًا فَلَوْ أَثْبَتْنَا عُلُوَّهُ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا وَحِينَئِذٍ فَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ فَيَلْزَمُ التَّشْبِيهُ فَلِهَذَا تَجِدُ هَؤُلَاءِ يُسَمُّونَ مَنْ أَثْبَتَ الْعُلُوَّ وَنَحْوَهُ مُشَبِّهًا وَلَا يُسَمُّونَ مَنْ أَثْبَتَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ وَنَحْوَهُ مُشَبِّهًا كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ الْإِرْشَادِ وَأَمْثَالُهُ وَكَذَلِكَ يُوَافِقُهُمْ عَلَى الْقَوْلِ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى وَأَمْثَالُهُ مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ وَالْعُلُوِّ ؛ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ قد يَجْعَلُونَ

---

[1] ـ منهاج السنة : (٢/ ١٣٠) ودرء التعارض : (٥/ ٤٦)

الْعُلُوَّ صِفَةً خَبَرِيَّةً كَمَا هُوَ أَوَّلُ قَوْلَيْ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى فَيَكُونُ الْكَلَامُ فِيهِ كَالْكَلَامِ فِي الْوَجْهِ وَقَدْ يَقُولُونَ : إِنَّ مَا يُثْبِتُونَهُ لَا يُنَافِي الْجِسْمَ كَمَا يَقُولُونَهُ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ وَالْعَاقِلُ إِذَا تَأَمَّلَ وَجَدَ الْأَمْرَ فِيمَا نَفَوْهُ كَالْأَمْرِ فِيمَا أَثْبَتُوهُ لَا فَرْقَ

التوضيح :

هذه الشبهة الثانية التي يقررون بها أن إثبات الصفات تشبيه ، وهي مركبة من مقدمتين :

الأولى : أن الصفات لا تقوم إلا بجسم متحيّز . والتحيز عندهم هو توضيح للجسمية لأنهما متلازمان .

الثانية : أن الأجسام متماثلة . والنتيجة أن قيام الصفات به يستلزم مماثلته للأجسام وهو التشبيه .

وقد انطلت هذه الشبهة على طوائف من الصفاتية كالأشاعرة والماتريدية الذين ينفون علو الله جل وعلا وينفون قيام الصفات الاختيارية به وهي الصفات التي تتعلق بها المشيئة كالنزول والمجيء والغضب وغيرها . فلذلك فإن هذه الطوائف ترمي كل من أثبت الاستواء والعلو والنزول والمجيء وغيره بالتشبيه كما قاله عامة متأخري الأشاعرة ومنهم صاحب الإرشاد وهو إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني المتوفى سنة ٤٨٧ ، الذي رجع بعد التأويل إلى التفويض كما في رسالته النظامية[1] .

ثم إن ممن أثبت العلو قد يسلم بالمقدمة الثانية وهي أن الأجسام متماثلة لكنه يقول إن العلو صفة خبرية يعني أنها ثبتت بالخبر أي بالشرع فقط مثل صفة الوجه مثلا فلاتستلزم التجسيم عندهم ، وقد سبق أن العلو ثابت بالنقل والعقل

١ ـ انظر البداية والنهاية : (١٢/ ١٣٦) والسير : (١٨ / ٤٦٨) والنظامية :ص٢٣.

والفطرة ، ومن هؤلاء القاضي أبو يعلى وهو محمد بن الحسين البغدادي الحنبلي كان فقيه العراق وفيه ميل لآراء الأشاعرة إلا أنه نصر مذهب أهل السنة في غالب الاعتقاد وله كتاب إبطال التأويلات توفي سنة ٤٥٨[١]

ومنهم ابن الزاغوني[٢] وابن عقيل [٣]. وجميع من يثبت بعض الصفات وينفي بعضا يلزمه فيما أثبته نظير ما يلزمه لغيره فيما نفاه .

الجواب عن الشبهة

قوله : ﴿ وَأَصْلُ كَلَامِ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ عَلَى أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ مُسْتَلْزِمٌ لِلتَّجْسِيمِ وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ . وَالْمُثْبِتُونَ يُجِيبُونَ عَنْ هَذَا تَارَةً بِمَنْعِ الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَى وَتَارَةً بِمَنْعِ الْمُقَدِّمَةِ الثَّانِيَةِ وَتَارَةً بِمَنْعِ كُلٍّ مِنْ الْمُقَدِّمَتَيْنِ وَتَارَةً بِالِاسْتِفْصَالِ﴾

التوضيح :

أصل شبهتهم كما سبق من مقدمتين :

الأولى : أن إثبات الصفات يستلزم التجسيم . لأنها لا تقوم إلا بمتحيز .

الثانية : أن الأجسام متماثلة .

فيكون الجواب عليهم إما بمنع المقدمة الأولى أو بمنع المقدمة الثانية أو بمنعهما معا أو بالاستفصال أو بالإبطال ، وسأرتب الجواب على هذه الشبهة في ستة أوجه كمايلي :

---

١ ـ البداية والنهاية :(١٢/ ٩٤) والسير : (١٨/ ٨٩)

٢ ـ هو علي بن عبيد الله بن نصر بن السري أبو الحسن الزاغوني الحنبلي كان متقنا لعلوم شتى توفي سنة ٥٢٧ . السير : (١٩ / ٦٠٥)

٣ ـ هو أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الحنبلي مقرئ وفقيه وأصولي ومتكلم توفي ٥١٣ . شذرات الذهب : (٤/ ٣٥)

الوجه الأول :

بمنع المقدمة الأولى ، وهذا الوجه لم يتعرض له شيخ الإسلام في الرسالة ، فنبطل الملازمة بين إثبات الصفات وبين كون الموصوف جسما بالنقض ، وذلك بإثبات صفات تقوم بما ليس بجسم كما تقول : نهار طويل وبرد شديد وليل أسود وهواء جاف وريح عاتية وهكذا [1].

الوجه الثاني والثالث والرابع

قوله : ﴿ وَلَا رَيْبَ أَنَّ قَوْلَهُمْ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ قَوْلٌ بَاطِلٌ سَوَاءٌ فَسَّرُوا الْجِسْمَ بِمَا يُشَارُ إلَيْهِ أَوْ بِالْقَائِمِ بِنَفْسِهِ أَوْ بِالْمَوْجُودِ أَوْ بِالْمُرَكَّبِ مِنْ الْهَيُولَى وَالصُّورَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَأَمَّا إذَا فَسَّرُوهُ بِالْمُرَكَّبِ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ وَعَلَى أَنَّهَا مُتَمَاثِلَةٌ فَهَذَا يُبْنَى عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ ؛ وَعَلَى إثْبَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَعَلَى أَنَّهُ مُتَمَاثِلٌ وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ يُخَالِفُونَهُمْ فِي ذَلِكَ (وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُمْ يُطْلِقُونَ التَّشْبِيهَ عَلَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ تَجْسِيمًا بِنَاءً عَلَى تَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ وَالْمُثْبِتُونَ يُنَازِعُونَهُمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ ؛ كَإِطْلَاقِ الرَّافِضَةِ النَّصْبَ عَلَى مَنْ تَوَلَّى أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما ؛ بِنَاءً عَلَى أَنَّ مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَ عَلِيًّا رضي الله عنه ؛ وَمَنْ أَبْغَضَهُ فَهُوَ نَاصِبِيٌّ وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُنَازِعُونَهُمْ فِي الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَى ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ : إنَّ الشَّيْئَيْنِ لَا يَشْتَبِهَانِ مِنْ وَجْهٍ وَيَخْتَلِفَانِ مِنْ وَجْهٍ وَأَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَّا فِيهِ حُجَجَ مَنْ يَقُولُ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ وَحُجَجَ مَنْ نَفَى ذَلِكَ ، وَبَيَّنَّا فَسَادَ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ بِتَمَاثُلِهَا ﴾

---

[1] ـ مستفاد من شرح الشيخ البراك حفظه الله .

التوضيح :

الوجه الثاني :

نمنع قولكم بأن الأجسام متماثلة على جميع تفسيراتكم للجسم سواء قلتم إنه كل ما يشار إليه أو القائم بنفسه أو الموجود أو المركب من الهيولى والصورة ـ الهيولى أصل الشيء ومادته وهو بمعنى المادة كما سبق بيانه .

أما إذا عرفتم الجسم بأنه المركب من الجواهر المفردة كما سبق ثم قلتم بأنها متماثلة فهذا القول مبني على صحة ثلاث مقدمات :

الأولى : أن الجسم مركب من الجواهر المفردة .

الثانية : وجود الجواهر المفردة .

الثالثة : أن الجواهر المفردة متماثلة .

وجمهور العقلاء يخالفون في هذه المقدمات الثلاث .

ويكفي في إبطال هذه المقدمات الثلاث إبطال أصل وجود الجواهر المفردة وقد سبق أنه ما من شيء إلا ويقبل الانقسام حتى يتغير أو ينعدم .

الوجه الثالث : نمنع المقدمتين بناء على منعنا لكل منهما وهذه نتيجة عقلية لذلك .

الوجه الرابع : الاستفصال .

فنقول : هل مرادكم بالجسم الذات التي ترى ويمكن الإشارة إليها والمتصفة بالسمع والبصر .. أم أنها المركبة من المادة والصورة أو الجواهر المفردة . لا ريب أن الأول صحيح والثاني باطل . وهذا تطبيق للقاعدة الثانية وهي الموقف من المصطلحات الحادثة في الاعتقاد..

* تنظير :وهاتان المقدمتان كإطلاق الرافضة للنصب : فهم يقولون كل من تولى أبابكر وعمر فقد أبغض عليا ، ومن أبغض عليا فهو ناصبي ، وأهل السنة

يمنعون المقدمة الأولى لأن تولي أبي بكر وعمر لا يستلزم بغض علي ووجه الشبه كما يلي :

الفرقة	المقدمة الأولى	المقدمة الثانية	النتيجة
عند المتكلمين	الصفات لاتقوم إلا بجسم	الأجسام متماثلة	إثبات الصفات تمثيل
عند الرافضة	كل من تولى الشيخين فقد أبغض عليا	من أبغض عليا فهو ناصبي	من تولى الشيخين فهو ناصبي

فأهل السنة يمنعون المقدمة الأولى عند المتكلمين وعند الرافضة وإن كانوا يسلمون بالمقدمة الثانية عند الرافضة دون المتكلمين فيمنعون كلتا المقدمتين عند المتكلمين .

وهؤلاء المعطلة يبنون مذهبهم على قولهم بأن الشيئين لا يشتبهان من وجه ويختلفان من وجه بل إما أن يكونا مختلفين أو متماثلين وعامة العقلاء على خلافهم كما سبق في الكلام على القدر المشترك .

الوجه الخامس

قوله : ﴿ وَأَيْضًا فَالِاعْتِمَادُ بِهَذَا الطَّرِيقِ عَلَى نَفْيِ التَّشْبِيهِ اعْتِمَادٌ بَاطِلٌ وَذَلِكَ أَنَّهُ إذَا أَثْبَتَ تَمَاثُلَ الْأَجْسَامِ فَهُمْ لَا يَنْفُونَ ذَلِكَ إلَّا بِالْحُجَّةِ الَّتِي يَنْفُونَ بِهَا الْجِسْمَ وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ هَذَا يَسْتَلْزِمُ الْجِسْمَ وَثَبَتَ امْتِنَاعُ الْجِسْمِ : كَانَ هَذَا وَحْدَهُ كَافِيًا فِي نَفْيِ ذَلِكَ لَا يَحْتَاجُ نَفْيُ ذَلِكَ إلَى نَفْيِ مُسَمَّى التَّشْبِيهِ لَكِنَّ نَفْيَ التَّجْسِيمِ يَكُونُ مَبْنِيًّا عَلَى نَفْيِ هَذَا التَّشْبِيهِ بِأَنْ يُقَالَ : لَوْ ثَبَتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا لَكَانَ جِسْمًا ؛ ثُمَّ يُقَالُ : وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ فَيَجِبُ اشْتِرَاكُهَا فِيمَا يَجِبُ وَيَجُوزُ وَيَمْتَنِعُ وَهَذَا مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ . لَكِنْ حِينَئِذٍ يَكُونُ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ مُعْتَمِدًا فِي نَفْيِ

التَّشْبِيهِ عَلَى نَفْيِ التَّجْسِيمِ ؛ فَيَكُونُ أَصْلُ نَفْيِهِ نَفْيُ الْجِسْمِ وَهَذَا مَسْلَكٌ آخَرُ سَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ

التوضيح

هذا المقطع مما أشكل على بعض الشراح فتنكبوا فيه سبيل الإيضاح . وتوضيحه مستعينا بالعليم الفتاح : إن هذا هو الوجه الخامس في الرد على من اعتمد على نفي التشبيه بنا على التجسيم .

وحاصل هذا الوجه بيان أن حقيقة اعتمادهم على نفي التشبيه لإثبات التنزيه إنما هو نفي التجسيم .

وهذا المسلك ـ وهو التنزيه بنفي التجسيم ـ سنتكلم عنه بالتفصيل وسنبين بطلانه .

والدليل على أن حقيقته نفي التجيسم أمران :

الأول : قولهم : (لو قامت به بعض الصفات لكان جسما والأجسام متماثلة) ولكنه ليس بجسم فينتج : فلا تقوم به الصفات ، وهذا بين في أن ما يزعمونه من نفي التشبيه إنما هو نفي التجسيم .

الثاني : أن لو سألتهم عن هذه المقدمة (لكنه ليس بجسم) ما دليل صحتها لأجابوك بنفس الجواب على سؤالك ما دليل صحة قولك (لا يشبهه شيء) فهذا يدل على أن مرد نفي التشبيه إلى نفي التجسيم . وحاصل الجواب هو أن الأجسام متماثلة والمتماثلات يجوز على بعضها ويمتنع ويجب ما يجوز ويمتنع ويجب على البعض الآخر فلو كان جسما لجاز عليه العدم ولكنه واجب الوجود فيلزم من فرضه جسما اجتماع النقيضين ، وهذه نفس نكتة نفي التشبيه لأن المتشابهات عندهم بمثابة المتماثلات فيما يجوز ويجب ويمتنع . فلذلك لا يحتاجون إلى نفي التشبيه بعد نفي التجسيم بهذا الدليل .

فالحاصل : أنهم لم يعتمدوا على نفي التشبيه كما يزعمون وإنما اعتمدوا على نفي التجسيم ونفي التجسيم لا يحصل به التنزيه كما سيأتي بيانه عند قوله : (وافسد من ذلك ما يسلكه نفاة الصفات أو بعضها)[1] فهذا الرد متضمن لإبطال أصل شبهتهم .

الوجه السادس :

قوله : ﴿وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ مُجَرَّدَ الِاعْتِمَادِ فِي نَفْيِ مَا يُنْفَى عَلَى مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ لَا يُفِيدُ إذْ مَا مِنْ شَيْئَيْنِ إلَّا يَشْتَبِهَانِ مِنْ وَجْهٍ وَيَفْتَرِقَانِ مِنْ وَجْهٍ﴾

التوضيح :

الاعتماد على مجرد نفي التشبيه لا يفيد إذ ما من شيئين إلا ويشتبهان من وجه وهو القدر المشترك ويفترقان من وجه كما سبق بيانه وهذا إبطال لأصل شبهتهم أيضا .

الطريقة الصحيحة في النفي :

قوله : ﴿بِخِلَافِ الِاعْتِمَادِ عَلَى نَفْيِ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ سُبْحَانَهُ مُقَدَّسٌ عَنْهُ فَإِنَّ هَذِهِ طَرِيقَةٌ صَحِيحَةٌ وَكَذَلِكَ إذَا أَثْبَتَ لَهُ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَنَفَى مُمَاثَلَةَ غَيْرِهِ لَهُ فِيهَا فَإِنَّ هَذَا نَفْيُ الْمُمَاثَلَةِ فِيمَا هُوَ مُسْتَحِقٌّ لَهُ وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ : وَهُوَ أَنْ لَا يَشْرَكَهُ شَيْءٌ مِنْ الْأَشْيَاءِ فِيمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِ وَكُلُّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهَا عَلَى

---

١ ـ التحفة المهدية :ص٢٨٧

وَجْهٍ لَا يُمَاثِلُهُ فِيهِ أَحَدٌ ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا إِثْبَاتُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ الصِّفَاتِ وَنَفْيُ مُمَاثَلَتِهِ بِشَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ»

التوضيح :

ذكر شيخ الإسلام الطرق الصحيحة هنا بعد بيانه لفساد طريقة أهل الكلام وسيأتي بعد ذلك بطريقة ثانية من طرق المتكلمين فألخص هنا الطرق الصحيحة في التنزيه وهي ثلاثة :

الأولى : ولم يذكرها المولف لكنها سبقت في القاعدة الأولى وهي نفي ما نفاه الله عن نفسه تصريحا وهي طريقة نقلية نصية كقوله تعالى :﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ ﴾ الإخلاص :[٣]

الثانية : نفي النقص والعيب عن الله تعالى كالعمى والصمم والجوع والفقر والضعف وغيرها . وضابط النقص والعيب أحد أمرين :

١ ـ كل ما يضاد الكمال الذي وصف به نفسه . فإذا قال : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ۝ الشورى :[١١] علمنا أن الصمم والعمى منفيان عنه .

٢ ـ إذا نفي عن نفسه نقصا دل على عدم اتصافه بما هو من لوازم ذلك النقص فمثلا : نفي الصاحبة والولد دليل على عدم اتصافه بالشهوة ونحوها من اللوازم، ونفي الافتقار دليل على عدم اتصافه بآلات الأكل ونحو ذلك .

الثالثة : نفي مماثلته للمخلوقين ، ويتفرع على ذلك نفي مماثلته لخلقه في كل صفة من صفاته ، فنثبت له السمع وننفي أن يكون كسمعنا ونثبت له الحياة وننفي أن تكون حياته مماثلة لحياة خلقه ، فكل صفة كمال اتصف الله بها فلا يماثله

فيها أحد من خلقه ، وهذا مذهب سلف الأمة وأئمتها وهو إثبات ماوصف الله به نفسه بلا تمثيل[١] .

وقد سبقت كثير من النقولات عنهم . وقال أبو عثمان الصابوني : (وقد أعاذ الله تعالى أهل السنة من التحريف والتكييف والتشبيه ومنّ عليهم بالتعريف والتفهيم حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه واتبعوا قول الله ﷻ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ الشورى :[١١][٢]

وقال أبو الحسن الأشعري : (وأجمعوا على أن صفته ﷻ لا تشبه صفات المحدثين)[٣] ومن أصرح ما يدل على حقيقة اعتقاد السلف ما سبق نقله عن الإمام ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠ حيث قال : (فنحن نقول كما قال الله تعالى وكما قال رسوله ﷺ ولا نتجاهل ولا يحملنا ما نحن فيه من نفي التشبيه أن ننكر ما وصف به نفسه ولكننا لا نقول : كيف اليدان ، وإن سئلنا نقتصر على جملة ما قال ونمسك عما لم يقل)[٤] فتأمل هذه العبارة تغنيك عن كثير من الكلام .

فحاصل الطرق الصحيحة في تنزيه الله عزوجل أربعة :

١ ـ نفي ما نفته النصوص .

٢ ـ نفي لوازم ما نفته النصوص من النقائص .

٣ ـ نفي كل ما يضاد الكمال الموصوف في النصوص .

٤ ـ نفي مماثلة شيء من ذاته أو صفاته لخلقه أو صفاتهم .

---

١ ـ انظر تقريب التدمرية للعلامة العثيمين :ص٩٧ .

٢ ـ عقيدة السلف أصحاب الحديث :ص٢٢.

٣ ـ رسالة إلى أهل الثغر :ص٦٥.

٤ ـ الاختلاف في اللفظ:ص٢٨.

اعتراض على إثبات القدر المشترك وجوابه :

أولا : الاعتراض .

قوله : ﴿ (فَإِنْ قِيلَ إِنَّ الشَّيْءَ إِذَا شَابَهَ غَيْرَهُ مِنْ وَجْهٍ جَازَ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ وَوَجَبَ لَهُ مَا وَجَبَ لَهُ وَامْتَنَعَ عَلَيْهِ مَا امْتَنَعَ عَلَيْهِ ﴾

التوضيح

إذا اعترض معترض على إثباتنا للقدر المشترك بين صفات الخالق وصفات المخلوق بأن قال : إن الشيئين إذا اشتبها من وجه جاز على أحدهما ما يجوز على الآخر من ذلك الوجه فإذا جاز على أحدهما النقص من ذلك الوجه جاز على الآخر النقص كذلك ، وكذلك يمتنع على أحدهما ما يمتنع على الآخر من ذلك الوجه المشترك ، ويجب لأحدهما ما يجب للآخر وعليه يكون قد وقع التشبيه بين الخالق والمخلوق .

ثانيا : الجواب على الاعتراض .

﴿ (قِيلَ هَبْ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ مَا يَمْتَنِعُ عَلَى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَلَا نَفْيَ مَا يَسْتَحِقُّهُ لَمْ يَكُنْ مُمْتَنِعًا كَمَا إِذَا قِيلَ : إِنَّهُ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَقَدْ سُمِّيَ بَعْضُ الْمَخْلُوقَاتِ حَيًّا سَمِيعًا عَلِيمًا بَصِيرًا فَإِذَا قِيلَ : يَلْزَمُ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ مَوْجُودًا حَيًّا عَلِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا قِيلَ : لَازِمُ هَذَا الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ لَيْسَ مُمْتَنِعًا عَلَى الرَّبِّ تَعَالَى فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي حُدُوثًا وَلَا إِمْكَانًا وَلَا نَقْصًا وَلَا شَيْئًا مِمَّا يُنَافِي صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ هُوَ مُسَمَّى الْوُجُودِ أَوْ

الْمَوْجُودُ أَوْ الْحَيَاةُ أَوْ الْحَيُّ أَوْ الْعِلْمُ أَوْ الْعَلِيمُ أَوْ السَّمْعُ أَوْ الْبَصَرُ أَوْ السَّمِيعُ أَوْ الْبَصِيرُ أَوْ الْقُدْرَةُ أَوْ الْقَدِيرُ وَالْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ مُطْلَقٌ كُلِّيٌّ لَا يَخْتَصُّ بِأَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ ؛ فَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمَا اشْتِرَاكٌ لَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْمُمْكِنِ الْمُحْدَثِ وَلَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْوَاجِبِ الْقَدِيمِ فَإِنَّ مَا يَخْتَصُّ بِهِ أَحَدُهُمَا يَمْتَنِعُ اشْتِرَاكُهُمَا فِيهِ فَإِذَا كَانَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ الَّذِي اشْتَرَكَا فِيهِ صِفَةَ كَمَالٍ كَالْوُجُودِ وَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ كَمَا لَا يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِ الْخَالِقِ لَمْ يَكُنْ فِي إثْبَاتِ هَذَا مَحْذُورٌ أَصْلًا ؛ بَلْ إثْبَاتُ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ الْوُجُودِ ، فَكُلُّ مَوْجُودَيْنِ لَا بُدَّ بَيْنَهُمَا مِنْ مِثْلِ هَذَا وَمَنْ نَفَى هَذَا لَزِمَهُ تَعْطِيلُ وُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ وَلِهَذَا لَمَّا اطَّلَعَ الْأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّ هَذَا حَقِيقَةُ قَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ سَمَّوْهُمْ مُعَطِّلَةً وَكَانَ جَهْمٌ يُنْكِرُ أَنْ يُسَمَّى اللَّهُ شَيْئًا وَرُبَّمَا قَالَتْ الْجَهْمِيَّةُ هُوَ شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ فَإِذَا نَفَى الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ مُطْلَقًا لَزِمَ التَّعْطِيلُ الْعَامُّ .

وَالْمَعَانِي الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الرَّبُّ تَعَالَى كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ بَلْ الْوُجُودُ وَالثُّبُوتُ وَالْحَقِيقَةُ وَنَحْوُ ذَلِكَ : تَجِبُ لَوَازِمُهَا فَإِنَّ ثُبُوتَ الْمَلْزُومِ يَقْتَضِي ثُبُوتَ اللَّازِمِ ، وَخَصَائِصُ الْمَخْلُوقِ الَّتِي يَجِبُ تَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْهَا لَيْسَتْ مِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ أَصْلًا بَلْ تِلْكَ مِنْ لَوَازِمِ مَا يَخْتَصُّ بِالْمَخْلُوقِ مِنْ وُجُودٍ وَحَيَاةٍ وَعِلْمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ وَمَلْزُومَاتِ خَصَائِصِهِمْ»

التوضيح

حاصل ما أجاب به الشيخ عن هذا الاعتراض ينتظم في نقاط :

١ ـ أنه لو فرضنا أن قول المعترض صحيح فإذا كان القدر المشترك لا يستلزم إثبات ما يمتنع على الله أو نفي ما يجب له فعندها لا يكون هذا الاشتراك ممتنعا .

٢ ـ وأيضا فإننا إذا قلنا : إن الله ﷻ موجود حي عليم سميع بصير وسمى بعض عباده حيا عليما سميعا بصيرا فهو مطلق لا فيما يختص بالخالق أو المخلوق من خصائص .

٣ ـ بل إثبات هذا القدر المشترك الكلي من لوازم الوجود فكل موجودين لا بد أن يشتركا في هذا المعنى العام الذي هو ضد العدم ومن نفى هذا المعنى العام لزمه تعطيل الوجود . لذلك لما تفطن الأئمة لحقيقة قول الجهمي وأنه يفضي إلى نفي وجود الله ﷻ سموهم معطلة ، وكان جهم ينكر أن يسمى الله شيئا مع أن كل موجود شيء وقد ورد إطلاق الشيء على الله بأمره كما في قوله ﷻ : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ الانعام :[١٩] لكن أتباعه الجهمية قالوا : شيء لا كالأشياء ، ومرادهم بذلك نفي الصفات .

٤ ـ وجميع المعاني التي يوصف الله تعالى بها كالحياة والعلم والقدرة تثبت لله تعالى مع لوازمها فحياة الله تعالى يلزم منها الأولية الأزلية والآخرية الأبدية ونحوها من خصائص الخالق ، وعلمه يلزم منه الكمال المطلق والإحاطة التامة.. وهكذا سائر صفاته تبارك وتعالى . فالله تعالى منزه عن خصائص المخلوقات وملزوماتها كالحدوث والافتقار والمخلوق تمتنع على صفاته خصائص صفات الرب . وبالتالي فلا يحصل بالقدر المشترك تشبيه ولا تمثيل . فللمعاني ثلاث استعمالات كما سبق :

١ـ إطلاق كلي وهو القدر المشترك.

٢ـ وإطلاق مختص بالخالق .

٣ـ وإطلاق مختص بالمخلوق .

ملحوظة :

في كلام شيخ الإسلام (إن جهما كان ينكر أن يسمى الله شيئا) ليس مقصود شيخ الإسلام من هذا الكلام أن من أسماء الله تعالى : (الشيء) وإنما المراد أن الجهم كان ينكر أن يقال : بأن الله شيء ، كما قال عبد القاهر البغدادي[1] : (وقال ـ يعني الجهم ـ لا أصفه بوصف يجوز إطلاقه على غيره كشيء وموجود وحي وعليم ومريد ونحو ذلك ..)[2] فإن الشيء ليس من أسماء الله تعالى بل يطلق على الله تعالى من باب الإخبار لأن أسماء الله تعالى حسنى أي بالغة في الحسن غايته ، والشيء في الآية إنما هو خبر عن وجوده كما فصل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[3] وابن القيم في البدائع[4] وكذلك الشيخ عبد الله الغنيمان في شرحه لكتاب التوحيد من صحيح البخاري معلقا على تبويب البخاري : (﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ الأنعام:[١٩] فسمى الله تعالى نفسه شيئا وسمى النبي ﷺ القرآن شيئا وهو صفة من صفات الله وقال : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ القصص:[٨٨]) قال الشيخ الغنيمان : (يريد بهذا أنه يطلق على الله تعالى أنه شيء وكذلك صفاته وليس معنى ذلك أن الشيء من أسماء الله الحسنى ، ولكن يخبر عنه تعالى بأنه شيء وكذا يخبر عن صفاته بأنها شيء لأن كل موجود يصح أن يقال إنه شيء)[5]

---

١ ـ هو الإمام عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الاسفرائيني التميمي المتوفى ٤٢٩ من تلاميذ أبي إسحاق الإسفراييني ،و حدث عنه البيهقي .تهذيب السير:(٢/ ٣٢٧)رقم :[٤٠٢٦]

٢ ـ الفرق بين الفرق :ص١٥٩ .

٣ ـ الفتاوى :(٦/ ١٤٢)

٤ ـ بدائع الفوائد :(١/ ١٦٢)

٥ ـ شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري :(١/ ٣٣٨)

تكرار لمسألة القدر المشترك

قوله : ﴿ وَهَذَا الْمَوْضِعُ مَنْ فَهِمَهُ فَهْمًا جَيِّدًا وَتَدَبَّرَهُ : زَالَتْ عَنْهُ عَامَّةُ الشُّبُهَاتِ وَانْكَشَفَ لَهُ غَلَطُ كَثِيرٍ مِنْ الْأَذْكِيَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ وَبُيِّنَ فِيهَا أَنَّ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ الْكُلِّيَّ لَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ إلَّا مُعَيَّنًا مُقَيَّدًا وَأَنَّ مَعْنَى اشْتِرَاكِ الْمَوْجُودَاتِ فِي أَمْرٍ مِنْ الْأُمُورِ هُوَ تَشَابُهُهَا مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ وَأَنَّ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْعَامَّ يُطْلَقُ عَلَى هَذَا وَهَذَا ؛ لِأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ فِي الْخَارِجِ لَا يُشَارِكُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ فِي شَيْءٍ مَوْجُودٍ فِيهِ بَلْ كُلُّ مَوْجُودٍ مُتَمَيِّزٌ عَنْ غَيْرِهِ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ﴾

التوضيح :

تكررت هذه المسألة كثيراً وهي أن القدر المشترك الكلي لا يوجد في الخارج إلا معينا مقيدا وأن هذا المعنى يطلق على الخالق وعلى المخلوق دون الاشتراك في شيء موجود في الخارج بل كل وجود متميز عن غيره بذاته وأفعاله وصفاته وبسبب عدم فهم هذا الفرق وقع كثير من الناس في التناقض والاضطراب وقد كان هذا المفهوم مستقرا عند السلف وإن لم يصرحوا بمصطلح القدر المشترك . قال الإمام ابن خزيمة : (نحن نقول : إن الله سميع بصير كما أعلمنا خالقنا وبارؤنا ونقول من له سمع وبصر من بني آدم فهو سميع وبصير ، ولا نقول : إن هذا تشبيه المخلوق بالخالق)[1].

---

١ ـ كتاب التوحيد لابن خزيمة : (١/ ٦١ وانظر :١/ ٥٥ و ١/ ٦٢ ومابعدها)

مثال التناقض بسبب عدم فهم القدر المشترك

قوله : ﴿وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مُتَنَاقِضًا فِي هَذَا الْمَقَامِ ؛ فَتَارَةً يَظُنُّ أَنَّ إِثْبَاتَ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ يُوجِبُ التَّشْبِيهَ الْبَاطِلَ فَيَجْعَلُ ذَلِكَ لَهُ حُجَّةً فِيمَا يَظُنُّ نَفْيَهُ مِنَ الصِّفَاتِ حَذَرًا مِنْ مَلْزُومَاتِ التَّشْبِيهِ وَتَارَةً يَتَفَطَّنُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ هَذَا عَلَى تَقْدِيرٍ فَيُجِيبُ بِهِ فِيمَا يُثْبِتُهُ مِنَ الصِّفَاتِ لِمَنْ احْتَجَّ بِهِ مِنَ النُّفَاةِ﴾

التوضيح :

من يظن أن إثبات القدر المشترك يوجب التشبيه ينفي بعض الصفات كالأشاعرة . فمثلا ينفون الاستواء فرارا من التشبيه باستواء الخلق ـ كما سبق ـ ثم يثبتون بعض الصفات كالسمع والبصر والكلام ولم يتفطن هؤلاء إلى ضرورة القدر المشترك ، فإنهم يردون به على المعتزلة إذا نفت هذه الصفات التي يثبتونها ، والمحاذير التي ترد على القدر المشترك في اعتقادهم ترد عليه في سائر الصفات فإثباتهم للقدر المشترك في بعضها ونفيهم له في بعضها تناقض واضح عافى الله منه أهل السنة أتباع الرسل .

أمثلة للاشتباه والاضطراب في القدر المشترك

قوله : ﴿وَلِكَثْرَةِ الِاشْتِبَاهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ : وَقَعَتْ الشُّبْهَةُ فِي أَنَّ وُجُودَ الرَّبِّ هَلْ هُوَ عَيْنُ مَاهِيَّتِهِ أَوْ زَائِدٌ عَلَى مَاهِيَّتِهِ ؟ وَهَلْ لَفْظُ الْوُجُودِ مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ أَوْ التَّوَاطُؤِ أَوْ التَّشْكِيكِ ؟ كَمَا وَقَعَ الِاشْتِبَاهُ فِي إِثْبَاتِ الْأَحْوَالِ وَنَفْيِهَا وَفِي أَنَّ الْمَعْدُومَ هَلْ هُوَ شَيْءٌ أَمْ لَا ؟ وَفِي وُجُودِ الْمَوْجُودَاتِ هَلْ هُوَ زَائِدٌ عَلَى مَاهِيَّتِهَا أَمْ لَا ؟ وَقَدْ كَثُرَ مِنْ أَئِمَّةِ النُّظَّارِ

الِاضْطِرَابُ وَالتَّنَاقُضُ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ ؛ فَتَارَةً يَقُولُ أَحَدُهُمْ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ وَيَحْكِي عَنْ النَّاسِ مَقَالَاتٍ مَا قَالُوهَا ؛ وَتَارَةً يَبْقَى فِي الشَّكِّ وَالتَّحَيُّرِ وَقَدْ بَسَطْنَا مِنْ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ وَمَا وَقَعَ مِنْ الِاشْتِبَاهِ وَالْغَلَطِ وَالْحَيْرَةِ فِيهَا لِأَئِمَّةِ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ مَا لَا تَتَّسِعُ لَهُ هَذِهِ الْجُمَلُ الْمُخْتَصَرَةُ »

التوضيح

أشار هنا إلى اضطرابات المتكلمين والفلاسفة وانتهاء أمرهم إلى الشك والتحير.

ونذكر أمثلة لهؤلاء :

١ ـ فمنهم الخونجي[1] الذي قال فيه شيخ الإسلام : (وقد بلغني بإسناد متصل عن بعض رؤوسهم وهو الخونجي أنه قال عند الموت : أموت وما علمت شيئا إلا أن الممكن يفتقر إلى الواجب ثم قال : الافتقار وصف عدمي ، أموت وما علمت شيئا)[2] .

٢ ـ وقال شيخ الإسلام أيضا : (حدثني من قرأ على ابن واصل الحموي[3] أنه قال : أبيت بالليل وأستلقي على ظهري وأضع الملحفة على وجهي وأبيت أقابل أدلة هؤلاء بأدلة هؤلاء وبالعكس وأصبح وما ترجح عندي شيء)[4]

٣ ـ وقال الشهرستاني :

---

١ ـ هو محمد بن بامادرين أو (نامادور) بن عبد الملك الخونجي . ولي القضاء بمصر وكان عالما بالفلسفة والمنطق توفي سنة ٦٤٦ . ترجمته في الاعلام : (٧/ ٣٤٤) عن مقدمات في الاعتقاد :ص٧٦.

٢ ـ درء التعارض : (٣/ ٢٦٢) الرد على المنطقيين :ص١١٤ . شرح الطحاوية :ص٢٠٩.

٣ ـ هو محمد بن سالم بن نصر الله الحموي . مؤرخ وعالم بالمنطق من كتبه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . توفي سنة ٦٩٧ بحماة . معجم المؤلفين : (١٠/ ١٦) الوافي بالوفيات : (٣/ ١٨٥)

٤ ـ درء التعارض : (١/ ١٦٥ ، ٣ / ٢٦٣ـ٢٦٤) نقض المنطق : (٢٥ـ٢٦)

لعمري لقد طفت المعاهد كلها * وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعا كف حائر * على ذقن أو قارعا سن نادم[1]

٤ ـ وقال الإمام الرازي[2] :

نهاية إقدام العقول عقال * وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا * وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا * سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

قال : (لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما وجدتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن . أقرأ في الإثبات ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ طه :[٥] وفي النفي : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ الشورى : [١١])[3].

وهذه طريقة أهل السنة المنزهة عن التناقض والاضطراب .

٥ ـ لذلك قال الوليد الكرابيسي[4] لبنيه عند وفاته : (تعلمون أحدا أعلم بالكلام مني ؟ قالوا : لا . قال : فتتهموني ؟ قالوا : لا . قال : فإني أوصيكم

١ ـ سبقت ترجمة الشهرستاني . وانظر أبياته في نهاية الإقدام :ص٣ . عن منهج الاستدلال: (٢/ ٧٤١) وانظر درء التعارض : (١/ ١٥٩) الفتوى الحموية :ص١٤ . شرح الطحاوية :ص٢٠٩ .

٢ ـ هو فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الطبرستاني الأصل الرازي المولد المعروف بابن الخطيب .مفسر وأصولي ومتكلم .ولد سنة ٥٤٤ وتوفي سنة ٦٠٦. تهذيب السير :(٣/ ١٦٦) رقم :[٥٤٥٩].

٣ ـ درء التعارض : (١/ ١٦٥) . الفتوى الحموية : ص١٥ . شرح الطحاوية : ص٢٠٨ .

٤ ـ هو الوليد بن أبان الكرابيسي أحد أئمة الكلام عاصر الإمام أحمد .تهذيب السير : (١/ ٣٢٩)

أتقبلون ؟ قالوا : نعم . قال : عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإني رأيت الحق معهم)[1]

وشهادات المتكلمين على أنفسهم بالشك والحيرة والاضطراب أكثر من أن تحصى[2] .

وقد ذكر شيخ الإسلام هنا خمس مسائل ظهر فيها اضطراب المتكلمين بسبب الاضطراب في الاشتراك وهي :

- الأولى : وجود الواجب عين ماهيته أم غيرها ؟
- الثانية : الوجود أهو من الاشتراك اللفظي أم المعنوي ؟
- الثالثة : إثبات الأحوال ونفيها .
- الرابعة : هل المعدوم شيء أم لا ؟
- الخامسة : هل الموجودات زائدة عن ماهيتها أولا ؟

تحقيق الحق في هذه المسائل

قوله : ﴿ وَبَيَّنَّا أَنَّ الصَّوَابَ هُوَ أَنَّ وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْخَارِجِ هُوَ مَاهِيَّتُه الْمَوْجُودَةُ فِي الْخَارِجِ ؛ بِخِلَافِ الْمَاهِيَّةِ الَّتِي فِي الذِّهْنِ فَإِنَّهَا مُغَايِرَةٌ لِلْمَوْجُودِ فِي الْخَارِجِ ؛ وَأَنَّ لَفْظَ الذَّاتِ وَالشَّيْءِ وَالْمَاهِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ وَنَحْو ذَلِكَ فَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ كُلُّهَا مُتَوَاطِئَةٌ فَإِذَا قِيلَ : إنَّهَا مُشَكِّكَةٌ لِتَفَاضُلِ مَعَانِيهَا فَالْمُشَكِّكُ نَوْعٌ مِنْ الْمُتَوَاطِئِ الْعَامِّ الَّذِي يُرَاعَى فِيهِ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ سَوَاءٌ كَانَ الْمَعْنَى مُتَفَاضِلًا فِي مَوَارِدِهِ أَوْ مُتَمَاثِلًا . وَبَيَّنَّا أَنَّ الْمَعْدُومَ

---

١ ـ ذكره الذهبي في السير : (١٠/٥٤٨)

٢ ـ وقد جمعت ذلك في بحث مستقل ذكرت فيه أمثلة من المتقدمين والمعاصرين ممن شهد على نفسه وطريقته بالاضطراب .

شَيْءٌ أَيْضًا فِي الْعِلْمِ وَالذِّهْنِ لَا فِي الْخَارِجِ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الثُّبُوتِ وَالْوُجُودِ لَكِنَّ الْفَرْقَ ثَابِتٌ بَيْنَ الْوُجُودِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَيْنِيِّ مَعَ أَنَّ مَا فِي الْعِلْمِ لَيْسَ هُوَ الْحَقِيقَةَ الْمَوْجُودَةَ وَلَكِنْ هُوَ الْعِلْمُ التَّابِعُ لِلْعَالِمِ الْقَائِمِ بِهِ وَكَذَلِكَ الْأَحْوَالُ الَّتِي تَتَمَاثَلُ فِيهَا الْمَوْجُودَاتُ وَتَخْتَلِفُ : لَهَا وُجُودٌ فِي الْأَذْهَانِ وَلَيْسَ فِي الْأَعْيَانِ إِلَّا الْأَعْيَانُ الْمَوْجُودَةُ وَصِفَاتُهَا الْقَائِمَةُ بِهَا الْمُعَيَّنَةُ فَتَتَشَابَهُ بِذَلِكَ وَتَخْتَلِفُ بِهِ ﴾

التوضيح :-

هنا مقدمتان قبل الخوض في المسائل السابقة :

١ـ نرتب هذه المسائل ترتيبا موضوعيا فإن نتائج بعضها مقدمات لبعض والتسلسل الموضوعي كالتالي :

- حقيقة الوجود هل هي مشترك لفظي أم معنوي ، متواطئ أم مشكك .
- هل الموجودات زائدة عن ماهيتها أولا ؟
- هل المعدوم شيء أولا ؟
- هل هناك واسطة بين الوجود والعدم وهي مايسمى بالأحوال أم لا ؟
- هل وجود الواجب عين ماهيتة أم غيرها ؟

٢ ـ هذه المسائل تعتبر من بعض كبار مسائل الفلسفة وآراء شيخ الإسلام تمثل أنضج الآراء لبنائها على قواعد عقلية نقلية وحيث إنها أثيرت فسأحاولى أن أوضح الخطوط العريضة لكل مسألة .

♦ أولا : المسألة الأولى : وهي داخلة في الخامسة فالكلام عن الخامسة يغني عنها فنقول : وجود الموجودات هو عين ماهيتها[1] أو حقيقتها في الخارج لكنه زائد

---

١ ـ الماهية مأخوذة من (ماهو) والمقصود خصائصها الذاتية . انظر التعريفات للجرجاني :ص١٩٥. والرد على المنطقيين : ص٦٥.

على ماهيتها في الذهن فإنه في الذهن يكون عاما كليا وفي الخارج يكون جزئيا أي متقيدا بخصائصه ومشخصاته الخارجية وهي عين حقيقته الخارجية الزائدة عما في الذهن .لذا فقولهم : (الوجود زائد عن الماهية أو لا ؟) يحتاج إلى التفصيل السابق بحسب الذهن والخارج .

◆ المسألة الثانية : وقد سبق القول الصحيح فيها وهو أن الوجود متواطئ أي متحد لفظا ومعنى والفرق بين التواطؤ والتشكيك هو :

أن التواطؤ اتفاق في اللفظ والمعنى مع الاتحاد في المعنى الكلي كلفظ (الإنسان) فإن زيدا وعمرا متفقان في الإنسانية ولا يتفاوتان فيها .

أما التشكيك : فهو اتفاق في اللفظ والمعنى أيضا لكن مع التفاوت في المعنى الكلي مثل البياض فإن الثلج والإنسان الأبيض متفقان في البياض مع التفاوت في بياض كل منهما.

◆ المسألة الثالثة : وهي الأحوال . وهي تختلف عن أحوال الصوفية الآتية في الأصل الثاني . ومفهومها عند من يقول بها : النسبة بين الصفة والموصوف . فيقولون : العلم صفة والعالِمية نسبة بين الصفة والموصوف . وهي عندهم معنى زائد عن العلم ، ومثله القادرية والفاعلية وغيرها ، ويقولون : إنها لا موجودة ولا معدومة بل هي واسطة بينهما وهذا القول باطل ولا فرق بين العلم والعالمية والقدرة والقادرية وتفسيرهم للأحوال ممتنع بضرورة العقل . فهي لا وجود لها لا في الأذهان ولا في الأعيان كما أن فيها رفعا للنقيضين في قولهم : لاموجودة ولامعدومة ، وهذا محال كما سبق .ولذلك يقال : من المحالات أحوال أبي هاشم .

كما قال الناظم :

مما يقال ولاحقيقة تحته * معقولة تدنو إلى الأفهام

الكسب عند الأشعري ، والحال عند * البهشمي ، وطفرة النظام

والمراد بالبهشمي أبو هاشم المعتزلي[1] وهو من القائلين بالحال ومنهم الجويـني[1] والباقلاني[2] وأبو يعلى الحنبلي[3] .

♦ المسألة الرابعة : هل المعدوم شيء أم لا ؟

الحق فيها أن المعدوم الممكن الوجود شيء في العلم والذهن وليس بشـيء في الخـارج وهذا التفصيل هو الذي تجتمع عليه الأدلة خلافا للمعتزلة القائلين بأنه شيء مطلقا

١ـ فأدلة كونه شيئا في العلم :

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يس :[٨٢] فالشيء هنا غير موجود لكنه معلوم مراد .

وقولـه : ﴿ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٌ ﴾ الحـج: [١] فباعتبـار أنها قائمة ولا بد فهي غير ممتنعة فصدق عليها وصف الشيء غـير أن وجودهـا الآن ذهني لا حقيقي .

٢ـ وأدلة كونه ليس بشيء في الخارج :

قوله تعـالى :﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـًٔا ﴾ مريـم :[٩] أي أنه قبل خلقه لم يكن شيئا موجودا في الخارج .وقوله :﴿ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـًٔا ﴾ مريـــم :[٦٧] أي في الخـــارج فالمعدوم شيء علمي لا عيني[4] .

---

١ ـ سبقت ترجمتهما .

٢ ـ هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني البصري المالكي الأصـولي الفقيه المتكلم انتهت إليه رئاسة المالكية في العراق توفي سنة ٣٠٤ . وفيات الأعيان : (٣/ ٤٠٠).

٣ ـ سبقت ترجمته .

٤ ـ انظر الفتاوى : (٢/ ١٧٥)

ومن ثمرة الخلاف في المسألة : الرد على الأشاعرة الذين تأولوا النصوص في مبحث القدر حيث قالوا : إن الله على كل شيء قدير ليس بعام بل عام أريد به الخصوص لأنه لا يقدر على إعدام ذاته وهو باطل . لأن الامتناع والوجوب ضدان فلا يجتمعان فعدم الواجب محال والمحال لا يسمى شيئا فخرج عن مسمى الشيء .

وكل من لفظ الوجود والذات والشيء والماهية والحقيقة متواطئ . ومن قال إنها مشككة فالمشكك نوع من التواطئ العام الذي تتفق فيه المعاني الكلية وإن كان متفاوتا في أفراده أو متماثلا أي أن كلا من المشكك والمتواطئ مرجعهما إلى معنى واحد مشترك ، وإن كان الفرق موجودا من حيث التفاوت وعدمه كما سبق .

ملحوظة : ليست هذه الألفاظ مترادفة بل الكلام عن كل واحد منها ، فكل واحد منهما متواطئ .

خاتمة الطريق الأول في النفي عند المتكلمين :

قوله : ﴿ وَأَمَّا هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْمُخْتَصَرَةُ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِهَا التَّنْبِيهُ عَلَى جُمَلٍ مُخْتَصَرَةٍ جَامِعَةٍ مَنْ فَهِمَهَا عَلِمَ قَدْرَ نَفْعِهَا وَانْفَتَحَ لَهُ بَابُ الْهُدَى وَإِمْكَانُ إغْلَاقِ بَابِ الضَّلَالِ ؛ ثُمَّ بَسْطُهَا وَشَرْحُهَا لَهُ مَقَامٌ آخَرُ ؛ إذْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ " وَالْمَقْصُودُ " : هُنَا أَنَّ الِاعْتِمَادَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحُجَّةِ فِيمَا يُنْفَى عَنْ الرَّبِّ وَيُنَزَّهُ عَنْهُ - كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ الْمُصَنِّفِينَ - خَطَأٌ لِمَنْ تَدَبَّرَ ذَلِكَ وَهَذَا مِنْ طُرُقِ النَّفْيِ الْبَاطِلَةِ . ﴾

التوضيح

هنا خاتمة الكلام عن طريقة التنزيه بنفي التشبيه ، يذكر شيخ الإسلام أن المقصود بيان أن هذه الطريقة من طرق النفي التي لا تحق حقا ولا تبطل باطلا بل

هي تتضمن كثيرا من الباطل وبماسبق من التنبيهات في القدر المشترك وغيره ينفتح للمتأمل فيها باب الهدى ويمكنه إغلاق باب الضلال . وقد بسط شيخ الإسلام ذلك في غير هذا المقام ولكل مقام مقال[1] ولكل دولة رجال .

الطريق الثاني : الاعتماد في التنزيه على نفي التجسيم

قوله : ﴿ (فَصْلٌ) : وَأَفْسَدُ مِنْ ذَلِكَ : مَا يَسْلُكُهُ نُفَاةُ الصِّفَاتِ أَوْ بَعْضِهَا إذَا أَرَادُوا أَنْ يُنَزِّهُوهُ عَمَّا يَجِبُ تَنْزِيهُهُ عَنْهُ مِمَّا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ مِثْلَ أَنْ يُرِيدُوا تَنْزِيهَهُ عَنْ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَيُرِيدُونَ الرَّدَّ عَلَى الْيَهُودِ : الَّذِينَ يَقُولُونَ إنَّهُ بَكَى عَلَى الطُّوفَانِ حَتَّى رَمِدَ وَعَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ بِإِلَهِيَّةِ بَعْضِ الْبَشَرِ وَأَنَّهُ اللَّهُ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَحْتَجُّ عَلَى هَؤُلَاءِ بِنَفْيِ التَّجْسِيمِ وَالتَّحَيُّزِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ لَوْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ لَكَانَ جِسْمًا أَوْ مُتَحَيِّزًا وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ وَسُلُوكُهُمْ مِثْلَ هَذِهِ الطَّرِيقِ اسْتَظْهَرَ عَلَيْهِمْ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ نُفَاةُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ﴾

التوضيح :

أي اعتمادهم في التنزيه على مجرد نفي التجسيم أفسد من اعتمادهم على نفي التشبيه في التنزيه .

وقد أشار إلى ذلك في الرد الخامس على شبهة التجسيم .

فإذا قالت اليهود : إن الله بكى على الطوفان حتى رمد وعادته الملائكة ، أو قالت بعض الطوائف بإلهية بعض البشر : يحتج كثير من هؤلاء المتكلمين : بأن هذا باطل لأنه يستلزم التجسيم . واعتمادهم في نفي هذه النقائص عن الله على مجرد

---

١ ـ للتوسع في ذلك راجع المجلد السادس من الفتاوى والخامس والتاسع من درء التعارض.

نفي التجسيم باطل بل هو أبطل من اعتمادهم السابق وهو نفي التشبيه ، ولا يحصل به المقصود ، على ما سيأتي بيانه .

ومن هنا استظهر الملاحدة نفاة الأسماء والصفات على من يسلك هذا المسلك . فإنهم قالوا : كما نفيتم عن الله الاستواء والنزول وغيرهما لأن ذلك يستلزم التجسيم فكذلك الشأن في جميع الصفات والأسماء لأن إثباتها يستلزم التشبيه فوجب نفي الجميع .

وجوه عدم تحقق التنزيه بمجرد نفي التجسيم

الوجه الأول

قوله: ﴿فَإِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ لَا يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ لِوُجُوهٍ : -

أَحَدُهَا أَنَّ وَصْفَ اللَّهِ تَعَالَى بِهَذِهِ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ أَظْهَرُ فَسَادًا فِي الْعَقْلِ وَالدِّينِ مِنْ نَفْيِ التَّحَيُّزِ وَالتَّجْسِيمِ ؛ فَإِنَّ هَذَا فِيهِ مِنْ الِاشْتِبَاهِ وَالنِّزَاعِ وَالْخَفَاءِ مَا لَيْسَ فِي ذَلِكَ وَكُفْرُ صَاحِبِ ذَلِكَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَالدَّلِيلُ مُعَرِّفٌ لِلْمَدْلُولِ وَمُبَيِّنٌ لَهُ ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَى الْأَظْهَرِ الْأَبْيَنِ بِالْأَخْفَى كَمَا لَا يُفْعَلُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْحُدُودِ .﴾

التوضيح

خلاصة ماقرره شيخ الإسلام في معرض بيان خطأ مسلك نفي التجسيم في إثبات التنزيه للعلي العظيم ﷻ خمسة أوجه :

- الأول : خلل في الاستدلال من حيث خفاء الدلالة وظهورها .

وذلك أن بطلان النتيجة إذا كانت أوضح من البرهان فإن ذلك لا يصح. ودليل ذلك أن نسبة الدليل إلى المدلول والبرهان إلى النتيجة نسبة التعريف إلى

المعرّف وغاية الفرق بينهما أن الدليل مراد لإثبات صدق قضية من القضايا بينما التعريف مراد لإثبات تصور مفهوم من المفاهيم وإيضاحه .

فإذا كان من شروط التعريف أن يكون أوضح من المعرّف فكذلك من شروط الدليل أن يكون أوضح من المدلول .

وهنا رام أهل الكلام تنزيه الله عن النقائص كالمرض والحزن والبكاء ونحوها (وهو المدلول) بدليل نفي التجسيم ، ونفي التجسيم أخفى عند عامة العقلاء من نفي هذه النقائص فكما أنه لا يحسن تعريف الخمر بالعُقار[1] فكذلك لا يحسن إثبات تنزيه الله عن النقائص ببرهان نفي التجسيم .

الوجه الثاني :

قوله : ﴿ الْوَجْهُ الثَّانِي أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَصِفُونَهُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ : يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَقُولُوا نَحْنُ لَا نَقُولُ بِالتَّجْسِيمِ وَالتَّحَيُّزِ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يُثْبِتُ الصِّفَاتِ وَيَنْفِي التَّجْسِيمَ فَيَصِيرُ نِزَاعُهُمْ مِثْلَ نِزَاعِ مُثْبِتَةِ الْكَلَامِ وَصِفَاتِ الْكَمَالِ فَيَصِيرُ كَلَامُ مَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَصِفَاتِ النَّقْصِ وَاحِدًا وَيَبْقَى رَدُّ النُّفَاةِ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِطَرِيقِ وَاحِدٍ وَهَذَا فِي غَايَةِ الْفَسَادِ ﴾

التوضيح

- الثاني : خلل في الاستدلال لاستوائه في النقض على أهل الحق والباطل

وذلك أن لمثبتة تلك النقائص من الكفار أن تدعي بطلان الملازمة بين إثباتها وبين التجسيم ، كما هو قول أهل السنة المثبتة الكمال لله فإنهم يقولون ببطلان الملازمة وأن إثبات صفات الكمال لايقتضي تجسيما . فيصبح نزاع هؤلاء الكفار مثل نزاع مثبتة الكمال من أهل السنة والأولون مبطلون وأهل السنة محقون وردّ من

---

[1] ـ العقار بالضم الخمر ، انظر القاموس المحيط : ص ٥٧٠.

سلك مسلك نفي التجسيم في إثبات التنزيه على كلا الطائفتين المحقة والمبطلة واحد وهذا في غاية الفساد أن يكون طريق الاستدلال على التنزيه يستوي فيه النقض على الحق وعلى الباطل . فهذا من أفسد مسالك الردّ على المخالف .

الوجه الثالث :

قوله : ﴿ (الثَّالِثُ) أَنَّ هَؤُلَاءِ يَنْفُونَ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِمِثْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَاتِّصَافُهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَاجِبٌ ثَابِتٌ بِالْعَقْلِ وَالسَّمْعِ فَيَكُونُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ﴾

التوضيح :

◆ الثالث : لزومه للباطل ، والحق لا يلزم منه باطل أبدا.

فإن هذا المسلك الذي سلكوه للتوصل إلى التنزيه يلزم عليه من اللوازم الباطلة ما يدل على بطلانه فتترتب عليه من المفاسد فوق ما رام سالكوه من المصالح . وأظهر هذه اللوازم نفي صفات الكمال التي دل العقل والنقل على ثبوتها لله تعالى . و هذا دأب أهل الكلام ومن ترك طريقة القرآن في الاستدلال على المغيبات فهناك أثبتوا الواجب بنظرية الحدوث فنفوا عن الله الصفات الاختيارية وهنا نزهوه بمسلك نفي التجسيم فنفوا عنه صفات الكمال .

الوجه الرابع :

قوله : ﴿ (الرَّابِعُ) : أَنَّ سَالِكِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مُتَنَاقِضُونَ فَكُلُّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا مِنْهُمْ أَلْزَمَهُ الْآخَرُ بِمَا يُوَافِقُهُ فِيهِ مِنْ الْإِثْبَاتِ كَمَا أَنَّ كُلَّ مَنْ نَفَى شَيْئًا مِنْهُمْ أَلْزَمَهُ الْآخَرُ بِمَا يُوَافِقُهُ فِيهِ مِنْ النَّفْيِ . فَمُثْبِتَةُ الصِّفَاتِ – كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَلَامِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ – إذَا قَالَتْ لَهُمْ النُّفَاةُ كَالْمُعْتَزِلَةِ : هَذَا تَجْسِيمٌ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ أَعْرَاضٌ وَالْعَرَضُ لَا يَقُومُ إلَّا

بِالْجِسْمِ أَوْ لِأَنَّا لَا نَعْرِفُ مَوْصُوفًا بِالصِّفَاتِ إِلَّا جِسْمًا . قَالَتْ لَهُمْ الْمُثْبِتَةُ : وَأَنْتُمْ قَدْ قُلْتُمْ : إِنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ . وَقُلْتُمْ : لَيْسَ بِجِسْمٍ ؛ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَوْجُودًا حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا إِلَّا جِسْمًا فَقَدْ أَثْبَتُّمُوهُ عَلَى خِلَافِ مَا عَلِمْتُمْ فَكَذَلِكَ نَحْنُ وَقَالُوا لَهُمْ : أَنْتُمْ أَثْبَتُّمْ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا ؛ بِلَا حَيَاةٍ وَلَا عِلْمٍ وَلَا قُدْرَةٍ وَهَذَا تَنَاقُضٌ يُعْلَمُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ ثُمَّ هَؤُلَاءِ الْمُثْبِتُونَ إِذَا قَالُوا لِمَنْ أَثْبَتَ أَنَّهُ يَرْضَى وَيَغْضَبُ وَيُحِبُّ وَيُبْغِضُ أَوْ مَنْ وَصَفَهُ بِالِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ أَوْ بِالْوَجْهِ وَالْيَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ إِذَا قَالُوا : هَذَا يَقْتَضِي التَّجْسِيمَ لِأَنَّا لَا نَعْرِفُ مَا يُوصَفُ بِذَلِكَ إِلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ قَالَتْ لَهُمْ الْمُثْبِتَةُ : فَأَنْتُمْ قَدْ وَصَفْتُمُوهُ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَهَذَا هَكَذَا ؛ فَإِذَا كَانَ هَذَا لَا يُوصَفُ بِهِ إِلَّا الْجِسْمُ فَالْآخَرُ كَذَلِكَ ، وَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ يُوصَفَ بِأَحَدِهِمَا مَا لَيْسَ بِجِسْمٍ فَالْآخَرُ كَذَلِكَ ؛ فَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهُمَا تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ

التوضيح

◆ الرابع : تناقض أصحاب هذا المسلك .

فإن كل من أثبت صفة ونفى أخرى مخالفا غيره فيما أثبت ونفى ألزم كل منهما صاحبه فيما نفاه بعين ما يلزمه الآخر فيما يثبته لأن كليهما اعتمد على مسلك نفي التجسيم وهذا يكشف بطلان هذا المسلك إذ أصحابه متناقضون.إذ كل يعترض على صاحبه بما هو معارض به من قبل غيره .

مثال ذلك :

إذا قال الأشعري : نثبت الحياة والعلم والقدرة .

اعترض المعتزلي : لكن إثبات هذه الصفات يستلزم التجسيم .

أجاب الأشعري : لكنكم تثبتون الأسماء ولا تـرون التجسـيم لازمـا لكـم ، فكذلك نحن .

إذا قال السنيّ : أنا أثبت الاستواء والنزول والرضا والغضب وغيرها .

اعترض الأشعري : هذا يلزم منه التجسيم .

أجاب السني : لكنكم أثبتم الصفات السبع ولم تـرون التجسيم لازمـا لكـم فكذلك نحن .

فتأمل في هذه المناظرة تجد الأشعري يعترض على المعتزلي بعين ما يعترض بـه السني عليه أي أن ما يقرر به مذهبه في مقام المناظرة هو عين مـا يُنقـض بـه مذهبـه . وهذا تناقض واضح يلزم كل من لم يسلك سبيل النقل في الإثبات والنفي .

الوجه الخامس :

قوله : ﴿وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ الرَّدُّ عَلَى مَنْ وَصَفَ اللَّهَ تَعَالَى بِالنَّقَائِصِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ طَرِيقًا فَاسِدًا : لَمْ يَسْلُكْهُ أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ فَلَمْ يَنْطِقْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي حَقِّ اللَّهِ بِالْجِسْمِ لَا نَفْيًا وَلَا إثْبَاتًا وَلَا بِالْجَوْهَرِ وَالتَّحَيُّزِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لِأَنَّهَا عِبَارَاتٌ مُجْمَلَةٌ لَا تُحِقُّ حَقًّا وَلَا تُبْطِلُ بَاطِلًا وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِيمَا أَنْكَرَهُ عَلَى الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْكُفَّارِ : مَا هُوَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ ؛ بَلْ هَذَا هُوَ مِنْ الْكَلَامِ الْمُبْتَدَعِ الَّذِي أَنْكَرَهُ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ﴾

التوضيح :

- الوجه الخامس :

أنها طريقة محدثة لا توافق الطرق الشرعية في إثبات الصفات .

فهذه الطريقة في النفي لم ينطق بها الوحي ولم يسلكها السلف وأتباعهم بل لم ينطق أحد منهم بالجسم نفيا ولا إثباتا ولا الجوهر والتحيز نفيا ولا إثباتا لأنها ألفاظ مجملة لا تحق حقا ولا تبطل باطلا بل زبد وغثاء . ولا يقال إن المقتضي لم يقم في الزمن الأول فإن هذه الشبهة ذكرها الله في كتابه على لسان اليهود ونقض شبهتهم بأقوى الدلائل العقلية الشرعية . قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾المائدة : [٦٤] ولما اتخذ قوم موسى العجل وهو جسم لم يعارضهم الله بأنه جسم بل عارضهم بخلوه عن صفات الكمال ولما عارض إبراهيم أباه بعبادة الأصنام وهي أجسام لم يعارضه بالجسمية بل بخلوها عن صفات الكمال ولو كان التجسيم نفيه متعين للتنزيه لكان أظهر وأجلى القرائن على بطلان إلهية العجل والأصنام فأي الفريقين أحق بالصواب وأولى بالاتباع ؟!

بل هذا المسلك في التنزيه إنما هو من الكلام المبتدع الذي أنكره السلف [1].
كما قال الإمام أبو حنيفة لما سئل عما أحدثه الناس من الكلام في الأعراض والأجسام : (مقالات الفلاسفة !! عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك وكل محدثة فإنها بدعة)[2] .

وقال صاحب الكفاية[3] :

والجسم والجوهر ثم العرض * تحيّزٌ أسلافنا لم يرتضوا

وقلت في جميع هذه الألفاظ المحدثة في الدّرة الأثرية [4]:

---

١ ـ منهاج السنة : (٢/ ٥٤٩).

٢ ـ صون المنطق والكلام عن علم المنطق والكلام : ص٣٢.

٣ ـ متن الكفاية للحربي . ص :٢٨.

٤ ـ الدرة الستينية في تلخيص العقيدة السنية ، الأبيات : [١٣ـ١٥]

ولا تخض في هــذه الكلمــاتِ * الحــدِّ والمكــانِ والجــهاتِ
كــذا تحــيّز ولفــظ الجســم * وجوهــر وعــرض للسّــلم
فلـم يـرد شــرع بذكــر ذاكـا * فقـف ودومـا خــالفن هواكــا

ثانيا : الكلام في الإثبات

قوله : ﴿ (فَصْلٌ) : وَأَمَّا فِي طُرُقِ الْإِثْبَاتِ : فَمَعْلُومٌ أَيْضًا أَنَّ الْمُثْبَتَ لَا يَكْفِي فِي إثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ إذْ لَوْ كَفَى فِي إثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ لَجَازَ أَنْ يُوصَفَ سُبْحَانَهُ مِنْ الْأَعْضَاءِ وَالْأَفْعَالِ بِمَا لَا يَكَادُ يُحْصَى مِمَّا هُوَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ - مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ وَأَنْ يُوصَفَ بِالنَّقَائِصِ الَّتِي لَا تَجُوزُ عَلَيْهِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ كَمَا لَوْ وَصَفَهُ مُفْتَرٍ عَلَيْهِ بِالْبُكَاءِ وَالْحُزْنِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ . وَكَمَا لَوْ قَالَ الْمُفْتَرِي : يَأْكُلُ لَا كَأَكْلِ الْعِبَادِ وَيَشْرَبُ لَا كَشُرْبِهِمْ وَيَبْكِي وَيَحْزَنُ لَا كَبُكَائِهِمْ وَلَا حُزْنِهِمْ ؛ كَمَا يُقَالُ يَضْحَكُ لَا كَضَحِكِهِمْ وَيَفْرَحُ لَا كَفَرَحِهِمْ وَيَتَكَلَّمُ لَا كَكَلَامِهِمْ . وَلَجَازَ أَنْ يُقَالَ : لَهُ أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ لَا كَأَعْضَائِهِمْ كَمَا قِيلَ : لَهُ وَجْهٌ لَا كَوُجُوهِهِمْ وَيَدَانِ لَا كَأَيْدِيهِمْ . حَتَّى يَذْكُرَ الْمَعِدَةَ وَالْأَمْعَاءَ وَالذَّكَرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَالَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . ﴾

التوضيح

كذلك لا يصح الاعتماد في الإثبات على نفي التشبيه لأنه بإمكـان كـل أحـد أن يصف الله تعالى بالنقائص مع نفيه للتشبيه ، فيقـول يوصـف الله بـالحزن والجـوع والعطش والأكل والشرب بلا تشبيه فيختلط الحق بالباطل .

فيقول المفترون مثلا : يوصف الله بالأعضاء كالمعدة والأمعاء بلا تشبيه ، كما يصفه أهل السنة باليد والوجه بلا تشبيه ، ويوصف بالبكاء والحزن بلا تشبيه كما يصفه أهل السنة بالضحك والفرح والكلام بلا تشبيه . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وسيأتي الرد تفصيلا .

سؤال وجواب في الاعتماد في النفي على عدم ورود السمع

قوله : ﴿فَإِنَّهُ يُقَالُ لِمَنْ نَفَى ذَلِكَ مَعَ إثْبَاتِ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنْ الصِّفَاتِ : مَا الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا وَمَا أَثْبَتَّهُ إذَا نَفَيْت التَّشْبِيهَ وَجَعَلْت مُجَرَّدَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ كَافِيًا فِي الْإِثْبَاتِ فَلَا بُدَّ مِنْ إثْبَاتِ فَرْقٍ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَإِنْ قَالَ : الْعُمْدَةُ فِي الْفَرْقِ هُوَ السَّمْعُ فَمَا جَاءَ بِهِ السَّمْعُ أَثْبَتَّهُ دُونَ مَا لَمْ يَجِئْ بِهِ السَّمْعُ قِيلَ لَهُ :

أَوَّلًا : السَّمْعُ هُوَ خَبَرُ الصَّادِقِ عَمَّا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ فَمَا أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ فَهُوَ حَقٌّ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إثْبَاتٍ ؛ وَالْخَبَرُ دَلِيلٌ عَلَى الْمُخْبَرِ عَنْهُ وَالدَّلِيلُ لَا يَنْعَكِسُ ؛ فَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِهِ عَدَمُ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ فَمَا لَمْ يَرِدْ بِهِ السَّمْعُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ثَابِتًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَإِنْ لَمْ يَرِدْ بِهِ السَّمْعُ ؛ إذَا لَمْ يَكُنْ نَفَاهُ وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّمْعَ لَمْ يَنْفِ هَذِهِ الْأُمُورَ بِأَسْمَائِهَا الْخَاصَّةِ فَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ مَا يَنْفِيهَا مِنْ السَّمْعِ وَإِلَّا فَلَا يَجُوزُ حِينَئِذٍ نَفْيُهَا كَمَا لَا يَجُوزُ إثْبَاتُهَا

وَأَيْضًا : فَلَا بُدَّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ مَا يُثْبَتُ لَهُ وَيُنْفَى فَإِنَّ الْأُمُورَ الْمُتَمَاثِلَةَ فِي الْجَوَازِ وَالْوُجُوبِ وَالِامْتِنَاعِ : يَمْتَنِعُ اخْتِصَاصُ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ فِي الْجَوَازِ وَالْوُجُوبِ

وَالامْتِنَاعِ فَلَا بُدَّ مِنْ اخْتِصَاصِ الْمَنْفِيِّ عَنْ الْمُثْبَتِ بِمَا يَخُصُّهُ بِالنَّفْيِ وَلَا بُدَّ مِنْ اخْتِصَاصِ الثَّابِتِ عَنْ الْمَنْفِيِّ بِمَا يَخُصُّهُ بِالثُّبُوتِ وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ يُقَالَ : لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يُوجِبُ نَفْيَ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْ اللَّهِ كَمَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يُثْبِتُ لَهُ مَا هُوَ ثَابِتٌ وَإِنْ كَانَ السَّمْعُ كَافِيًا كَانَ مُخْبِرًا عَمَّا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ فَمَا الْفَرْقُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا ؟ فَيُقَالُ : كُلَّمَا نُفِيَ صِفَاتُ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ لِلَّهِ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ فَإِنَّ ثُبُوتَ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الْآخَرِ فَإِذَا عُلِمَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ وَاجِبُ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ وَأَنَّهُ قَدِيمٌ وَاجِبُ الْقِدَمِ : عُلِمَ امْتِنَاعُ الْعَدَمِ وَالْحُدُوثِ عَلَيْهِ وَعُلِمَ أَنَّهُ غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ فَالْمُفْتَقِرُ إلَى مَا سِوَاهُ فِي بَعْضِ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ لِنَفْسِهِ : لَيْسَ هُوَ مَوْجُودًا بِنَفْسِهِ بَلْ بِنَفْسِهِ وَبِذَلِكَ الْآخَرِ الَّذِي أَعْطَاهُ مَا تَحْتَاجُ إلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا يُوجَدُ إلَّا بِهِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ فَكُلُّ مَا نَافَى غِنَاهُ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدِيرٌ قَوِيٌّ فَكُلُّ مَا نَافَى قُدْرَتَهُ وَقُوَّتَهُ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ حَيٌّ قَيُّومٌ فَكُلُّ مَا نَافَى حَيَاتَهُ وَقَيُّومِيَّتَهُ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ»

التوضيح

هنا سؤال لمن نفى النقائص عن الله بمجرد نفي التشبيه مع إثباته للصفات الخبرية وهي التي لا طريق إلى معرفتها إلا بالسمع وهي قسمان :

- الأول : الصفات الفعلية . كالمجيء والنزول .
- الثاني : الصفات الذاتية . كالوجه واليدين .

والسؤال هو : ما الفرق بين هذه النقائص التي نفيتها وبين الصفات التي أثبتها ؟ فإن من أثبت النقائص لله بإمكانه أن يقول أثبتها بلا تشبيه فإن قال العمدة

في التفريق بين النقائص والصفات هو السمع فما أثبته السمع أثبته وما لم يثبته أنفيه فيجاب عليه بجوابين وخلاصتهما كما يلي :

أولا : السمع خبر الصادق عما عليه الأمر فما أخبر به من نفي أو إثبات فهو حق وهو دليل على المخبر به والدليل لا ينعكس أي إذا انعدم الدليل لا يلزم منه انعدام المدلول فإذا لم يرد السمع بصفة جاز أن تكون ثابتة في نفسها مالم يكن نفاها السمع ، ومعلوم أن السمع لم ينفِ الصفات بأسمائها الخاصة ؛ فلم يقل إن الله لايبكي ولايأكل ونحو ذلك مما نقطع جميعا ببطلانه . إذن فلابد من أمر يوجب نفي ما يجب نفيه عن الله وما يجب إثباته لله ﷻ .

ثانيا : هذه المقدمة لبيان أن تصريح السمع لايكفي في النفي أو الإثبات بل هناك لوازم عقلية تتوافق مع الأدلة النقلية فتثبت بمجموعها كمال الصفات الإلهية وقد سبق بيان ذلك ونبينه بمايلي :

الضابط هو : أن كل ما نافى صفات الكمال الثابتة لله تعالى فهو منزه عنه لأن ثبوت أحد الضدين يستلزم نفي الآخر كالنقص والعيب والمماثلة للمخلوق ، فمثلا : إذا علم أنه قديم قائم بنفسه علم امتناع العدم والحدوث والافتقار . فكل ما نافى غناه فهو منزه عنه وكذلك كل ما نافى قدرته وقوته فهو منزه عنه وكل ما نافى حياته وقيوميته فهو منزه عنه وهكذا فهذه هي القاعدة العامة في التنزيه لا طريقة نفي التشبيه أو التجسيم التي تناقض فيها المتكلمون كما سبق .

الخلاصة

قوله : ﴿ وَبِالْجُمْلَةِ فَالسَّمْعُ قَدْ أَثْبَتَ لَهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِ الْكَمَالِ مَا قَدْ وَرَدَ فَكُلُّ مَا ضَادَّ ذَلِكَ فَالسَّمْعُ يَنْفِيه كَمَا يَنْفِي عَنْهُ الْمِثْلَ وَالْكُفُوَ فَإِنَّ إثْبَاتَ الشَّيْءِ نَفْيٌ لِضِدِّهِ وَلِمَا يَسْتَلْزِمُ ضِدَّهُ وَالْعَقْلُ يَعْرِفُ نَفْيَ ذَلِكَ كَمَا يَعْرِفُ إثْبَاتَ ضِدِّهِ فَإِثْبَاتُ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ

نَفْيٌ لِلْآخَرِ وَلِمَا يَسْتَلْزِمُهُ . فَطُرُقُ الْعِلْمِ بِنَفْيِ مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ الرَّبُّ مُتَّسِعَةٌ لَا يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى الِاقْتِصَارِ عَلَى مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ كَمَا فَعَلَهُ أَهْلُ الْقُصُورِ وَالتَّقْصِيرِ : الَّذِينَ تَنَاقَضُوا فِي ذَلِكَ وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ حَتَّى أَنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا احْتَجَّ عَلَيْهِ مَنْ نَفَاهُ بِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ﴾

التوضيح

ومجمل القول أنه ورد في الكتاب والسنة كثير من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، فكل ما نافى ذلك الكمال فإنه ينفى عنه لأن إثبات أحد الضدين نفي للآخر ونفي للوازمه فنفي الظلم إثبات للعدل ونفي المثيل إثبات للتفرد والوحدانية وطرق التنزيه كثيرة لا يقتصر فيها على نفي التشبيه والتجسيم مع ما فيها من التناقض والقصور وكما سبق بيانه فهي تتلخص فيما يلي :

١) النفي الصريح في النصوص .
٢) نفي النقص والعيب . وضابط النقص : كل ما نافى الكمال أو ما نافى لوازم الكمال .
٣) نفي المماثلة لخلقه .

استطراد

قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ احْتَجَّ الْقَرَامِطَةُ عَلَى نَفْيِ جَمِيعِ الْأُمُورِ حَتَّى نَفَوْا النَّفْيَ فَقَالُوا : لَا يُقَالُ لَا مَوْجُودَ وَلَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا حَيَّ وَلَا لَيْسَ بِحَيٍّ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ تَشْبِيهٌ بِالْمَوْجُودِ أَوْ الْمَعْدُومِ فَلَزِمَ نَفْيُ النَّقِيضَيْنِ : وَهُوَ أَظْهَرُ الْأَشْيَاءِ امْتِنَاعًا ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَلْزَمُهُمْ مِنْ تَشْبِيهِهِ

بِالْمَعْدُومَاتِ وَالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْجَمَادَاتِ : أَعْظَمُ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ مِنَ التَّشْبِيهِ بِالْأَحْيَاءِ الْكَامِلِينَ فَطُرُقُ تَنْزِيهِهِ وَتَقْدِيسِهِ عَمَّا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ مُتَّسِعَةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى هَذَا ﴾

التوضيح

رجع شيخ الإسلام إلى طريقة القرامطة ليثبت فساد الاعتماد على نفي التشبيه . فإن القرامطة نفوا عن الله تعالى النفي بحجة التشبيه بالموجودات أو المعدومات فوقعوا في التشبيه بالممتنعات ، فلزمهم من التشبيه أعظم مما فروا منه وجميع هذه الإلزامات تقدمت فيما سبق .

النفي لا يأتي إلا لإثبات الكمال

قوله : ﴿ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَا يُنْفَى عَنْهُ - سُبْحَانَهُ - النَّفْيُ الْمُتَضَمِّنُ لِلْإِثْبَاتِ إِذْ مُجَرَّدُ النَّفْيِ لَا مَدْحَ فِيهِ وَلَا كَمَالَ فَإِنَّ الْمَعْدُومَ يُوصَفُ بِالنَّفْيِ وَالْمَعْدُومَ لَا يُشْبِهُ الْمَوْجُودَاتِ وَلَيْسَ هَذَا مَدْحًا لَهُ لِأَنَّ مُشَابَهَةَ النَّاقِصِ فِي صِفَاتِ النَّقْصِ نَقْصٌ مُطْلَقًا كَمَا أَنَّ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقِ فِي شَيْءٍ مِنَ الصِّفَاتِ تَمْثِيلٌ وَتَشْبِيهٌ يُنَزَّهُ عَنْهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴾

التوضيح

ذكر شيخ الإسلام هنا أن النفي لا يأتي في الشرع إلا لإثبات كمال الضد لأن النفي المحض لا مدح فيه ولأن المعدوم يوصف بالنفي فيقال : ليس بموجود وليس بشيء ولا يشبه الموجودات ونحو ذلك وليس في هذا مدح له وينزه الله تعالى عن مماثلة المخلوقين لأن مماثلة الناقص نقص وهذه مقدمة للتفريق بين صفات النقص والكمال .

الرد على ما استدل به المفترون وبيان الفرق بين الكمال والنقص

قوله : ﴿ وَالنَّقْصُ ضِدُّ الْكَمَالِ ؛ وَذَلِكَ مِثْلُ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ حَيٌّ وَالْمَوْتُ ضِدُّ ذَلِكَ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ ؛ وَكَذَلِكَ النَّوْمُ وَالسِّنَةُ ضِدُّ كَمَالِ الْحَيَاةِ فَإِنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ وَكَذَلِكَ اللُّغُوبُ نَقْصٌ فِي الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ فِيهِ افْتِقَارٌ إلَى مَوْجُودٍ غَيْرِهِ كَمَا أَنَّ الِاسْتِعَانَةَ بِالْغَيْرِ وَالِاعْتِضَادَ بِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ تَتَضَمَّنُ الِافْتِقَارَ إلَيْهِ وَالِاحْتِيَاجَ إلَيْهِ . وَكُلُّ مَنْ يَحْتَاجُ إلَى مَنْ يَحْمِلُهُ أَوْ يُعِينُهُ عَلَى قِيَامِ ذَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إلَيْهِ لَيْسَ مُسْتَغْنِيًا عَنْهُ بِنَفْسِهِ فَكَيْفَ مَنْ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَالْآكِلُ وَالشَّارِبُ أَجْوَفُ وَالْمُصْمَتُ الصَّمَدُ أَكْمَلُ مِنْ الْآكِلِ وَالشَّارِبِ وَلِهَذَا كَانَتْ الْمَلَائِكَةُ صُمْدًا لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِمَخْلُوقِ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِهِ وَكُلُّ نَقْصٍ تَنَزَّهَ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِتَنْزِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ وَالسَّمْعُ قَدْ نَفَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (اللَّهُ الصَّمَدُ) وَالصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَهَذِهِ السُّورَةُ هِيَ نَسَبُ الرَّحْمَنِ أَوْ هِيَ الْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ وَقَالَ فِي حَقِّ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ : (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) فَجَعَلَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ الْأُلُوهِيَّةِ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى تَنْزِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى وَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ وَنَحْوُ ذَلِكَ : هِيَ أَعْضَاءُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ فَالْغَنِيُّ الْمُنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ : مُنَزَّهٌ عَنْ آلَاتِ ذَلِكَ بِخِلَافِ الْيَدِ فَإِنَّهَا لِلْعَمَلِ وَالْفِعْلِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْعَمَلِ

وَالْفِعْلِ ؛ إِذْ ذَاكَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ ؛ فَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَ أَكْمَلُ مِمَّنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْفِعْلِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَعَنْ آلَاتِ ذَلِكَ وَأَسْبَابِهِ وَكَذَلِكَ الْبُكَاءُ وَالْحُزْنُ : هُوَ مُسْتَلْزِمٌ الضَّعْفَ وَالْعَجْزَ الَّذِي يُنَزَّهُ عَنْهُ سُبْحَانَهُ ؛ بِخِلَافِ الْفَرَحِ وَالْغَضَبِ : فَإِنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَكَمَا يُوصَفُ بِالْقُدْرَةِ دُونَ الْعَجْزِ وَبِالْعِلْمِ دُونَ الْجَهْلِ وَبِالْحَيَاةِ دُونَ الْمَوْتِ وَبِالسَّمْعِ دُونَ الصَّمَمِ وَبِالْبَصَرِ دُونَ الْعَمَى وَبِالْكَلَامِ دُونَ الْبَكَمِ : فَكَذَلِكَ يُوصَفُ بِالْفَرَحِ دُونَ الْحُزْنِ وَبِالضَّحِكِ دُونَ الْبُكَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴾

التوضيح

بدأ شيخ الإسلام في بيان الفرق بين صفات الكمال الثابتة لله تعالى وصفات النقص فقال : إذا سوى المفترون بين صفات النقص والكمال فيجاب عليهم بالقاعدة العامة في التنزيه كما يلي :

١ـ إن الله حيٌّ والموت ضد الحياة فيتنزه الله عنه والنوم والسِّنة ضد كمال الحياة.

٢ـ واللغوب نقص في كمال القدرة والقوة فينزه الله عنه .

٣ ـ والأكل والشرب يستدل على نفيهما من وجوه :

- أن فيهما افتقارا إلى موجود غيره وهو الطعام والشراب .
- أن الآكل والشارب أجوف والله سبحانه وتعالى مصمت صمد أي لاجوف له على تفسير جماعة وقد ثبت هذا التفسير عن ابن عباس ومجاهد والحسن[١] والضحاك[٢] وغيرهم[٣] .

---

١ ـ هوالحسن بن الحسن بن أبي الحسن بن يسار أبو سعيد مولى زيد بن ثابت وأمه مولاة لأم سلمة من أئمة التابعين توفي سنة ١١٠ . تهذيب السير : [٦٠٠] .

٢ ـ هو الضحاك بن مزاحم بن الهلالي صاحب التفسير وإمام فيه توفي سنة ١٠٢ . البداية والنهاية : (٩ / ٢٢٣) والسير : (٤٤ / ٥٩٨)

٣ ـ انظر زاد المسير : (٨ / ٣٣١) والقرطبي : (٢٠ / ٢٢٦) وابن كثير : (٤ / ٦١٠) وفتح القدير : (٥ / ٧٣٥) وصحح هذه الآثار الشيخ الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم عن مجاهد برقم : [٦٧٣ و ٦٧٤ و ٦٧٥] وعن الحسن برقم : [٦٨٠] وعن الضحاك برقم : [٦٨٨ و ٦٨٩]

بل وثبت أن الصمد هو الذي لايأكل ولا يشرب عن الشعبي [1] وهو صريح في نفي هذا النقص عن الله تعالى .

قوله : (وهذه السورة هي نسب الرحمن) ثبت ذلك عن أبي بن كعب ﷺ : أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : ((انسب لنا ربك . فأنزل الله سورة الإخلاص)) [2]

- أن الملائكة صمد لاتأكل ولا تشرب وهذا كمال لها وتقدم قياس الأولى وهو أن كل كمال اتصف به المخلوق فالخالق أولى به ، فيوصف هنا بأنه صمد لا يأكل ولا يشرب .

- قوله تعالى :﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ المائدة : [٧٥] فجعل الأكل دليلا على نفي الألوهية . فالله أولى بالتنزه عنه .

١) وأما الكبد والطحال وأعضاء الأكل والشرب فالغني المنزه عن الأكل والشرب منزه عن آلات ذلك لوازمه ، بخلاف اليد فإنها للفعل والله موصوف

---

١ ـ الشعبي هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الإمام المحدث حدّث عن عدد من الصحابة وتوفي سنة ١٠٤ . التاريخ الكبير : (٦ / ٤٥٠) وقد صحح الأثر الألباني في تخريج كتاب السنة برقم : [٦٨٢ و ٦٨٣] انظر البغوي : (٨ / ٥٨٨) .

٢ ـ أخرجه الإمام أحمد : (٥ / ١٣٣) والترمذي : (٢ / ٢٤٠) وابن جرير : (٣٠ / ٢٢١) عن أبي بن كعب ورواه ابن جرير : (٣٠ / ٢٢١) وعبد الله في السنة : (١ / ٥٠٨) برقم : [١١٨٥] عن جابر . والحديث ضعفه الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم برقم : [٦٦٣]>> من رواية أبي وصححه الحاكم : (٢ / ٥٤٠) ووافقه الذهبي ، وقد حسنه أ.د. الجوابرة بشواهده في تخريج السنة : (١ / ٤٦٠) برقم : [٦٧٥] وتتبع السيوطي طرقه في الدر المنثور : (٨ / ٦٦٩) وجملة القول : إن الحديث قابل للتحسين . والله أعلم . وانظر الأجوبة المرضية : ص ٢٥٤ .

بالفعل وهو كمال فالفاعل أكمل ممن لايقدر علـى الفعـل بالإضافـة إلى ثبوتـها في النصوص .

٥) والله منزه عن الصاحبة والولد فينزه عن آلات ذلـك و أسبابه كالشـهوة والأعضاء .

٦) وأما البكاء والحزن فمستلزم للضعف والعجز بخلاف الفـرح والغضـب والضحك فإنها من صفات الكمال الثابتة شرعا فكما يوصف بالقدرة دون العجـز فكذلك يوصف بالفرح دون الحزن وبالضحك دون البكاء لعدم منافاتـها لصفـات الكمال . ودليل ثبوت الفرح قوله ﷺ : ((لله أفرح بتوبـة عبـده مـن أحدكـم ... الحديث))[1] ودليل ثبـوت الضحـك قولـه ﷺ : ((يضحـك الله إلى رجلـين يقتـل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة))[2]

نفي المماثلة عن الله

قوله : ﴿وَأَيْضًا فَقَدْ ثَبَتَ بِالْعَقْلِ مَا أَثْبَتَهُ السَّمْعُ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا كُفُؤَ لَهُ وَلَا سَمِيَّ لَهُ وَلَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ وَلَا حَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ كَحَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ فَيُعْلَمُ قَطْعًا أَنَّهُ لَيسَ مِنْ جِنْسِ الْمَخْلُوقَاتِ لَا الْمَلَائِكَةِ وَلَا السَّمَوَاتِ وَلَا الْكَوَاكِبِ وَلَا الْهَوَاءِ وَلَا الْمَاءِ وَلَا الْأَرْضِ وَلَا الْآدَمِيِّينَ وَلَا أَبْدَانِهِمْ وَلَا أَنْفُسِهِمْ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ حَقِيقَتَهُ عَنْ مُمَاثَلَاتِ شَيْءٍ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ أَبْعَدُ مِنْ سَائِرِ الْحَقَائِقِ وَأَنَّ مُمَاثَلَتَهُ لِشَيْءٍ مِنْهَا أَبْعَدُ مِنْ مُمَاثَلَةِ حَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ لِحَقِيقَةِ مَخْلُوقٍ آخَرَ فَإِنَّ الْحَقِيقَتَيْنِ إذَا تَمَاثَلَتَا : جَازَ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مَا يَجُوزُ عَلَى الْأُخْرَى

---
١ ـ البخاري : [٦٣٠٨] ومسلم : [٢٧٤٧]

٢ ـ البخاري : [٢٨٢٦] ومسلم : [١٨٩٠]

وَوَجَبَ لَهَا مَا وَجَبَ لَهَا . فَيَلْزَمُ أَنْ يَجُوزَ عَلَى الْخَالِقِ الْقَدِيمِ الْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْمُحْدَثِ الْمَخْلُوقِ مِنْ الْعَدَمِ وَالْحَاجَةِ وَأَنْ يُثْبَتَ لِهَذَا مَا يُثْبَتُ لِذَلِكَ مِنْ الْوُجُوبِ وَالْفَنَاءِ فَيَكُونُ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ وَاجِبًا بِنَفْسِهِ غَيْرَ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ مَوْجُودًا مَعْدُومًا وَذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ وَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِهِ بُطْلَانُ قَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : بَصَرٌ كَبَصَرِي أَوْ يَدٌ كَيَدِي وَنَحْوِ ذَلِكَ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا»

التوضيح

ثبت نفي التمثيل نقلا وعقلا :

ـ أما نقلا فكقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ الشورى : [١١] وقوله :﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٧٤﴾ النحل : [٧٤] . وقوله : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ ﴿٦٥﴾ مريم : [٦٥] وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ ﴿٤﴾ الإخلاص : [٤] وقوله : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ البقرة : [٢٢]

ـ وأما عقلا : فلو قلنا بالتماثل للزم أن يجب له ما يجب للمخلوقين ، وأن يجوز عليه ما يجوز عليهم ، وهذا باطل ، لأنه يلزم أن يكون الخالق القديم الواجب بنفسه جائزا عليه العدم والحاجة ويكون للمخلوق صفة الوجوب والقدم فيكون الشيء الواحد واجبا غير واجب بنفسه قديما ومحدثا ، وذلك جمع بين النقيضين وهو ممتنع ، ومن هنا يعلم بطلان قول المشبهة الذين يقولون : له بصر كبصري ويد

كيدي . كما سبق النقل به عن الإمام إسحاق بن راهويه حيث قوله :(إنما يكون التشبيه إذا قال يد مثل يدي أو سمع مثل سمعي فهذا تشبيه)[1]

خاتمة القاعدة السادسة

قوله : ﴿ وَلَيسَ الْمَقْصُودُ هُنَا اسْتِيفَاءَ مَا يَثْبُتُ لَهُ وَلَا مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ واسْتِيفَاءَ طُرُق ذَلِك ؛ لِأَنَّ هَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى جَوَامِعِ ذَلِكَ وَطُرُقِهِ وَمَا سَكَتَ عَنْهُ السَّمْعُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا وَلَمْ يَكُنْ فِي الْعَقْلِ مَا يُثْبِتُهُ وَلَا يَنْفِيهِ سَكَتْنَا عَنْهُ فَلَا نُثْبِتُهُ وَلَا نَنْفِيه . فَنُثْبِتُ مَا عَلِمْنَا ثُبُوتَهُ وَنَنْفِي مَا عَلِمْنَا نَفْيَهُ وَنَسْكُتُ عَمَّا لَا نَعْلَمُ نَفْيَهُ وَلَا إِثْبَاتَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ﴾

التوضيح

المقصود بيان جوامع الكلام عن النفي والإثبات وأن ماسكت عنه السمع نفيا وإثباتا ولم يكن في العقل ما يثبته أو ينفيه بالطريقة السابقة وهي أن كل نافي للكمال الثابت له فهو منزه عنه سبحانه ، فإننا نسكت عنه فننفي ما نفاه ونثبت ما أثبته ، ومالم نعلم نفيه أو إثباته فلاننفيه ولا نثبته والله أعلم .

---

١ ـ الترمذي : (١ / ١٢٨) ، مختصر العلو :ص ٢١٨ .

خلاصة القاعدة السادسة

١. للمتكلمين طريقتان في التنزيه : الأولى : التنزيه بنفي التشبيه . الثانية : التنزيه بنفي التجسيم . وهما طريقتان باطلتان .

٢. الطريقة الصحيحة في التنزيه هي :

- أولا : نفي ما نفى الله تصريحا .
- ثانيا : نفي النقص والعيب عن الله . وضابطه أمران :

أ ـ كل ما يضاد الكمال فهو نقص .

ب ـ كل ما كان من لوازم النقص .

- ثالثا : نفي مماثلة الله لمخلوقاته .

٣. نهاية المتكلمين هي الحيرة والاضطراب .

٤. الموجودات هي عين ماهياتها في الخارج وزائدة على ماهياتها في الذهن .

٥. الوجود متواطئ لفظا ومعنى .

٦. الأحوال لا حقيقة لها في الأعيان .

٧. المعدوم شيء في الذهن وليس بشيء في الخارج ؛ أي هو شيء علمي لا عيني

المناقشة ؟

١) ماالفرق بين التمثيل والتشبيه ؟

٢) ماهي طرق التنزيه عند المتكلمين ؟

٣) اذكر شبهة تعدد القدماء ومن القائلين بها . ومالرد عليهم ؟

٤) اذكر الطريقة الصحيحة في النفي أي التنزيه .

٥) اذكر وجوه بطلان طريقة التنزيه بنفي التجسيم .

٦) اذكر وجوه بطلان طريقة التنزيه بنفي التشبيه .

٧) كيف تجيب على من زعم أن إثبات القدر المشترك يستلزم أن يجوز على الله ما يجوز على المخلوقات وأن يجب له ما يجب لهم وأن يمتنع عليه ما يمتنع عليهم؟

٨) اذكر أمثلة من المتكلمين الذين شهدوا على أنفسهم بالحيرة والاضطراب .

٩) ماالقول الحق في المسائل التالية :

- وجود الرب عين ماهيته أو زائد عنها .
- لفظ الوجود من قبيل المشترك اللفظي أم المتواطئ أم المشكك .
- إثبات الأحوال .
- المعدوم شيء أم لا .
- وجود الموجودات عين ماهياتها أم لا .

١٠) هل يكفي الاعتماد في النفي على مجرد عدم ورود السمع ؟ ولماذا؟

١١) كيف ترد على من سوّى بين وصفِ الله بالنقائص كالمعدة والأمعاء والبكاء ووصفِهِ بالكمال كالوجه والضحك والفرح ؟

١٢) اذكر أدلة نفي التمثيل نقلا وعقلا .

القاعدة السابعة

دلالة العقل على كثير مما دل عليه السمع

قوله : ﴿ القاعدة السابعة أن يقال : إن كثيرا مما دل عليه " السمع " يعلم " بالعقل " أيضا والقرآن يبين ما يستدل به العقل ويرشد إليه وينبه عليه ؛ كما ذكر الله ذلك في غير موضع . فإنه سبحانه وتعالى : بين من الآيات الدالة عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وغير ذلك : ما أرشد العباد إليه ودلهم عليه ؛ كما بين أيضا ما دل على نبوة أنبيائه ؛ وما دل على المعاد وإمكانه فهذه المطالب هي شرعية من جهتين : - من جهة أن الشارع أخبر بها . ومن جهة أنه بين الأدلة العقلية التي يستدل بها عليها والأمثال المضروبة في القرآن هي " أقيسة عقلية " وقد بسط في غير هذا الموضع وهي أيضا عقلية من جهة أنها تعلم بالعقل أيضا ﴾

التوضيح

هذه القاعدة يتكلم فيها شيخ الإسلام عن موضوعين أساسين هما :

الأول : دلالة العقل على ما يدل عليه النقل .

الثاني : مناقشة المعطلة في شبهة التقابل السابقة .

الموضوع الأول : موافقة العقل لما دل عليه النقل :

وتحت هذا الموضوع مسائل كثير أرتبها كمايلي :

المسألة الأولى : كثير مما أثبته السمع يثبته العقل أيضا

دل السمع على وحدانيته وعلمه وقدرته وصدق النبوة والمعاد وغيرها ثم بين العقل طرق الاستدلال عليها .

فمثلا : أرشد السمعُ العقلَ إلى معرفة الله تعالى ووحدانيته بدلالات كثيرة منها :

١) دلالة الآيات العيانية كالسموات والأرض والجبال والأنهار والشمس والقمر كما قال الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ النمل : [٦٠ ـ ٦١]

٢) وكذلك دلالة الأنفس كما في قوله تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ الذاريات : [٢١]

◆ وأرشد العقل إلى معرفة علمه بإحكامه للمخلوقات كما قال تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ يس : [٣٨] .

◆ و أرشد إلى معرفة قدرته بالتأمل في مخلوقاته كما قال تعالى : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ ﴿٥٤﴾ الفرقان : [٥٣ ـ ٥٤] .

◆ وهكذا دلل على صدق نبوة أنبيائه ببيان معجزاتهم ونصر الله لهم وتمكينه للدين الذي جاؤوا به .

ودلل على المعاد والبعث وإمكانه بثلاث طرق عقلية :

١ ـ الوقوع . ٢ ـ وقوع النظير . ٣ ـ وقوع ماهو أعظم منه.

ـ أولها : وقوعه . كما في حق أصحاب الكهف الذي بعثهم الله بعد موتهم وكذلك الذي مرّ على القرية كما قال تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ البقرة : [٢٥٩] وكذا في قوله : ﴿ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ البقرة : [٢٤٣]

ـ ثانيها : وقوع نظيره في النشأة الأولى ، فإنها تشبه البعث وإن لم تكن مطابقة له من كل وجه . كما قال تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ق : [١٥] وقال : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ الأنبياء : [١٠٤] وقال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ يس : [٧٨ ـ ٧٩] .

ـ ثالثها : وأما وقوع ماهو أعظم منه فخلق السموات والأرض كما قال تعالى :﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ غافر : [٥٧]

فلذلك فإن هذه المطالب شرعية وعقلية [١]:

---

١ ـ درء التعارض : (١ / ٢٨٠)

أ ـ أما كونها شرعية فمن جهتين : الأولى : أن الشارع أخبر بها . الثانية : أنه يبين الادلة العقلية التي يستدل بها .

ب ـ وأما كونها عقلية : فمن جهة أنها تدرك وتعلم بالعقل . وجميع الأمثال المضروبة في القرآن هي عقلية أيضا مع كونها شرعية وهي كثيرة جدا نمثل لها بمثال واحد وهو قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٩﴾ الزمر : [٢٩] أي ضرب الله مثلا لرجلين : أحدهما عبد لعدد من الشركاء وهم في نزاع دائم ، والآخر : عبد لسيد واحد فهو مطمئن يؤدي ما يطلبه منه سيده . فهذا المثل مضروب فيمن يتخذ مع الله شركاء وفيمن يفرد الله تعالى بالعبادة والطاعة فهل يستوي الرجلان في الاطمئنان وأداء ما أمر به باتقان[1]. لذلك قال : (الحمد لله) أي الحمد لله على تبين الحق من الباطل . (بل أكثرهم لا يعلمون)[2] كما قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾ العنكبوت : [٤٣]

المسألة الثانية : فساد دلائل المتكلمين

قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يُسَمِّي هَذِهِ " الْأُصُولُ الْعَقْلِيَّةُ " لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهَا لَا تُعْلَمُ إِلَّا بِالْعَقْلِ فَقَطْ فَإِنَّ السَّمْعَ هُوَ مُجَرَّدُ إِخْبَارِ الصَّادِقِ وَخَبَرُ الصَّادِقِ الَّذِي هُوَ النَّبِيُّ لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهَذِهِ الْأُصُولِ بِالْعَقْلِ .

---

١ ـ مدراج السالكين : (١ / ٢٤٠)

٢ ـ تيسر الكريم الرحمن للعلامة السعدي : ص ٦٧٠ .

ثُمَّ إِنَّهُمْ قَدْ يَتَنَازَعُونَ فِي الْأُصُولِ الَّتِي تَتَوَقَّفُ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ عَلَيْهَا ؛ " فَطَائِفَةٌ " تَزْعُمُ : أَنَّ تَحْسِينَ الْعَقْلِ وَتَقْبِيحَهُ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْأُصُولِ وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ بِدُونِ ذَلِكَ وَيَجْعَلُونَ التَّكْذِيبَ بِالْقَدَرِ مِمَّا يَنْفِيهِ الْعَقْلُ .

وَ " طَائِفَةٌ " تَزْعُمُ أَنَّ حُدُوثَ الْعَالَمِ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ وَأَنَّ الْعِلْمَ بِالصَّانِعِ لَا يُمْكِنُ إلَّا بِإِثْبَاتِ حُدُوثِهِ وَإِثْبَاتِ حُدُوثِهِ لَا يُمْكِنُ إلَّا بِحُدُوثِ الْأَجْسَامِ ، وَحُدُوثُهَا يُعْلَمُ إمَّا بِحُدُوثِ الصِّفَاتِ ، وَإِمَّا بِحُدُوثِ الْأَفْعَالِ الْقَائِمَةِ بِهَا فَيَجْعَلُونَ نَفْيَ أَفْعَالِ الرَّبِّ وَنَفْيَ صِفَاتِهِ مِنْ الْأُصُولِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ إثْبَاتُ النُّبُوَّةِ إلَّا بِهَا .

ثُمَّ هَؤُلَاءِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى نَقِيضِ قَوْلِهِمْ لِظَنِّهِمْ أَنَّ الْعَقْلَ عَارِضُ السَّمْعِ - وَهُوَ أَصْلُهُ - فَيَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَيْهِ ، وَالسَّمْعُ : إمَّا أَنْ يُؤَوَّلَ وَإِمَّا أَنْ يُفَوَّضَ وَهُمْ أَيْضًا عِنْدَ التَّحْقِيقِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى وَفْقِ قَوْلِهِمْ لِمَا تَقَدَّمَ

التوضيح

هذه المطالب السابقة كوحدانية الله وصدق النبوة يسميها المتكلمون بالأصول العقلية لاعتقادهم أنها لا تعلم إلا بالعقل ، فالسمع عندهم إخبار الصادق ، ولايعلم صدقه إلا بعد ثبوت عصمته ونبوته ، والنبوة عندهم لا تثبت إلا بهذه الأصول . وهم متنازعون في الأصول التي يتوقف عليها إثبات النبوة كمايلي :

١ ـ فطائفة تزعم أن مسألة التحسين والتقبيح داخلة في هذه الأصول وأنه لايمكن إثبات النبوة بدونها ويجعلون التكذيب بالقدر مما يقتضيه العقل ويوجبه

وهؤلاء هم المعتزلة ومذهبهم في التحسين والتقبيح أن العقل يحسن الأشياء ويقبحها وما حكم العقل بحسنه وجب فعله وما حكم بقبحه حرم فعله ويبنون على ذلك أمورا منها :

أ ـ إثبات النبوة ، فإن فيها عدلا وهو حسن فتجب .

ب ـ ومنها نفي القدر فإن فيه ظلما ـ بزعمهم ـ إذ لا يجوز تعذيب العبد مع خلق فعله فهو قبيح فيمتنع فعله عندهم .

ومذهب أهل السنة أن للعقل مدخلا في التحسين والتقبيح لكنه لا يبنى عليه إيجاب أو تحريم إذ الإيجاب والتحريم وبقية الأحكام متوقفة على الشرع فقط وسيأتي مفصّلا في الأصل الثاني .

٢ ـ وطائفة تزعم أن حدوث العالم من هذه الأصول فلا يمكن العلم بالصانع إلا بإثبات حدوث العالم وإثبات حدوثه لا يمكن إلا بحدوث الأجسام وحدوثها يعلم إما بحدوث الصفات أو الأفعال القائمة بها ويسمونها أعراضا ولذلك قالوا : لا تقوم الصفات الذاتية والأفعال إلا بجسم فنفوا بذلك صفات الله وأفعاله من هذا الباب وجعلوه من الأصول التي لا يمكن إثبات النبوة إلا بها وهم جمهور الأشاعرة[١] والماتريدية[٢] متابعة منهم للمعتزلة[٣] .

ثم إن هؤلاء لايقبلون أدلة الكتاب والسنة إذا خالفت قولهم لظنهم أنها عارضت العقل فيجب تقديم الأصول العقلية عليها . وأما السمع فإمّا أن يؤول أو أن يفوض كماسبق[٤] .

---

١ ـ انظر المواقف للإيجي : ص ٢٨ . شرح الجوهرة للبيجوري : ص ٣٨ .

٢ ـ انظر شرح المقاصد للتفتازاني : (١ / ٤٤) ، التوحيد للماتريدي : ص ١٣٥ .

٣ ـ انظر التوحيد لعبد الجبار المعتزلي : (٤/ ٤١) ، شرح الأصول الخمسة له ص :٦٠

٤ ـ انظر تفصيل هذا الأصل في كتاب الأصول التي بنى عليها المتبدعة مذهبهم في الصفات : (١/ ٣١٧) إلى آخر المجلد .

فاخترعوا نظريات عقلية وجعلوها يقينيات عقلية وبنوا عليها النصوص الشرعية ردا أو قبولا وتفويضا أو تأويلا .

المسألة الثالثة : وجوه ضلال هذه الطوائف

قوله : ﴿ وَهَؤُلَاءِ يَضِلُّونَ مِنْ وُجُوهٍ : - (مِنْهَا) : ظَنُّهُمْ أَنَّ السَّمْعَ بِطَرِيقِ الْخَبَرِ تَارَةً وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ بَلْ الْقُرْآنُ بَيَّنَ مِنْ الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ - الَّتِي تُعْلَمُ بِهَا الْمَطَالِبُ الدِّينِيَّةُ - مَا لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ فِي كَلَامِ أَئِمَّةِ النَّظَرِ فَتَكُونُ هَذِهِ الْمَطَالِبُ : شَرْعِيَّةً عَقْلِيَّةً و (مِنْهَا : ظَنُّهُمْ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ إلَّا بِالطَّرِيقِ الْمُعَيَّنَةِ الَّتِي سَلَكُوهَا وَهُمْ مُخْطِئُونَ قَطْعًا فِي انْحِصَارِ طَرِيقِ تَصْدِيقِهِ فِيمَا ذَكَرُوهُ فَإِنَّ طُرُقَ الْعِلْمِ بِصِدْقِ الرَّسُولِ كَثِيرَةٌ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ و (مِنْهَا : ظَنُّهُمْ أَنَّ تِلْكَ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكُوهَا صَحِيحَةٌ وَقَدْ تَكُونُ بَاطِلَةً (وَمِنْهَا : ظَنُّهُمْ أَنَّ مَا عَارَضُوا بِهِ السَّمْعَ مَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ وَيَكُونُونَ غَالِطِينَ فِي ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ إذَا وُزِنَ بِالْمِيزَانِ الصَّحِيحِ وُجِدَ مَا يُعَارِضُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مِنْ الْمَجْهُولَاتِ ؛ لَا مِنْ الْمَعْقُولَاتِ وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ﴾

التوضيح

وهذه الطوائف التي تزعم أن أصولها عقلية وماجاء به السمع خبر مجرد تضل من وجوه :

الوجه الأول : ظنهم أن الشرع خبر مجرد ، وليس الأمر كذلك بل يبين القرآن من الدلائل العقلية التي تعلم بها المطالب الدينية ما لا يوجد مثله في كلام أئمة النظر والحكماء فهذه الدلائل شرعية عقلية كما سبق .

الوجه الثاني : ظنهم أن الرسول لا يُعرف صدقه إلا بطريقتهم تلك . وهذا خطأ بل طرق العلم بصدق الرسول كثيرة جدا[1] . قال الإمام أبو الحسن الأشعري : (وإذا ثبت بالقرآن صدقه فقد علم صحة كل ما أخبر به النبي ﷺ وصارت أخباره عليه السلام أدلة على صحة سائر ما دعا إليه من الأمور الغائبة عن حواسنا وصفات فعله وصار خبره عليه السلام عن ذلك سبيلا إلى إدراكه وطريقا إلى العلم بحقيقته وكان يستدل به من أخباره ﷺ على ذلك أوضح من دلالة الأعراض التي اعتمد على الاستدلال بها الفلاسفة ومن تبعهم من القدرية أهل البدع والمنحرفين عن الرسل عليهم السلام) انتهى بحروفه[2] .

الوجه الثالث : ظنهم أن تلك الطرق صحيحة مع أنها قد تكون باطلة غالبا.

الوجه الرابع : ظنهم أن ماعارضوا به السمع معلوم بالعقل . وهو غلط فإن العقل لا يعارض السمع وإنما يعارض الكتابَ والسنةَ المجهولاتُ لا المعقولاتُ[3].

المسألة الرابعة : أمثلة لصفات تعلم بالعقل

قوله : ﴿ وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ مِنْ " صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى " مَا قَدْ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ كَمَا يُعْلَمُ أَنَّهُ عَالِمٌ وَأَنَّهُ قَادِرٌ وَأَنَّهُ حَيٌّ ؛ كَمَا أَرْشَدَ إلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ؟) وَقَدْ اتَّفَقَ النُّظَّارُ مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ : عَلَى أَنَّهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّهُ حَيٌّ ؛ عَلِيمٌ ؛ قَدِيرٌ ؛ مُرِيدٌ ؛ وَكَذَلِكَ السَّمْعُ ؛ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ . يَثْبُتُ بِالْعَقْلِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ بَلْ وَكَذَلِكَ الْحُبُّ وَالرِّضَا وَالْغَضَبُ . يُمْكِنُ إثْبَاتُهُ بِالْعَقْلِ وَكَذَلِكَ عُلُوُّهُ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَمُبَايَنَتُهُ لَهَا مِمَّا يُعْلَم

---

١ ـ انظر النبوات لابن تيمية : ص ٦٢ .

٢ ـ رسالة إلى أهل الثغر :ص٥١ .

٣ ـ انظرفيما سبق درء التعارض : (٧/ ١٤٣) ومنهاج السنة : (٢/ ٦١٠)

بِالْعَقْلِ كَمَا أَثْبَتَهُ بِذَلِكَ الْأَئِمَّةُ : مِثْلُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ . وَمِثْلُ : عَبْدِ الْعَالِي الْمَكِّيِّ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كِلَابٍ ؛ بَلْ وَكَذَلِكَ إمْكَانُ الرُّؤْيَةِ : يَثْبُتُ بِالْعَقْلِ ، لَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ تَصِحُّ رُؤْيَتُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ . وَهَذِهِ الطَّرِيقُ أَصَحُّ مِنْ تِلْكَ وَقَدْ يُمْكِنُ إثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ بِغَيْرِ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ بِتَقْسِيمٍ دَائِرٍ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ كَمَا يُقَالُ : إنَّ الرُّؤْيَةَ لَا تَتَوَقَّفُ إلَّا عَلَى أُمُورٍ وُجُودِيَّةٍ فَإِنَّ مَا لَا يَتَوَقَّفُ إلَّا عَلَى أُمُورٍ وُجُودِيَّةٍ يَكُونُ الْمَوْجُودُ الْوَاجِبُ الْقَدِيمُ : أَحَقَّ بِهِ مِنْ الْمُمْكِنِ الْمُحْدَثِ وَالْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ

التوضيح

يتابع شيخ الإسلام في إثبات طرق عقلية تتوافق مـع النصـوص الشـرعية ردا على المتكلمين في حصرهم للطرق العقلية فيما اخترعوه من نظريـات عـارضوا بـها النقليات فقال : هنا صفات الله ﷻ قد تعلم بالعقل وأمثلة ذلك ما يلي :

١ ـ في قولـه تعـالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ الملك :[١٤] أثبت الله خلقه للخلق، وهذا يرشدنا إلى اتصافه بالعلم والقدرة والحيـاة، فإنه لايخلق إلا قادر على الخلق عالم بما سيخلقه ولا يكون ذلك إلا من حيٍّ .

٢ ـ اتفاق النظار أي المتكلمين من الأشاعرة علـى أن الصفـات السبع تعلـم بالعقل أيضا كما سبق عن الأشاعرة .

٣ ـ بل الحب والبغض والرضا والسخط يمكن إثباته بـالعقل كمـا سـبق عنـد مناقشة الأشاعرة .

٤ ـ بل والعلو يثبت بالعقل كما أثبتة الأئمة كالإمام أحمد وعبد العزيز المكي[١] و ابن كلاب[٢] فالإمام أحمد في كتابه : (الرد على الزنادقة والجهمية) وللمكي كتاب بنفس الاسم كما ذكره عنه شيخ الإسلام[٣] .

فقالوا: إن الله إما أن يكون قد خلق خلقه داخل نفسه أو خارجها ، والأول محال ، فإن كان خلقها خارج نفسه فإن السفل نقص والعلو كمال فيجب إثبات الكمال وهو العلو .

٥ ـ بل ويمكن إثبات الرؤية عقلا ، فمنهم من أثبتها بأن كل موجود تصح رؤيته ومنهم من أثبتها بأن كل قائم بنفسه يمكن رؤيته وهو أقرب فإن الأول منقوض بموجودات لا ترى .

ويمكن إثباتها بغيرهذين الطريقين : وهو أن يقال إن الرؤية لا تتوقف إلا على أمور وجودية حسية كآلة الرؤية وكون المرئي موجودا لا معدوما ومالا يتوقف إلا على أمور وجودية حسية فهو بعيد عن المعدوم وأكمل للموجود ، والوجود الواجب وهو الله ﷻ أحق به من الممكن[٤] وهو المخلوق ، فرؤية الخلق لربهم أولى من رؤيتهم لبعضهم .

أقول : إن الرؤية لا تخرج عن الجواز العقلي فليست واجبة عقلا ولا ممتنعة لعدم المانع العقلي الصريح ، وإنما وجبت لثبوتها بالشرع والله أعلم .

---

١ ـ هو عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز الكناني المكي من أصحاب الشافعيّ كان يلقب بالغول لدمامته ناظر المريسي وتوفي ٢٤٠ . ميزان الاعتدال : (٢/ ٢٣٩)

٢ ـ ستأتي ترجمته ،و انظر كلامه في الفتاوى : (٧/ ٣) ودرء التعارض : (٦ / ١١٩)

٣ ـ الفتاوى : (٥/ ٣١٣ ، ٣١٧) درء التعارض : (٦ / ١١٥ ، ١١٩) ونقل منه ابن القيم في اجتماع الجيوش :ص٨٦.

٤ ـ الفتاوى : (٦ / ١٣٦)

المسألة الخامسة : طرق عقلية عامة في إثبات الصفات

قوله : ﴿ وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ مِنْ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْأَئِمَّةُ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنْ نُظَّارِ السُّنَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ : أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَوْصُوفًا بِإِحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ : لَلَزِمَ اتِّصَافُهُ بِالْأُخْرَى ؛ فَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالْحَيَاةِ لَوُصِفَ بِالْمَوْتِ ؛ وَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالْقُدْرَةِ لَوُصِفَ بِالْعَجْزِ ؛ وَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ لَوُصِفَ بِالصَّمَمِ وَالْخَرَسِ وَالْبَكَمِ وَطَرْدُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُوصَفْ بِأَنَّهُ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ لَكَانَ دَاخِلًا فِيهِ . فَسَلْبُ إحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ عَنْهُ يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ الْأُخْرَى وَتِلْكَ صِفَةُ نَقْصٍ يُنَزَّهُ عَنْهَا الْكَامِلُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ فَتَنْزِيهُ الْخَالِقِ عَنْهَا أَوْلَى . وَهَذِهِ الطَّرِيقُ غَيْرُ قَوْلِنَا إنَّ هَذِهِ صِفَاتُ كَمَالٍ يَتَّصِفُ بِهَا الْمَخْلُوقُ ؛ فَالْخَالِقُ أَوْلَى فَإِنَّ طَرِيقَ إثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِأَنْفُسِهَا مُغَايِرٌ لِطَرِيقِ إثْبَاتِهَا بِنَفْيِ مَا يُنَاقِضُهَا ﴾

التوضيح

هنا رجوع من شيخ الإسلام إلى الطرق العقلية العامة في إثبات الصفات وهما طريقتان :

- الأولى : إثبات صفات الكمال بنفي ما يناقضها .

وذلك بأن يقال : لو لم يكن متصفا بصفات الكمال لكان موصوفا بضدها ، فلو لم يوصف بالحياة والسمع والبصر والكلام لكان موصوفا بالموت والصمم والعمى والبكم ، وهذه صفات نقص يتنزه عنها الكامل .

ومثل ذلك : إذا لم يوصف بأنه مباين للعالم لزم أن يكون داخلا فيه لأن رفع أحد النقيضين يستلزم الآخر .

♦ الثانية : إثبات صفات الكمال بأنفسها .

بأن يقال : كل كمال اتصف به المخلوق فالخالق أولى به ، فالسمع والبصر والكلام كمال في حق المخلوق فالخالق أولى به وهذا ما سبق تسميته بقياس الأولى والفرق بين الطريقتين واضح .

الموضوع الثاني : مناقشة المتكلمين في شبهة التقابل السابقة وتفصيل الرد عليهم :

كرر شيخ الإسلام هذه المسألة ثلاث مرات في أثناء هذه الرسالة ، وهنا يفصل الشبهة ثم يفصل الرد عليها ، وقد نقلت زيادات الشيخ د.محمد السعوي من حاشيته وأثبتها في أصل الرسالة حتى يستقيم المعنى ويتم الشرح فأبدأ أولا بتفصيل الشبهة ثم تفصيل الرد عليها .

أولا : الشبهة على طريقة إثبات الكمال بنفي ضده

قوله : ﴿ وقد اعترض طائفة من النفاة على هذه الطريقة باعتراض مشهور لبسوا به على الناس ؛ حتى صار كثير من أهل الإثبات يظن صحته ويضعف الإثبات به مثل ما فعل من فعل ذلك من النظار حتى الآمدي وأمثاله مع أنه أصل قول القرامطة الباطنية وأمثالهم من الجهمية .

- فقالوا : القول بأنه لو لم يكن متصفا بهذه الصفات ؛ كالسمع والبصر والكلام مع كونه حيا : لكان متصفا بما يقابلها فالتحقيق فيه متوقف على بيان حقيقة

(المتقابلين . وبيان أقسامهما) فنقول : أما المتقابلان فلا يجتمعان في شيء واحد من جهة واحدة وهو إما ألا يصح اجتماعهما في الصدق ولا في الكذب : أو يصح ذلك في أحد الطرفين ؛ ولأنهما متقابلان بالسلب والإيجاب وهو تقابل التناقض ؛ والتناقض هو اختلاف القضيتين بالسلب والإيجاب على وجه لا يجتمعان في الصدق ولا في الكذب لذاتيهما ؛ كقولنا : زيد حيوان زيد ليس بحيوان . ومن خاصيته استحالة اجتماع طرفيه في الصدق والكذب : وأنه لا واسطة بين الطرفين ولا استحالة لأحد الطرفين إلى الآخر .

والثاني ثلاثة أقسام :

(الأول) المتقابلان بالتضايف وهما اللذان لا تعقل لكل واحد منهما إلا مع تعقل الآخر . كقولنا : زيد أب ، زيد ابن ، وخاصيته توقف كل واحد من طرفيه على الآخر في الفهم .

(الثاني) المتقابلان بالتضاد ، والمتضادان كل أمرين يتصور اجتماعهما في الكذب دون الصدق ، كالسواد والبياض . ومن خواصه جواز استحالة كل واحد من طرفيه إلى الآخر في بعض صوره ، وجواز وجود واسطة بين الطرفين تمر عليه الاستحالة من أحد الطرفين إلى الآخر كالصفرة والحمرة بين السواد والبياض .

(الثالث) تقابل العدم والملكة والمراد بالملكة هنا كل معنى وجودي أمكن أن يكون ثابتا للشيء إما بحق جنسه كالبصر عند الإنسان أو بحق نوعه ككتابة زيد أو بحق شخصه كاللحية للرجل . وأما العدم المقابل لها فهو ارتفاع هذه الملكة . ولما لم يكن ملكة البصر بالتفسير المذكور ثابتة للحجر لا يقال له : أعمى ولا بصير ، ومن خواص هذا التقابل جواز انقلاب الملكة إلى العدم ولا عكس .

فإن أريد بالتقابل ههنا : تقابل التناقض بالسلب والإيجاب وهو أنه لا يخلو من كونه سميعا وبصيرا ومتكلما أو ليس كذلك، فهو ما يقوله الخصم ولا يقبل نفيه من غير دليل .

وإن أريد بالتقابل تقابل المتضايفين فهو غيرمتحقق ههنا ومع كونه غير متحقق فلا يلزم من نفي أحد المتضايفين ثبوت الآخر بل ربما انتفيا معا ولهذا يقال زيد ليس بأب لعمرو ولا بابن له أيضا .

وإن أريد بالتقابل تقابل الضدين : فإنما يلزم أن لو كان واجب الوجود قابلا لتوارد الأضداد عليه ، وهو غير مسلم ، وإن كان قابلا فلا يلزم من نفي أحد الضدين وجود الآخر لجواز اجتماعهما في العدم ووجود واسطة بينهما ، ولهذا يصح أن يقال: الباري تعالى ليس بأسود ولا أبيض .

وإن أريد بالتقابل تقابل العدم والملكة : فلايلزم أيضا من نفي الملكة تحقق العدم ولا بالعكس إلا في محل يكون قابلا لهما ولهذا يصح أن يقال : الحجر لا أعمى ولا بصير ، والقول بكون الباري تعالى قابلا للبصر والعمى دعوى محل النزاع ومصادرة على المطلوب .

وعلى هذا فقد امتنع لزوم العمى والخرس والطرش في حق الله تعالى من ضرورة نفي البصر والسمع والكلام عنه .

التوضيح

نقلت هنا نص الاعتراض بأكمله لعدم وجوده في أصول النسخ وإنما أضافه الدكتور السعوي في حاشية تحقيقه . وأبدأ الآن بتوضيحه وذلك بتقسيمه إلى فقرات كما يلي:

أولا : التمهيد لذكر الاعتراض عند قوله : (وقد اعترض طائفة من النفاة .. فقالوا) أي أنه اعترض على طريقة إثبات الكمال بنفي ما يناقضها باعتراض

التقابل المشهور الذي وضعه الباطنية وأمثالهم من الجهمية حتى اغترّ به كثير من المتكلمين ومنهم الآمدي[1] وغيره .

ثانيا : مقدمات في بيان مصلحات لا بد منها عند قوله : (فقالوا : القول بأنه لو لم يكن متصفا . . جواز انقلاب الملكة إلى العدم ولاعكس) .

أقول هذه مصطلحات سبق بيانها باختصار ولامانع من ذكرها هنا مع توضيح بعض خواصها .

* المتقابلان : هما مالايجتمعان في شيء واحد من جهة واحدة . والتقابل قسمان :

* القسم الأول : مالا يجتمعان في الصدق ولا في الكذب ، أي لا يجتمعان في الإثبات ولا في النفي وهو معنى قولنا : لا يمكن اجتماعها ولا ارتفاعهما، وهو تقابل السلب والإيجاب ويسمى (التناقض)

وخواصه :

١ ـ أنه لا يمكن اجتماعهما ولا ارتفاعهما .

٢ ـ أنه لا واسطة بين طرفيه كالمعدوم والموجود فإنه لاواسطة بينهما .

٣ ـ أنه لا استحالة لأحد الطرفين إلى الآخر لا يتغير أحد الطرفين إلى الآخر تدريجيا فلا بد من وجود أحدهما دون الآخر . وجميع هذه الخواص متلازمة .

* القسم الثاني : وفيه ثلاثة أقسام (تقابل الضدين ، والمتضايفين ، والملكة وعدمها) والجامع بينها جواز ارتفاعهما وعدم جواز اجتماعهما ، وقد سبق أن أفردنا كل نوع ، فصار المجموع ـ بإضافة النقيضين ـ أربعة أقسام ، ولكنه هنا جعلها في قسمين ثم فصل القسم الثاني إلى ثلاثة أقسام وأسير على ترتيبه كما يلي :

---

١ ـ هو أبو الحسن علي من محمد بن سالم التعلبي سيف الدين الآمدي أحد أئمة الأشاعرة أصّل أصولهم الكلامية في كتابه (أبكار الأفكار) وله مصنفات عديدة توفي سنة ٦٣١ . وفيات الأعيان : (٢/ ٤٥٥)

القسم الثاني ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

❁ الأول : المتضايفان : وهما الأمران الوجوديان اللذان لا يعقل أحدهما إلا بتعقل الآخر كالأبوة والبنوة ، والقبل والبعد .

❁ الثاني : المتضادان : وهما الأمران الوجوديان اللذان يجتمعان في الكذب دون الصدق يعني يجتمعان في النفي دون الإثبات فيجوز ارتفاعهما لوجود ضد ثالث ولايجوز اجتماعهما ، كالسواد والبياض يجوز رفعها كمافي حالة الإحمرار دون اجتماعهما .

خواص التضاد :

١ ـ جواز استحالة أحد الطرفين إلى الآخر في بعض صوره ، يعني قد يتغير أحد طرفيه تدريجيا إلى الآخرفيتغير الأبيض إلى الأسود وهكذا .

٢ ـ وجود واسطة بينهما كالصفرة والحمرة واسطة بين السواد والبياض عند التغير من أحدهما إلى الآخر .

❁ الثالث : الملكة والعدم : الملكة أمر موجود يثبت للشيء إما لجنسه كالبصر للإنسان فإنه يثبت لجنس الحيوان ، أو لنوعه كالكتابة لزيد فإن نوع الإنسان الذي منه زيد يقبل الكتابة ، أو لشخصه كاللحية للرجل لأنها تثبت لشخص الرجال دون نوع الإنسان . والعدم هو عدم تلك الملكة كالعمى فإنه عدم البصر، وقد سبق هذا التقابل : بانه تقابل مالايجتمعان ولايرتفعان فيما يصلح لهما ويرتفعان فيما لايصلح لهما كالجدار فإنه لا يقبل البصر والعمى فارتفع العمى والبصر عن الجدار لعدم قابليته لهما ، لكنهما لايرتفعان عن الإنسان ولايجتمعان فيه فلابد من وجود أحدهما دون الآخر .

ثالثا: نص الاعتراض : عند قوله : (فإن أريد بالتقابل ههنا . . إلى آخره)

أقول بدأ هنا باعتراض النفاة على قاعدة الكمال عند أهل السنة وحاصله في أربع نقاط :

١ ـ إن أردتم بالتقابل تقابل النقيضين في قاعدة الكمال : إن الله لايخلو من كونه سميعا وبصيرا أو نقيضهما فهذا لا دليل عليه لأن هذه الصفات ليست من قبيل المتناقضين .

٢ـ وإن أردتم تقابل المتضايفين فمردود من وجهين :

الأول ـ على فرض المنع : أنه لا يتحقق في هذه الصفات لأنها ليست من قبيل المتضايفين لأن إحدى الصفتين عدم للأخرى والمتضايفان وصفان وجوديان، ولأن تعقل الإبصار مبني على تعقل العمى وهكذا .

الثاني ـ على فرض التسليم :إن تحقق هنافلا يصح في القاعدة لأنه يجوز نفي المتضايفين معا فنقول زيد ليس أبا لعمرو لا ابنا له . فكذلك الصفات وما يقابلها فعلى هذا التسليم لا تصح القاعدة .

٣ ـ وإن أردتم تقابل الضدين فمردود من وجهين أيضا :

الأول ـ على فرض المنع : أننا لانسلم لكم أن الله تبارك وتعالى قابل للاتصاف بالأضداد .

الثاني ـ على فرض التسليم : فإنه يجوز ارتفاع الضدين فلايصح دليلا على القاعدة .

٤ ـ وإن أردتم تقابل الملكة والعدم فلا يحصل هذا التقابل إلا في محل يقبلهما والقول بأن الله تعالى قابل لها دعوى في محل النزاع فتكون مصادرة ، لأن النزاع في قبول الله تعالى لهذه الصفات . فإذا قيل لا يقبلها جاز رفعهما كما يقال الحجر

لأعمى ولا بصير وبهذا تبطل القاعدة . وبهذا يكتمل اعتراض النفاة على قاعدة أهل السنة .

ـ قوله في الاعتراض : (والمصادرة على المطلوب) : هو مقاربة للدعوى في محل النزاع، والمقصود أن تكون النتيجة جزء القياس ويكون المطلوب والمقدمات شيئا واحدا[1] ، فتكون الأدلة عين المتنازع فيه .

الجواب عن اعتراض النفاة من سبعة أوجه :

الوجه الأول

قوله : ﴿ والرد عليهم من وجوه : الوجه الأول :ـ

إِنَّ هَذا التَّقْسِيمَ غيْر حَاصِرٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ للمَوجُودِ إِمَّا أَنْ يكُونَ وَاجِباً بنَفْسِهِ وإِمَّا أَنْ يكُونَ ممكناً بِنفسِهِ وهَذَانِ ـ الوجُوبُ وَالإِمْكَانُ ـ لا يَجْتَمِعَانِ فِي شَيْءٍ واحِدٍ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ وَلَا يَصِحُّ اجْتِمَاعُهُمَا فِي الصِّدْقِ وَلَا فِي الْكَذِبِ ؛ إِذْ كَوْنُ الْمَوْجُودِ وَاجِبًا بِنفْسِهِ وَمُمْكِنًا بِنفْسِهِ . لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ فَإِذَا جَعَلْتُمْ هَذَا التَّقْسِيمَ : وَهُمَا " النَّقِيضَانِ مَا لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ " فَهَذَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ وَلَيسَ هُمَا السَّلْبُ وَالْإِيجَابُ فَلَا يَصِحُّ حَصْرُ النَّقِيضَيْنِ - اللَّذَيْنِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ - فِي السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ وَحِينَئِذٍ فَقَدْ ثَبَتَ وَصْفَانِ - شَيْئَانِ - لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ ؛ وَهُوَ خَارِجٌ عَنْ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ عَلَى هَذَا فَمَنْ جَعَلَ الْمَوْتَ مَعْنًى وُجُودِيًّا : فَقَدْ يَقُولُ إِنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ لَا يَخْلُو مِنْ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ ؛ وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ وَالْجَهْلُ وَالصَّمَمُ وَالْبَكَمُ وَنَحْوُ ذَلِكَ ﴾

---

١ ـ التعريفات للجرجاني : ص٢١٦.

التوضيح

الوجه الأول ـ على فرض المنع : منع التقسيم إلى أربعة أقسام ـ وجعل النقبضين هما السلب والإيجاب أي النفي والإثبات ـ هذا منقوض بأنه غير حاصر بالوجوب والإمكان فإنهما لايجتمعان ولايرتفعان بل لابد أن يكون الموجود إما واجبا وهو الله تعالى وإما ممكنا وهو المخلوق . فهذا نوصفان وجوديان فامتنع أن يكون تقابلهما تقابل النقيضين أو الملكة والعدم، وفي نفس الوقت لايرتفعان فامتنع أن يكون تقابلهما تقابل الضدين لأن الضدين قد يرتفعان، ولايتوقف تعقل أحدهما على الآخر فلايكون تقابلهما تقابل المتضايفين .

وكذلك من جعل الموت وجوديا أي شيئا موجودا ليس مجرد نفي الحياة ، فإنه يقول لا يخلو الشيء من الحياة أو الموت فيكونان نقيضين مع أنهما وجوديان وهكذا القول في العلم والجهل والسمع والصمم والبصر والعمى .

ففي هذا الوجه إبطال حصر التقابل في الأقسام الأربعة بل ثم تقابل من نوع خامس .

الوجه الثاني

قوله : ﴿ (الْوَجْهُ الثَّانِي) : أَنْ يُقَالَ : هَذَا التَّقَسِيمُ يَتَدَاخَلُ ؛ فَإِنَّ الْعَدَمَ وَالْمَلَكَةَ : يَدْخُلُ فِي السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ وَغَايَتُهُ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْهُ والمتضايفان يَدْخُلَانِ فِي الْمُتَضَادَّيْنِ إِنَّمَا هُمَا نَوْعٌ مِنْهُ ﴾

التوضيح

الوجه الثاني : إن هذه الأقسام تتداخل فإن تقابل الملكة والعدم داخل في النقيضين لأن كليهما أمران أحدهما وجودي والآخر عدمي، وإنما الملكة والعدم

أخص فهي نوع من النقيضين إذ يشترط في المحل أن يكون صالحا لهما[1]، فهذا النوع الأول وهو : (التقابل بين وجودي وعدمي)

ـ وكذلك المتضايفان يدخلان في الضدين لأن كليهما أمران وجوديان لايجتمعان ولكن قد يرتفعان ، وإنما المتضايفان نوع من الضدين فإن المتضايفين يتوقف تصور أحدهما على الآخر وهذا لايخرجه عن الضدين ، ويتضح ذلك بتأمل التعريفات . فهذا النوع الثاني وهو :(التقابل بين وجوديين)

اعتراض أول :

قوله : ﴿ فَإِنْ قَالَ : أَعْنِي بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ : مالا يَدْخُلُ فيه الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ – وَهُوَ أَنْ يُسْلَبَ عَنْ الشَّيْءِ مَا لَيسَ بِقَابِلٍ لَهُ – وَلِهَذَا جُعِلَ مِنْ خَوَاصِّهِ أَنَّهُ لَا اسْتِحَالَةَ لِأَحَدِ طَرَفَيْهِ إلَى الْآخِرِ ﴾

التوضيح

فإن اعترض على التداخل بأنه يقصد بالسلب والإيجاب ـ أي النقيضين ـ ما لايدخل فيه الملكة والعدم فإن الملكة والعدم تقابل في محل قابل لهما والنقيضين سلب عما ليس بقابل له، لهذا قلنا إن من خواص النقيضين عد استحالة أحدهما إلى الآخر بخلاف الملكة .

الجواب الأول :

قوله : ﴿ قِيلَ لَهُ : عَنْ هَذَا جوَابَانِ : – أَحَدُهُمَا : أَنَّ غَايَةَ هَذَا أَنَّ السَّلْبَ يَنْقَسِمُ إلَى نَوْعَيْنِ : أَحَدُهُمَا : سَلْبُ مَا يُمْكِنُ اتِّصَافُ الشَّيْءِ بِهِ وَالثَّانِي : سَلْبُ مَا لَا يُمْكِنُ

---

[1] ـ آداب البحث والمناظرة (١/ ٣٢)

اتِّصَافُهُ بِهِ . فَيُقَالُ : الْأَوَّلُ إثْبَاتُ مَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ وَلَا يَجِبُ وَالثَّانِي : إثْبَاتُ مَا يَجِبُ اتِّصَافُهُ بِهِ ؛ فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ سَلْبا ممتنعا . وَإِثْبَاتُ الْوَاجِبِ . كَقَوْلِنَا زَيْدٌ حَيَوَانٌ فَإِنَّ هَذَا إثْبَاتٌ وَاجِبٌ ، وَزَيْدٌ لَيْسَ بِحَجَرِ فَإِنَّ هَذَا سَلْبٌ مُمْتَنِعٌ وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَالْمُمْكِنَاتُ الَّتِي تَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ - كَقَوْلِنَا الْمُثَلَّثُ إمَّا مَوْجُودٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ - يَكُونُ مِنْ قِسْمِ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . فَإِنَّ ذَلِكَ الْقِسْمَ يَخْلُو فِيهِ الْمَوْصُوفُ الْوَاحِدُ عَلَى الْمُتَقَابِلَيْنِ جَمِيعًا وَلَا يَخْلُو شَيْءٌ مِنْ الْمُمْكِنَاتِ عَنْ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ - فَصِفَاتُ الرَّبِّ كُلُّهَا وَاجِبَةٌ لَهُ - فَإِذَا قِيلَ إمَّا أَنْ يَكُونَ حَيًّا أَوْ عَلِيمًا أَوْ سَمِيعًا أَوْ بَصِيرًا أَوْ مُتَكَلِّمًا ؛ أَوْ لَا يَكُونُ : كَانَ مِثْلُ قَوْلِنَا : إمَّا أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا ؛ وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ . وَهَذَا مُتَقَابِلٌ تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ فَيَكُونُ الْآخَرُ مِثْلُهُ وَبِهَذَا يَحْصُلُ الْمَقْصُودُ .

التوضيح

ذكر هنا الجواب الأول عن الاعتراض ثم سيأتي بالجواب الثاني بعد اعتراضين وجوابهما .

وخلاصة الجواب الأول : أن غاية ما في الأمر أن السلب قسمان : أحدهما سلب ما يمكن اتصاف الشيء به وهو السلب في الملكة والعدم كالعمى في الإنسان وضده إثبات ما يمكن اتصاف الإنسان به كالبصر في الإنسان . والثاني سلب ما لايمكن اتصافه به وهو السلب في النقيضين ويقابله إثبات ما يجب اتصافه به فيكون المراد سلب الممتنع كنفي العدم عن الله وإثبات الواجب كإثبات الوجود لله ﷻ لوجوب الوجود له وامتناع العدم عليه .

لأن معنى مالايمكن أي يمتنع اتصافه به وضده الممتنع الواجب فالسلب في الملكة والعدم داخل في الإمكان ، وفي النقيضين داخل في الوجوب والامتناع ،ويلزم من ذلك أمران :

١) أن تكون الممكنات داخلة في قسم العدم والملكة فإذا قيل المثلث إما موجود أو معدوم كان ذلك من تقابل الملكة والعدم وكذلك زيد إما موجود وإما معدوم ، وهذا خطأ لأن الملكة والعدم قد يرتفع فيهما المتقابلان ، والوجود والعدم لايخلو منهما الممكنات أبدا فالممكن إما موجود وإما معدوم .

٢) وأيضا فصفات الله تعالى واجبة فإذا قلنا إما أن يكون حيّا عليما سميعا أولا يكون كذلك ، كان هذا مثل قولنا : إما أن يكون موجودا أو لا يكون موجودا وهذا داخل في تقابل النقيضين لأننا قلنا بأنه إثبات الواجب وسلب الممتنع . وصفات الله واجبة له وبهذا يحصل المقصود .

وخلاصته : أنه قد يقال في جميع صفات المخلوق إنها من قبيل الملكة والعدم حتى السلب والإيجاب لأن المخلوق ممكن الوجود وصفاته ممكنه ، ويقال في جميع صفات الخالق إنها من قبيل النقيضين لأنه واجب الوجود وصفاته واجبة وضدها ممتنع .

اعتراض ثانٍ :

قوله : ﴿ فإن قيل : هذا لا يصح حتى يعلم إمكان قبوله لهذه الصفات ﴾

التوضيح

هنا اعتراض على الجواب السابق ومضمونه : أن قولكم صفات الله واجبة له . فإذا قلنا : (إما أن يكون حيا عليما أولا يكون كان مثل قولنا إما أن يكون موجودا أو لايكون) قولكم هذا يتوقف على العلم بإمكان قبوله لهذه الصفات فإذا لم يكن قابلا لهذه الصفات جاز رفعها مع أضدادها بخلاف الوجوب فإنه ثابت له .

الجواب :

قوله : ﴿ : قِيلَ لَهُ هَذَا إِنَّمَا اشترط فِيمَا أَمْكَنَ أَنْ يَثْبُتَ لَهُ وَيَزُول كَالْحَيَوَانِ ؛ فَأَمَّا الرَّبُّ تَعَالَى : فَإِنَّهُ بِتَقْدِيرِ ثُبُوتِهَا لَهُ فَهِيَ وَاجِبَةٌ ضَرُورَةً ؛ فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِهَا وَبِعَدَمِهَا بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ . فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ تَارَةً حَيًّا وَتَارَةً مَيِّتًا وَتَارَةً أَصَمَّ وَتَارَةً سَمِيعًا وَهَذَا يُوجِبُ اتِّصَافَهُ بِالنَّقَائِصِ ؛ وَذَلِكَ مُنْتَفٍ قَطْعًا ؛ بِخِلَافِ مَنْ نَفَاهَا وَقَالَ : إنَّ نَفْيَهَا لَيْسَ بِنَقْصٍ لِظَنِّهِ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِهَا فَإِنَّ مَنْ قَالَ هَذَا لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَقُولَ : إنَّهُ مَعَ إمْكَانِ الِاتِّصَافِ بِهَا لَا يَكُونُ نَفْيُهَا نَقْصًا فَإِنَّ فَسَادَ هَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ . وَقِيلَ لَهُ أَيْضًا : أَنْتَ فِي تَقَابُلِ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ إنْ اشْتَرَطْت الْعِلْمَ بِإِمْكَانِ الطَّرَفَيْنِ : لَمْ يَصِحَّ أَنْ تَقُولَ وَاجِبُ الْوُجُودِ ؛ إمَّا مَوْجُودٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ ؛ وَالْمُمْتَنِعُ الْوُجُودِ إمَّا مَوْجُودٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ ؛ لِأَنَّ أَحَدَ الطَّرَفَيْنِ هُنَا مَعْلُومُ الْوُجُودِ . وَالْآخَرَ مَعْلُومُ الِامْتِنَاعِ وَإِنْ اشْتَرَطْت الْعِلْمَ بِإِمْكَانِ أَحَدِهِمَا صَحَّ أَنْ تَقُولَ إمَّا أَنْ يَكُونَ حَيًّا وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ ؛ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ إنْ كَانَ مُمْكِنًا صَحَّ التَّقْسِيمُ وَإِنْ كَانَ مُمْتَنِعًا : كَانَ الْإِثْبَاتُ وَاجِبًا وَحَصَلَ الْمَقْصُودُ ﴾

التوضيح

يجاب عن هذا الاعتراض من وجهين :

الأول : قولكم : (إنه لايصح حتى يعلم إمكان قبوله للصفات) باطل ، لأن الله تعالى إذ قُدر ثبوت الصفات له فتكون واجبة في حقه لأنه تعالى ليس كالمخلوق الذي تثبت وتزول له الصفات ، فإما أن تثبت له وإما أن تنفى عنه ولايمكن أن

يكون موصوفا بها وبعدمها باتفاق العقلاء ، لأن لازم ذلك أن يكون حيا تارة وميتا أخرى وأصم تارة وسميعا أخرى وذلك منتف عن الله ﷻ .

وأما من نفى صفات الكمال وقال بأن نفيها ليس بنقص فإنه لا يقول بأنه يمكن اتصافه بها بل يقول لا يمكن اتصافه بها ، لأنه لو قال : يمكن اتصافه بها ونفيها عنه ليس بنقص لكان قوله معلوم الفساد بالضرورة لأنه إذا جاز على الله تعالى شيء فيكون كمالا في حقه ونفيه عنه تقص .

وخلاصة الوجه أن قولكم باطل لأن صفات الله لا تخلو من ثلاثة أمور :

ـ الوجوب : فلا معنى لاشتراط إمكان الاتصاف بالصفة وعدمها لأن جواز الاتصاف في حقه تعالى بمعنى الوجوب .

ـ الامتناع : وكذلك لامعنى لاشتراط الإمكان الاتصاف ، لأن جواز عدم الاتصاف يساوق الامتناع

ـ جواز الاتصاف بالصفة تارة وبعدمها أخرى فهذا أشد الأمور الثلاثة امتناعا لتضمنه ورود الوجوب والامتناع على محل واحد .

الوجه الثاني : اشتراط العلم بإمكان قبول الطرفين يلزم منه أحد أمرين :

الأول : اشتراطه في الطرفين . وعندها لايصح أن تقول واجب الوجود إما موجود وإما معدوم لأن الطرف الأول وهو الوجود معلوم الوجوب والآخر معلوم الامتناع وأنت تشترط الإمكان فلا يصح قولك هنا ، وكذلك لايصح أن تقول الممتنع إما موجود وإما معدوم لأن الطرف الأول وهو الوجود ممتنع والطرف الثاني وهو المعدوم واجب فإن الممتنع يجب أن يكون معدوما .

الثاني : اشتراطه في أحد الطرفين وعندها يصح أن تقول إما أن يكون حيا وإما ألا يكون ، وإما أن يكون سميعا بصيرا وإما أن لايكون ، فالأمر لا يخلو من حالتين :

١ ـ أن يكون النفي ممكنا وعندها يصح هذا التقسيم .

٢ ـ أن يكون النفي ممتنعا ـ وهو الصواب لأن السلب والإيجاب من قبيل النقيضين ـ فتكون الصفات واجبة ونفيها ممتنع فيحصل المقصود .

اعتراض ثالث :

قوله : ﴿ فَإِنْ قِيلَ : هَذَا يُفِيدُ أَنَّ هَذَا التَّأْوِيلَ يُقَابِلُ السَّلْبَ وَالْإِيجَابَ وَنَحْنُ نُسَلِّمُ ذَلِكَ كَمَا ذُكِرَ فِي الِاعْتِرَاضِ ؛ لَكِنَّ غَايَتَهُ : أَنَّهُ إمَّا سَمِيعٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِسَمِيعٍ وَإِمَّا بَصِيرٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِبَصِيرِ ؛ وَالْمُنَازِعُ يَخْتَارُ النَّفْيَ ﴾

التوضيح

أي أن ما ذكرتموه مسلّم ، ولكن المنازع يختار النفي فيقول ليس بسميع ولا بصير.

الجواب:

قوله : ﴿ فَيُقَالُ لَهُ : عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ : فَالْمُثْبَتُ وَاجِبٌ ؛ وَالْمَسْلُوبُ مُمْتَنِعٌ . فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصِّفَاتُ وَاجِبَةً لَهُ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مُمْتَنِعَةً عَلَيْهِ وَالْقَوْلُ بِالِامْتِنَاعِ لَا وَجْهَ لَهُ ؛ إذْ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِ . بَلْ قَدْ يُقَالُ : نَحْنُ نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ بُطْلَانَ الِامْتِنَاعِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَى امْتِنَاعِ ذَلِكَ إلَّا بِمَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى إبْطَالِ أَصْلِ الصِّفَاتِ ؛ وَقَدْ عُلِمَ فَسَادُ ذَلِكَ وَحِينَئِذٍ فَيَجِبُ الْقَوْلُ بِوُجُوبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا يُمْكِنُ أَنْ يُجْعَلَ طَرِيقَةً مُسْتَقِلَّةً فِي إثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ فَإِنَّهَا إمَّا وَاجِبَةٌ لَهُ وَإِمَّا مُمْتَنِعَةٌ عَلَيْهِ وَالثَّانِي بَاطِلٌ فَتَعَيَّنَ

الْأَوَّلُ ؛ لِأَنَّ كَوْنَهُ قَابِلًا لَهَا خَالِيًا عَنْهَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مُمْكِنًا وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ مَعْرُوفَةٌ لِمَنْ سَلَكَهَا مِنْ النُّظَّارِ ﴾

التوضيح

فيجاب عنه : بأن المثبت واجب والنفي ممتنع ، فإما أن تكون الصفات واجبة أو ممتنعة ولا دليل على الامتناع بل بطلان الامتناع يعلم ضرورة وهو نظير القول بإبطال أصل الصفات من حيث الاستدلال فالقول بالوجوب هو المتعين حينئذ .

فهذه قد تكون طريقة مستقلة لإثبات صفات الكمال ؛ فيقال : إما أن تكون واجبة أو ممتنعة عليه ، والثاني باطل ، فيتعين الأول . وتعليل ذلك : أنه لو كان قابلا لها وغير متصف بها لكان ممكنا ،و هذا باطل فالله سبحانه وتعالى واجب وصفاته واجبة وقد سبق ذلك [1].

الجواب الثاني عن الاعتراض الأول :

قوله : ﴿ (الْجَوَابُ الثَّانِي أَنْ يُقَالَ : فَعَلَى هَذَا إذَا قُلْنَا زَيْدٌ إمَّا عَاقِلٌ وَإِمَّا غَيْرُ عَاقِلٍ ؛ وَإِمَّا عَالِمٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِعَالِمِ وَإِمَّا حَيٌّ وَإِمَّا غَيْرُ حَيٍّ وَإِمَّا نَاطِقٌ وَإِمَّا غَيْرُ نَاطِقٍ . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ سَلْبُ الصِّفَةِ عَنْ مَحَلٍّ قَابِلٍ لَهَا لَمْ يَكُنْ هَذَا دَاخِلًا فِي قِسْمِ تَقَابُلِ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ وَخِلَافُ اتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ وَخِلَافُ مَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَنْطِقِ وَغَيْرِهِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْقَضَايَا تَتَنَاقَضُ بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ عَلَى وَجْهٍ يَلْزَمُ مِنْهُ صِدْقُ إحْدَاهُمَا كَذِبُ الْأُخْرَى فَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ فَهَذِهِ شُرُوطٌ

---

1 ـ وفصله شيخ الإسلام في الرسالة الأكملية .

النَّاقِصُ مَوْجُودٌ فِيهَا . وَغَايَةُ فرقهم أَنْ يَقُولُوا إِذَا قُلْنَا : هُوَ إِمَّا بَصِيرٌ وَإِمَّا لَيْسَ بِبَصِيرٍ : كَانَ إِيجَابًا وَسَلْبًا وَإِذَا قُلْنَا : إِمَّا بَصِيرٌ ؛ وَإِمَّا أَعْمَى : كَانَ مَلَكَةً وَعَدَمًا وَهَذِهِ مُنَازَعَةٌ لَفْظِيَّةٌ وَإِلَّا فَالْمَعْنَى فِي الْمَوْضِعَيْنِ سَوَاءٌ . فَعُلِمَ أَنَّ ذَلِكَ نَوْعٌ مِنْ تَقَابُلِ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ وَهَذَا يُبْطِلُ قَوْلَهُمْ فِي حَدِّ ذَلِكَ التَّقَابُلِ : أَنَّهُ لَا اسْتِحَالَةَ لِأَحَدِ الطَّرَفَيْنِ إِلَى الْآخَرِ فَإِنَّ الِاسْتِحَالَةَ هُنَا مُمْكِنَةٌ كَإِمْكَانِهَا إِذَا عُبِّرَ بِلَفْظِ الْعَمَى

التوضيح

إن قلتم : إن شرط الملكة والعدم سلب ما يقبل اتصافه بـه لـزم مـن ذلـك أن يكون قولنا : زيد إما عاقل وإما غير عاقل وإما عالم وإما غير عالم وإمـا بصـير وإمـا ليس ببصير .. وأمثال ذلك داخلة في الملكة والعدم ، لأنـه إذا ارتفـع المكـان القـابل وهو زيد جاز ارتفاعهما أيضا كما إذا قلت زيد إمـا بصـير وإمـا ليـس بصـير ،فـإذا جعلت المحل هو الجدار لم يصلح له النقيضـان عندهـم فـلا تقـول الجـدار بصـير ولا ليس ببصير . وهذا خلاف ما عليـه العقـلاء وخـلاف مـا ذكـروه في المنطـق مـن أن السلب والإثبات من قبيل النقيضين لأنه يلزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر .

فإن قالوا : (إذا قلنا هو إما بصير وإما ليس ببصير كـان سـلبا وإيجابـا ، وإذا قلنا إما بصير وإما أعمى كان ملكة وعدما) كان هذا التفريـق لفظيـا فـالمعنى واحـد بين الأمرين لأن كليهما قد يرتفعان إذا ارتفع المحل .

وبهذا يبطل قولهم إن من خواص النقيضين عـدم استحالة أحـد الطرفـين إلى الآخر لأنه لا فرق بين السلب والإثبات في قولنا إما بصير وإمـا ليـس ببصـير وبـين قولنا إما بصير وإما أعمى فالاستحالة واردة في كلا الموضعين .

فخلاصة هذه الوجه : أن السلب والإيجـاب في قولنـا : زيـد إمـا بصـير وإمـا ليس ببصير، والملكة والعدم في قولنا : زيد إما بصير وإما أعمى لا فرق بينهما .

الوجه الثالث في الرد على الاعتراض الأصلي :

قوله : ﴿ الْوَجْهُ الثَّالِثُ أَنْ يُقَالَ : التَّقْسِيمُ الْحَاصِرُ أَنْ يُقَالَ : الْمُتَقَابِلَانِ إِمَّا أَنْ يَخْتَلِفَا بِالسَّلْبِ وَالْإِيجَابِ وَإِمَّا أَنْ لَا يَخْتَلِفَا بِذَلِكَ بَلْ يَكُونَانِ إيجَابِيَّيْنِ أَوْ سَلْبِيَّيْنِ . فَالْأَوَّلُ هُوَ النَّقِيضَانِ . وَالثَّانِي إِمَّا أَنْ يُمْكِنَ خُلُوُّ الْمَحَلِّ عَنْهُمَا وَإِمَّا أَنْ لَا يُمْكِنَ وَالْأَوَّلُ : هُمَا الضِّدَّانِ كَالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ . وَالثَّانِي : هُمَا فِي مَعْنَى النَّقِيضَيْنِ وَإِنْ كَانَا ثُبُوتِيَّيْنِ كَالْوُجُوبِ وَالْإِمْكَانِ وَالْحُدُوثِ وَالْقِدَمِ وَالْقِيَامِ بِالنَّفْسِ وَالْقِيَامِ بِالْغَيْرِ وَالْمُبَايَنَةِ وَالْمُجَانَبَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ وَالصَّمَمَ وَالْبَكَمَ وَالسَّمْعَ : لَيْسَ مِمَّا إذَا خَلَا الْمَوْصُوفُ عَنْهُمَا وُصِفَ بِوَصْفٍ ثَالِثٍ بَيْنَهُمَا كَالْحُمْرَةِ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْبَيَاضِ فَعُلِمَ أَنَّ الْمَوْصُوفَ لَا يَخْلُو عَنْ أَحَدِهِمَا فَإِذَا انْتَفَى تَعَيَّنَ الْآخَرُ ﴾

التوضيح

الوجه الثالث من الوجوه السبعة في الرد على الاعتراض الأصلـي وقـد طـال الفاصل بينه وبين الوجه الثاني وحاصله : أن يقال : التقسيم الصحيح الـذي يحصر جميع المتقابلات كما يلي : نقول :المتقابلان :ـ

١ـ إما أن يختلفا في السلب والإيجاب وهما النقيضـان لأن الأول نفـي للثـاني والثاني نفي للأول .

٢ ـ وإما ألا يختلفا في النفي والإيجـاب بـل يكونـان إيجـابيين أو سـلبيين فـإذا أمكن خلو المحل عنهما فهما الضدان كالسواد والبياض فيرتفعـان بـالحمرة والصفـرة مثلا.

٣ ـ وإذا لم يمكن خلو المحل عنهما فهما في معنى النقيضين وإن كانا وجوديين كالوجوب والإمكان فهما نقيضان كما سبق مع كونهما وجوديين ومثل القيام بالنفس والقيام بالغير وكذلك المباينة والمجانبة ومثله داخل العالم أو خارجه فكلها في معنى النقيضين لعدم إمكان جمعهما ولا رفعهما ومثل ذلك الحياة والموت والعمى والبصر لأنهما لا يرتفعان بثالث لهما ولايجتمعان فضابط النقيضين متحقق في الجميع .

الوجه الرابع :

قوله : ﴿ (الْوَجْهُ الرَّابِعُ : الْمَحَلُّ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَلَامِ وَنَحْوِهَا : أَنْقَصُ مِنْ الْمَحَلِّ الَّذِي يَقْبَلُ ذَلِكَ وَيَخْلُو عَنْهَا وَلِهَذَا كَانَ الْحَجَرُ وَنَحْوُهُ أَنْقَصَ مِنْ الْحَيِّ الْأَعْمَى وَحِينَئِذٍ فَإِذَا كَانَ الْبَارِئُ مُنَزَّهًا عَنْ نَفْيِ هَذِهِ الصِّفَاتِ ؛ مَعَ قَبُولِهِ لَهَا فَتَنْزِيهُهُ عَنْ امْتِنَاعِ قَبُولِهِ لَهَا أَوْلَى وَأَحْرَى إذْ بِتَقْدِيرِ قَبُولِهِ لَهَا يَمْتَنِعُ مَنْعُ الْمُتَقَابِلَيْنِ وَاتِّصَافُهُ بِالنَّقَائِصِ مُمْتَنِعٌ فَيَجِبُ اتِّصَافُهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَبِتَقْدِيرِ عَدَمِ قَبُولِهِ لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ لَا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَلَا بِصِفَاتِ النَّقْصِ وَهَذَا أَشَدُّ امْتِنَاعًا فَثَبَتَ أَنَّ اتِّصَافَهُ بِذَلِكَ مُمْكِنٌ وَأَنَّهُ وَاجِبٌ لَهُ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ . وَهَذَا فِي غَايَةِ الْحُسْنِ ﴾

التوضيح

الوجه الرابع : على فرض التسليم ـ إذا سلمنا بأنه تعالى لا يقبلها فإن المحل الذي لا يقبل الاتصاف بالحياة والقدرة ونحوها أنقص من المحل الذي يقبلها مع الخلو عنها فالجدار الذي لا يقبل البصر أنقص من الحي الأعمى فمن نزه الله عن هذه الصفات مع تقدير قبوله لها وجب عليه أن ينزهه عن امتناع قبوله لها لأنه

أعظم نقصا وأشد امتناعا ، فإن فيه نفيا لصفات الكمال والنقص معا ، فإذا قدر قبوله لها امتنع رفع النقيضين عنه بل يجب إثبات أحدهما ونفي الآخر وهذه الصفات كمال كما سيأتي ونفيها نقص فوجب إثباتها وبذلك أثبتنا وجوبها في حقه وهو المطلوب.

الوجه الخامس

قوله ﴿ الْوَجْهُ الْخَامِسُ . أَنْ يُقَالَ : أَنْتُمْ جَعَلْتُمْ تَقَابُلَ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ فِيمَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِثُبُوتِ فَإِذَا عَنَيْتُمْ بِالْإِمْكَانِ الْإِمْكَانَ الْخَارِجِيَّ - هُوَ أَنْ يُعْلَمَ ثُبُوتُ ذَلِكَ فِي الْخَارِجِ - كَانَ هَذَا بَاطِلًا لِوَجْهَيْنِ : - أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ يَلْزَمُكُمْ أَنْ تَكُونَ الْجَامِدَاتُ لَا تُوصَفُ بِأَنَّهَا لَا حَيَّةٌ وَلَا مَيِّتَةٌ وَلَا نَاطِقَةٌ وَلَا صَامِتَةٌ وَهُوَ قَوْلُكُمْ - لَكِنَّ هَذَا اصْطِلَاحٌ مَحْضٌ - وَأَلَّا تَصِفُوا هَذِهِ الْجَمَادَاتِ بِالْمَوْتِ وَالصَّمْتِ وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِذَلِكَ . قَالَ تَعَالَى : (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) فَهَذَا فِي " الْأَصْنَامِ " وَهِيَ مِنْ الْجَمَادَاتِ وَقَدْ وُصِفَتْ بِالْمَوْتِ وَالْعَرَبُ تُقَسِّمُ الْأَرْضَ إِلَى الْحَيَوَانِ وَالْمَوَتَانِ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : الْمَوَتَانُ بِالتَّحْرِيكِ خِلَافُ الْحَيَوَانِ يُقَالُ : اشْتَرِ الْمَوَتَانَ وَلَا تَشْتَرِ الْحَيَوَانَ أَيْ اشْتَرِ الْأَرْضَ وَالدُّوْرَ ؛ وَلَا تَشْتَرِ الرَّقِيقَ وَالدَّوَابَّ ؛ وَقَالُوا أَيْضًا : الْمَوَاتُ مَا لَا رُوحَ فِيهِ فَإِنْ قِيلَ : فَهَذَا إِنَّمَا يُسَمَّى مَوَاتًا بِاعْتِبَارِ قَوْلِهِ " لِلْحَيَاةِ " الَّتِي هِيَ إِحْيَاءُ الْأَرْضِ : قِيلَ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْحَيَاةَ أَعَمُّ مِنْ حَيَاةِ الْحَيَوَانِ وَأَنَّ الْجَمَادَ يُوصَفُ بِالْحَيَاةِ إِذَا كَانَ قَابِلًا لِلزَّرْعِ وَالْعِمَارَةِ ؛ وَالْخَرَسُ ضِدُّ النُّطْقِ وَالْعَرَبُ تَقُولُ " لَبَنٌ أَخْرَسُ " أَيْ خَاثِرٌ لَا صَوْتَ لَهُ فِي

الْإِنَاءِ " وَسَحَابَةٌ خَرْسَاءُ " لَيْسَ فِيهَا رَعْدٌ وَلَا بَرْقٌ " وَعَلَمٌ أَخْرَسُ " إذَا لَمْ يُسْمَعْ لَهُ فِي الْجَبَلِ صَوْتُ صَدًى " وَيُقَالُ : " كَتِيبَةٌ خَرْسَاءُ " قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : هِيَ الَّتِي صَمَتَتْ مِنْ كَثْرَةِ الدُّرُوعِ لَيْسَ لَهُ فَقَاقِعَ وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ الصَّمْتُ وَالسُّكُوتُ ؛ فَإِنَّهُ يُوصَفُ بِهِ الْقَادِرُ عَلَى النُّطْقِ إذَا تَرَكَهُ ؛ بِخِلَافِ الْخَرَسِ فَإِنَّهُ عَجْزٌ عَنْ النُّطْقِ . وَمَعَ هَذَا فَالْعَرَبُ تَقُولُ : " مَا لَهُ صَامِتٌ وَلَا نَاطِقٌ " فَالصَّامِتُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالنَّاطِقُ الْإِبِلُ وَالْغَنَمُ فَالصَّامِتُ مِنْ اللَّبَنِ : الْخَاثِرُ وَالصَّمُوتُ : الدِّرْعُ الَّتِي صَمَتَ إذَا لَمْ يُسْمَعْ لَهُ صَوْتٌ . وَيَقُولُونَ : دَابَّةٌ عَجْمَاءُ وَخَرْسَاءُ لِمَا لَا تَنْطِقُ وَلَا يُمَكَّنُ مِنْهَا النُّطْقُ فِي الْعَادَةِ وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : (الْعَجْمَاءُ جُبَارٌ[١]) وَكَذَلِكَ فِي " الْعَمْيَاءِ " تَقُولُ الْعَرَبُ : عَمَى الْمَوْجُ يَعْمِي عَمًا إذَا رَمَى بِالْقَذَى وَالزَّبَدِ ؛ و " الْأَعْمَيَانِ " السَّيْلُ وَالْجَمَلُ الْهَائِجُ . وَعَمَى عَلَيْهِ الْأَمْرُ إذَا الْتَبَسَ وَمِنْهُ قوله تعالى : (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمْ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ) وَهَذِهِ الْأَمْثِلَةُ قَدْ يُقَالُ فِي بَعْضِهَا إنَّهُ عَدَمٌ مَا يَقْبَلُ الْمَحَلَّ الِاتِّصَافَ بِهِ كَالصَّوْتِ ؛ وَلَكِنْ فِيهَا مَا لَا يَقْبَلُ كَمُوتِ الْأَصْنَامِ . الثَّانِي : أَنَّ الْجَامِدَاتِ يُمْكِنُ اتِّصَافُهَا بِذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ أَنْ يَخْلُقَ فِي الْجَمَادَاتِ حَيَاةً كَمَا جَعَلَ عَصَى مُوسَى حَيَّةً تَبْتَلِعُ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ - وَإِذَا [كَانَ] فِي إمْكَانِ الْعَادَاتِ : كَانَ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ عُلِمَ بِالتَّوَاتُرِ - وَأَنْتُمْ أَيْضًا قَائِلُونَ بِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ وَإِذَا كَانَ الْجَمَادَاتُ يُمْكِنُ اتِّصَافُهَا بِالْحَيَاةِ وَتَوَابِعِ الْحَيَاةِ ثَبَتَ أَنَّ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ يُمْكِنُ اتِّصَافُهَا بِذَلِكَ فَيَكُونُ الْخَالِقُ أَوْلَى بِهَذَا

الْإِمْكَانِ وَإِنْ عَنَيْتُمْ الْإِمْكَانَ الذِّهْنِيَّ - وَهُوَ عَدَمُ الْعِلْمِ بِالامْتِنَاعِ - فَهَذَا حَاصِلٌ فِي حَقِّ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يُعْلَمُ امْتِنَاعُ اتِّصَافِهِ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ »

التوضيح

الوجه الخامس :حاصل هذا الوجه مرتبا كالتالي :

إن قلتم إن الملكة والعدم فيما يمكن اتصافه به فإن للإمكان احتمالين :

* الأول : الإمكان الذهني : وهو عدم العلم بالامتناع ، فإننا نقول إنه يمكن اتصاف الخالق بالسمع والبصر وغيرها لأننا لا نعلم امتناع ذلك في حقه فالذهن لايمنعه .

* الثاني : الإمكان الخارجي : أي عدم ثبوت هذه الصفات في الخارج ، فهو باطل لوجهين :

الوجه الأول : أنه يلزمكم أن تكون الجمادات لاتوصف بأنها حية ولاميتة ولاناطقة وهذا اصطلاح منكم مخالف للقرآن وكلام العرب .

- أما القرآن فقد وصف الأصنام وهي جمادات بالموت في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ النحل :[٢٠-٢١].

- وأما كلام العرب [1] فشواهده كثيرة منها :

١. قولهم : أرض حيوان وموتان وموات . فإن قيل : يقال لها موتان باعتبار قبولها للحياة وهي إحياء الأرض . فالجواب : إن هذا يدل على أن الحياة أعم من حياة الحيوان وأن الجماد يوصف بالحياة إذا كان قابلا للزرع والعمارة فصحّ وصف الجمادات بالحياة والموت وهو المقصود . فالحيوان حياته بالروح

---

١ - انظر لسان العرب : (٢/ ٩٣،٦ / ٥٥-٥٦)

والنبات حياته بغير ذلك وهكذا الجماد ، فنشأ التوهم من ربط الحياة بخصوص الروح .

٢. لبن أخرس : أي خاثر بمعنى غليظ لاصوت له .

٣. سحابة خرساء : أي لارعد فيها ولابرق .

٤. علم أخرس : إذا لم يسمع له صدى .

٥. كتيبة خرساء ، قال أبو عبيد : هي التي صمتت من كثرة الدروع ليس لها قعاقع .

٦. ماله صامت ولاناطق ، فالصامت الذهب والفضة ، والناطق الإبل والغنم وهو فيمن ليس له شيء .

٧. دابة عجماء وخرساء : ومنه قوله ﷺ : ﴿ العجماء جبار ﴾ [1].

٨. عمى الموج يعمي عميا إذا رمى القذى والزبد .

٩. الأعميان السيل والجمل الهائج .

١٠. عمي عليه الأمر إذا التبس ومنه قوله تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾ القصص :[٦٦]

الوجه الثاني : أن الجمادات يمكن اتصافها بهذه الصفات كماجعل الله تعالى عصا موسى حيّة تبلع الحبال والعصيّ ، وبهذا يعلم اتصافها بهذه الكمالات فالخالق أولى بها .

الوجه السادس

قوله ﴿ (الْوَجْهُ السَّادِسُ أَنْ يُقَالَ : هَبْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ الْعِلْمِ بِالْإِمْكَانِ الْخَارِجِيِّ فَإِمْكَانُ الْوَصْفِ لِلشَّيْءِ يُعْلَمُ تَارَةً بِوُجُودِهِ لَهُ أَوْ بِوُجُودِهِ لِنَظِيرِهِ أَوْ بِوُجُودِهِ لِمَا هُوَ الشَّيْءُ أَوْلَى

---

١ ـ رواه الجماعة البخاري : [١٤٩٩] ومسلم :[١٧١٠] وبقية أصحاب السنن عن أبي هريرة ﷺ

بِذَلِكَ مِنْهُ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَيَاةَ وَالْعِلْمَ وَالْقُدْرَةَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ : ثَابِتٌ لِلْمَوْجُودَاتِ الْمَخْلُوقَةِ وَمُمْكِنٌ لَهَا . فَإِمْكَانُهَا لِلْخَالِقِ تَعَالَى أَوْلَى وَأَحْرَى ؛ فَإِنَّهَا صِفَاتُ كَمَالٍ . وَهُوَ قَابِلٌ لِلاتِّصَافِ بِالصِّفَاتِ ؛ وَإِذَا كَانَتْ مُمْكِنَةً فِي حَقِّهِ فَلَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا لَاتَّصَفَ بِأَضْدَادِهَا ﴾

التوضيح

الوجه السادس : لو فرضنا أنه لابد من العلم بالإمكان الخارجي فهذا الإمكان إما أن يعلم بوجوده أو بوجود نظيره أو بوجوده في شيء هو أولى منه كما سبق في إمكان البعث فقد يثبت بوجوده وبوجود نظيره وبوجود ماهو أولى منه ، ومعلوم أن العلم والسمع البصر ممكنة في حق المخلوقات وهي كمال لهم فالخالق أولى بالإمكان كما سبق في قياس الأولى ، وإذا كانت كمالا في حقه فلو لم يتصف بها لزم اتصافه بضدها وهو نقص ، فالنتجية أنها تكون واجبة في حقه .

الوجه السابع

قوله ﴿ (الْوَجْهُ السَّابِعُ أَنْ يُقَالَ : مُجَرَّدُ سَلْبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ نَقْصٌ لِذَاتِهِ سَوَاءٌ سُمِّيَتْ عَمًى وَصَمَمًا وَبُكْمًا أَوْ لَمْ تُسَمَّ . وَالْعِلْمُ بِذَلِكَ ضَرُورِيٌّ فَأَمَّا إذَا قَدَّرْنَا مَوْجُودَيْنِ أَحَدُهُمَا يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَتَكَلَّمُ وَالْآخَرُ لَيْسَ كَذَلِكَ : كَانَ الْأَوَّلُ أَكْمَلَ مِنْ الثَّانِي وَلِهَذَا عَابَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَنْ عَبَدَ مَا تَنْتَفِي فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ ؛ فَقَالَ تَعَالَى عَنْ إبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ :(لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ؟) وَقَالَ أَيْضًا فِي قِصَّتِهِ : (فَاسْأَلُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ : (هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعُونَ) ، (أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) ،

(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) ، (قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)، (أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ)، (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) وَكَذَلِكَ فِي قِصَّةِ مُوسَى فِي الْعِجْلِ : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ) وَقَالَ تَعَالَى : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ؟ ! فَقَابَلَ بَيْنَ الْأَبْكَمِ الْعَاجِزِ وَبَيْنَ الْآمِرِ بِالْعَدْلِ : الَّذِي هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

التوضيح

الوجه السابع : مجرد نفي هذه الصفات نقص لذاته ، وهذا معلوم ضرورة ، فلوقدرنا موجودين أحدهما حي سميع والآخر ليس كذلك لكان الأول أكمل ، ولهذا عاب الله من عبدَ غيره ممالايتصف بها والأمثلة كمايلي :

١. قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ ﴿٤٢﴾ مريم :[٤٢]

٢. قوله تعالى :﴿ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ ﴿٦٣﴾ الأنبياء :[٦٣]

٣. قوله تعالى :﴿ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾ الشعراء :[٧٢]

٤. قوله تعالى في قصة موسى :﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ﴾ الأعراف:[١٤٨]

٥. قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ ﴿٧٦﴾ النحل :[٧٦] فقابل بين الأبكم العاجز وبين الآمر بالمعروف القادر .

فتدبر ذلك وفقنا الله وإياك إلى صراطه المستقيم ، والحمد لله رب العالمين .

خلاصة الأوجه السبعة من الجواب على شبهة التقابل

١. التقسيم إلى أربعة أقسام منقوض بالوجوب والإمكان فهما وجوديان مع ذلك لايجتمعان ولايرتفعان فلم ينطبق عليهما حد النقيضين ولا الضدين .

٢. الأقسام الأربعة تتداخل فالملكة والعدم تدخل في النقيضين والمتضايفان يدخلان في الضدين وذكرهنا ثلاثة اعتراضات وأجوبتها .

٣. التقسيم الصحيح أن يقال : المتقابلان : إما نقيضان وهما السلب والإيجاب ، أو في معنى النقيضين وهما مالايمكن خلو الشيء عنهما مع كونهما وجوديين كالإمكان والوجوب أو ضدان وهوما يمكن خلو الشيء عنهما كالسواد والبياض والأب والابن ،و هذه الأوجه الثلاثة في منع أصل قولهم .

٤. المحل الذي لايقبل الصفات أنقص من المحل الذي يقبلها مع عدمها فالجدار الذي لا يقبل السمع والبصر أنقص من الإنسان الأعمى وهكذا ،وهذا الوجه على فرض التسليم لقولهم .

٥. لايسلم أن تكون الجمادات مثلا لايمكن قبولها للصفات ، فالإمكان قسمان: ذهني: وهذا لايمتنع ، وخارجي: وهذا منقوض بأمرين :

أ ـ ورود وصفها بالموت والعجمة والخرس لغة شرعا .

ب ـ إمكان ذلك الوصف بقدرة الله تعالى كحياة عصا موسى .

٦. هذه الصفات كمال في حق المخلوق فالخالق أولى بها ولو لم يتصف بها لزم اتصافه بالنقص فتكون واجبة في حقه .

٧. مجرد نفي هذه الصفات نقص لذاته لذلك ذم الله المشركين لعبادتهم آلهة لا تسمع ولاتبصر ولا تتكلم .

خلاصة القاعدة السابعة

١. كثير مما أثبته السمع يعرف بالعقل كمعرفة الله ووحدانيته والنبوة والمعاد.

٢. خطأ الأصول التي يسميها المتكلمون بالأصول العقلية .

٣. لإثبات الكمال طريقتان عقليتان :

* الأولى : إثبات صفات الكمال بنفي ما يناقضها فلو لم يوصف بالكمال لوصف بالنقص .

* الثانية : إثبات صفات الكمال بأنفسها وهو قياس الأولى فكل كمال في حق المخلوق فالخالق أولى به .

٤. اعترض المبتدعة على الطريقة الأولى باعتراض التقابل المشهور وقد تكرر ثلاث مرات ورد عليه هنا بسبعة أوجه شافية سبق تلخيصها قريبا .

المناقشة ؟

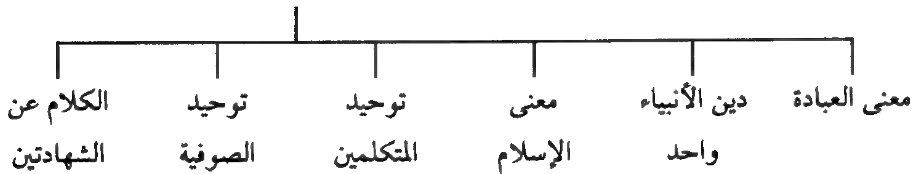
١. دلل على أن كثيرا مما أثبته السمع يعرف بالعقل .
٢. اذكر بعض الأصول العقلية عند المتكلمين .
٣. بين وجوه ضلال المتكلمين في تلك الأصول .
٤. اذكر أمثلة لصفات تعرف بالعقل .
٥. اذكرالطرق العقلية العامة في إثبات الكمال .
٦. في شبهة التقابل المشهورة وضح مايلي :
أ ـ نص الشبهة والقائلين بها .
ب ـ المصطلحات المتعلقة بها وهي :
(النقيضان ـ الضدان ـ المتضايفان ـ الملكة والعدم)
ج ـ الأجوبة السبعة باختصار .

*

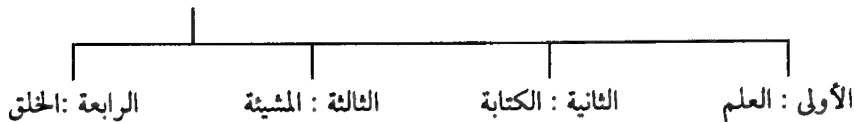
الأصلُ الثانِيْ

الشّرعُ والقَدَرُ

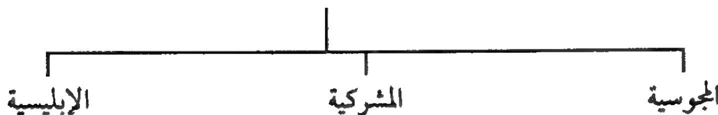
الواجب في الشرع اعتقادا : وفيه مسائل : وهي



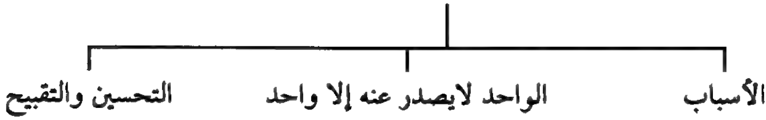
الواجب في القدر اعتقادا : الإيمان بمراتبه الأربع : وهي



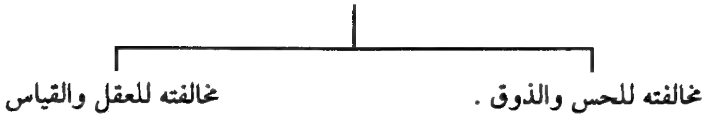
الفرق التي ضلت في القدر ثلاثة : وهي



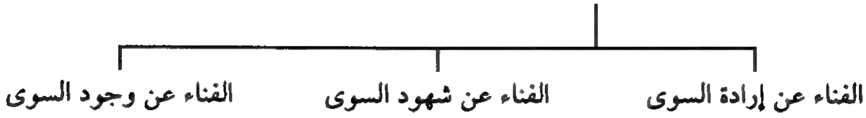
📖 الكلام في المسائل التالية وهي :



📖 مخالفة من ينظر إلى القدر دون الشرع :ـ



📖 أنواع الفناء ثلاثه وهي :



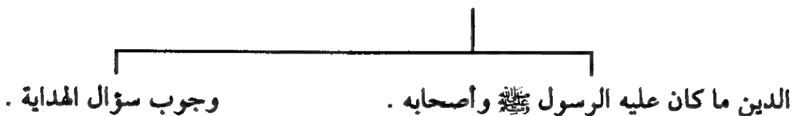
📖 الواجب في الشرع عملا :



📖 الواجب في القدر عملا :



📖 خاتمة الرسالة وفيها :



الأَصْلُ الثَّانِيْ : الشرع والقدر

قوله ﴿ فَصْلٌ وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي (وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْعِبَادَاتِ) الْمُتَضَمِّنُ لِلْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ جَمِيعًا . ﴾

التوضيح :

سبق الكلام في المقدمة عن هذا الأصل وهو الشرع والقدر وذكرنا أنهما متلازمان فمن آمن بأحدهما لزمه الإيمان بالآخر ، ويبين شيخ الإسلام هنا ما يجب تجاه الشرع والقدر اعتقادا وعملا على وجه التفصيل ، ومايتعلق بهما من مسائل وماوقع فيهما من اختلاف والله الموفق .

مايجب في هذا الأصل

قوله ﴿ فَنَقُولُ : لَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِخَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ ﴾

التوضيح

هنا أصلان عظيمان يجب الإيمان بهما :

أحدهما : الإيمان بربوبية الله تعالى الشاملة وأنه خالق كل شيء وأن ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكون وهذا هو القدر .

والآخر : الإيمان بشرعه وأنه تعالى شرع الشرائع وأرسل الرسل وخلق الخلق لعبادته وهذا هو الشرع .

فالقدر هو الخلق والشرع هو الأمر كما قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿٥٤﴾ الأعراف :[٥٤] ومن هذا التقسيم وغيره نعلم أن تأصيلات شيخ الإسلام رحمه الله نقلية عقلية .

أولا : ما يجب في الإيمان بالقدر

قوله ﴿ فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ وَقَدْ عَلِمَ مَا سَيَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَقَدَّرَ الْمَقَادِيرَ وَكَتَبَهَا حَيْثُ شَاءَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : " إنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ" . ﴾

التوضيح :

هذا الكلام عما يجب تفصيلا تجاه هذا الأصل فبدأ بما يجب في الإيمان بالقدر وهو الإيمان بمراتبه وهي أربع مراتب كما يلي على ترتيب الرسالة :

المرتبة الأولى : الإيمان بأن الله خالق كل شيء وأنه على كل شيء قدير كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ ﴾ الأنعام :[١٠٢] .

المرتبة الثانية : الإيمان بأن لله المشيئة العامة فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ التكوير : [٢٩] .

المرتبة الثالثة : الإيمان بعلمه الأزلي الأبدي بما سيكون قبل أن يكون .

المرتبة الرابعة : الإيمان بأن الله تعالى كتب مقادير كل شيء .

ودليل هاتين المرتبتين مايلي:

ـ من القرآن الكريم : قوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ الحج :[٧٠] ففيها إثبات العلم والكتابة .

ـ من السنة قوله ﷺ : ((إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء))[1] فكتابته تستلزم العلم .

وقد جمع بعضهم هذه المراتب بقوله[2] :

علم كتابة مولانا مشيئته * وخلقه وهو إيجاد وتكوين

ثانيا : ما يجب في الإيمان بالشرع

قوله ﴿ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له كما خلق الجن والإنس لعبادته وبذلك أرسل رسله وأنزل كتبه وعبادته تتضمن كمال الذل والحب له وذلك يتضمن كمال طاعته (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقد قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) وقال تعالى : (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟) (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) وقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا

---

١ ـ أخرجه مسلم : (٤/ ٢٠٤٤) رقم :[٢٦٥٣] عن عبد الله بن عمرو.

٢ ـ انظر القول المفيد على كتاب التوحيد للعلامة العثيمين : (٣/ ٢٤٣) .

إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) فَأَمَرَ الرُّسُلَ بِإِقَامَةِ الدِّينِ وَأَنْ لَا يَتَفَرَّقُوا فِيهِ. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : " إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ وَإِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا ؛ إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»

التوضيح :

وأما ما يجب في الإيمان بالشرع فيتضمن مايلي :

١ـ الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لاشريك لـه : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ الإسراء :[٢٣].

٢ـ وأنه خلق الجن والإنس ليعبدوه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ﴿٥٦﴾ الذارايات :[٥٦]

٣ـ وأنه أرسل رسله وأنزل كتبه لتحقيق عبوديته وأدلة ذلك مايلي:

قوله تعالى:﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ الزخرف :[٤٥]

وقوله تعالى :﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ﴿٢٥﴾ الأنبياء [٢٥]

وقولـه تعـالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ ﴾ المؤمنون :[٥١ ـ ٥٢]

٤ ـ وأن من يطع الرسول فقد أطاع الله قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ النساء :[٦٤] وقولـه : ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ۝٣١ آل عمران :[٣١].

معنى العبادة : مأخوذة من قولهم عبّد إذا ذلل[1] وهي تطلق على معنيين[2].

الأول : التعبد : وهو فعل العابد وتكون بمعنى التذلل والتعظيم مع كامل الحب لله.

قال ابن القيم في النونية :

وعبادة الرحمن غاية حبه * مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر * مادار حتى قام ذا القطبان

٢ ـ المتعبد به : فتكون اسما جامعا لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة .

س : هل دين الأنبياء واحد ؟

الجواب : إن دين الأنبياء واحد وإن اختلفت بعض الشرائع والدليل مايلي:

---

١ ـ انظر القاموس :ص ٣٧٨ .

٢ ـ تقريب التدمرية للعلامة العثيمين :ص ١٢٩ .

ـ من القرآن : قوله تعالى : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ ﴿١٣﴾ الشورى :[١٣] فأمر بإقامة الدين وألا يتفرقوا فيه.

ـ من السنة قوله ﷺ : ((إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد ، والأنبياء إخوة لعلات ، وأنا أولى الناس بابن مريم ، لأنه ليس بينه وبيني نبي))[1]

والعلات :جمع علّة بمعنى :ضرات [2].

والمراد : أن أمهاتهم شتى وأباهم واحد ، أي شرائعهم شتى ودينهم واحد كما في رواية البخاري :(أمهاتهم شتى ودينهم واحد) . وقيل المراد أزمنتهم مختلفة ودينهم واحد . والمقصود أن دينهم واحد[3]. وسيأتي مزيد إيضاح له .

دين الرسل هو الإسلام

قوله ﴿وَهَذَا الدِّينُ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ دِينًا غَيْرَهُ لَا مِنْ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنْ الْآخِرِينَ فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْت فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾إلى قَوْلِهِ : ﴿ وَأُمِرْت أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ . وَقَالَ عَنْ إبْرَاهِيمَ : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ إلَّا

---

١ ـ رواه البخاري : (٦/ ٤٧٨) رقم :[٣٤٤٣] ، ومسلم :(٤/ ١٨٣٧)رقم:[٢٣٦٥] عن أبي هريرة رضي الله عنه .

٢ ـ القاموس :ص١٣٣٨ .

٣ ـ انظر فتح الباري :(٦/ ٤٨٩)

مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ؟ ﴾إلى قوله : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾إلى قوله : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾وقال عن موسى : ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾وقال في خبر المسيح : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ وقال فيمن تقدم من الأنبياء : ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ وقال عن بلقيس أنها قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴾

التوضيح :

بين شيخ الإسلام هنا أن هذا الدين الذي اتفقت عليه الرسل هو دين الإسلام ثم ذكر الأدلة على ذلك وهي واضحة وصريحة .

معنى الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل

قوله ﴿ فَالْإِسْلَامُ يَتَضَمَّنُ الِاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ؛ فَمَنْ اسْتَسْلَمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ كَانَ مُشْرِكًا وَمَنْ لَمْ يَسْتَسْلِمْ لَهُ كَانَ مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ وَالْمُشْرِكُ بِهِ وَالْمُسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَتِهِ كَافِرٌ وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ وَحْدَهُ يَتَضَمَّنُ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ وَطَاعَتَهُ وَحْدَهُ . فَهَذَا دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ غَيْرَهُ ؛ وَذَلِكَ إنَّمَا يَكُونُ بِأَنْ يُطَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ؛ فَإِذَا أَمَرَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ ثُمَّ أَمَرَنَا ثَانِيًا بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ : كَانَ كُلٌّ مِنْ الْفِعْ حِينَ أَمَرَ بِهِ دَاخِلًا فِي الْإِسْلَامِ فَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ لَهُ فِي الْفِعْلَيْنِ ؛ وَإِنَّمَا تَنَوَّعَ بَعْضُ صُوَرِ الْفِعْلِ وَهُوَ وِجْهَةُ الْمُصَلَّى فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ دِينُهُمْ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ الشِّرْعَةُ وَالْمِنْهَاجُ وَالْوَجْهُ وَالْمَنْسَكُ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ وَاحِدًا كَمَا لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ الرَّسُولِ الْوَاحِدِ﴾

التوضيح :

بعد أن بين شيخ الإسلام اتفاق الأنبياء في دين الإسلام أراد أن يوضح هذا الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل فإنه قد يتساءل بعض الناس قائلا :

ـ كيف نقول إنهم اتفقوا على الإسلام مع اختلافهم في الكتب والشرائع؟

ـ وللجواب عن هذا السؤال نتكلم عن مسألتين :

الأولى : عن معنى الإسلام .

الثانية : وجه كون دين الأنبياء واحدا مع اختلاف شرائعهم .

أولا : معنى الإسلام :

قال شيخ الإسلام : (**فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده**) وهذه عبارة جامعة لمفهوم الإسلام وتشمل أمرين عظيمين هما :

١ـ عبادة الله وهي الاستسلام والتذلل والخضوع والانقياد له .

٢ـ ثم إفراده ﷻ بهذه العبادة ، فمن لم يفرده بالعبادة كان مشركا ، ومن استكبر عن عبادته ولم يستسلم له كان كافرا متكبرا ، وقد جمع الله بينهما بقوله :﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ النساء :[٣٦] ، وتوعد من استكبر عن عبادته بقوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ﴿٦٠﴾ غافر :[٦٠] ، كماذم من عبد الله وعبد غيره بقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ﴾ البقرة:[١٦٥] . فمن لم يحقق أحد هذين الأمرين كان كافرا لأن المشرك والمستكبر من الكافرين وهذا كما سيأتي مفهوم الإسلام العام الذي جاءت به الرسل.

ثانيا : وجه كون دين الأنبياء واحدا .

تبين أن الإسلام هو الاستسلام والطاعة والعبادة لله ثم إفراده بهذه العبادة وإنما تكون العبادة صحيحة مقبولة إذا وافقت ماأمر الله به فإذا أمر الله تعالى باستقبال الصخرة أي بيت المقدس كان امتثال هذا الأمر هو المطلوب ، ثم إذا أمر باستقبال الكعبة كان امتثال الأمر الثاني هو المطلوب ، ومع ذلك لم يخرج الفعلان عن دين الإسلام لأن كل فعل وافق الأمر في ذلك الوقت ، فإذا كان هذا التنوع حاصلا في شريعة الرسول الواحد فكذلك إذا تنوعت الشرعة والمنهاج والمنسك أي العبادة بين الرسل لم يمنع ذلك أن يكون دينهم واحدا كما لم يمنعه في شرعة الرسول الواحد .

لذلك قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ المائدة :[٤٨] قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : (سنة وسبيلا)[1]، وقال تعالى :﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الحج:[٦٧] . فهذا دليل على الاختلاف في بعض الأحكام فيجمع مع مايدل على أن دينهم واحد بما سبق .

من دين الرسل وجوب الإيمان بجميع الرسل

قوله رحمه الله وَاللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ مِنْ دِينِ الرُّسُلِ : أَنَّ أَوَّلَهُمْ يُبَشِّرُ بِآخِرِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ وَآخِرَهُمْ يُصَدِّقُ بِأَوَّلِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمْ يَبْعَثْ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ

---

١ ـ تفسير القرطبي :(٦/ ١٩٩) وبدائع التفسير :(٢/ ١١٢)

الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ وَقَالَ تَعَالَى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) ﴾

التوضيح :

جعل الله تعالى من دين الرسل أن يبشر أولهم بآخرهم ويؤمن به وأن يصدق آخرهم بأولهم ويؤمن به ، فدليل تبشير أولهم بآخرهم وإيمانهم به مايلي:

١ـ قوله تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكْمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ ﴿٨١﴾ آل عمران :[٨١] قال الإمام القرطبي :(أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر)[١]، والإصر هو العهد[٢] . قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية : (لم يبعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه)[٣] .

---

١ ـ تفسير القرطبي :(٤/ ١٢٢)

٢ ـ المصدر السابق : (٤/ ١٢٣)

٣ ـ ابن جرير : (٦/ ٥٥٦) وثبت نحوه عن علي رضي الله عنه وعن السدي .

٢ـ وقولـه تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ الأعراف :[١٥٧] .

ودليل تصديق آخرهم بأولهم وإيمانهم بهم قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ ﴾ المائدة :[٤٨] . قال ابن عباس ﷺ ومجاهد وغيرهما : (مهيمنا) أي شاهدا ومنه وقول حسان :

إن الكتاب مهيمن لنبينا ❋ والحق يعرفه ذوو الألباب[1]

وقيل : (مهيمنا) أي قاضيا ، وقيل : رقيبا حافظا ، وقيل : حاكما ، وقيل : أمينا . قال الإمام ابن كثير : (وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله)[2] وقد اجتمع التصديق بالأول والتبشير بالآخر في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ ﴾ الصف :[٦] ،

تلازم الإيمان بالرسل

قوله ﷺ وَجَعَلَ الْإِيمَانَ مُتَلَازِمًا وَكَفَّرَ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ

---

١ ـ تفسير البغوي :(٣/ ٦٥)

٢ ـ تفسير ابن كثير : (٢/ ٦٨)

وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) (أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا) وَقَالَ تَعَالَى : (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ) إِلَى قَوْلِهِ : (تَعْمَلُونَ) وَقَدْ قَالَ لَنَا : (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فَأَمَرَنَا أَنْ نَقُولَ : آمَنَّا بِهَذَا كُلِّهِ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

التوضيح :

أثبت شيخ الإسلام أن من دين الرسل الإيمان بجميع الرسل ويبين هنا تلازم الإيمان بالرسل فمن آمن ببعض الرسل وجب عليه الإيمان بجميعهم ومن كفر ببعضهم يعتبر كافرا بجميعهم وأدلة ذلك مايلي :

١ـ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ النساء :[١٥٠ـ١٥١] فأثبت كفر من لم يؤمن ببعض الرسل.

٢ـ قوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ البقرة :[٢٨٥]

٣ـ قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ البقرة :[١٣٦] .

من بلغته رسالة محمد عليه السلام ولم يقرّ بها فهو كافر

قوله ﴿ فَمَنْ بَلَغَتْهُ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فَلَمْ يُقِرَّ بِمَا جَاءَ بِهِ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا وَلَا مُؤْمِنًا ؛ بَلْ يَكُونُ كَافِرًا وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ أَوْ مُؤْمِنٌ . كَمَا ذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ) قَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى : فَنَحْنُ مُسْلِمُونَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلًا) فَقَالُوا : لَا نَحُجُّ فَقَالَ تَعَالَى : (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ) فَإِنَّ الِاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ لَا يَتِمُّ إلَّا بِالْإِقْرَارِ بِمَا لَهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ حِجِّ الْبَيْتِ ؛ كَمَا قَالَ صلى الله عليه وسلم : " بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ "

وَلِهَذَا لَمَّا وَقَفَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِعَرَفَةَ أنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

التوضيح :

بما أن دين الأنبياء يوجب الإيمان بجميع الأنبياء فمن بلغته رسالة النبي ﷺ ولم يؤمن بها كان كافرا وإن زعم أنه يؤمن بمن سبق من الأنبياء كاليهود والنصارى لأن كفرهم بالنبي ﷺ نقض لإيمانهم ببقية الأنبياء كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ ﴿٨٥﴾ آل عمران :[٨٥] وقد بينا أن الإسلام عبادة الله بما شرع ، وقد شرع لنا الإيمان بالنبي ﷺ ومتابعته وطاعته فكان هذا هو الإسلام المطلوب وماعداه منسوخا ، لذلك لما نزلت هذه الآية قالت اليهود والنصارى : فنحن مسلمون ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ آل عمران :[٩٧] فقالوا : لانحج فأنزل الله قوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ آل عمران:[٩٧][1] .

فالإسلام بعد بعثة النبي ﷺ لا يصح إلا بالإقرار بما جاءبه ومن ذلك الحج لقوله ﷺ : ((بني الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت))[2] ولذلك قال تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا

---

١ ـ تفسير ابن كثير : (١/ ٣٩٤)

٢ ـ رواه البخاري : (١/ ٩) رقم :[٨] ومسلم :(١/ ٤٥) رقم :[١٦] عن ابن عمر رضي الله عنه .

وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ ﴾ البقرة :[٩١] فلم يقبل منهم زعمهم بأنهم مؤمنون بما أنزل عليهم . وهذا الإسلام هو الإسلام الخاص الذي لايقبل الله غيره بعد إرسال النبي ﷺ وهو المقصود بقوله تعالى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ المائدة :[٣] . فقد نزلت بعرفة في حجة الوداع[١] .

وقد قال ﷺ : ((والذي نفسي بيده لايسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولانصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار))[٢]

الإسلام عام وخاص

قوله ﴿ وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أُمَّةِ مُوسَى وَعِيسَى هَلْ هُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ لَا ؟ " وَهُوَ نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ " فَإِنَّ الْإِسْلَامَ الْخَاصَّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم الْمُتَضَمِّنَ لِشَرِيعَةِ الْقُرْآنِ : لَيسَ عَلَيْهِ إلَّا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَالْإِسْلَامُ الْيَوْمَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَتَنَاوَلُ هَذَا وَأَمَّا الْإِسْلَامُ الْعَامُّ الْمُتَنَاوِلُ لِكُلِّ شَرِيعَةٍ بَعَثَ اللَّهُ بِهَا نَبِيًّا فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ إسْلَامَ كُلِّ أُمَّةٍ مُتَّبِعَةٍ لِنَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ . ﴾

التوضيح :

من خلال ما سبق يتضح أن للإسلام إطلاقين : إطلاقا عاما وإطلاقا خاصا ، فالإسلام العام هو الاستسلام لله وحده فهذا يصدق على كل أمة متبعة لنبي من

---

١ ـ أخرجه البخاري رقم [٤٥] ومسلم :[٣٠٧١]

٢ ـ أخرجه مسلم : باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته :(١/ ٣٦٤) رقم :[٢٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الأنبياء . والإسلام الخاص هو مابعث الله به نبيه ﷺ وهو شريعة القرآن فلا يقبل بعد النبي ﷺ إلا الدين الذي جاء به كما سبق .

وهذا يرفع النزاع الواقع فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى عليهما السلام؛ هل هم مسلمون أم لا ؟

فالجواب : أنهم مسلمون بالإطلاق العام كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ ﴿٨٤﴾ يونس :[٨٤] وقوله في خبر عيسى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿١١١﴾ المائدة :[١١١].

وأما الإسلام الخاص فليس إلا لأمة محمد ﷺ وهو المقصود عند الإطلاق كما في حديث جبريل عليه السلام وفيه :((الإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت))[1] فيكون النزاع لفظيا فمن قال إن تلك الأمم مسلمون أراد الإسلام بالإطلاق العام ومن قال إنهم غير مسلمين أراد الإسلام بالإطلاق الخاص.

دعوة الرسل إلى توحيد العبادة

قوله ﴿ وَرَأْسُ الْإِسْلَامِ مُطْلَقًا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِهَا بُعِثَ جَمِيعُ الرُّسُلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) وَقَالَ تَعَالَى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِك مِنْ رَسُولٍ إلَّا نُوحِي إلَيْهِ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وَقَالَ عَنْ الْخَلِيلِ : (وَإِذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ) (إلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ

---

١ ـ أخرجه مسلم : (١/ ١٧٧) رقم :[١] عن عمر بن الخطاب ﷺ .

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ : (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) وَقَالَ تَعَالَى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ) وَقَالَ (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ؟) وَذَكَرَ عَنْ رُسُلِهِ : كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ : (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) وَقَالَ عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ : (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) إِلَى قَوْلِهِ : (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ

التوضيح

بعث الله جميع رسله إلى تحقيق كلمة الشهادة المتضمنة لتوحيد الألوهية أي إفـراد الله تعالى بالعبادة فهنا نذكر أدلة ذلك ثم توضيحا مختصرا لكلمة التوحيد :

أولا الأدلة :

١ـ قولــه تعــالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ النحل :[٣٦] .

٢ـ قوله تعــالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء :[٢٥]

٣ـ قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الزخرف:[٢٦ـ٢٨]

٤ـ وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٧٧﴾ الشعراء:[٧٥ـ٧٧]

٥ـ وقوله تعالى:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ الممتحنة :[٤]

٦ ـ وقوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ الزخرف :[٤٥]

٧ـ وقال عن نوح وهود وصالح وغيرهم :﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ الأعراف :[٥٩،٦٥،٧٣،٨٥]

٨ ـ وقال عن أصحاب الكهف :﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾﴿١٤﴾ الكهف:[١٤]

٩ـ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ النساء :[١١٦،٤٨].

ثانيا : شرح كلمة (لاإله إلا الله):ـ

سبق الكلام عن شروطها ونذكرالآن بعض الفوائد المتعلقة بها :

١ـ (لا) نافية للجنس .

٢ـ (إله) اسم (لا) ومعناه معبود .

٣ـ خبر (لا) مقدر ، واختلف في تقديره على أقوال منها :

أـ (موجود) وتقدير الكلام : لا إله موجود إلا الله .

ب ـ (خالق) وتقدير الكلام : لا إله خالق إلا الله .

ج ـ (معبود) وتقدير الكلام : لا إله معبود إلا الله .

د ـ وقال بعضهم : لايقدرشيء لأنه أصرح في النفي والتوحيد .

هـ ـ وأما أهل السنة فقدروه (حق) والمعنى :لا إله حق إلا الله لقوله تعالى :﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ ﴿٣٠﴾ لقمان :[٣٠] .

ـ مناقشة الأقوال الأخرى :

أ ـ أما من قدر الخبر (موجود) فقوله باطل ، لأن الآلهة الموجودة غير الله كثيرة فيجب تقدير ما يميز الإله الحق عن الآلهة الباطلة .

ب ـ ومن قدره (خالق) فقد وحّد في الربوبية فقط وليس هذا هو المقصود من الكلمة . وهذا التقدير مذهب المتكلمين وسيأتي تفصيله .

ج ـ ومن قدره (معبود) فقوله باطل من وجهين : الأول : أن المعبودات كثيرة . الثاني : أن اسم (لا) وهو كلمة (إله) بمعنى معبود فيكون الخبر عن المبتدأ لفظا ومعنى وهو لغو وحشو لامعنى له .

د ـ ومن منع التقدير وهو قول بعض المعتزلة فقد خالف ضرورة اللغة[1]
فهذه الكلمة تتضمن إثبات العبادة لله ونفيها عما سواه . وجميع ماسبق من الأدلة هي معنى هذه الكلمة وقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل :[٣٦] أي اعبدوا الله دون ماسواه من المعبودات فإن الطاغوت من الطغيان وهو كل ما يتجاوز فيه الحد[2] ، وكذلك قوله تعالى على لسان الرسل : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ الأعراف :[٥٩،٦٥،٧٣،٨٥] إثبات العبادة لله ونفيها عما سواه .

بيان القرآن لأنواع الشرك

قوله ﴿وَقَدْ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ الشِّرْكَ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَالشِّرْكَ بِالْأَنْبِيَاءِ ، وَالشِّرْكَ بِالْكَوَاكِبِ ، وَالشِّرْكَ بِالْأَصْنَامِ – وَأَصْلُ الشِّرْكِ الشِّرْكُ بِالشَّيْطَانِ – فَقَالَ عَنْ النَّصَارَى : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) وَقَالَ تَعَالَى : (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ) وَقَالَ تَعَالَى : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ

---

١ ـ شرح الطحاوية ص٧٣ . بتحقيق التركي . وانظر تعليق العلامة ابن باز :ص٧٤.

٢ ـ الواجبات المتحتمات :ص٢٠.

يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ) إِلَى قَوْلِهِ : (وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟) فَبَيَّنَ أَنَّ اتِّخَاذَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا كُفْرٌ»

التوضيح :

حذر الله عباده من الشرك في مواضع من كتابه ، والشرك صرف بعض العبادة لغير الله تعالى ، وذكر بأنه لايغفره أبدا ويغفر مادون ذلك لمن يشاء كما قال تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء :[١١٦،٤٨]. في موضعين من القرآن . وقد بين أنواع الآلهة التي تعبد من دونه ومن ذلك مايلي :

١ ـ أصله الشرك بالشيطان ، كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ مريم :[٤٤] وقريب منه عبادة الجن كما في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ سبأ :[٤١]

٢ـ الشرك بالأصنام : ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ نوح :[٢٣] .

٣ـ الشرك بالملائكة والأنبياء : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ آل عمران :[٨٠]

٤ـ الشرك بالكواكب : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴾ الأنعام :[٧٦]

٥ـ الأحبار والرهبان : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ التوبة :[٣١]

إقرار عامة المشركين بالربوبية

قوله ﴿ وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْخَلْقِ لَمْ يَزْعُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ شَارَكُوا اللَّهَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . بَلْ وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ أَنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ . بَلْ وَلَا أَثْبَتَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ إلَهًا مُسَاوِيًا لِلَّهِ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ بَلْ عَامَّةُ الْمُشْرِكِينَ بِاَللَّهِ : مُقِرُّونَ بِأَنَّهُ لَيْسَ شَرِيكُهُ مِثْلَهُ بَلْ عَامَّتُهُمْ يُقِرُّونَ أَنَّ الشَّرِيكَ مَمْلُوكٌ لَهُ سَوَاءٌ كَانَ مَلَكًا أَوْ نَبِيًّا أَوْ كَوْكَبًا أَوْ صَنَمًا ؛ كَمَا كَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ : " لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك إلَّا شَرِيكًا هُوَ لَك تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ " فَأَهَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِالتَّوْحِيدِ وَقَالَ : " (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك لَبَّيْكَ إنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَك وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَك) ﴾

التوضيح :

ذكرنا في مقدمة هذه الرسالة أن علماء السنة قسموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام بالتتبع والاستقراء[١] وهي توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وقد اجتمعت هذه الأقسام الثلاثة في قوله تعالى : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ

---

١ ـ انظر كتاب سبيل الهدى والرشاد في بيان حقيقة توحيد رب العباد لشيخنا أ.د.الخميس :ص٦٠ـ٦٢ في مناقشة دعوى أن أقسام التوحيد ليست من الثوابت وأنها محدثة في القرن السابع * وانظر كذلك الجواب على من أنكر تقسيم التوحيد للشيخ أ.د. عبد الرزاق البدر العباد .

وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ ﴿٦٥﴾ مريم :[٦٥] فالربوبية في قوله (رب السموات والأرض ومابينهما) والألوهية في قوله : (فاعبده واصطبر لعبادته) والأسماء والصفات في قوله : (هل تعلم له سميا) وهذا ما تم تفصيله في الأصل الأول[1]. ومن أول من أشار إلى مضمون ذلك الإمام أبوحنيفة حيث قال : (والله يُدعى من أعلى لا من أسفل ، لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء)[2]

وقد سبق بيان دعوة الرسل وأنها مجتمعة على الدعوة إلى توحيد الألوهية.ويذكر شيخ الإسلام هنا أن عامة المشركين كانوا مقرين بالربوبية أي اعتقاد أن الله تعالى خالقهم وخالق السموات والأرض ومالك كل شيء وأدلة ذلك مايلي :

١ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ ﴾ الزمر :[٣٨]

٢ـ قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾ ﴿٨٩﴾ المؤمنون :[٨٤ـ٨٩] .

فهم مقرون بالربوبية من حيث أصولها وهي كما يلي :

١ ـ لم يزعموا أن العالم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال .

---

١ ـ تقريب التدمرية للعلامة العثيمين :ص١٢٥ .

٢ ـ الأوسط :ص٥١ عن أصول الدين : ص٢٠٨ سبيل الهدى والرشاد :ص ٦٠ـ٦٢ . وفيهما كثير من النقول عن الأئمة في هذا التقسيم .

٢ ـ عامتهم مقرون بأنه ليس له شريك مثله مساوٍ له في جميع الصفات .
٣ـ وعامتهم مقرون بأن الشريك مملوك له سواء كان ملكا أو نبيا أو كوكبا أو صنما . كما كان يقول مشركو العرب في تلبيتهم : (لبيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك) فأهلّ رسول الله ﷺ بالتوحيد فقال : (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شرك لك)[1] .

وهذا داخل في الأصلين السابقين : لاشريك له في خلق جميع المخلوقات ، ولا مماثل له في جميع الصفات ، وليس المقصود عدم وقوع الشرك في الربوبية مطلقا ، فإن طوائف من الناس ادّعت أن هناك بعض المخلوقات خالقة ومبدعة ولكن لم يقل أحد إنها مماثلة لله في جميع الصفات والأفعال . بل زعمت الماركسية أن المادة صنعت كل شيء وهذا شرك استشرى حتى في المعسكرات الشرقية في الأجيال المعاصرة وكل ما تجعله لله يجعلونه للمادة أو الطبيعة .

أعظم من نقل عنه مخالفته للربوبية

قوله ﴿ وَقَدْ ذَكَرَ أَرْبَابُ الْمَقَالَاتِ : مَا جَمَعُوا مِنْ مَقَالَاتِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَالْآرَاءِ وَالدِّيَانَاتِ فَلَمْ يَنْقُلُوا عَنْ أَحَدٍ إثْبَاتَ شَرِيكٍ مُشَارِكٍ لَهُ فِي خَلْقِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَلَا مُمَاثِلٍ لَهُ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ ؛ بَلْ مِنْ أَعْظَمِ مَا نَقَلُوا فِي ذَلِكَ قَوْلَ الثَّنَوِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْأَصْلَيْنِ " النُّورِ " و " الظُّلْمَةِ " وَأَنَّ النُّورَ خَلَقَ الْخَيْرَ ، وَالظُّلْمَةَ خَلَقَتْ الشَّرَّ ثُمَّ ذَكَرُوا لَهُمْ فِي الظُّلْمَةِ قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا مُحْدَثَةٌ فَتَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ وَالثَّانِي : أَنَّهَا قَدِيمَةٌ لَكِنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ إلَّا الشَّرَّ فَكَانَتْ نَاقِصَةً فِي ذَاتِهَا وَصِفَاتِهَا وَمَفْعُولَاتِهَا عَنْ النُّورِ ﴾

---

١ ـ أخرجه مسلم :(٢/ ٨٤٣) رقم :[١١٨٥] باب : التلبية وصفتها ووقتها ، ورقم :[١٢١٨] باب حجة النبي ﷺ .

التوضيح :

قوله : (أرباب المقالات) :أي المصنفون في الملل والنحل والآراء والديانات كالشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) والبغدادي في كتابه (الفرق بين الفرق) وابن حزم في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) وأبي الحسن الأشعري في (مقالات الإسلاميين) ومن أسبقهم الإمام الملطي في (التنبيه والرد) وقد نقلت عنه في أثناء التوضيحات .

فلم يذكر هؤلاء أن أحدا من الناس أثبت شريكا لله في جميع مخلوقاته ولا مماثلا له في جميع صفاته وذكروا أن أعظم الطوائف انحرافا في الربوبية هم (الثنوية) ومع ذلك لم يثبتوا ربين متكافئين .

و(الثنوية) فرقة من المجوس تقول بالأصلين النور والظلمة وأن النور خلق الخير والظلمة خلقت الشر، فهم يثبتون خالقين ومع ذلك لم يثبتوا التماثل في جميع الصفات والأفعال لأنهم ذكروا في الظلمة قولين : الأول : أنها محدثة مخلوقة من جملة المخلوقات للنور . والثاني : أنها قديمة لكنها لم تخلق إلا الشر ، فتكون أنقص في صفاتها وأفعالها من النور[1] . فبذلك لم يثبتوا صانعين متكافئين .

إخبار القرآن عن إقرار المشركين بالربوبية

قوله ﴿وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ إقْرَارِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْمَخْلُوقَاتِ مَا بَيَّنَهُ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) وَقَالَ تَعَالَى : (قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

---

١ ـ انظرالملل والنحل : (٢/ ٢٦٨) الكتب العلمية تحقيق أحمد فهمي .

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) إلى قوله (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ؟) إلى قوله (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) وقال : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) ﴾

التوضيح :

ذكر هنا الأدلة على إقرار المشركين بالربوبية وقد سبقت ، وهذا تابع للمبحث الذي تحت عنوان إقرار عامة المشركين بالربوبية فصل بينهما شيخ الإسلام بذكر الثنوية دفعا لاعتراض مقدر ، وسيأتي بعد ذلك بأمثلة لطوائف أخرى انحرفت في الربوبية وهم القدرية وأهل الفلسفة وبعض المشركين ، لأنه قد يقال : إن هذه الطوائف قد أشركت في الربوبية فأراد أن يبين أنها مقرة بأصل الربوبية .

ومما يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (١٠٦) يوسف :[١٠٦] أي يؤمنون بالربوبية ويشركون في الألوهية ، قال الإمام القرطبي: (نزلت في قوم أقروا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها وهم يعبدون الأوثان . قاله الحسن ومجاهد وأكثر المفسرين)[1]

وقال الإمام البغوي : (فكان من إيمانهم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض ؟ قالوا: الله ، وإذا قيل لهم : من ينزل المطر؟ قالوا : الله . ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون)[2] .

ثم تعرض الشيخ لبيان طوائف انحرفت في التوحيد عن طريقة أهل السنة والجماعة.

---

١ ـ تفسير القرطبي : (٩/ ٢٣٢) وانظرالآثار عن السلف في تفسير ابن جرير وهي مخرجة في التفسير الصحيح أ.د.حكمت بشير : (٣/ ١٠٠)

٢ ـ تفسير البغوي : (٤/ ٢٨٣)

ذكر طوائف انحرفت في تقرير التوحيد

أولا : التوحيد عند المتكلمين :

قوله ﴿ وبِهَذَا وَغَيْرِهِ : يُعْرَفُ مَا وَقَعَ مِنْ الْغَلَطِ فِي مُسَمَّى التَّوْحِيدِ فَإِنَّ عَامَّةَ الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ يُقَرِّرُونَ التَّوْحِيدَ فِي كُتُبِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ : غَايَتُهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا التَّوْحِيدَ (ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ) . فَيَقُولُونَ : هُوَ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَا قَسِيمَ لَهُ ، وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ لَا شَبِيهَ لَهُ ، وَوَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَرُ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ الثَّالِثُ وَهُوَ " تَوْحِيدُ الْأَفْعَالِ " وَهُوَ أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ وَهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ دَلَالَةِ التَّمَانُعِ وَغَيْرِهَا وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الْمَطْلُوبُ ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِنَا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ حَتَّى قَدْ يَجْعَلُوا مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ الْقُدْرَةَ عَلَى الِاخْتِرَاعِ ﴾

التوضيح :

غاية أهل الكلام المقررين للتوحيد أنهم يجعلون التوحيد ثلاثة أنواع وهي :

١ـ توحيد الذات : وهو أنه واحد في ذاته لاقسيم له .

٢ـ توحيد الصفات :وهوأنه واحد في صفاته لا شبيه له .

٣ـ توحيد الأفعال :و هو أنه واحد في أفعاله لاشريك له .

وأشهر هذه الأنواع الثلاثة عندهم هو توحيد الأفعال أي أن خالق العالم واحد ويحتجون له بدليل التمانع ويظنون أنه هو المطلوب وأنه معنى (لا إله إلا الله) ويجعلون معنى الإلهية القدرة على الاختراع ، وهو توحيد الربوبية الذي يقرّ به عامة المشركين .

ومعنى دليل التمانع عندهم :

استحالة وجود خالقين متكافئين وذلك لو فرضنا أن هناك جسما وأراد أحد الخالقين تسكينه والآخر تحريكه في وقت واحد فلا يخلو الحال من أحد ثلاثة أمور :

١ ـ أن يحصل مرادهما : وهذا محال لأنه جمع بين النقيضين .

٢ـ أن لايحصل مرادهما وهذا محال لأنه رفع للنقيضين ، ولأنه يؤدي إلى عجزهما وعدم كونهما إلها .

٣ـ أن يحصل مراد أحدهما دون الآخر فمن لم يتحقق مراده عاجز فلايكون إلها فتعيّن كون الثاني إلها . فثبت أن الله واحد في أفعاله لاشريك له .

ويستدلون عليه بقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء :[٢٢] .فمن ثم وقعوا في غلطين :

الأول : أنهم ظنوا أن توحيد الأفعال هو غاية التوحيد فأهملوا توحيد الألوهية الذي به جاءت الرسل ونزلت الكتب .

الثاني : أنهم يستدلون بالآية السابقة على الربوبية مع أن الآية مسوقة لتقرير الألوهية . دليل ذلك :

أ ـ أن الاستدلال بني على فرض وجود السماوات والأرض فأمر الخلق مفروغ منه فكانتا موجودتين مخلوقتين ولذلك قال (لفسدتا) أي بعد الوجود، والتمانع يمنع وجود المفعول ولايوجب فساده بعد وجوده [1]

ب ـ قوله في الآية (لوكان فيهما آلهة) ولم يقل أربابا فدل على أن المراد بالآية الإله المعبود لاالرب الخالق .

ومعنى الآية : لو كان في السموات والأرض إله معبود إلا الله لفسد نظام العالم لأنه قام بالعدل والشرك أكبر الظلم [2] .

بيان غلط المتكلمين



أولا : بيان غلطهم في توحيد الأفعال

---

١ ـ شرح الطحاوية :ص٤٠-٤١ بتحقيق التركي.

٢ اقتضاء الصراط المستقيم :ص٤٩٣ .

قوله ﴿ ومَعْلُومٌ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْعَرَبِ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم أَوَّلًا : لَمْ يَكُونُوا يُخَالِفُونَهُ فِي هَذَا بَلْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِالْقَدَرِ أَيْضًا وَهُمْ مَعَ هَذَا مُشْرِكُونَ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنْ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ مَنْ يُنَازِعُ فِي أَصْلِ هَذَا الشِّرْكِ ؛ وَلَكِنْ غَايَةُ مَا يُقَالُ : إنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْمَوْجُودَاتِ خَلْقًا لِغَيْرِ اللَّهِ كَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ ؛ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْعِبَادِ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِنْ قَالُوا إنَّهُمْ خَلَقُوا أَفْعَالَهُمْ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْفَلْسَفَةِ وَالطَّبْعِ وَالنُّجُومِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ أَنَّ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ مُبْدِعَةٌ لِبَعْضِ الْأُمُورِ هُمْ مَعَ الْإِقْرَارِ بِالصَّانِعِ يَجْعَلُونَ هَذِهِ الْفَاعِلَاتِ مَصْنُوعَةً مَخْلُوقَةً لَا يَقُولُونَ إنَّهَا غَنِيَّةٌ عَنْ الْخَالِقِ مُشَارِكَةٌ لَهُ فِي الْخَلْقِ فَأَمَّا مَنْ أَنْكَرَ الصَّانِعَ فَذَاكَ جَاحِدٌ مُعَطِّلٌ لِلصَّانِعِ كَالْقَوْلِ الَّذِي أَظْهَرَ فِرْعَوْنُ وَالْكَلَامُ الْآنَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِاَللَّهِ الْمُقِرِّينَ بِوُجُودِهِ فَإِنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ الَّذِي قَرَّرُوهُ لَا يُنَازِعُهُمْ فِيهِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بَلْ يُقِرُّونَ بِهِ مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ كَمَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَكَمَا عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ ﴾

التوضيح :

خلاصة هذه الفقرة :أن غلط المتكلمين يظهر جليا حينما نعلم أنه لم تُعرف طائفة من الطوائف بإثبات خالقين متماثلين .

وههنا أمثلة لأربع طوائف انحرفت في هذا الباب مع أنها لم تنقض أصله :

١ـ فمشركو العرب لم يكونوا يخالفونهم في هذا كما مر قريبا .

٢ـ حتى من جعل بعض الأمور مخلوقا لغير الله كالقدرية الذين جعلوا أفعال العباد خلقا لهم يقرون أن الله خالق العباد وقدراتهم .

٣ـ وأما من أنكر الصانع كفرعون فإنه جاحد . وهو مع جحوده مقرّ به في قرارة نفسه كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ النمل :[١٤] وكلامنا الآن عن المقرين بوجوده ﷻ ولكنهم يشركون به .

فإذاً هذا التوحيد الذي يقرره المتكلمون لاينازعهم فيه المشركون مع أنهم مشركون فإنهم لم يُدخلوا توحيد الألوهية الذي من أجله خلق الخلق كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ﴿٥٦﴾ الذاريات :[٥٦] وبه أرسل الرسل كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ﴿٢٥﴾ الأنبياء :[٢٥].

ثانيا : غلطهم في توحيد الصفات

قوله ﴿ وَكَذَلِكَ " النَّوْعُ الثَّانِي " - وَهُوَ قَوْلُهُمْ : لَا شَبِيهَ لَهُ فِي صِفَاتِهِ - فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأُمَمِ مَنْ أَثْبَتَ قَدِيمًا مُمَاثِلًا لَهُ فِي ذَاتِهِ سَوَاءٌ قَالَ إنَّهُ يُشَارِكُهُ . أَوْ قَالَ : إنَّهُ لَا فِعْلَ لَهُ ؛ بَلْ مَنْ شَبَّهَ بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَإِنَّمَا يُشَبِّهُهُ بِهِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ وَقَدْ عُلِمَ بِالْعَقْلِ امْتِنَاعُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ فِي الْمَخْلُوقَاتِ يُشَارِكُهُ فِيمَا يَجِبُ أَوْ يَجُوزُ أَوْ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْجَمْعَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ وَعُلِمَ أَيْضًا بِالْعَقْلِ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودَيْنِ قَائِمَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا فَلَا بُدَّ بَيْنَهُمَا مِنْ قَدْرٍ مُشْتَرَكٍ كَاتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ وَالْقِيَامِ بِالنَّفْسِ وَالذَّاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَإِنَّ نَفْيَ ذَلِكَ يَقْتَضِي التَّعْطِيلَ الْمَحْضَ وَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إثْبَاتِ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ ﴾

التوضيح :

وأيضاالقسم الثاني من التوحيد عند المتكلمين هو توحيد الصفات ويقولون فيه هو واحد لاشبيه له في صفاته ويدخلون تحته نفي الصفات .

وجهة الغلط عندهم بالإضافة إلى ما تقدم بيانه من نفيهم للصفات أو بعضها أنه لم يعرف من الأمم من أثبت قديما شبيها له في جميع الصفات بل من يشبّهه بمخلوقاته إنما يشبهه في بعض الأمور ، لأنه كما سبق يمتنع عقلا أن يوجد من مخلوقاته من يماثله في جميع الصفات لأنه يلزم من ذلك اجتماع النقيضين لأن

المخلوق ممكن والخالق واجب فإن تماثلا لزم أن يكون المخلوق ممكنا واجبا والخالق واجبا ممكنا كذلك . وهكذا في بقية الصفات التي يختص بها الخالق عن المخلوق ممايجب له ويمتنع عليه ، هذا لتقرير عدم التمثيل ، وأما أنه لابد من أن يوصف بصفات قد يكون بينها وبين صفات المخلوق قدر مشترك فهذا واجب عقلا ولايخلو موجودان من هذا القدر المشترك ؛ فإن مجرد الوجود قدر مشترك بين كافة الموجودات ، وكذلك القيام بالنفس والذات قدر مشترك بين الخالق وبعض خلقه وهذا لايقتضي تمثيلا لاختصاص القدر المشترك في كل بما يليق به ، بل نفي القدر المشترك تعطيل ، وقد تقدم هذا مستوفى .

والحاصل أن هؤلاء أخطأوا في توحيد الصفات من جهتين :

- الأولى : إدخالهم في هذا الأصل نفي الصفات وجعله من تمام التوحيد .
- الثاني : أنهم فسروه بتفسير لاينازعهم فيه أحد .

استطراد في بيان فرق ضلت في هذا الأصل

قوله « ثُمَّ إِنَّ الْجَهْمِيَّةَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ أَدْرَجُوا نَفْيَ الصِّفَاتِ فِي مُسَمَّى التَّوْحِيدِ فَصَارَ مَنْ قَالَ : إِنَّ لِلَّهِ عِلْمًا أَوْ قُدْرَةً أَوْ إِنَّهُ يُرَى فِي الْآخِرَةِ أَوْ إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ يَقُولُونَ : إِنَّهُ مُشَبِّهٌ لَيْسَ بِمُوَحِّدٍ وَزَادَ عَلَيْهِمْ غُلَاةُ الْفَلَاسِفَةِ وَالْقَرَامِطَةِ فَنَفَوْا أَسْمَاءَهُ الْحُسْنَى وَقَالُوا : مَنْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ عَزِيزٌ حَكِيمٌ : فَهُوَ مُشَبِّهٌ لَيْسَ بِمُوَحِّدٍ وَزَادَ عَلَيْهِمْ غُلَاةُ الْغُلَاةِ وَقَالُوا : لَا يُوصَفُ بِالنَّفْيِ وَلَا الْإِثْبَاتِ ؛ لِأَنَّ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا تَشْبِيهًا لَهُ وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ وَقَعُوا مِنْ جِنْسِ التَّشْبِيهِ فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ فَإِنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ فِرَارًا مِنْ تَشْبِيهِهِمْ - بِزَعْمِهِمْ - لَهُ بِالْأَحْيَاءِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةَ لِلَّهِ لَا تَثْبُتُ لَهُ عَلَى حَدِّ مَا يَثْبُتُ لِمَخْلُوقٍ أَصْلًا وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ إِثْبَاتِ الذَّاتِ وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي إِثْبَاتِ الذَّاتِ إِثْبَاتُ مُمَاثَلَةٍ لِلذَّوَاتِ : لَمْ يَكُنْ فِي

إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ إِثْبَاتُ مُمَاثَلَةٍ لَهُ فِي ذَلِكَ فَصَارَ هَؤُلَاءِ الْجَهْمِيَّةُ الْمُعَطِّلَةُ يَجْعَلُونَ هَذَا تَوْحِيدًا ؛ وَيَجْعَلُونَ مُقَابِلَ ذَلِكَ التَّشْبِيهَ ، وَيُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ الْمُوَحِّدِينَ ﴾

التوضيح :

ذكر هنا فرقا ضلت في باب الصفات ، وقد سبقت مذاهبهم وشبهاتهم والـرد عليهم وخلاصتهم هنا :

١ـ المعتزلة : أدخلت في مسمى التوحيد نفي الصفات فمن أثبتها قالوا عنه : مشبه وليس بموحد .

٢ـ الجهمية : نفوا أسماءه وصفاته . فمن قال : إنه سميع بصير ،قالوا عنه مشبه وليس بموحد .

٣ـ الباطنية : قالو : لايوصف لابإثبات ولانفي لأن في كل منهما تشبيها .

وكل هؤلاء وقعوا في شر من التشبيه الذي فروا منه ؛ فإن المعتزلة فرت من تشبيهه بالأحياء فشبهته بالجمادات ، والجهمية فرت من تشبيهه بالأجسام الموجودة فشبهته بالمعدومات ، والباطنية فرت من تشبيهه بالموجودات والمعدومات وشبهته بالممتنعات . ويرد على الجميع بالقاعدة السلفية السابقة وهي الأصل الثاني أن القول في الصفات كالقول في الذات .وبعد كل هذا التعطيل يجعلون ما ابتدعوه توحيدا ومقابله تشبيها ويسمون أنفسهم بالموحدين .

قوله (ثم إن الجهمية من المعتزلة وغيرهم): أدخل المعتزلة هنا في مسمى الجهمية بالإطلاق العام للجهمية وهو يصدق على كل من نفى شيئا من الصفات

ثالثا : غلطهم في توحيد الذات

قوله ﴿ وَكَذَلِكَ " النَّوْعُ الثَّالِثُ " وَهُوَ قَوْلُهُمْ : هُوَ وَاحِدٌ لَا قَسِيمَ لَهُ فِي ذَاتِهِ أَوْ لَا جُزْءَ لَهُ أَوْ لَا بَعْضَ لَهُ ؛ لَفْظٌ مُجْمَلٌ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ؛ فَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَفَرَّقَ أَوْ يَتَجَزَّأَ أَوْ يَكُونَ قَدْ رُكِّبَ مِنْ أَجْزَاءٍ ؛ لَكِنَّهُمْ يُدْرِجُونَ فِي هَذَا اللَّفْظِ نَفْيَ

عُلُوِّهِ عَلَى عَرْشِهِ وَمُبَايَنَتَهُ لِخَلْقِهِ وَامْتِيَازَهُ عَنْهُمْ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْمَعَانِي الْمُسْتَلْزِمَةِ لِنَفْيِهِ وَتَعْطِيلِهِ وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ مِنْ التَّوْحِيدِ»

التوضيح :

قولهم : واحد لاقسيم له في ذاته أو لا جزء له أولا بعض له قول مجمل فيجب فيه الاستفصال :

- فإن أرادوا أنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ويمتنع عليه أن يتفرق أو يتجزأ أو يكون قد ركب من أجزاء فهذا معنى صحيح كما سبق تقريره في شبهة التركيب .

- ولكنهم يدرجون فيه نفي علوه ونفي مباينته لخلقه ونفي صفة الوجه واليدين له وغيرها من صفات الكمال فهذا باطل لأنه نفي لصفاته التي أثبتها لنفسها وتواترت بها الأدلة .

خلاصة مافي توحيد المتكلمين

قوله «فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَا يُسَمُّونَهُ تَوْحِيدًا : فِيهِ مَا هُوَ حَقٌّ ، وَفِيهِ مَا هُوَ بَاطِلٌ وَلَوْ كَانَ جَمِيعُهُ حَقًّا ؛ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ إذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي وَصَفَهُمْ بِهِ فِي الْقُرْآنِ وَقَاتَلَهُمْ عَلَيْهِ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم ؛ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفُوا أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ»

التوضيح :

مماسبق يتبين أن مايسميه المتكلمون (توحيدا) فيه ماهو حق لاينازعهم فيه أحد كقولهم : إنه ليس للعالم صانعان متكافئان وليس له شبيه له في جميع صفاته وليس لله قسيم له في ذاته ولاجزء له ، وفيه ماهو باطل كإهمالهم للألوهية وتعطيلهم للصفات ، ولايمكن أن يكون جميعه حقا لأن المشركين أقروا بهذه المسائل

ما خرجوا عن الشرك الذي استحقوا بسببه العقاب في الدنيا والآخرة ، فلا بد من التركيز على كلمة التوحيد التي هي أصل الألوهية .

وبهذا يتبين الخلل العظيم الذي وقع فيه المتكلمون في التوحيد .

معنى الإله

قوله ﴿ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْإِلَهِ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ كَمَا ظَنَّهُ مَنْ ظَنَّهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّ الْإِلَهِيَّةَ هِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ دُونَ غَيْرِهِ وَأَنَّ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ دُونَ غَيْرِهِ فَقَدْ شَهِدَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ . فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ بِهَذَا وَهُمْ مُشْرِكُونَ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ بَلْ الْإِلَهُ الْحَقُّ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِأَنْ يُعْبَدَ فَهُوَ إلَهٌ بِمَعْنَى مَأْلُوهٍ ؛ لَا إلَهَ بِمَعْنَى آلِهٍ ؛ وَالتَّوْحِيدُ أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْإِشْرَاكُ أَنْ يُجْعَلَ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ ﴾

التوضيح :

الإله مأخوذ من الفعل (أله) أي تذلل ، فالإله أي المتذلل له . ومنه قول الشاعر[1] :

ألهت إليه في بلايا تنوبنا * فألفيته فيها كريما ممجدا

فيكون المعنى الصحيح للإله هو المألوه باسم المفعول أي المعبود المتذلل له . قال في القاموس : (إنه كفعال بمعنى مألوه ، وكل ما اتخذ معبودا إله عند متخذه)[2] وقيل : من (أله) وأصله وله وهو التحير لأن الخلق إذا تفكروا في صفاته تحيروا. وقيل : من (وله) والوله الحب . وقيل : من (لاه) بمعنى استتر لأن حقيقته محجوبة عن الخلق كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ طه :[١١٠][3]وقال الناظم[4] حاكيا الأقوال في معنى الإله:

---

١ ـ لوامع الأنوار البهية : (١/ ٣٠)

٢ ـ القاموس المحيط :ص١٦٠٣.

٣ ـ وانظر هذه المعاني في لوامع الأنوار :(١/ ٣٠ـ٣١) ، مفردات القرآن :(٨٢ـ٨٣).

٤ ـ من حاشية مفردات القرآن :ص٨٢ . تحقيق صفوان داودي .

ألــه أي عبــد أو مــن الألــهْ * وهـو اعتمـاد الخلـق أو مـن الولـهْ
أو المحجــبُ عــن العيــانِ * مـن لاهـت العـروسُ في البنيـانِ
أو أَلِـه الحـيرانُ مـن قـول العـربْ * أو مـن ألِـهت أي سـكنتُ لـلأربْ

قال شيخ الإسلام : (الإله هوالمألوه الذي تألهه القلوب ، وكونه يستحق الإلهية مستلزما لصفات الكمال فلايستحق أن يكون معبودا محبوبا لذاته إلا هو)[١] وقد غلط المتكلمون في تفسيرهم للإله بناء على غلطهم السابق في تقرير التوحيد ؛ فإنهم لما غلوا في الربوبية واعتقدوا أنه غاية التوحيد فسروا الإله بأنه القادر على الاختراع ، وفسروا الألوهية بالقدرة على الاختراع ، فجعلوا الألوهية بمعنى الربوبية ، وجعلوا الإله بمعنى الخالق باسم الفاعل ، فخالفوا بذلك اللغة والشرع . فإن الإله هو المعبود لغة وشرعا كما سبق بيانه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴾ ۝٨٢ مريم:[٨١-٨٢] وقال تعالى : ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ ﴾ ۝٥ ص :[٢] .ومعنى قول شيخ الإسلام هنا : (فهو إله بمعنى مألوه لا إله بمعنى آله) أي أن : (إله) يراد بها اسم المفعول وهو المعبود لا اسم الفاعل أي القادر كما فسره به المتكلمون[٢].

ثانيا : التوحيد عند الصوفية

قوله ﴿ وَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ غَايَةَ مَا يُقَرِّرُهُ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ ؛ أَهْلُ الْإِثْبَاتِ لِلْقَدَرِ الْمُنْتَسِبُونَ إِلَى السُّنَّةِ إِنَّمَا هُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ وَأَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَعَ هَذَا فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِذَلِكَ مَعَ أَنَّهُمْ

---

١ ـ اقتضاء الصراط المستقيم :ص٤٩٣.

٢ ـ انظر سبيل الهدى والرشاد :ص٣٢٤-٣٢٧ .

مُشْرِكُونَ وَكَذَلِكَ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ : غَايَةُ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ التَّوْحِيدِ هُوَ شُهُودُ هَذَا التَّوْحِيدِ وَأَنْ يَشْهَدَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ لَا سِيَّمَا إذَا غَابَ الْعَارِفُ بِمَوْجُودِهِ عَنْ وُجُودِهِ وَبِ مَشْهُودِهِ عَنْ شُهُودِهِ وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَدَخَلَ فِي فَنَاءِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ بِحَيْثُ يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ فَهَذَا عِنْدَهُمْ هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي لَا غَايَةَ وَرَاءَهَا وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا هُوَ تَحْقِيقُ مَا أَقَرَّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ التَّوْحِيدِ وَلَا يَصِيرُ الرَّجُلُ بِمُجَرَّدِ هَذَا التَّوْحِيدِ مُسْلِمًا فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا لِلَّهِ أَوْ مِنْ سَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمَعْرِفَةِ : يُقَرِّرُونَ هَذَا التَّوْحِيدَ مَعَ إثْبَاتِ الصِّفَاتِ فَيَفْنَوْنَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ مَعَ إثْبَاتِ الْخَالِقِ لِلْعَالَمِ الْمُبَايِنِ لِمَخْلُوقَاتِهِ ، وَآخَرُونَ يَضُمُّونَ هَذَا إلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ فَيَدْخُلُونَ فِي التَّعْطِيلِ مَعَ هَذَا ، وَهَذَا شَرٌّ مِنْ حَالِ كَثِيرٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

التوضيح :

كما سبق أن غاية ما يقرره أولئك النظار ـ أي أهل النظر والكلام المثبتون للقدر ـ هو توحيد الربوبية ، وسبق أن المشركين كانوا مقرين بهذا النوع ومع ذلك لم يخرجوا عن الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ﴿٣٨﴾ الزمر [٣٨] فبعد أن حكى الله إقرارهم بالربوبية أنكر عليهم شركهم في الألوهية ، ومثله في القرآن كثير ، ومثل طائفة المتكلمين طوائف أهل التصوف والكلام عنهم يقع في مسألتين كما يلي:

المسألة الأولى : التعريف بالصُّوفية : من حيث أصل النسبة ثم التعريف الاصطلاحي ثم النشأة كل ذلك على جهة الاختصار كمايلي :

أولا : اختلف في نسبة الصوفية على أقوال كثيرة منها[1] :

١ـ أنها نسبة إلى الصَّفاء . وقد رده العلماء لأنه لايصح لغة فالنسبة إلى صفاء صفائي .

٢ـ نسبة إلى الصُّفّة التي بنيت في المسجد النبوي لبعض فقراء المسلمين . وهو مردود كذلك لأن النسبة إليها صُفّيّ .

٣ـ نسبة إلى الصُّوفانة وهي بقلة صغيرة نسبوا إليها لزهدهم واكتفائهم بنبات الصحراء . وهو أيضا لايصح فالنسبة إليها صوفانيّ .

٤ـ نسبة إلى رجل يسمى صُوفة وهو العوني بن مر ، سمي صوفة لأن أمه نذرت لئن عاشت لتعلقن برأسه صوفة ثم لتجعلنه ربيط الكعبة فكان أول من تفرد بخدمة الكعبة فانتسب إليه قوم في الجاهلية انقطعوا لله في الحرم ثم انتسب إليه الصوفية . وهذا يحتاج إلى مزيد توثيق .

٥ـ وقيل مشتقة من (سوفيا) وهي الحكمة بلغة اليونان .ويظهر بعُده.

٦ـ رجح شيخ الإسلام[2] وغيره أنها نسبة إلى الصوف لزهدهم ولبسهم الصوف.

ثانيا : التعريف الاصطلاحي للتصوف :

أما تعريف التصوف في الاصطلاح فقد اختلف فيه أيضا اختلافا كثيرا ، وأختار تعريفا واحدا وهو قولهم : التصوف : هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في

---

١ ـ مستفاد من كتاب الانحرافات العقدية عند الصوفية لإدريس محمود إدريس :(١/ ٢٥ـ٢٦)

٢ ـ مجموع الفتاوى :(١١/ ٦)

أيدي الخلائق[1] .فالحقائق تشمل الاعتقادات الصوفية ،و اليأس مما في أيدي الخلائق يشمل الزهد الصوفي المؤدي إلى إهدار الأسباب كما سيأتي .

ثالثا : نشأة الصوفية .

قال ابن خلدون [2] :(إن نشأة التصوف كانت في القرن الثاني عندما أقبل الناس على الدنيا وانصرف أناس للزهد والعبادة فسموا بالصوفية)[3] وأيده شيخ الإسلام[4] .

فاشتهر أفراد بهذه النسبة ـ ولم تكن هناك جماعة معينة ـ ومنهم إبراهيم بن أدهم [5]المتوفى سنة ١٦٠والذي هجر أمواله ولبس الصوف وتجول في البلاد منقطعا للعبادة مع ما في فعله من مخالفة للشريعة . ومنهم رابعة العدوية[6] المتوفاة سنة١٣٥ التي دعت إلى الحب المجرد عن الخوف والرغبة مع مافي ذلك من مخالفة سبيل الأنبياء عليهم السلام حيث قال الله فيهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ ﴿٩٠﴾ الأنبياء :[٩٠] وقال تعالى :﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾ الزمر :[٩] فجمع بين الخوف والرجاء ومنه قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ السجدة :[١٦].

---

١ ـ هذا تعريف معروف الكرخي كما في مظاهر الانحرافات :(١/ ٢٩)

٢ ـ هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي الأصل العالم المالكي المعروف توفي٨٠٨. شذرات الذهب (٧/ ٧٦):

٣ ـ مقدمة ابن خلدون :ص٤٦٧.

٤ ـ الفتاوى :(١١/ ٥) وانظر مظاهر الانحرافات :(١/ ٣٤) ومابعدها .

٥ ـ هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم البلخي كان من أبناء الملوك ثم تصوف وخرج إلى مكة والشام ومات بها وقصته في طبقات الصوفية ص٣٠.

٦ ـ هي رابعة بنت إسماعيل بن الحسين بن زيد بن علي بن أبي طالب صوفية مشهورة توفيت سنة١٣٥. أعلام النساء لكحالة :(٢/ ٤٣١) عن المظاهر : (١/ ٣٧)

المسألة الثانية : التوحيد عند الصوفية :

لم يفصّل شيخ الإسلام هنا في أقسام التوحيد عند الصوفية كما فصله عند المتكلمين فلذلك أذكره باختصار لأن بعضه سيأتي عند الكلام على أنواع الفناء.

أقسام التوحيد عند الصوفية ثلاثة[1] :

الأول : توحيد العامة . وهو عندهم توحيد الألوهية وهو الذي يصح بالشواهد أي الرسل ، ويشترك فيه جميع المسلمين عندهم .

الثاني : توحيد الخاصة . وهو الذي يثبت بالحقائق ويقصدون به الفناء في الربوبية وهو حقيقة التوحيد عندهم .و المحقق له يسمى (عارفا) عندهم[2] . وأعلى مراتبه أن يغيب العارف بمشاهدة موجوده وهو الله تعالى عن وجود نفسه هو، أي يغيب عن الخلق باستحضاره للحق ، وبمشهوده أي ربه عن شهوده لنفسه ، وبمعروفه أي ربه عن معرفته لنفسه . وهذه الغيبة الصوفية[3]التي تسمى (بوحدة الشهود) . وهي تختلف عن وحدة الوجود ، لأنهم يعتقدون وجود المخلوقات وأنها غير الله ولكن لايشاهدها لقوة تعلقه بالله . ويمثلون لذلك بشعاع الشمس فإنه يطغى على جميع النجوم فلا تشاهد نهارا مع أنها موجودة .

وقولهم هذا باطل من وجهين :

الأول : أنه حال ناقص . فإن غياب العقول عن المشاهدة والمعرفة لم يأت به الشرع ولم يكن عليه الرسل ولا السلف الكرام من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

الثاني : أنه لو أقر به المشركون وفنوا فيه لم يصيروا بذلك مسلمين فضلا عن أن يكونوا أولياء عارفين .

قولهم :(بحيث يفنى من لم يكن) اي المخلوقات ، (ويبقى من لم يزل) هو الله تعالى وهذا متابعة لماسبق .

---

١ ـ انظر شرح الطحاوية :ص٥٣.بتحقق التركي ، ومظاهر الانحرافات :(١/ ٢٢٨) ومابعدها.

٢ ـ انظر الكشف عن حقيقة الصوفية لمحمود قاسم :ص٢٩٥. والفتاوى:(١٠/ ٢١٩،١٣/ ١٩٩)

٣ ـ انظر مدراج السالكين :(١/ ١٦٩)ومابعدها.

الثالث : توحيد خاصة الخاصة . وهو القائم بـالقدم عندهـم وهـو وحـدة الوجود التي ينتهي إليها أئمتهم كما سبق النقل عنهم في الأمثلة على الضلال بسـبب المتشابه .

ثم بين شيخ الإسلام أن من هؤلاء الصوفية من يضم إلى هـذا التوحيـد إثبـات الصفات و منهم من ينفيها فيصبح حاله شرا من حال كثير من المشركين ممـن اعتقـد الربوبية وأقر بالأسماء والصفات في الجملة .

موازنة بين آراء بعض الفرق والرجال

قبل البدء في هذه الموازنة لابد من تقديم بعض المصطلحات :

أولا : في القدر :هناك طرفان :

ـ الطرف الأول : غلاة وهم الذين غلوا في إثبات القدر وهم (الجبرية)

والجبرية قسمان :

١ـ جبرية خالصة . وهم الجهمية . ٢ ـجبرية غير خالصة . وهم الأشاعرة .

ـ والطرف الثاني : نفاة القدر .والنفاة قسمان :

١) نفاة غالية . وهم من نفى علم الله بالوقائع قبل حصولها ـ أي نفوا المرتبـة الأولى وهي العلم من مراتـب القـدر الأربعـة المتقدمـة ـ . وهـذا مذهـب قديـم قـد انقرض ـ ولله الحمد ـ قال القرطـبي : (قـد انقـرض هـذا المذهـب ولانعـرف أحـدا ينسب إليه من المتأخرين ، والقدرية اليوم مطبقـون علـى أن الله عـالم بأفعـال العبـاد قبل وقوعها وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعـال العبـاد مقـدورة لهـم وواقعـة منهم على جهة الاستقلال وهو مع كونه مذهبا باطلا أخف من الأول)[1]

٢) نفاة مقتصـدون . وهـم الذيـن أنكـروا المشيئة وخلـق الفعـل ـ أي نفـوا المرتبتين الثالثة والرابعة من مراتب القدرالمتقدمة .

---

١ ـ انظر فتح الباري :(١/ ١١١) والإيمان لشيخ الإسلام :ص٣٦٩.

ثانيا : في الإيمان :هناك طرفان :

١ـ خوارج (حرورية)[1] نسبة إلى (حروراء) قرية بالكوفة نزل بها الخوارج الذين خرجوا على علي بعد رجوعه من صفين من التحكيم فنسبوا إليها.

٢ـ ومرجئة . وهم الذين أخرجوا العمل عن مسمى الإيمان . وسموا بذلك لأحد سببين :أ ـ إما من الإرجاء وهو التأخير[2]، لأنهم أخروا العمل عن الإيمان.

ب ـ أو من إعطاء الرجاء لأنهم غلوا في الرجاء وأهملوا الوعيد[3].

وهم أربع مراتب : الأولى : من يقول إن الإيمان هو المعرفة فقط .وهؤلاء الغلاة وهم الجهمية

الثانية :من يقول الإيمان هو التصديق فقط.وهذا مذهب الأشعري والماتريدي

الثالثة :من يقول الإيمان قول اللسان فقط .وهذا قول الكرامية[4] وهوأغربها.

الرابعة :من يقول الإيمان اعتقاد القلب وقول اللسان فقط وهذا قول عامة الحنفية . وهم من يسمى (بمرجئة الفقهاء) وخلافهم مع أهل السنة لفظي من وجه ومعنوي من وجه[5] حيث منعوا الاستثناء في الإيمان والزيادة والنقصان والله أعلم .

ثالثا : في الأسماء والأحكام .

الأسماء : أي أسماء الدين مثل : مسلم ومؤمن وكافر وفاسق . والأحكام :أي أحكام هؤلاء في الدنيا والآخرة من حيث دخولهم النار والخلود وعدمه .

ومسائل الأسماء والأحكام متعلقة بمسائل الإيمان وكثيرا ما ترد فيه .

ملحوظة : الفرق بين جبر الجهمية وجبر الأشاعرة :

أما جبر الجهمية فهو جبر خالص لأنهم لايثبتون للعبد فعلا ولا قدرة أصلا.

أما جبر الأشاعرة فهو جبر مبطن لأنهم يثبتون للعبد قدرة لكنها غير مؤثرة

---

١ ـانظر مقالات الإسلاميين :(١/ ١٦٧)

٢ ـ القاموس :ص٥١.

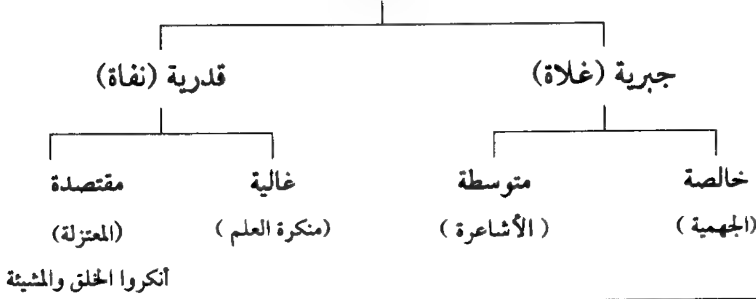
٣ ـ الملل والنحل :(١/ ١٣٧)

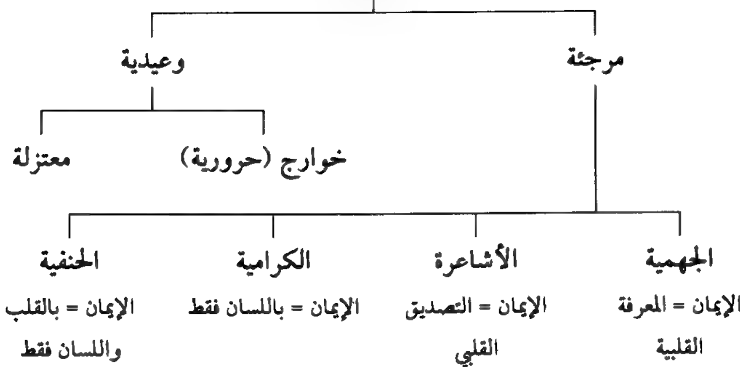
٤ ـ سيأتي التعريف بهم.

٥ ـ شرح الطحاوية :ص٤٦٢ .

وينسبون الفعل إليها ، وهذا هو الكسب عند الأشعري. والخلاف بينهم لفظي .واضطربت الأشاعرة في بيان حقيقة الكسب وتعريفه على نحو اثني عشر قولا منها : اقتران المقدور بالقدرة الحادثة من غير أن يكون لها أثر فيه [1] ، فهو ينتهي إلى الجبر كما صرح به أئمتهم[2].لأن القدرة التي يثبتونها غير مؤثرة في الفعل[3] ، وفيه تناقض واضح ومن هنا عد كسب الأشعري من المحالات وتقدم بيان أحوال أبي هاشم وثالثة الأثافي طفرة النظام[4] وتقدم ذكر نظمها[5] .

ونعرض هذه الفرق من خلال الشكل التالي :





---

١ ـ شرح المواقف للجرجاني :ص٢٣٧ .

٢ ـ كالإيجي في المواقف :ص٣٢٤ ، والجويني في الإرشاد :ص٢١٠ . عن موقف المتكلمين :(٢/ ٦١١)

٣ ـ مجموع الفتاوى :(٨/ ٤٦٦)

٤ ـ الفرق بين الفرق :ص ٩٣ .

٥ ـ انظر منهج الأشاعرة في العقيدة للدكتور سفر الحوالي :ص٢٤.

أولا : الجهم بن صفوان

قوله ﴿ وَكَانَ جَهْمٌ يَنْفِي الصِّفَاتِ وَيَقُولُ بِالْجَبْرِ فَهَذَا تَحْقِيقُ قَوْلِ جَهْمٍ لَكِنَّهُ إذَا أَثْبَتَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ : فَارَقَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ لَكِنَّ جَهْمًا وَمَنْ اتَّبَعَهُ يَقُولُ بِالْإِرْجَاءِ ؛ فَيَضْعُفُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ عِنْدَهُ ﴾

التوضيح :

الجهم : هو الجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي مولاهم السمرقندي الكاتب المتكلم رأس الجهمية ، أخذ مقالته من الجعد ثم شهرها بعد مقتل الجعد وبعد أن انتشرت ضلالاته قتل على يد مسلم بن أحوز سنة ١٢٨[1]. وله انحرافات في الصفات والقدر والإيمان .ففي الصفات ينفي الأسماء والصفات ، وفي القدر يقول بالجبر فيشارك المشركين في هذين الأصلين فإنهم ينفون الصفات ويحتجون بالقدر كما قال تعالى عنهم :﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ الأنعام:[١٤٨] ولكنه يثبت الشرع فيخالفهم في ذلك .ولكنه يقول بالإرجاء فيخرج العمل عن مسمى الإيمان فبذلك يضعف عنده الشرع فيقارب المشركين في إنكارهم للشرع .

ثانيا : النجارية والضرارية

قوله ﴿وَالنَّجَّارِيَّةُ وَالضِّرَارِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ : يَقْرُبُونَ مِنْ جَهْمٍ فِي مَسَائِلِ الْقَدَرِ وَالْإِيمَانِ مَعَ مُقَارَبَتِهِمْ لَهُ أَيْضًا فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ . ﴾

---

١ ـ انظر ميزان الاعتدال :(١/ ٤٢٦) والسير :(٦/ ٢٦) والبداية والنهاية :(١٠/ ٢٦)

التوضيح :

النجارية أتباع أبي عبد الله الحسين بن محمد بن النجار[1]. و الضرارية أتباع ضرار بن عمرو الثقفي القاضي[2] له أشياء تفرد بها .

عدهم البعض كابن حزم[3] من المعتزلة لنفيهم الصفات ولكنهم يقولون بالإرجاء والجبر فيقاربون الجهمية أكثر ، فالأصح عندهم من الجهمية لأن المعتزلة من الوعيدية وهم ضد المرجئة.

ثالثا : الكلابية والأشعرية

قوله ﴿ وَالْكُلَّابِيَّةُ وَالْأَشْعَرِيَّةُ : خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَ لِلَّهِ الصِّفَاتِ الْعَقْلِيَّةَ ، وَأَئِمَّتُهُمْ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةَ فِي الْجُمْلَةِ كَمَا فَصَّلْتُ أَقْوَالَهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَأَمَّا فِي بَابِ الْقَدَرِ وَمَسَائِلِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ فَأَقْوَالُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ . وَالْكُلَّابِيَّةُ هُمْ أَتْبَاعُ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كُلَّابٍ الَّذِي سَلَكَ الْأَشْعَرِيُّ خُطَّتَهُ ﴾

التوضيح :

الأشعري أخذ عن أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب التميمي البصري كانت بينه وبين المعتزلة مناظرات ولشدة مجالدته وجذبه للخصم بحجته لقب بابن كلاب لا لأن كلّابا جده ، لذلك يصح أن يقال (الكلابي)[4] توفي سنة ٢٤٠، والكلاب هو المهماز أي الحديدة التي توضع على حافر الخيل وغيره .

فتأثر به الأشعري واتبعه بعد أن كان الأشعري معتزليا ثم تبع الإمام أحمد بعد ذلك[5] .

---

١ ـ توفي في القرن الثالث وكانت له مناظرات مع النظام . مقالات الإسلاميين:(١/ ٢١٦) ، الفرق بين الفرق :ص١٥٥.

٢ ـ انظرالملل والنحل :(١/ ٧٧) والفرق بين الفرق :ص١٦٠.

٣ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل :(٢/ ١١٢)

٤ ـ السير : (١١/ ١٧٤) ، طبقات السبكي :(٢/ ٢٩٩)

٥ ـ سبقت ترجمة الأشعري .

وهؤلاء خير من الجهمية لأنهم يثبتون الأسماء وسبع صفات وأئمتهم المتقدمون يثبتون بعض الصفات كالعلو واليدين والوجه وغيرها مما يثبت بالسمع.

ولكنهم يقاربون الجهمية في باب القدر كما سبق ، وعندهم نوع إرجاء فالإيمان عندهم قلبي فقط ، فيقاربون الجهمية في مسائل الإيمان والأحكام أيضا .

رابعا : بعض أصحاب ابن كلاب

قوله ﴿ وَأَصْحَابُ ابْنُ كُلَّابٍ كَالْحَارِثِ الْمُحَاسِبِيِّ ، وَأَبِي الْعَبَّاسِ الْقَلَانِسِيِّ وَنَحْوِهِمَا . خَيْرٌ مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ فِي هَذَا وَهَذَا فَكُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ إِلَى السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَقْرَبَ كَانَ قَوْلُهُ أَعْلَى وَأَفْضَلَ ﴾

التوضيح :

وبعض أصحاب ابن كلاب أقرب إلى السلف والأئمة من الأشاعرة فيثبتون غالب الصفات ويقاربون السلف في القدر والإيمان ، وكلما قارب الرجل السلف كان قوله أفضل . ومن هؤلاء أبو عبد الله بن الحارث بن أسد المحاسبي لقب بذلك لمحاسبته نفسه وقد أمر الإمام أحمد بهجره لسلوكه مسلك ابن كلاب ، وقيل إنه رجع عن ذلك ، وتوفي سنة ٢٤٣، وله مؤلفات شهيرة [١] . ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن القلانسي الرازي سلك مسلك ابن كلاب في الصفات وعاصر الأشعري[٢] .

خامسا : الكرامية

قوله ﴿ وَالْكَرَّامِيَّةُ قَوْلُهُمْ فِي الْإِيمَانِ قَوْلٌ مُنْكَرٌ لَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ حَيْثُ جَعَلُوا الْإِيمَانَ قَوْلَ اللِّسَانِ وَإِنْ كَانَ مَعَ عَدَمِ تَصْدِيقِ الْقَلْبِ فَيَجْعَلُونَ الْمُنَافِقَ مُؤْمِنًا ؛ لَكِنَّهُ يَخْلُدُ فِي النَّارِ فَخَالَفُوا

---

١ ـ ميزان الاعتدال : (١/ ٤٣٠) ، الفتاوى :(٦/ ٥٢١) ، السير :(١٢/ ١١٠)

٢ ـ انظر تبين كذب المفتري :ص٣٩٨. وعلق عليه الكوثري بأنه متقدم على الأشعري ، انظر الماتريدية لشيخنا د.شمس الدين الافغاني رحمه الله :(٣/ ٨٤)

الْجَمَاعَةَ فِي الِاسْمِ دُونَ الْحُكْمِ ، وَأَمَّا فِي الصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ وَالْوَعِيدِ فَهُمْ أَشْبَهُ مِنْ أَكْثَرِ طَوَائِفِ الْكَلَامِ الَّتِي فِي أَقْوَالِهَا مُخَالَفَةٌ لِلسُّنَّةِ»

التوضيح :

أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام السجستاني توفي ٢٥٥ . ولطائفته منكرات كثيرة . قال البغدادي :(وفضائح الكرامية على الأعداد كثيرة الأمداد)[١] ، يثبتون الصفات لكنهم يغلون في الإثبات فيقولون بالتجسيم والتشبيه ، وفي الإيمان قولهم منكر أيضا ولم يسبقوا إليه وهو أن الإيمان قول باللسان فقط ، فيجعلون المنافق مؤمنا لكنهم يقولون إنه مخلد في النار فيخالفون أهل السنة في الأسماء دون الأحكام . وأما في القدر والوعد والوعيد فوافقوا السنة فهم أشبه المتكلمين بالسنة .

سادسا : المعتزلة

قوله « وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ فَهُمْ يَنْفُونَ الصِّفَاتِ وَيُقَارِبُونَ قَوْلَ جَهْمٍ لَكِنَّهُمْ يَنْفُونَ الْقَدَرَ ؛ فَهُمْ وَإِنْ عَظَّمُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ ؛ وَغَلَوْا فِيهِ ؛ فَهُمْ يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ فَفِيهِمْ نَوْعٌ مِنْ الشِّرْكِ مِنْ هَذَا الْبَابِ»

التوضيح :

سبق الكلام مستوفى عن المعتزلة وذكر هنا معتقدهم في الصفات والقدر والشرع ، فهم ينفون الصفات فيقاربون الجهمية بذلك ، ولكنهم من القدرية أي نفاة القدر ففيهم نوع من الشرك من هذا الجانب لأنهم يعتقدون أن العبد خالق لفعله فجعلوا خالقا مع الله . ولكنهم خير من الجهمية لتعظيمهم الأمر والنهي والوعد والوعيد وإثباتهم الأسماء كالكفر على غلو عندهم في الأمر والنهي

---

١ ـ الفرق بين الفرق :ص١٦١ـ١٧٠ ، والملل والنحل :(١/ ٩٩)

والوعد والوعيد ، فحكموا على صاحب الكبيرة بـالخروج مـن الإيمـان والخلـود في النار.

موازنة بين الشرع والقدر

قوله ﴿والإقرار بالأمر والنهي والوعد والوعيد مع إنكار القدر خير من الإقرار بالقدر مع إنكار الأمر والنهي والوعد والوعيد ولهذا لم يكن في زمن الصحابة والتابعين من ينفي الأمر والنهي والوعد والوعيد وكان قد نبغ فيهم القدرية كما نبغ فيهم الخوارج : الحرورية وإنما يظهر من البدع أولا ما كان أخفى وكلما ضعف من يقوم بنور النبوة قويت البدعة

فهؤلاء المتصوفون الذين يشهدون الحقيقة الكونية مع إعراضهم عن الأمر والنهي : شر من القدرية المعتزلة ونحوهم : أولئك يشبهون المجوس وهؤلاء يشبهون المشركين الذين قالوا : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ والمشركون شر من المجوس﴾

التوضيح :

أي أن الإقرار بالشرع مع إنكار القـدر خـير مـن الإقـرار بـالقدر مـع إنكـار الشرع ، لهذا لم يكن في زمن الصحابة والتابعين من ينكرالشرع ، وإنما نبغ فيـهم مـن ينكر القدر مثل معبد الجهني المتوفـى سـنة ٨٠.في أواخـر زمـن ابـن عمـر رضـي الله عنهما المتوفى سنة ٧٣.[1] كما نبغ فيهم الخـوارج وهـم يعظمـون الشـرع كالحروريـة زمن علي رضي الله عنه[2] .

وإنما يظهر من البدع ماكان أخـف . وكلمـا ضعـف مـن يقـوم بنـور النبـوة قويت البدعة وذر قرنها .

---

١ ـ يقال : إنه ابن عبد الله بن عكيم ، ومعبـد أول مـن تكلـم بـالقدر وقـد حـذر السـلف منـه ، ميزان الاعتـدال :(٤/ ١٤١)، وانظر دراسات في الأهواء للدكتور العقل ص١٨٣.

٢ ـ انظر الخوراج للدكتور البحراوي ، القاهرة :١٤٠٨

فهؤلاء المتصوفة الذين يشهدون الحقيقة الكونية وهي خلق الله وتقديره العام مع إعراضهم عن الحقيقة الشرعية وهي الأوامر والنواهي شر من القدرية المعتزلة الذين ينفون القدر مع تعظيمهم للأمر والنهي لأنهم أشبه بالمشركين الذين ينفون الشرع ويحتجون بالقدر كما قال تعالى فيهم ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ الأنعام:[١٤٨].

والقدرية يشبّهون بالمجوس لأنهم يثبتون الخلق للعبد فأثبتوا خالقا مع الله كالمجوس القائلين بالنور والظلمة وأنهما خالقان كما سبق ، لذلك قال فيهم ﷺ : ((القدرية مجوس هذه الأمة))[1]

فإذا الصوفية أشبه بالمشركين ، والقدرية أشبه بالمجوس ، والمجوس خير من المشركين لأنهم ينزلون منزلة أهل الكتاب في أخذ الجزية بخلاف المشركين.

وهذا من شيخ الإسلام لايعني إكفار هذه الفرق وإنما هي موازنة بين عقائدهم الكفرية وهذا لايخرجها من الفرق الإسلامية .

أصل الإسلام الشهادتان

قوله ﴿ فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْرِفَهُ ؛ فَإِنَّهُ أَصْلُ الْإِسْلَامِ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ أَصْلُ الْإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بالوحدانية وَالرِّسَالَةِ : شَهَادَةَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ . وَقَدْ وَقَعَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فِي الْإِخْلَالِ بِحَقِيقَةِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ أَوْ أَحَدِهِمَا مَعَ ظَنِّهِ أَنَّهُ فِي غَايَةِ التَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ . فَإِقْرَارُ الْمُشْرِكِ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ : لَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ إقْرَارُهُ بِأَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ إلَّا هُوَ ؛ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَيَجِبُ تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ فَلَا بُدَّ مِنْ الْكَلَامِ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ



---

١ ـ أخرجه أبوداود :[٤٦٩١] والحاكم :(١/ ٨٥) وحسنه الألباني بمجموع طرقه كما في تخريج السنة لابن أبي عاصم برقم :[٣٣٨] عن ابن عمر رضي الله عنهما .

التوضيح :

بعد أن بين شيخ الإسلام أن الضلال في الأمر والنهي والوعد والوعيد وهو الشرع أعظم من الضلال في القدر أراد أن يبين أن أصل الشرع مبني على الشهادة . فشهادة ألا إله إلا الله تعني وحدانية الله في عبوديته ، وشهادة أن محمدا رسول الله تعني متابعة الرسول ﷺ في تحقيق تلك العبودية . فالوحدانية والرسالة هما حقيقة الشرع وهما اللتان يفرق بهما بين المسلمين وغيرهم لامجرد الربوبية .

وقد لخص العلماء شهادة أن محمدا رسول الله بمايلي :

١ـ تصديقه فيما أخبر .

٢ـ طاعته فيما أمر .

٣ـ اجتناب ما نهى عنه وزجر .

٤ـ ألا يعبد الله إلا بماشرع .

وسيفصل شيخ الإسلام في هذين الأصلين وهما الوحدانية أي توحيد الألوهية والرسالة كمايلي :

الأصل الأول : توحيد الألوهية

قوله ﴿ - الْأَصْلُ الْأَوَّلُ " تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ " فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ كَمَا تَقَدَّمَ بِأَنَّهُمْ أَثْبَتُوا وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ يَدْعُونَهُمْ وَيَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ بِدُونِ إذْنِ اللَّهِ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ شُفَعَاءَ مُشْرِكُونَ وَقَالَ تَعَالَى عَنْ مُؤْمِنِ يس﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ * إنِّي إذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ

تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ فأخبر سبحانه عن شفعائهم أنهم زعموا أنهم فيهم شركاء، وقال تعالى: ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون * قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾، وقال تعالى: ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ وقال تعالى: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾، وقال تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ وقال تعالى: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ وقال تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾، وقال تعالى: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ قال طائفة من السلف: كان قوم يدعون العزير والمسيح والملائكة فأنزل الله هذه الآية يبين فيها أن الملائكة والأنبياء يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه

التوضيح:

هذه الفقرة من كلام شيخ الإسلام غير محتاجة إلى توضيح ولكن نتناولها من خلال مسائل أربع كمايلي:

أولا: إن شرك العرب كان في توحيد الألوهية كماسبق، وذلك باتخاذهم وسائط يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله كما قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى

ﭐلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ يونس :[١٨] وغيرها من الآيات المذكورة في الرسالة .

✎ ثانيا : إن الشفاعة جميعها مردها إلى الله تعالى وحده فلايسأل الشفاعة أحد إلا من الله كما قال تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ الزمر:[٤٣-٤٤] .

✎ ثالثا : إن للشفاعة شرطين : ١- الإذن للشافع أن يشفع .٢-الرضا عن المشفوع له . ودليل هذين الشرطين قوله تعالى : ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ ﴿٢٦﴾ النجم :[٢٦] وفي هذا تأكيد ما سبق من أن الشفاعة لله وحده.

✎ رابعا : في قوله تعالى : قُلِ ﴿ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ ﴿٥٧﴾ الإسراء :[٥٦-٥٧] .

قال شيخ الإسلام : (قالت طائفة من السلف كان قوم يدعون عزيرا والمسيح والملائكة فأنزل الله هذه الآية ، فبين فيها أن الملائكة والأنبياء يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه) أقول هذا القول في سبب النزول منقول عن ابن عباس ﷺ[١] ومجاهد والحسن[٢] . وهناك قول ثان ثابت عن ابن مسعود ﷺ في صحيح مسلم وفيه أنها نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون

١ - ابن جرير : (١٥/ ٧٣) وابن أبي حاتم : (٧/ ٢٣٣٥) والبغوي :(٥/ ١٠١) وابن كثير :(٣/ ٥٠)
٢ - القرطبي :(١٠/ ٢٤٣)

، والإنس الذي يعبدونهم لايشعرون[١] ، واختار هذا السبب ابن جرير ورد السبب الأول [٢]. وهناك سبب ثالث وهو أنه أصاب المشركين قحط حتى أكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي ﷺ ليدعو لهم فنزلت هذه الآية وهذا الثالث ذكره بعض المفسرين ولم يسندوه[٣] .والله أعلم .

وقال ابن القيم في معنى الآية : (والمعنى أن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونه فهم عبيده كما أنكم عبيده فلماذا تعبدونهم من دون الله وأنتم وهم عبيد له)[٤] .

تحقيق الشهادتين بإفراده بجميع العبادات

قوله: ﴿ وَمِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ : أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لَهُ حَقًّا لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ ؛ كَالْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَى كَمَا قَالَ تَعَالَى :﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ الشَّاكِرِينَ ﴾ وَكُلٌّ مِنْ الرُّسُلِ يَقُولُ لِقَوْمِهِ : ﴿ اُعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي التَّوَكُّلِ :﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وَقَالَ : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴾

١ ـ مسلم في التفسير :(٤/ ٢٣٢١) برقم :[٣٠٣٠] وانظرالصحيح المسند من أسباب النزول للشيخ مقبل الوادعي ص١٤٤، وفتح القدير :(٣/ ٣٤٣) ، وأضواء البيان :(٣/ ٤٣٧)
٢ ـ تفسير ابن جرير :(١٥/ ٧٣)
٣ ـ ذكره البغوي :(٥/ ١١٠) والقرطبي :(١٠/ ٢٤٣)
٤ ـ طريق الهجرتين :ص٢٦٣.

التوضيح :

سبق بيان العبادة وأنها كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، وأراد شيخ الإسلام أن يبين أن حقيقة التوحيد هي إفراد الله بجميع العبادات الظاهرة منها كالصلاة والصيام والحج وغيرها والباطنة كالتوكل والخوف والتقوى والمحبة وغيرها .

فذكر هنا الأدلة على إخلاص العبادة لله إجمالا وهي :

١ـ قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ ﴿٢٢﴾ الإسراء :[٢٢] .

٢ـ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ ﴿٢﴾ الزمر :[٢]

٣ـ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ ﴿٦٤﴾ الزمر :[٦٤]

٤ـ وقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ الأعراف :[٨٥،٧٣،٦٥،٥٩]

ثم ذكر أدلة التوكل ، وسيأتي بعد ذلك بأدلة الخوف والخشية والتقوى .

وقفة مع قوله تعالى :﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾

قوله ﴿ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ . فَقَالَ فِي الْإِيتَانِ : ﴿ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وَقَالَ

فِي التَّوَكُّلِ : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : وَرَسُولُهُ ؛ لِأَنَّ الْإِيتَاءَ هُوَ الْإِعْطَاءُ الشَّرْعِيُّ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الْإِبَاحَةَ وَالْإِحْلَالَ الَّذِي بَلَّغَهُ الرَّسُولُ فَإِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّهُ وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَهُ وَالدِّينَ مَا شَرَعَهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وَأَمَّا الْحَسْبُ فَهُوَ الْكَافِي وَاللَّهُ وَحْدَهُ كَافٍ عَبْدَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى :﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فَهُوَ وَحْدَهُ حَسْبُهُمْ كُلِّهِمْ»

التوضيح :

هنا قال تعالى في التوكل حسبنا الله أي كافينا ، ولم يقل حسبنا الله ورسوله ، بينما قال في الإيتاء : (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) وقبل ذلك قال : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله).

والسبب في ذلك : أن الإيتاء هو الإعطاء الشرعي من الإباحة والتحريم الذي شرعه النبي ﷺ لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ الحشر :[٧] . وأما الحسب فهو الكافي والله تعالى وحده كاف عباده كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ ﴿٣٦﴾ الزمر :[٣٦] وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ﴿١٧٣﴾ آل عمران :[١٧٣] ، قال ابن كثير : (فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيما وسرا شريفا حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله ، والتوكلَ على الله وحده ، وهو قوله (وقالوا حسبنا الله))[1] .

---

١ ـ تفسير ابن كثير : (٢/ ٣٧٨)

وقفة مع قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١]

قوله «وقال تعالى: ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ أي حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين هو الله فهو كافيكم كلكم وليس المراد أن الله والمؤمنين حسبك كما يظنه بعض الغالطين إذ هو وحده كاف نبيه وهو حسبه ليس معه من يكون هو وإياه حسبا للرسول وهذا في اللغة كقول الشاعر: فحسبك والضحاك سيف مهند وتقول العرب: حسبك وزيدا درهم أي يكفيك وزيدا جميعا درهم»

التوضيح:

اختلف في معنى الآية على ثلاثة أقوال:

الأول: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين هو الله، و هذا هو قول جمهور المفسرين واختاره ابن جرير وابن كثير وهو منقول عن عبد الرحمن بن زيد[٢] وعطاء[٣] فيكون المعنى: كافيك الله وكافي من اتبعك من المؤمنين: فـ(من) في محل جر بالعطف على الكاف في حسبك.

الثاني: حسبك الله والمؤمنون، فتكون (من) في محل رفع عطفا على اسم الله تعالى. وهذا هو الذي غلطه شيخ الإسلام هنا وقد نقل عن الحسن[٤] وعزاه القرطبي إلى النحاس[٥].

---

١ ـ الأنفال: [٦٤].

٢ ـ هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري المدني كان صاحب قرآن وتفسير توفي سنة ١٨٢. السير: (٨/ ٣٤٩)، شذرات الذهب: (١/ ٢٩٧).

٣ ـ ذكره ابن أبي حاتم: (٥/ ١٧٢٧) وانظر تفسير ابن جرير: (١٠/ ٢٦) وابن كثير: (٢/ ٣٣٧).

٤ ـ نقله القرطبي: (٨/ ٤٤).

٥ ـ هو عيسى بن محمد بن إسحاق النحاس الرملي الإمام الحافظ توفي سنة ٢٥٦. الجرح والتعديل: (٦/ ٢٨٦).

الثالث : يكفيك الله ويكفي من اتبعك من المؤمنين ، فتكون (مَن) في محل نصب مفعول معه ، وهذا المعنى موافق للمعنى الأول وإنما الاختلاف في الإعراب فقط ، وقد نسبه الشوكاني إلى النحاس أيضا حيث قال : (واختار النصب على المفعول معه النحاس)[1]

ولايصح القول بأن المعنى (حسبك الله وحسبك المؤمنون) لأن الحسب والكفاية والتوكل لله تعالى وحده ولا يوجد آية في كتاب الله أسندت الحسب إلى غيره سبحانه وقد سبقت الآيات في ذلك ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (٦٢) فهنا فرق بين الحسب فجعله لله وحده وبين التأييد بالنصر فجعله تأييدا بالمؤمنين[2]

فإن قيل : في قوله تعالى : ﴿ حسبك الله ومن اتبعك ﴾ لايصح تقدير الجر لأن العطف على الضمير المجرور من غير إعادة المجرور ضعفه علماء اللغة كما قال ابن مالك[3] :

وعود خافضٍ لدى عطفٍ على * ضميرِ خفضٍ لازما قد جُعلا

فالجواب : أن هذا صححه جماعة من العلماء وشواهده كثيرة في الشعر والنثر لذلك قال ابن مالك[4]:

وليس عندي لازما إذ قد أتى * في النظم والنثر الصحيح مثبتا

والصحيح في هذا جواز التقديرات الثلاثة الجر والنصب والرفع ، فالجر كما سبق عطفا على الكاف ، والنصب بكون (مَن) مفعولا معه كما قال الشاعر[5] :

---

١ ـ فتح القدير :(٢/ ٤٧١)

٢ ـ زاد المعاد :(١/ ٣٦)

٣ ـ ألفية ابن مالك رقم :[٥٥٩] ص١٢٨ مكتبة ابن تيمية .

٤ ـ الألفية البيت :[٥٦٠].

٥ ـ قال الدكتور السعوي : أورده أبو علي القالي في ذيل الأمالي منسوبا لجرير :ص١٤٠ ، وهو في ديوانه :(٢/ ١١٠٤) تحقيق :د.نعمان محمد.

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا * فحسبك والضحاك سيف مهند

والرفع بجعل (مَن) مبتدأ خبره محذوف والتقدير : حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله أيضا ، والله أعلم[1] .
وفضل ابن القيم[2] النصب كما تقول : حسبك وزيدا درهم وهو موافق لما ذكره شيخ الإسلام هنا .

متابعة الأدلة على وجوب إفراد الله بجميع العبادات

قوله ﴿ وَقَالَ فِي الْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَى : ﴿ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾فَأَثْبَتَ الطَّاعَةَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَأَثْبَتَ الْخَشْيَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ كَمَا قَالَ نُوحٌ عليه السلام : ﴿ إنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ وَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَقَالَ الْخَلِيلُ عليه السلام : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاَللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَقَالُوا : وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : " إنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: : ﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ "[3] .
وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ ﴾

---

١ ـ أضواء البيان : (٢/ ٣١١)
٢ ـ زاد المعاد :(١/ ٣٥ـ٣٦)
٣ ـ لقمان :[١٣] والحديث أخرجه البخاري : [٣٢] ومسلم :[١٢٤] وغيرهما .

التوضيح :

ذكر شيخ الإسلام هنا بعض العبادات الباطنة التي يجب إفراد الله تعالى بها، ومنها الخوف والخشية والتقوى ولم يرد هنا بيان جميعها ولا أعظمها، وإنما المقصود بيان وجوب إفراد الله بها . ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ النور:[٥٢] جعل الطاعة له تعالى ولرسوله ﷺ وأما الخشية والتقوى فخصهما له وحده .

والفرق بين الخوف والخشية ـ كما قال ابن القيم[١] ـ أن الخشية أخص من الخوف فهي خوف مقرون بمعرفة ، ولذلك قرنها الله تعالى بالعلماء كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ فاطر:[٢٨] .

وأصول العبادة هي المحبة والخوف والرجاء وقد جمعها الله تعالى في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الإسراء :[٥٧] فابتغاء القرب إشارة إلى المحبة ثم الرجاء وبعده الخوف[٢] وجعل ابن القيم منزلة المحبة أرفع من منزلة الخوف وذلك لسببين :

أحدهما :أن المحبة مقصودة لذاتها وأما الخوف فمقصود لغيره . لذلك يزول بزوال المخوف فأهل الجنة لاخوف عليهم ولاهم يحزنون .

ثانيها : أن الخوف يتعلق بأفعال الله ، والمحبة تتعلق بذاته وصفاته ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا الجنة[٣].

---

١ ـ مدارج السالكين : (١/ ٥٤٩)

٢ ـ انظر جهود علماء الحنفية لشيخنا شمس الدين الافغاني رحمه الله : (١/ ٣٢٦ـ٣٢٧)

٣ ـ مدارج السالكين(١/ ٥٥١)

فائدة في حديثين

قوله ﴿وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ : " « مَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إلَّا نَفْسَهُ وَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا » وَقَالَ : " وَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ " فَفِي الطَّاعَةِ : قَرَنَ اسْمَ الرَّسُولِ بِاسْمِهِ بِحَرْفِ الْوَاوِ ، وَفِي الْمَشِيئَةِ : أَمَرَ أَنْ يُجْعَلَ ذَلِكَ بِحَرْفِ " ثُمَّ " وَذَلِكَ لِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ طَاعَةٌ لِلَّهِ فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَطَاعَةُ اللَّهِ طَاعَةُ الرَّسُولِ بِخِلَافِ الْمَشِيئَةِ فَلَيْسَتْ مَشِيئَةُ أَحَدٍ مِنْ الْعِبَادِ مَشِيئَةً لِلَّهِ ، وَلَا مَشِيئَةُ اللَّهِ مُسْتَلْزِمَةً لِمَشِيئَةِ الْعِبَادِ بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَأْ النَّاسُ ، وَمَا شَاءَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ إنْ لَمْ يَشَأْ اللَّهُ .﴾

التوضيح :

بعد أن ذكرشيخ الإسلام بعض الدقائق القرآنية والأسرار البلاغية قال هنا :
إن هذه الدقائق كثيرة في السنة أيضا ومنها حديثان نوضحهما كمايلي:

الحديث الأول : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه »[1] والحديث رواية من روايات خطبة الحاجة ضعّف هذه الرواية المنذري والشوكاني والألباني ، وصححها النووي ، ولايضر تضعيفها بما أراده شيخ الإسلام هنا ، فإن ما أراده لا يتوقف على هذه الرواية فقط بل شواهده في القرآن والسنة كثيرة ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ (٧١) الأحزاب:[٧١] .

---

١ ـ رواه أبو داود :(٣/ ٤٤٦) وضعفه المنذري كما في مختصر السنن :(٢/ ١٨) والشوكاني في نيل الأوطار:(٣/ ٣٢٥) والألباني في خطبة الحاجة :ص٢٢. وصححه النووي في شرح مسلم :(٦/ ١٦٠)لكن علته أبو عياض المدني فلايسلم تصحيحه . انظر تحقيق السعوي :ص٢٠٤ـ٢٠٥.

الحديث الثاني : ((لاتقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ماشاء الله ثم ما شاء فلان))[1]

فنلاحظ أنه ﷺ في الطاعة قرن اسمه باسم الله تعالى بحرف (الواو) وفي المشيئة أمر أن يقرن اسمه بـ(ثمّ) وذلك لأن طاعة الرسول طاعة لله تعالى بخلاف المشيئة فليست مشيئة أحد من العباد مشيئة لله بل ماشاء الله كان وإن لم يشأ الناس ، و ما شاء الناس لم يكن إلا أن يشاء الله كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ التكوير :[٢٩].وما أحسن قول الإمام الشافعي[2]:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ * وما شئتُ إن لم تشأ لم يكنِ
خلقت العباد على ما علمتَ * ففي العلم يجري الفتى والمسنّ
على ذا مننتَ ، وهذا خذلتَ * وهذا أعنتَ ، وذا لم تعنْ
فمنهم شقيٌّ ، ومنهم سعيدٌ * ومنهم قبيحٌ ، ومنهم حسنٌ

- قوله : (ومن يعصهما) : قلنا : إن الحديث ضعيف لكن ورد الجمع بين ضمير الله تعالى وضميررسوله ﷺ كما في حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ يوم خيبر أمر مناديا فنادى في الناس : (إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية ..)[3] وأيضا قال رسول الله ﷺ : ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان :أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ..))[4]

وقد ثبت أن رجلا خطب عند النبي ﷺ فقال : (من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، فقال رسول الله ﷺ بئس الخطيب أنت قل : ((ومن

---

١ ـ الحديث رواه أبو داود برقم :[٤١٦٦] وأحمد :(٥/ ٣٨٤) عن حذيفة وله طرق في ابن ماجه :[٢١١٨] وغيره وصححه الألباني في الصحيحة :[١٣٧].

٢ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة :(٢/ ٧٠٢) وانظر عقيدة الشافعي لشيخنا :أ.د.الخميس :ص٢٩.

٣ ـ أخرجه البخاري : [٥٥٢٨] ومسلم : [١٩٤٠]

٤ ـ أخرجه البخاري : (١/ ٦١) برقم :[١٦] عن أنس رضي الله عنه .

يعص الله ورسوله ›› [1] فنهاه عن الجمع بين ضمير الله ﷻ وضمير رسوله ﷺ فكيف يجمع بين نهيه وقوله مع إقراره ؟

ـ أجاب العلماء عن هذا الإشكال بأجوبة كثير منها :

ـ الجواب الأول : أن المراد في الخطب الإيضاح والتفصيل وأما في تلك الأحاديث فالمراد الإيجاز في اللفظ ليحفظ ويلتزم العمل به .

ـ الجواب الثاني : أن ذلك الإطلاق خاص بالنبي ﷺ لأن إطلاق غيره قد يوهم التسوية بخلافه ﷺ لتعظيمه ربه تعالى ، فله الجمع بين الضميرين دون غيره .

ـ الجواب الثالث : في قوله ﷺ : ‹‹ أحب إليه مما سواهما ›› جمع بينهما للتلازم بين المحبتين وفي المعصية فرق بين الضميرين لأن كل واحد من العصيانين مستقل في استلزام الغواية . واستحسن الحافظ ابن حجر هذا الجواب [2] ، والله أعلم.

الأصل الثاني : الرســــالة

قوله ﴿ الْأَصْلُ الثَّانِي : حَقُّ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم . فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ وَنُطِيعَهُ وَنَتَّبِعَهُ وَنُرْضِيَهُ وَنُحِبَّهُ وَنُسَلِّمَ لِحُكْمِهِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . ﴾

---

١ ـ أخرجه مسلم :[٧٨٠] عن عدي بن حاتم ﷺ.

٢ ـ فتح الباري :(١/ ٦٢) طبعة أبي حيان وانظر التحفة المهدية : ص٣٩٠ .

التوضيح :

قد سبقت الإشارة إلى حق الرسول ﷺ وذكر هنا بعضا من ذلك كمايلي:

١ـ أن نؤمن به لقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ النساء :[١٣٦]

٢ـ ونطعيه لقوله تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ ﴿٨٠﴾ النساء :[٨٠] وغيرها كثير.

٣ـ ونتبعه لقوله تعالى :﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿٣١﴾ آل عمران :[٣١]

٤ـ ونرضيه لقوله تعالى :﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٦٢﴾ التوبة : [٦٢] وإرضاؤه بحبه واتباعه .

٥ـ ونحبه لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ ﴿٢٤﴾ التوبة :[٢٤] اقترفتموها أي اكتسبتموها[1].

٦ـ ونسلم لحكمه لقوله تعالى :﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ النساء :[٦٥] وأمثال ذلك .

---

١ ـ فتح القدير : (٢/ ٥٠٣)

مذاهب الفرق الضالة في القدر

قوله ﴿ (فَصْلٌ) : وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا : فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِخَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ : بِقَضَائِهِ وَشَرْعِهِ . وَأَهْلُ الضَّلَالِ الْخَائِضُونَ فِي الْقَدَرِ انْقَسَمُوا إلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ : مَجُوسِيَّةٍ وَمُشْرِكِيَّةٍ وَإِبْلِيسِيَّةٍ ؛ فَالْمَجُوسِيَّةُ : الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَدَرِ اللَّهِ وَإِنْ آمَنُوا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ؛ فَغُلَاتُهُمْ أَنْكَرُوا الْعِلْمَ وَالْكِتَابَ وَمُقْتَصِدُوهُمْ أَنْكَرُوا عُمُومَ مَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ * وَالْفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ : الْمُشْرِكِيَّةُ الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَأَنْكَرُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ ؛ قَالَ تَعَالَى :﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ فَمَنْ احْتَجَّ عَلَى تَعْطِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِالْقَدَرِ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَذَا قَدْ كَثُرَ فِيمَنْ يَدَّعِي الْحَقِيقَةَ مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ * وَالْفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ : وَهُمْ الْإِبْلِيسِيَّةُ الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالْأَمْرَيْنِ لَكِنْ جَعَلُوا هَذَا مُتَنَاقِضًا مِنْ الرَّبِّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَطَعَنُوا فِي حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ كَمَا يُذْكَرُ ذَلِكَ عَنْ إبْلِيسَ مُقَدَّمِهِمْ ؛ كَمَا نَقَلَهُ أَهْلُ الْمَقَالَاتِ وَنُقِلَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذَا مِمَّا تَقَوَّلَهُ أَهْلُ الضَّلَالِ ﴾

التوضيح :

إذا تبين لنا أن أصل الدين هو الشهادتان فلابد كذلك من الإيمان بالقدر والشرع وهما الخلق والأمر كما سبق ، وقد ضل في هذا الباب فرق ثلاث هي المجوسية والمشركية والإبليسية . وتفصيل هذه الفرق كمايلي :

الأولى : المجوسية : وهم الذين أنكروا القدر وأقروا بالشرع وهم كماسبق غلاة أنكروا مرتبتي العلم والكتابة كمعبد الجهني ، ومقتصدون أنكروا عموم مرتبتي الخلق والمشيئة لأفعال العباد وهم المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة

وسموا مجوسية لأنهم أثبتوا خالقا غير الله وهو العبد حيث زعموا أنه خالق لفعله.

الثانية : المشركية : وهم الذين أقروا بالقدر ولكنهم غلوا فيه حتى أنكروا الأمر والنهي فصادموا الشرع بالقدر .

وسموا بذلك لأنهم احتجوا على تعطيل الشرع بالقدر ، كما قال المشركون فيما حكى الله عنهم : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ الأنعام:[١٤٨] وهذا حال كثير ممن يدعي الحقيقة الكونية ويفنى في الربوبية من الصوفية مع عدم تعظيم الأوامر والنواهي .

ـ ومن أمثلة المشركية المعاصرين من يحتج على مخالفته للشرع بالقدر:

ـ تنبيه :

ما ما يكشف تهافت المشركية في رفض الشرائع أنهم تارة يحتجون بالشرع وأخرى بالقدر فالثانية كما هنا والأولى كما في قولهم﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ ﴾ الأعراف :[٢٨] والذي يفضح جهلهم أن الله أجابهم في الموردين بنفس الجواب وهو في الأولى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الأعراف :[٢٨] وفي الثانية :﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ ﴿١٤٨﴾ الأنعام :[١٤٨].

الثالثة : الإبليسية : وهم الذين أقروا بالأمرين الشرع والقدر ولكنهم جعلوا هذا تناقضا وطعنوا في حكمة الله تعالى وعدله ، كما نقل الشهرستاني ذلك عن إبليس حيث اعترض على ربه باعتراضات منها : أنه يسلم بقدر الله وحكمه ولكن

يطعن في الحكمة من خلقه له مع علم الله تعالى بما سيحدث منه[1]. وهذا مذكور عند أهل الكتاب في التوراة والإنجيل[2] ، ولكن كذب شيخ الإسلام هذه القصة وبين أنها قد تكون من وضع بعض المكذبين بالقدر من أهل الكتاب أو زنادقة المسلمين[3] ، ويمكن أن يستدل لهذه الطائفة بقول إبليس فيما حكاه الله عنه﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ ﴿١٢﴾ الأعراف :[١٢] وكذلك : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ ﴿٦١﴾ الإسراء :[٦١] فهنا أقر إبليس بخلق الله تعالى وقدرته ، وكذلك أقر بشرعه ولكنه طعن في حكمة الله وعدله لأنه أمره بالسجود لمن هو دونه بزعمه . فرد الشرع بالقدر

ـ أمثلة للإبليسية:

ولعله يحسن التمثيل بكثير من الذين يرومون إبطال الشرائع بالأقدار كقول بعض الشعراء المتقدمين. فمن ذلك ما نقل عن المعري مخاطبا ربه :

أنهيت عن قتل النفوس تعمدا * وبعثت أنت لقبضها ملكين

وزعمت أن لها معادا ثانيا * ماكان أغناها عن الحالين[4]

وأما المعاصرون فكقول بعض أهل المجون : لم خلق الله الجمال وحرم النظر إليه .

سبيل أهل الهدى

قوله ؛ وأما أهل الهدى والفلاح : فيؤمنون بهذا وهذا ويؤمنون بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير وأحاط بكل شيء

---

١ ـ ذكره الشهرستاني في الملل والنحل :(١/ ٩ـ١٣)

٢ ـ انظر التحفة المهدية :ص٣٩٥.

٣ ـ الفتاوى :(٨/ ١١٤ـ١١٥)

٤ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي :(١٨/ ٢٩) المعري

علما وكل شيء أحصاه في إمام مبين ويتضمن هذا الأصل من إثبات علم الله وقدرته ومشيئته ووحدانيته وربوبيته وأنه خالق كل شيء وربه ومليكه : ما هو من أصول الإيمان . ﴾

التوضيح :

هنا بيان لسبيل المؤمنين وهو الإيمان بشرع الله وقدره بجميع مراتبه السابقة وهذا يتضمن الإيمان بصفات كماله وإفراده بالألوهية له فجميع أصول الإيمان متلازمة وقد سبق بيان ذلك كله بحمد الله .

الكلام في الأسباب

قوله ﴿ ومع هذا فلا ينكرون ما خلقه الله من الأسباب التي يخلق بها المسببات ؛ كما قال تعالى : ﴿ حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ وقال تعالى : ﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾ وقال تعالى : ﴿ يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا ﴾ فأخبر أنه يفعل بالأسباب ومن قال : إنه يفعل عندها لا بها فقد خالف ما جاء به القرآن وأنكر ما خلقه الله من القوى والطبائع وهو شبيه بإنكار ما خلقه الله من القوى التي في الحيوان التي يفعل الحيوان بها مثل قدرة العبد كما أن من جعلها هي المبدعة لذلك فقد أشرك بالله وأضاف فعله إلى غيره وذلك أنه ما من سبب من الأسباب إلا وهو مفتقر إلى سبب آخر في حصول مسببه ولا بد من مانع يمنع مقتضاه إذا لم يدفعه الله عنه فليس في الوجود شيء واحد يستقل بفعل شيء إذا شاء إلا الله وحده قال تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ أي فتعلمون أن خالق الأزواج واحد ﴾

التوضيح :

بعد أن بين شيخ الإسلام وجوب الإيمان بالشرع وبمراتب القدر وأن أهل الحق يؤمنون بذلك كله .يذكر هنا أن إيمانهم بخلق الله وقدرته ومشيئته لاينافي إثبات الأسباب ، ونلخص هنا مواقف الناس من الأسباب وهم طرفان ووسط كالتالي:

الطرف الأول : نفاة الأسباب : وهم الذين أنكروا تأثير الأسباب وجعلوها مجرد علامات يحصل الشيء عندها لابها حتى قالوا : إنكسار الزجاجة بالحجر حصل عند الإصابة لا أن الإصابة هي التي كسرتها وهؤلاء يخالفون السمع وينكرون ما خلقه الله من القوى والطباع وهو شبيه بإنكار القوى والقدرة للإنسان وهذا مذهب الأشاعرة الذي تقدمت الإشارة إليه عند بيان الجبرية الغلاة و الجبرة الخفية فإنهم ينفون تأثير الأسباب كما ينفون تأثير قدرة العبد .

الطرف المقابل : غلاة المثبتة . وهم الذين أثبتوا تأثيرها حتى جعلوها هي المؤثرة بذاتها دون مشيئة الله فوقعوا في شرك الربوبية فأضافوا خلقا إلى غير الله كما فعلت القدرية [1] وهؤلاء خالفوا المحسوس من عدة وجوه :

١ـ أن الحس دل على أن ما من سبب إلا وهو مفتقر إلى سبب آخر في حصول مسببه إلى أن ينتهي إلى الخالق الأول ﷻ وإلا لكان تسلسلا ممتنعا .

٢ ـ ولابد من عدم مانع يمنع أثره إذا لم يدفعه الله عنه ،فلا يستقل شيء بفعل شيء إلا الله .

٣ـ وأننا نشاهد تخلف بعض المسببات عن أسبابها كتخلف الإحراق عن النار في قصة إبراهيم عليه السلام قال الله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ﴿٦٩﴾ الأنبياء :[٦٩] .

---

١ ـ المعتزلة وأصولهم الخمسة : ص١٦٩ .

ووجه كونهما طرفين أن الأشاعرة أنكرت قانون السببية والعلية في أفعال العباد ، والمعتزلة أنكرت سلطان الله على قانون السببية في أفعال العباد فكلا الفرقتين على طرفي نقيض فالأولى عطلت المخلوق وحكم الشرائع والثانية عطلت الخالق .

أما الوسط : فهم الذين يثبتون تأثيرا للأسباب لالذاتها بل بما أودعه الله فيها من القوى وهم أهل السنة .

وهي قسمان : أسباب كونية ، وأسباب شرعية . وهاك أمثلتها :

أولا : الأسباب الكونية : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ الأعراف :[٥٧]

ثانيا : الأسباب الشرعية : ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ المائدة :[١٦] وقوله : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ ﴾ البقرة :[١٦] .

ففي الكونية جعل الله السحاب سببا لنزول المطر ونزول المطر سببا لإخراج الثمرات.

وفي الشرعية جعل اتباع الكتاب سببا للهداية ، والإعراض سببا للضلال والغواية.

فإذا كان القدر لاينافي الأسباب فهو كذلك لا ينافي أن يكون للعبد قدرة وإرادة يفعل بها الأفعال مع خلق الله للأسباب والأفعال . يوضح ذلك قوله تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ الواقعة :[٦٤]

القول بأن الواحد لايصدر منه إلا واحد

قوله ﴿ ولهذا من قال : إن الله لا يصدر عنه إلا واحد - لأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد - كان جاهلا فإنه ليس في الوجود واحد صدر عنه وحده شيء - لا واحد ولا اثنان - إلا الله الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون فالنار التي خلق الله فيها حرارة لا يحصل الإحراق إلا بها وبمحل يقبل الاحتراق ؛ فإذا وقعت على السمندل والياقوت ونحوهما لم تحرقهما وقد يطلى الجسم بما يمنع إحراقه والشمس التي يكون عنها الشعاع لا بد من جسم يقبل انعكاس الشعاع عليه فإذا حصل حاجز من سحاب أو سقف : لم يحصل الشعاع تحته وقد بسط هذا في غير هذا الموضع

والمقصود هنا : أنه لا بد من " الإيمان بالقدر " فإن الإيمان بالقدر من تمام التوحيد كما قال ابن عباس : هو نظام التوحيد فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده ومن وحد الله ، وكذب بالقدر نقض توحيده ولا بد من الإيمان بالشرع وهو الإيمان بالأمر والنهي والوعد والوعيد كما بعث الله بذلك رسله وأنزل كتبه ﴾

التوضيح :

ومما ذكرنا من أن الأسباب لا يستقل شي منها في تحصيل مسبباتها يعلم بطلان مقولة الفلاسفة ومن وافقهم من المتفلسفة ممن ينتسب إلى الإسلام كابن سينا[١] وهي : أن الواحد لايصدر عنه إلا واحد[٢] . ويمكن تلخيص الرد عليهم بمايلي:

١ـ أنه ليس في الوجود واحد صدر عنه ـ وحده ـ شيء لاواحد ولا اثنان إلا الله تعالى بل كل شيء محتاج إلى غيره في التسبب كما سبق .

---

١ ـ هو أبو علي الحسن بن عبد الله بن الحسن بن سينا فيلسوف وطبيب مشهور ، فارسي الأصل نشأ في أسرة باطنية إسماعيلية توفي سنة ٤٢٨. وله مؤلفات مشهورة . السير:(١٧/ ٥٣١) وانظر الرد على المنطقيين :ص١٤١.

٢ ـ الإشارات والتنبيهات لابن سينا : (٣/ ١٤٧) ، الملل والنحل :(٣/ ٥٧٦)

فالنار مثلا لا يحصل الإحراق بها إلا بمحل قابل للاحتراق ، فإذا وقعت على السمندل[١] والياقوت[٢] ونحوهما لم تحرقهما ، وكذلك إذا طلي الجسم بما يمنع إحراقه فلايحترق . وكذلك شعاع الشمس لابد له من جسم يقبل انعكاس الشعاع عليه وإذا حصل حاجز من سحاب أو سقف امتنع وصول الشعاع[٣]

فهذا يدل على أنه لايوجد واحد لايصدر عنه شيء بنفسه بل كل شيء مفتقر إلى غيره وله مانع يمنع أثره .

هذا القول الذي قالته الفلاسفة من أعظم الجهل وليس عليه دليل عقلي ولا نقلي بل الله سبحانه وتعالى خلق المخلوقات كلها : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٤٩﴾ فخالق الأزواج كلها واحد بل وخالق جميع المخلوقات واحد .

٣ـ وهذا الرد لم يذكره شيخ الإسلام وهو أنه يلزم منه نفي إرادة الله تعالى بل هو مجبور حيث صدر منه واحد بالاضطرار تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

وقولهم هذا مبني على قولهم في شبهة التركيب : إن الله واحد لاقسيم له فيمكن أن يجاب عنهم هنا بما سبق في شبهة التركيب[٤] .

الخلاصة

أنه لابد من الإيمان بالقدر فإنه من تمام التوحيد كما روي عن ابن عباس ﵄ : (القدر هو نظام التوحيد فمن وحد الله وآمن بالقدر فقد تم توحيده ، ومن وحد الله وكذب بالقدر فقد نقض تكذيبه توحيده)[٥]اهـ. ولابد من الإيمان بالشرع وهو الأمر والنهي والوعد والوعيد .

---

١ ـ وهو حيوان في الهند لايحترق بالنار ، قيل هو دابة دون الثعلب يتلذذ بالنار وقيل طائر لايحترق ريشه . انظر : الحيوان للجاحظ :(٢/ ١١١) وحياة الحيوان للدميري :(١١/ ٥٧٣) مستفاد من تحقيق السعوي : ص٢١٢.

٢ ـ حجر شفاف شديد الصلابة لا تذوبه النار . انظر المعجم الوسيط :(٢/ ١٠٧٩)

٣ ـ منهاج السنة :(١/ ٤٠٢)

٤ ـ الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم . (٣/ ١١٥)

٥ ـ رواه اللالكائي :(٢/ ٦٢٣) وعبد الله في السنة : (٢/ ٤٢٢) وضعفه الألباني في الطحاوية :ص٢٥٠ برقم:[٢٤٥]

ضرورة الإنسان إلى الشرع

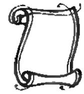
قوله ﴿ وَالْإِنسَانُ مُضْطَرٌّ إلى شَرْعٍ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَرَكَةٍ يَجْلِبُ بِهَا مَنْفَعَتَهُ ، وَحَرَكَةٍ يَدْفَعُ بِهَا مَضَرَّتَهُ ؛ وَالشَّرْعُ هُوَ الذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَنْفَعُهُ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي تَضُرُّهُ وَهُوَ عَدْلُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، وَنُورُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ ؛ فَلَا يُمْكِنُ لِلْآدَمِيِّينَ أَنْ يَعِيشُوا بِلَا شَرْعٍ يُمَيِّزُونَ بِهِ بَيْنَ مَا يَفْعَلُونَهُ وَيَتْرُكُونَهُ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ مُجَرَّدَ الْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ بَلْ الْإِنْسَانُ الْمُنْفَرِدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فِعْلٍ وَتَرْكٍ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ هَمَّامٌ حَارِثٌ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم " أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ " وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَاتِ فَإِذَا كَانَ لَهُ إرَادَةٌ فَهُوَ مُتَحَرِّكٌ بِهَا وَلَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ مَا يُرِيدُهُ هَلْ هُوَ نَافِعٌ لَهُ أَوْ ضَارٌّ ؟ وَهَلْ يُصْلِحُهُ أَوْ يُفْسِدُهُ ؟ وَهَذَا قَدْ يَعْرِفُ بَعْضَهُ النَّاسُ بِفِطْرَتِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ انْتِفَاعَهُمْ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَكَمَا يَعْرِفُونَ مَا يَعْرِفُونَ مِنْ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ بِفِطْرَتِهِمْ وَبَعْضُهُمْ يَعْرِفُونَهُ بِالِاسْتِدْلَالِ كَالَّذِي يَهْتَدُونَ بِهِ بِعُقُولِهِمْ وَبَعْضُهُ لَا يَعْرِفُونَهُ إلَّا بِتَعْرِيفِ الرُّسُلِ وَبَيَانِهِمْ لَهُمْ وَهِدَايَتِهِمْ لَهُمْ ﴾

التوضيح :

كل إنسان مضطر إلى الشرع حياته ووجه ذلك أن الله تعالى قد فطر الإنسان على الفعل لجلب المنافع ودفع المضار ولابد له من التفكير والقدرة ، فالتفكير لتقدير المنفعة والتمييز بينها وبين المفسدة ، والقدرة للتمكن من الفعل ، وهذا التفكيرلابد له من توجيه ، فبعض الأمور قد يعلم نفعها بالفطرة وبعضها بالتجربة ولكن بعضها لايعلمه إلا الله بالشرع وهذه الأفعال والإرادات لاتنفك

عن أي إنسان ولذلك قال ﷺ :« أصدق الأسماء حارث وهمّام »[1] فالحارث : الكاسب والفاعل ، والهمام : هو المريد العازم ، وهذا ما يسميه المتكلمون (متحرك بالإرادة) فهو متحرك حارث ومريد همام محتاج إلى تقويم[2] .

والتقويم كما سبق منه لا مالايعلم إلا بتعريف الرسل فالله يرسل رسله لهداية خلقه إلى أقوم الطرق ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ﴿١٤﴾ الملك :[١٤] وهذا ينقلنا إلى مسألة التحسين والتقبيح في الأفعال هل مردها إلى الشرع أم إلى العقل والله الموفق .



التحسين والتقبيح

قوله ﴿ وَفِي هَذَا الْمَقَامِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي أَنَّ الْأَفْعَالَ هَلْ يُعْرَفُ حُسْنُهَا وَقَبِيحُهَا بِالْعَقْلِ أَمْ لَيْسَ لَهَا حَسَنٌ وَلَا قَبِيحٌ يُعْرَفُ بِالْعَقْلِ ؟ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَّا مَا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ الِاشْتِبَاهِ . ﴾



التوضيح :

١ ـ أخرجه أبوداود :(١٣/ ٢٩٣) والنسائي :(٦/ ١٨١) وهوصحيح كما في صحيح الأدب المفرد وانظر حاشية السعوي :ص ٢١٤ .

٢ ـ انظر الفتاوى : (١٠/ ١١٧،١٤/ ١٦٨،٢٠/ ٦٩،٢٦/ ١٩) وغيرها والتحفة المهدية :ص٤٦٠.

وفي الكلام عن ضرورة الإنسان إلى معرفة ما ينفعه ومايضره ، تكلم الناس حول مسألة التحسين والتقبيح ، فذكر هنا المراد بالمسألة ثم تحرير محل النزاع ثم الخلاف مع بيان القول الحق ، ثم ذكر ماينبني على المسألة وتوضيحه كما يلي:

أولا : المراد بالمسألة :

نبدأ بمقدمة فنقول : الأوصاف نوعان أوصاف ذاتية وأوصاف اعتبارية فمثلا حرارة النار وبرودة الثلج أوصاف حقيقة فهما وصفان للنار والثلج بقطع النظر عن وجودنا بل هي أوصاف ذاتية حقيقية . بينما القوة الشرائية للأوراق النقدية مثلا صفة يعتبرها السلطة التشريعية ولذلك بمجرد صدرو مرسوم بإلغائها فلا قيمة لها وكذلك سائر القوانين التشريعية فالوجوب والتحريم كلها أمور اعتبارية سواء صدرت عن حكمة أو لا .

بعد ذلك نقول : وصف الأفعال بالحسن والقبح هل هو من جنس الأوصاف الذاتية كالحرارة والبرودة أم أنها أوصاف اعتبارية كسائر الأحكام التشريعية بحيث لولا الناس لما اتصف الفعل بحسن أوقبح .

و لابد هنا أن يعلم أن المراد بحسن أمر ما أي أنه ينبغي أن يفعل ويقبحه أنه ينبغي ألا يفعل . وأن هذا ليس بشامل لكل فعل بل بعض الأفعال لايقف الإنسان على حسنها أوقبحها .

ثانيا : تحرير محل النزاع

قوله ﴿ فَإِنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ كَوْنَ الْفِعْلِ يُلَائِمُ الْفَاعِلَ أَوْ يُنَافِرُهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ سَبَبًا لِمَا يُحِبُّهُ الْفَاعِلُ وَيَلْتَذُّ بِهِ وَسَبَبًا لِمَا يُبْغِضُهُ وَيُؤْذِيهِ ﴾

التوضيح :

اتفق الجميع على أن مايوافق غرض الفاعل يسمى حسنا ويدرك بالعقل كحسن قتل العدو وغيره وهو ما يسمونه مصلحة أو (ملاءمة الطبع) وماخالف غرض الفاعل يسمى قبيحا كالإيذاء ونحو ذلك ويسمى مفسدة أو (منافرة الطبع) وكل ما ذكروه راجع إلى هذين القسمين . ومما يعلم بالعقل .

ولكن النزاع في الأفعال هل توصف بالحسن والقبح لذاتها أم هي أمور اعتبارية فقط بحسب موافقة أو مخالفة غرض الإنسان . ثم هل يترتب عليها الثواب والعقاب بمجرد تحسينها وتقبيحها أم ذلك متوقف على ورود الشرع به ؟

فهھنا مسألتان : الأولى في كون الحسن والقبح عقليين أم شرعيين أو ذاتيين أم اعتباريين والأخرى بناء على كونهما عقليين ذاتيين فهل هناك ملازمة بين حكم العقل بالحسن وحكم الشرع بالإثابة وحكمه بالقبح وحكم الشرع بالعقوبة

ثالثا : الأقوال في التحسين والتقبيح

قوله ﴿ وَهَذَا الْقَدْرُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ تَارَةً وَبِالشَّرْعِ أُخْرَى وَبِهِمَا جَمِيعًا أُخْرَى ؛ لَكِنَّ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَمَعْرِفَةَ الْغَايَةِ الَّتِي تَكُونُ عَاقِبَةُ الْأَفْعَالِ : مِنْ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا تُعْرَفُ إلَّا بِالشَّرْعِ فَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَفَاصِيلِ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَمَرَتْ بِهِ مِنْ تَفَاصِيلِ الشَّرَائِعِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ كَمَا أَنَّ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَفْصِيلِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَعْلَمُونَ بِعُقُولِهِمْ جُمَلَ ذَلِكَ وَهَذَا التَّفْصِيلُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الْإِيمَانُ وَجَاءَ بِهِ الْكِتَابُ هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إلَيْك رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْت تَدْرِي مَا

الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْت فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْت فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾

التوضيح :

القول الأول هو قول أهل السنة . وبدأ به شيخ الإسلام ابن تيمية . ووافقهم عليه الماتريدية . وخلاصته : أن العقل يدرك حسن الأفعال وقبحها كحسن العدل والصدق وقبح الظلم والكذب ، ولكنه لايدرك تفاصيل ذلك ولايدرك الثواب والعقاب بل ذلك لايعرف إلا بالشرع .

قال الشوكاني : (وإنكار مجرد إدراك العقل لكون الفعل حسنا أو قبيحا مكابرة ومباهتة .. ولا تلازم بين هذا وبين كونه متعلقا للثواب والعقاب)[1] .

وبهذا القول جمع أهل السنة بين المعقول والمنقول ، فمن الأدلة النقلية مايدل على أن الثواب والعقاب وتفاصيل الشرائع أمر شرعي لا تدركه العقول ومما يدل على ذلك :

١ـ قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ الشورى :[٥٢]

٢ـ قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ الأنبياء :[٤٥]

---

١ ـ إرشاد الفحول:ص١٤.

٣ـ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ ﴿٥٠﴾ سبأ :[٥٠]

ومن الأدلة النقلية مايدل على أن بعض الأفعال حسنة وبعضها قبيحة قبل الشرع أي بمجرد العقل والفطرة فمن ذلك :

١ـ قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ الأعراف :[٣٣] فأخبر أنها فاحشة قبل نهيهم عنها .

٢ـ قوله تعالى ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ الأعراف :[٢٨] أي لايأمر بما هو فاحشة في العقول المستقيمة والفطر السليمة.

٣ـ قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ الأعراف :[٢٩] وقد علم من قبل حسنه عندكم [١]

ذكر القولين المخالفين لأهل السنة

قوله : ﴿ ولكن توهمت طائفة أن للحسن والقبح معنى غير هذا وأنه يعلم بالعقل وقابلتهم طائفة أخرى ظنت أن ما جاء به الشرع من الحسن والقبح : يخرج عن هذا فكلا الطائفتين اللتين أثبتا الحسن والقبح العقليين أو الشرعيين وأخرجاه عن هذا القسم غلطت ﴾

١ ـ مدراج السالكين :(١/ ٢٥٦ـ٢٥٧) .

التوضيح :

ـ القول الثاني : قول المعتزلة :

وخلاصته : أن قبح الأفعال وحسنها يعرف بالعقل ، ففيها صفات ذاتية لازمة ليس الشرع إلا كاشفا لها . فيثبت الثواب والعقاب عليها وإن لم يأت الشرع .

قال عبد الجبار المعتزلي : (قد ذكرنا أن وجوب المصلحة وقبح المفسدة متقرران في العقل)[1]وقال أيضا : (فليس لأحد أن يقول : إنما يحتاج إلى السمع ليفصل العاقل بين الواجب والقبيح)[2] .

وهم بهذا خالفوا النصوص التي علقت الثواب والعقاب بالرسل ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ۝ الإسراء :[١٥]

ـ القول الثالث : قول الأشاعرة :

وحاصله أنه ليس للأفعال حسن ولاقبح لذاتها ، وإنما هي معاني إضافية غير حقيقية وما جاء به الشرع من الثواب والعقاب إنما هو لمحض الإرادة لا لحكمة ولالعة في الفعل ، فالحسن والقبح شرعي محض . قال الآمدي : (مذهب أصحابنا وأكثر العقلاء أن الأفعال لاتوصف بالحسن والقبح لذواتها وأن العقل لايحسن ولايقبح وإنما إطلاق اسم الحسن والقبح عندهم باعتبارات ثلاثة إضافية غير حقيقة)[3] فخالفوا بذلك النصوص الدالة على إباحة مايعلم حسنه عقلا وفطرة ، وتحريم ما يعلم قبحه عقلا وفطرة . كقوله تعالى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ ۝ الأعراف :[١٥٧] وماسبق من أدلة أهل السنة وقد رد عليهم ابن القيم من ستين وجها[4] .

---

١ ـ شرح الأصول الخمسة : ص ٥٦٥ .وانظر المحيط بالتكليف لعبد الجبار :ص٢٥٤.

٢ ـ المغني لعبد الجبار : (١٤/ ١٥٣) عن موقف المتكلمين : (١/ ٢٩٧)

٣ ـ الإحكام للآمدي : (١/ ٧٩) وقد سبقت هذه الاعتبارات في تحرير محل النزاع .

٤ ـ كما في مفتاح دار السعادة : (٢/ ٢٦) ومابعدها .

رابعا : مايبنى على هذه المسألة

قوله ﴿ثم إن كلتا الطائفتين لما كانتا تنكر أن يوصف الله بالمحبة والرضا والسخط والفرح ونحو ذلك مما جاءت به النصوص الإلهية ودلت عليه الشواهد العقلية : تنازعوا بعد اتفاقهم على أن الله لا يفعل ما هو منه قبيح هل ذلك ممتنع لذاته وأنه لا يتصور قدرته على ما هو قبيح وأنه سبحانه منزه عن ذلك لا يفعله لمجرد القبح العقلي الذي أثبتوه ؟ على قولين والقولان في الانحراف من جنس القولين المتقدمين أولئك لم يفرقوا في خلقه وأمره بين الهدى والضلال والطاعة والمعصية والأبرار والفجار وأهل الجنة وأهل النار والرحمة والعذاب ؛ فلا جعلوه محمودا على ما فعله من العدل أو ما تركه من الظلم ولا ما فعله من الإحسان والنعمة وما تركه من التعذيب والنقمة والآخرون نزهوه بناء على القبح العقلي الذي أثبتوه ولا حقيقة له وسووه بخلقه فيما يحسن ويقبح ، وشبهوه بعباده فيما يأمر به وينهى عنه﴾

التوضيح :

تطرقنا فيما سبق لمسألة متفرعة على الخلاف في التحسين والتقبيح العقليين ألا وهي الملازمة بين الحكم العقلي وبين الحكم التشريعي وهذه مسألة الملازمة بين الحكم العقلي والحكم التكويني بمعنى هل يلزم من قبح الفعل استحالة صدوره من الخالق

سبق بيان مذهب الأشاعرة والمعتزلة في الصفات ، وهو أن الأشاعرة تنفي جميع الصفات ماعدا سبع صفات ، والمعتزلة تنفي الجميع ، فاتفق الفريقان على نفي المحبة والرضا والسخط والفرح وغيرها مما ثبت بالنصوص الشرعية ودلت عليها القواعد العقلية .

واتفقوا ـ كذلك ـ على تنزيه الله تعالى عن فعل ما هو قبيح . ولكن اختلفوا في سبب ذلك ؛ فإنهم لايقولون إنه تعالى لا يفعل القبيح لأنه يبغضه بناء على

نفيهم للبغض والكره والحب وغيرها من الصفات . وخلافهم في سبب عدم فعله تعالى للقبيح على قولين هما :

القول الأول وهو قول الأشاعرة :

أن القبيح في حق الله ممتنع لذاته فكل ما كان داخلا في قدرة الله فهو حسن وله فعله كتعذيب الطائعين وإكرام الكافرين ونحوهما . وتعريفهم للظلم الذي حرمه على نفسه مبني على هذه المسألة [1] .قال السيوطي في تقرير عقيدتهم في آخر الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع [2] :

يثيب بالطوع وبالعصيان * عاقب أو ينعم بالغفران

لما عدا الشرك ، وللباري البديع * إثابة العاصي وتعذيب المطيع

وضر أطفال الورى والعجم * ويستحيل وصفه بالظلم

فمحصل قول الأشاعرة أن القبيح لايصدر عن الله لأن القبيح عندهم ما يستحيل وقوعه . إذ كل ما يدخل تحت قدرته ومشيئته فهو حسن له فعله .

القول الثاني وهو قول المعتزلة :

وهو أن الله منزه عن القبيح لمجرد كونه قبيحا عقلا وكل ما قبحه العقل فالله منزه عنه مع قدرته عليه ،و من هنا أدخلوا نفي القدر في العدل لأن عقولهم تقبح خلق الفعل مع التعذيب عليه [3] أي أنهم رأوا أن خلق الله لفعل العبد يقتضي كون العبد مجبورا على فعله ومعاقبة المجبور على الذنب قبيحة فدار الأمر بين إبطال المعاد وإبطال خلق فعل العباد فرارا من صدور القبيح ـ في نظرهم ـ من الله فآثروا إبطال خلق أفعال العباد ولو اختاروا الآخر لكفروا .

وهناك قول شاذ للنظام كفره عليه معتزلة البصرة : وهو أن الله تعالى لايقدر على فعل القبيح [4] .

---

١ ـ الاقتصاد للغزالي :ص١١٦ ومابعدها .

٢ ـ شرح الكوكب الساطع للسيوطي :(٢/ ٥٢٦)

٣ ـ شرح الأصول الخمسة :ص٣٢٦ومابعدها .

٤ ـ الفرق بين الفرق :ص٩٥ . الملل والنحل :(١/ ٤٧) بتعليق أحمد فهمي .

والفرق بينه وبين قول الأشاعرة أن كل ما قبحه عقله حكم بعدم قدرة الله عليه وأما الأشاعرة فعلى العكس من ذلك فإنهم قالوا كل ما كان مستحيلا لذاته فهو قبيح .

وكلا القولين غاية في الانحراف كقولهم في التحسين والتقبيح ، فما بني على باطل فهو مثله ، فقول الأشاعرة بعدم صدور الظلم سلب لامدح فيه على طريقة السلب عند المعطلة لامدح فيها فليس تركه للظلم لكمال عدله بل لعجزه عن الظلم بل لم يمتنع صدوره عنه لأنه قبيح بل لما امتنع صدوره منه حكمنا بقبحه . وقول المعتزلة فيه تسوية لله بخلقه فكل ما قبحته عقولهم في حق المخلوقين نزهوا الله عنه فلم يقدروا الله حق قدره[1] ووقعوا في قياسه بخلقه .

وأما أهل السنة فيقولون إنه تعالى حرم الظلم على نفسه تفضلا وامتنانا فيتنزه عما نزه عنه نفسه . قال شيخ الإسلام : (وأما الإيجاب على الله تعالى والتحريم بالقياس على خلقه فهذا قول القدرية وهو قول مبتدع ، وأهل السنة متفقون على أنه سبحانه خالق كل شيء وأن ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن وأن العباد لايوجبون عليه شيئا ولهذا كان قول من قال من أهل السنة بالوجوب قال : إنه كتب على نفسه الرحمة وحرم الظلم على نفسه لا أن العبد مستحق على الله شيئا)[2] .ومسألة التحسين والتقبيح طويلة الذيل وبنيت عليها كثير من الأصول العقدية[3]

رجوع إلى بيان مخالفة من ينظر إلى القدر دون الشرع

قوله ﴿فمن نظر إلى القدر فقط وعظم الفناء في توحيد الربوبية ووقف عند الحقيقة الكونية : لم يميز بين العلم والجهل والصدق والكذب والبر والفجور والعدل والظلم والطاعة

---

١ ـ شرح الطحاوية :ص٦٥٩ بتحقيق التركي.

٢ ـ اقتضاء الصراط المستقيم :سص٤٠٩ ـ ٤١٠ .

٣ ـ انظر في ذلك موقف المتكلمين للغصن : (١/ ٢٩٥) والمسائل المشتركة للعروسي :ص٤٧ ، والمعتزلة وأصولهم :ص١٦١ . بالإضافة إلى ماسبق النقل عنه .

والمعصية والهدى والضلال والرشاد والغي وأولياء الله وأعدائه وأهل الجنة وأهل النار وهؤلاء مع أنهم مخالفون بالضرورة لكتب الله ودينه وشرائعه فهم مخالفون أيضا لضرورة الحس والذوق وضرورة العقل والقياس﴾

التوضيح :

هنا رجوع إلى من ينظر إلى تقدير الله وخلقه للأشياء وتدبيره وهو مايسمى بالحقيقة الكونية دون أن ينظر إلى الحقيقة الشرعية وهي أمره ونهيه كطوائف من المتصوفة ، وهؤلاء لايميزون بين العلم والجهل وبين الصدق والكذب وبين البر والفجور وبين أولياء الله وأعدائه ، فهم مخالفون لكتب الله ودينه وشرائعه التي جاءت للتمييز بين الحق والباطل ومع ذلك فهم مخالفون لضرورة الحس والذوق وضرورة العقل والقياس وهاتان الضرورتان من أعظم اليقينيات فالأولى هي المحسوسات والثانية هي الأوليات العقلية التي تتوقف الاستدلالات العقلية على التسليم بها كقولنا الواحد نصف الاثنين ونحو ذلك ، وسيتبين وجه مخالفتهم لضرورة الحس ولصريح العقل بإذن الله .

أولا : مخالفتهم للحس والذوق

قوله ﴿ فإن أحدهم لا بد أن يلتذ بشيء ويتألم بشيء فيميز بين ما يأكل ويشرب وما لا يأكل ولا يشرب وبين ما يؤذيه من الحر والبرد وما ليس كذلك وهذا التمييز بين ما ينفعه ويضره هو الحقيقة الشرعية الدينية .

ومن ظن أن البشر ينتهي إلى حد يستوي عنده الأمران دائما : فقد افترى وخالف ضرورة الحس ؛ ولكن قد يعرض للإنسان بعض الأوقات عارض كالسكر والإغماء ونحو ذلك مما يشغل عن الإحساس ببعض الأمور فأما أن يسقط إحساسه بالكلية مع وجود الحياة فيه فهذا ممتنع فإن النائم لم يفقد إحساس نفسه بل يرى في منامه ما يسوؤه تارة وما يسره أخرى فالأحوال التي يعبر

عنها بالاصطلام والفناء والسكر ونحو ذلك إنما تتضمن عدم الإحساس ببعض الأشياء دون بعض فهي مع نقص صاحبها - لضعف تمييزه - لا تنتهي إلى حد يسقط فيه التمييز مطلقا ومن نفى التمييز في هذا المقام مطلقا وعظم هذا المقام فقد غلط في الحقيقة الكونية والدينية : قدرا وشرعا وغلط في خلق الله وفي أمره حيث ظن أن وجود هذا ؛ لا وجود له وحيث ظن أنه ممدوح ولا مدح في عدم التمييز : العقل والمعرفة .

التوضيح :

يذكر هنا مخالفتهم للحس ثم يأتي بعد عدة فصول لمخالفتهم للعقل والذوق. والذوق هو : مباشرة الحاسة الظاهرة أو الباطنة للملائم والمنافر ، ولا يختص ذلك بالفم لا في اللغة ولا في الشرع [1].

ووجه مخالفة هؤلاء للحس والذوق أنه لابد لكل إنسان من أن يشعر بما يسعده أو يؤذيه ولابد أن يميز بين مايأكله ومالايأكله وبين الحر والبرد وبين ما يضره وماينفعه سواء في أمور الدنيا أم أمور الآخرة وهذه هي الحقيقة الشرعية ، فإن الشرع جاء لتحصيل المصالح وتكميلها و لدرء المفاسد وتقليلها ، ولا يمكن تصور زوال ذلك الإحساس ولا أن يستوي الأمران مع وجود الحياة إلا إذا عرض له عارض مؤقت كالسكر المطبق الذي يزول معه العقل والتمييز تماما أو الإغماء فمتى زال هذا العارض رجع الإحساس إلى الإنسان ، وهناك حالات يظن فيها عدم الإحساس وليس الأمر كذلك بل يبقى الإحساس ولو من بعض الجوانب ومن هذه الحالات :

١ـ حالة النوم : فإن النائم لم يفقد الإحساس مطلقا بل عنده نوع إحساس فإنه يرى في منامه ما يسوؤه وما يسره ومافيه نفعه أو ضره .

٢ـ الأحوال الصوفية : بل وحتى الأحوال الصوفية كالاصطلام والفناء والسكر ونحوها إنما هي عدم إحساس ببعض الأشياء دون بعض ولا تنتهي إلى حد يسقط فيه التمييز مطلقا .

---

١ ـ انظر التحفة المهدية :ص٤١٨.

ـ التعريف بهذه المصطلحات الصوفية :

١ـ الأحوال عند الصوفية ليست هي الأحوال التي سبقت عند بعض المعتزلة بل يقصد بها الصوفية : ما يرد على القلب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط ونحوها من غير تعمد ولا اكتساب[1].

٢ـ الاصطلام : ـ عندهم ـ وله أو وجد غامر يرد على القلب أو العقل فيسلبه بقوة سلطانه[2].

٣ـ الفناء : وله عندهم أنواع ثلاثة ستأتي وعدة تعريفات منها : عدم الإحساس بعالم الملكوت في الاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق[3].

٤ـ السكر: ـ عندهم ـ غيبة لوارد قوي يعطي الطرب والتلذذ[4] وهو أتم من مجرد الغيبة . وجميع هذه المصطلحات ضرب من الهذيان بل إن العبد المؤمن إذا سمع آيات القرآن وانشغل بالذكر وطاعة الرحمن اطمأن قلبه وانشرح صدره وكلما تشاغل عن ذلك غفل قلبه وضاق صدره وأما الغيبة والطرب وسلب القلب فلا أصل له في الشرع .

إذا من نفى التمييز مطلقا فقد غلط في الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية قدرا وشرعا ، فغلطه في الحقيقة الكونية القدرية ظنه وجود حي مع عدم التمييز مطلقا ولاوجود له ، وغلطه في الحقيقة الشرعية ظنه أنه ممدوح في عدم التمييز والمعرفة ولامدح فيها فإنها حال ناقصة لم تعرض للأنبياء ولا للسلف من الصحابة والتابعين.

بعض العبارات المجملة لمشايخ الصوفية

قوله : «وإذا سمعت بعض الشيوخ يقول : أريد أن لا أريد أو أن العارف لا حظ له وأنه يصير كالميت بين يدي الغاسل ونحو ذلك فهذا إنما يمدح منه سقوط إرادته التي يؤمر بها

---

١ ـ التعريفات للجرجاني : ص ٨١ .

٢ ـ معجم الفاظ الصوفية :ص٤٩

٣ ـ التعريفات للجرجاني : ص١٦٩.

٤ ـ الرسالة القشيرية :ص٤١، وانظر في ذلك توضيح المقاصد :ص٦١ـ٦١، وتحقيق السعوي :ص٢١٩.

وعدم حظه الذي لا يؤمر بطلبه وأنه كالميت في طلب ما لم يؤمر بطلبه وترك دفع ما لم يؤمر بدفعه ومن أراد بذلك أنه تبطل إرادته بالكلية وأنه لا يحس باللذة والألم ؛ والنافع والضار فهذا مخالف لضرورة الحس والعقل . ومن مدح هذا فهو مخالف لضرورة الدين والعقل .

التوضيح :

هنا بعض العبارات الجملة التي يطلقها بعض الصوفية وهي :

١ ـ قولهم : (أريد أن لا أريد)

٢ـ قولهم : (إن العارف لاحظ له)

٣ ـ قولهم : (المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل) .

ونحوها من العبارات وهي تحتمل أحد احتمالين :

الأول : إذا كان القائل من فضلاء الصوفية كعبد القادرالجيلاني[1] وغيره فيحمل القول الأول ـ (أريد أن لا أريد) ـ على أنه لايريد شيئا إلا أن يكون مأمورا بإرادته[2] أي لايريد العبد إلا ماأراده الله منه شرعا أي أن العبد لايريد إلا ماأمره الله به، وهذا معنى قول شيخ الإسلام :(فهذا يمدح منه سقوط إرادته التي لم يؤمر بها).

ويحمل القول الثاني منه على أن العارف بالله لانصيب له في الوصول إلا إلى ما أمره الله بطلبه وهذا معنى قول شيخ الإسلام : (وعدم حظه الذي لم يؤمر به)

ويحمل القول الثالث منه على أنه كالميت في طلب مالم يؤمربطلبه أو ترك دفع مالم يؤمر بدفعه أي أنه مسلم لأوامر الله وأقداره .

الاحتمال الثاني : ألا يكون من فضلاء الصوفية فتحمل الأقوال الثلاثة على عدم التمييز بين الأشياء والإرادة إنما يحتاج إليها من يميز بين النافع

---

١ ـ هو أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله جنكي دوست الجيلي الحنبلي ، شيخ بغداد من معتدلي الصوفية وعليه مآخذ . توفي سنة ٥٦١ . السير : (٢٠/ ٤٣٩) البداية والنهاية :(١٢/ ٢٥٢)

٢ ـ التحفة المهدية : ص٤٢٠.

والضار فهذا تبطل إرادته بالكلية . وقد عرفت مافي هذا القول من البطلان لمخالفته الحس والعقل والدين .

أنواع الفناء

قوله ﴿ والفناء يراد به ثلاثة أمور : أحدها : هو الفناء الديني الشرعي الذي جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب وهو أن يفنى عما لم يأمر الله به بفعل ما أمر الله به : فيفنى عن عبادة غيره بعبادته وعن طاعة غيره بطاعته وطاعة رسوله وعن التوكل على غيره بالتوكل عليه وعن محبة ما سواه بمحبته ومحبة رسوله ؛ وعن خوف غيره بخوفه بحيث لا يتبع العبد هواه بغير هدى من الله ، وبحيث يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما قال تعالى: : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ فهذا كله هو مما أمر الله به ورسوله .

وأما (الفناء الثاني): وهو الذي يذكره بعض الصوفية وهو أن يفنى عن شهود ما سوى الله تعالى فيفنى بمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته بحيث قد يغيب عن شهود نفسه لما سوى الله تعالى فهذا حال ناقص قد يعرض لبعض السالكين وليس هو من لوازم طريق الله ولهذا لم يعرف مثل هذا للنبي صلى الله عليه وسلم ولا للسابقين الأولين ومن جعل هذا نهاية السالكين فهو ضال ضلالا مبينا وكذلك من جعله من لوازم طريق الله فهو مخطئ بل هو من عوارض طريق الله التي تعرض لبعض الناس دون بعض ليس هو من اللوازم التي تحصل لكل سالك وأما الثالث : فهو الفناء عن وجود السوي بحيث يرى أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق وأن الوجود واحد بالعين فهو قول أهل الإلحاد والاتحاد الذين هم من أضل العباد ﴾

التوضيح :

ـ أولا : الفناء لغة مصدر فني يفنى فناء إذا اضمحل وزال ومنه قوله تعالى :﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ﴿٢٦﴾ الرحمن :[٢٦] وقد يطلق على من تلاشت قواه وأوصافه مع بقاء عينه كما يقال :شيخ فان [1].

ثانيا : الفناء عند الصوفية : وهو أقسام ثلاثة :

١ـ الفناء عن إرادة السوى .

٢ـ الفناء عن شهود السوى .

٣ـ الفناء عن وجود السوى .

أشار إليها شيخ الإسلام بالترتيب كمايلي :

الأول : الفناء عن إرادة السوى :

وهو الفناء الديني الشرعي فيفنى عن عبادة غير الله من خلال عبادة الله وحده ، وعن طاعة من سوى الله بطاعة الله وحده وطاعة رسوله ﷺ . وهذا هو المسمى بالفناء عن إرادة السوى ويسمى عندهم بـ (توحيد العامة) . والمراد بالسوى من عدا الله سبحانه وتعالى فيفنى عن إرادة غيروجه الله تعالى بأفعاله وأقواله . وهذا الفناء مطلوب شرعا ولكنه يسمى في الشرع بالإخلاص والإحسان والتقوى والبر والإيمان وغيرها وينبغي أن لايعدل المسلم عن الألفاظ الشرعية فإن تلك الألفاظ مجملة مشتملة على الحق والباطل ولكن إثمها أكبر من نفعها .

الثاني : الفناء عن شهود السوى :

وهو مايذكره بعض الصوفية أن يفنى عن شهود ما سوى الله فيفنى بمعبوده وهو الله عن عبادته أي ينشغل بالله إلى حد يترك معه عبادة الله ، ويفنى بمذكوره وهو الله عن ذكره ، وبمعروفه وهو الله عن معرفته لنفسه بحيث يغيب عن شعوره بنفسه وبما

---

١ ـ انظر مدارج السالكين : (١/ ١٧٢ـ١٧٣)

سوى الله تعالى . وهذا حال ناقص كما مر ، وقد يعرض لبعض السالكين ولكنه ليس من لوازم الطريق إلى رب العالمين لذلك لم يعرض لسيد المرسلين ﷺ ولاللسابقين من الأولين ، ومن جعله نهاية السالكين وغاية الطالبين فهو في ضلال مبين ، أما من جعله من لوازم الطريق فهو مخطئ كما ذكره شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي الأنصاري[1] في كتابه (منازل السائرين) .

وهذا النوع وهو الفناء عن شهود السوى أي لايشهد ولا يعرف إلا الله كماسبق.

ـ جملة أوجه النقص في الفناء عن شهود السوى :

١ـ أنه لم يقع للنبي ﷺ حتى في أعظم المواقف وهو موقف الإسراء والمعراج وقد رأي النبي ﷺ من آيات ربه الكبرى فكان غاية في الثبات ظاهرا وباطنا أما ظاهرا فكما قال تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ ﴿١٧﴾ النجم : [١٧] وأما باطنا فقال تعالى :﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ ﴿١١﴾ النجم :[١١] وكذلك لم يقع هذا الفناء لخيرة الخلق بعد الرسل وهم أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم وأرضاهم[2] فإنه لو وقع ولو لبعضهم لتوفرت الدواعي على نقله بل ولاذكروه ولا أمروا به .

٢ـ أن غياب العقل والوصول بصاحبه إلى حال المجانين والسكارى ليس فيه مدح لاعقلا ولاشرعا ولاعادة، بل يذم من يتعمد ذلك شرعا وعقلا وعادة .

٣ـ أن هذا الفناء دليل على ضعف قلب من يحصل له وأنه لم يستطع الجمع بين الإيمان بالله وعبادته فيظن أنه إن عبد الله انشغل عن معبوده[3] .

٤ـ أن هذا الفناء فيه تعطيل للشرائع وفتح لباب التهاون في الأعمال وتضييع الفرائض ومعلوم مافي ذلك من مناقضة صريحة لدين الله .

---

١ ـ هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الهروي الحنبلي توفي سنة ٤٨١ . انظر السير :(١٨/ ٥٠٣) وكتابه (منازل السائرين) شرحه ابن القيم بكتابه (مدارج السالكين) وتعقبه في مواضع وعلق على المدارج الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله .

٢ ـ التحفة المهدية : ص٤٢٥.

٣ ـ تقريب التدمرية : ص١٤٣ .

الثالث : الفناء عن وجود السوى :

بحيث يرى أن وجود الخالق هو عين وجود المخلوق وأنهما واحد بالعين ، وهذا قول أهل وحدة الوجود والاتحاد وقد سبق بيان مذهبهم وكشف ضلالهم وأنهم أضل عباد الله كما هو مذهب ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض وغيرهم كما سبق .

وهؤلاء الملحدون أكفر من النصارى حيث إنهم جعلوا اتحاد الله عاما في جميع المخلوقات بينما خصه النصارى بعبده الذي اصطفاه وهو عيسى عليه السلام[1].

قال العلامة ابن القيم مبينا مذهب هؤلاء الاتحاديين منكرا عليهم [2]:

٣٠٩- فالكل عـين الله عند محقق * والكـل معبـود لـذي عرفـان

٣١٠- هذا هو المعبود عندهم فقل * سـبحانك اللـهم ذا السـبحان

٣١١- يـا أمة معبودهـا موطوؤهـا * أيـن الإلـه وثغـرة الطعـان

٣١٢- يا أمة قد صار مـن كفرانها * جـزء يسـيرا جملـة الكفـران

ثانيا : مخالفتهم للعقل والقياس

قوله ﴿ وأما مخالفتهم لضرورة العقل والقياس : فإن الواحد من هؤلاء لا يمكنه أن يطرد قوله فإنه إذا كان مشاهدا للقدر من غير تمييز بين المأمور والمحظور فعومل بموجب ذلك مثل أن يضرب ويجاع حتى يبتلى بعظيم الأوصاب والأوجاع فإن لام من فعل ذلك به وعابه فقد نقض قوله وخرج عن أصل مذهبه وقيل له : هذا الذي فعله مقضي مقدور فخلق الله وقدره ومشيئته : متناول لك وله وهو يعمكما فإن كان القدر حجة لك فهو حجة لهذا وإلا فليس بحجة لا لك ولا له فقد تبين بضرورة العقل فساد قول من ينظر إلى القدر ويعرض عن الأمر والنهي ﴾

١ ـ المصدر السابق :ص١٤٥.

٢ ـ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية : ص٥١.

التوضيح :

بعد أن بين شيخ الإسلام مخالفة من ينظر إلى القدر ويعرض عن الشرع للحس والذوق يذكر هنا مخالفتهم لضرورة العقل والقياس فيقول :إنه إذا عومل أحدهم بموجب مذهبهم مثل أن يضرب أو يجاع فإن لام من فعل به ذلك فقد نقض قوله وخرج عن أصل مذهبه ، ويقال له : هذا الذي فعل بك مقضي مقدر عليك فخلق الله ومشيئته وقدره متناول لك وله فإن كان القدر حجة فهو حجة لهذا أيضا وإلا فليس بحجة لك ولاله[1] فإذا ضربت هذا الذي يحتج بالقدر على معصيته فأنكر عليك فقل له :(كما أن معصيتك بقدر الله فكذلك ضربي لك بقدر الله) فتقوم الحجة عليه. وبهذا يتبين بضرورة العقل فساد نظرهم إلى القدر دون الشرع ، فإن القياس يقتضي التسوية بين من يحسن إليه ومن يظلمه مع أنه لايسوي بينهما . فإذا هذا المسلك الصوفي ظاهر المناقضة للنقل والحس والعقل. قوله (والأوصاب) جمع وصب وهو المرض[2]

الواجب في الشرع والقدر عملا

قوله ﴿ والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور كما قال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا ﴾ . وقال في قصة يوسف : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ﴾ فأمره مع الاستغفار بالصبر ؛ فإن العباد لا بد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : " يا أيها الناس ! توبوا إلى ربكم فوالذي نفسي بيده إني

---

١ ـ انظر نحو هذا الكلام في اقتضاء الصراط المستقيم : ص٤٩٥.

٢ ـ القاموس المحيط : ص١٨١.

لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة " وقال : " إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة " . وكان يقول " اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني ؛ اللهم اغفر لي خطئي وعمدي وهزلي وجدي وكل ذلك عندي ؛ اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر " وقد ذكر عن آدم أبي البشر أنه استغفر ربه وتاب إليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهداه ؛ وعن إبليس أبي الجن – لعنه الله – أنه أصر متعلقا بالقدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبه أباه ومن أشبه أباه فما ظلم قال الله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ ولهذا قرن الله سبحانه بين التوحيد والاستغفار في غير آية كما قال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾وقال تعالى : ﴿ فاستقيموا إليه واستغفروه﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير * وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى﴾ وفي الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم وغيره : " يقول الشيطان أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ؛ فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا " وقد ذكر سبحانه عن ذي النون أنه نادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين قال تعالى :﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم " دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه "

التوضيح :

قد بين شيخ الإسلام الواجب تجاه الشرع والقدر اعتقادا . وهنا يبين الواجب فيهما عملا فبين أن الواجب تجاه الشرع فعل المأمور وترك المحظور وفي القدر الصبر على المقدور . وأدلة ذلك مايلي :

١ـ قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ ﴿١٢٠﴾ آل عمران :[١٢٠]

٢ـ قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٩٠﴾ يوسف :[٩٠] فالتقوى فعل المأمور وترك المحظور، وهو الشرع ، والصبر يكون على المقدور وهو القدر كما أنه يكون على الطاعة واجتناب المعصية.

٣ـ قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ ﴿٥٥﴾ غافر:[٥٥] والاستغفار للذنب دليل على وجوب الامتثال . ومنه قوله ﷺ : ((ياأيها الناس توبوا إلى ربكم فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة))[١] ، ومنه كذلك قوله ﷺ : ((إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة))[٢]

ومعنى (يغان على قلبي) : الغين هو الغيم وغينت السماء تغان : إذا أطبق عليها الغيم[٣] . واختلف في المقصود به هنا :

ـ فقال القاضي عياض[٤]: هي فترات عن الذكر الذي يداوم عليه فيعده ذنبا فيستغفر منه .

---

١ ـ هذا الحديث مركب من حديثين الأول عند مسلم برقم :[٢٧٠٢]ولفظه : ﴿ ياأيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة ﴾ والثاني في البخاري برقم :[٦٣٠٧] ولفظه : ﴿والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة ﴾

٢ ـ أخرجه مسلم :[٢٧٠٢] عن الأغر المزني ﷺ .

٣ ـ القاموس :ص١٥٧٥.

٤ ـ هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي البستي المالكي صاحب التصانيف توفي سنة ٥٤٤. وفيات الأعيان :(٣/ ١٥٣)

ـ وقال ابن الأثـير في النهايـة : أراد مايغشـاه مـن السـهو الـذي لايخلـو منـه البشر[1].

ـ وقال بعضهم : الغين هنا كمال مثل جفن العين حين يغمض ليدفع القـذى فإنه يمنع عن الرؤية لكنه في الحقيقة كمال لدفع القذى وكذلك الغين[2].وقـد استغفر آدم فاجتباه ربه وهداه ، وأصر إبليس فلعنه الله وأقصاه .

فمن أذنب وتاب شابه أباه ، ومن أشـبه أبـاه في المعـروف فمـا ظلـم ، وهـذا اقتباس من شيخ الإسلام من بيت في مدح عدي بن حاتم الطائي وأصله :[3]

بأبه اقتدى عدي في الكرم * ومن يشابه أبه فماظلم

العلاقة بين الاستغفار وتوحيد العبادة :ـ

والعلاقة بين الاستغفار وماسبق من العبادة أن للعمل أصلين :

أصلا معه وهو الاجتهاد وأصلا بعده وهو الاستغفار ، فهما مقترنان ،

ـ قولـه تعـالى : : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ محمد : [١٩] فقرن بين توحيد الألوهية والاستغفار.

ـ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٦﴾ فصلت :[٦]

ـ وقوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ ﴾ هود :[٢ـ٣] .

ـ وفي الحديث : « يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بلا إله إلا الله وبالاستغفار،فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولايتوبون

---

١ ـ النهاية : (٣/ ٤٠٣)

٢ ـ انظر التحفة المهدية : ص٤٣٠.

٣ ـ نسبه النحاة لرؤبة بن العجاج ، وقال ابن حمدون : الصواب أنه لأبيه . انظر البهجة المرضية للسيوطي :ص٥٠ بتحقيق علي الشينوي.

لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾[1] إلا أنه لا يثبت .

ـ وذكر تعالى عن ذي النون عليه السلام أنه نادى في الظلمات : ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾ الأنبياء :[٨٧] فقال تعالى :﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الأنبياء :[٨٨] وقال النبي ﷺ :﴿ دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه ﴾[2].قوله رحمه الله : (وعن إبليس أبي الجن) معناه أن الشيطان أصل الجن وهو قول لبعض العلماء و قالوا : (وليست الجن من الملائكة) قال الحسن البصري : (ماكان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن كماأن آدم أصل الإنس)[3]، وعليه يكون الاستثناء في الآيات منقطعا أي ليس المستثنى من جنس المستثنى منه كما في قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ الحجر :[٣٠ـ٣١][4] ، واستدل هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ الكهف:[٥٠] وبقوله ﷺ : ﴿ خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من مارج من نار ﴾[5] وفيه قوة ، وقال الجمهور إن إبليس من الملائكة ، فيكون الاستثناء متصلا ودليلهم قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ ﴾

---

١ ـ رواه ابن أبي عاصم في السنة رقم :[٧] وأبويعلى في مسنده:[١٣١] ، وضعفه الهيثمي في الجمع :(١٠/ ٢٠٧) وقال الألباني في تحقيقه للسنة : ص١٠: (إسناده موضوع ؛ آفته عبد الغفور وهو أبو الصباح الأنصاري الواسطي) متهم بالوضع .

٢ ـ أخرجه الترمذي :(٩/ ٤٧٩) وأحمد :(١/ ٧٠) والحاكم :(١/ ٥٠٥) وصححه ووافقه الذهبي وأحمد شاكر ، والألباني في الكلم الطيب ص٧٤.

٣ ـ أخرجه ابن كثير : (١/ ١٤٠) وصححه .

٤ ـ ومثلها : ص:[٧٣ـ٧٤]

٥ ـ أخرجه مسلم : [٢٩٩٦]

الصافات:[١٥٨]والمقصود بالجنة الملائكة كما ذكره أهل التفسير[١] .فإبليس من حي من الملائكة يقال لهم الجن عند الجمهور[٢] كما ثبت عن قتادة ـ رحمه الله [٣].

جماع الكلام في الشرع والقدر

قوله ﴿ وجماع ذلك أنه لا بد له في الأمر من أصلين ولا بد له في القدر من أصلين .

ففي " الأمر " عليه الاجتهاد في الامتثال علما وعملا فلا تزال تجتهد في العلم بما أمر الله به والعمل بذلك . ثم عليه أن يستغفر ويتوب من تفريطه في المأمور وتعديه الحدود ولهذا كان من المشروع أن يختم جميع الأعمال بالاستغفار فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقد قال الله تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ فقاموا بالليل وختموه بالاستغفار ، وآخر سورة نزلت قول الله تعالى﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ وفي الصحيح أنه كان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي " يتأول القرآن .

وأما في " القدر " فعليه أن يستعين بالله في فعل ما أمر به ويتوكل عليه ويدعوه ؛ ويرغب إليه ويستعيذ به ويكون مفتقرا إليه في طلب الخير وترك الشر وعليه أن يصبر على المقدور ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ؛ وإذا آذاه الناس علم أن ذلك مقدر عليه ﴾

---

١ ـ البغوي : (١/ ٨٢) والقرطبي :(١/ ٥٣٣) .
٢ ـ التحفة المهدية ص:٤٣٤.
٣ ـ أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح . انظرالتفسير الصحيح : (٣/ ٣١١) .

التوضيح :

وجماع الكلام في القدر والشرع أنه لابد في الأمر من أصلين: أصل قبله وهو الاجتهاد ، وأصل بعده وهو الاستغفار ، ولابد في القدر من أصلين كذلك :أصل قبله وهو الاستعانة وأصل بعده وهو الصبر.

ـ أما الأمر : فقد شرع أن تختتم جميع العبادات بالاستغفار وأمثلة ذلك مايلي:

ـ أن النبي ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا[1].

ـ وقال تعالى : ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ الذاريات :[١٨] فقاموا الليل ثم اختتموه بالاستغفار سحرا.

ـ وآخرسورة نزلت كاملة قوله تعلى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ ﴿٣﴾[2] فأمر بالاستغفار بعد تمام تعبده.

فدلت السورة على ختم الأعمال بالاستغفار . قال عمر بن الخطاب للصحابة : (ما تقولون فيها ؟ قالوا : أمر نبيه ﷺ إذا فتح عليه أن يستغفر ، فقال لابن عباس :ماتقول ؟ قال : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه . فقال عمر : ما أعلم منها غير ما تعلم)[3] لذلك قال ابن القيم : (فأمر رسول الله ﷺ بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دين الله أفواجا فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها فشرع له الاستغفار عقيبها)[4] قالت

---

١ ـ ورواه مسلم :(١/ ٤١٤) رقم :[٥٩١] وغيره من حديث ثوبان ﷺ .

٢ ـ سورة النصر ، ورواه مسلم عن ابن عباس ﷺ :(٤/ ٢٣١٨) رقم :[٣٠٢٤]

٣ ـ أخرجه البخاري :(٨/ ٧٣٤) مع الفتح برقم :[٤٩٦٩،٤٩٧٠].

٤ ـ إعلام الموقعين :(١/ ٤٣٦)

عائشة رضي الله عنها : ((ماصلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه هذه السورة إلا يقول فيها :(سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي)))[1]

فائدة :

كيف يجمع بين ماثبت عن ابن عباس أن آخر سورة نزلت هي النصر وبين ما ثبت عن البراء بن عازب من أن آخر سورة نزلت هي سورة براءة أي التوبة[2] ؟

الجواب : أن آخر سورة نزلت بكاملها هي النصر وأما التوبة فالمراد معظمها فنزلت النصر كاملة ثم نزلت آيات من التوبة بعدها[3] ، ويفهم ذلك من سؤال ابن عباس ﷺ لعبيد الله حيث قال له : (تعلم آخر سورة نزلت من القرآن نزلت جميعا[4]) فقيد النزول بكونه بجميعها .

قوله : (ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ..) هذا تصديق لقوله ﷺ لابن عباس ﷺ : ((احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا))[5] ، وجاء نحوه من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال : ((لايؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه))[6] ومعنى ذلك أن الإيمان بالقضاء السابق والتقدير الماضي يعين العبد على أن ترضى نفسه بما يصيبه فيصبر على المصائب[7]. ففي المصائب الشرعية يجب الاستغفار وفي المصائب الكونية يجب الصبر.

---

١ ـ أخرجه البخاري :(٨/ ٧٢٣) رقم :[٤٩٦٧]

٢ ـ أخرجه البخاري :[٤٦٥٤]

٣ ـ انظر فتح الباري : (٨/ ٧٣٤،٣١٦)

٤ ـ رواه مسلم وسبق تخريجه.

٥ ـ أخرجه أحمد :(١/ ٣٠٧) من ثلاث طرق ، وذكره النووي في الأربعين بعد الحديث :[١٩] وذكر تخريجه ابن رجب في جامع العلوم والحكم :(١/ ٣٥٩) تحقيق علي محمد ،وعادل أحمد .

٦ ـ أخرجه الترمذي :(٢/ ٢١) وصححه الألباني كما في الصحيحة :[٢٤٣٩]

٧ ـ جامع العلوم والحكم :(١/ ٣٧٧)

محاجة آدم وموسى

قوله ﴿ ومن هذا الباب احتجاج آدم وموسى لما قال : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته ؛ لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه فبكم وجدت مكتوبا علي من قبل أن أخلق : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ قال : بكذا وكذا فحج آدم موسى وذلك أن موسى لم يكن عتبه لآدم لأجل الذنب فإن آدم قد كان تاب منه والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ؛ ولكن لأجل المصيبة التي لحقتهم من ذلك . وهم مأمورون أن ينظروا إلى القدر في المصائب وأن يستغفروا من المعائب كما قال تعالى : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك﴾ ﴾

التوضيح :

بعد أن ذكر أصلي الشرع والقدر وأنه في الذنوب والمعائب الشرعية لايحتج بالقدر بل يجب الاستغفار ، وفي المصائب الكونية ينظر إلى القدر ويحتج به مع الصبر عليها مثل لذلك بما وقع من احتجاج آدم على موسى عليهما السلام بالقدر حيث قال موسى : (يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته ، لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟) فقال له آدم :(أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، فبكم وجدت مكتوبا علي من قبل أن أخلق :﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ ﴿١٢١﴾ طه :[١٢١] ؟) قال : (بكذا وكذا) فقال رسول الله ﷺ : ((فحج آدم موسى))[1] . لأن موسى لم يعاتب آدم لأجل الذنب فإنه قد تاب منه ولكن لأجل المصيبة التي لحقتهم وهي إخراجهم من الجنة[2] .وقد جمع الله بين الاستغفار من الذنوب والصبر على الكروب كما في قوله تعالى :﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ

---

١ ـ أخرجه البخاري :(٦/ ٤٤١) برقم :[٣٤٠٩] ومواضع أخرى ومسلم:(٤/ ٢٠٤٢) رقم :[٢٦٥٢] وغيرهما عن عدد من الصحابة .

٢ ـ اقتضاء الصراط المستقيم :ص٤٩٥ وانظر شفاء العليل لابن القيم :(١/ ٤٥) .

وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ غافر:[٥٥]

مراعاة الشرع والقدر توجب العبادة والاستعانة

قوله ﴿ فمن راعى الأمر والقدر كما ذكر : كان عابدا لله مطيعا له مستعينا به متوكلا عليه من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؛ وحسن أولئك رفيقا وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين في مواضع كقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ وقوله : ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ وقوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ فالعبادة لله والاستعانة به وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند الأضحية : " اللهم منك ولك " فما لم يكن بالله لا يكون ؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله وما لم يكن بالله فلا ينفع ولا يدوم. ﴾

التوضيح :

مراعاة الشرع والقدر توجب العبادة والاستعانة لأن الأصل الأول من الشرع هو العبادة والأصل الأول من القدر هو الاستعانة ، وهذا هو الصراط المستقيم ، وقد جمع الله بين العبادة والاستعانة وهي التوكل في مواضع من كتابه منها :

- قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة:[٥]
- قوله تعالى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ هود :[١٢٣]
- قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ الشورى :[١٠]

ـ وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ ﴾ الطلاق :[٢-٣]

فتدبر هذه الآيات العظيمة كيف جمع الله فيها بين العبادة وهي التقوى والإنابة ، وبين الاستعانة وهي التوكل عليه .

وفي السنة كذلك فمنها :

ما كان يقوله النبي ﷺ في الأضحية : « اللهم منك وإليك »[1] أي منك إعانة وتوفيقا وزرقا ، وإليك عبادة وطاعة وتقربا .

فما لم يكن بالله ومشيئته وتوفيقه لايكون ، ومالم يكن لله تعالى قربة وطاعة لايدوم، وهذا غاية التوحيد والتحقيق .

(فالعبادة تحقيق لتوحيد الألوهية والاستعانة تحقيق لتوحيد الربوبية)[2]

شرطا قبول العبادة :

قولـه ﴿ ولا بد في عبادته من أصلين . (أحدهما) إخلاص الدين له (والثـاني) موافقة أمره الذي بعث به رسله ؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا ؛ وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ قال : أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي : ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إذا كان العمل خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ؛ والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة

---

١ ـ أخرجه أبو داود : [٢٧٩٥] وابن ماجه:(٢/ ١٠٤٣) وأحمد :(٣/ ٣٧٥) وضعفه الألبـاني في ضعيـف أبـي داود :[٥٩٧] وضعيف ابن ماجه :[٦٦٩] ومداره فيها على أبي عياش المعافري وهـو مقبـول عنـد المتابعـة ، وقـد توبـع بطريقين أحدهما الحجاج بن أرطاة وهو ثقة لكنه مدلس ، والطريق الأخرى فيها عبد الله بن خراش وهو ضعيـف ، وقد قوى صاحب الأجوبة هذا الحديث بمجموع هذه الطرق :ص٣٩٨.

٢ ـ بدائع التفسير لابن القيم :(١/ ٦٦) ليسري السيد.

ولهذا ذم الله المشركين في القرآن على اتباع ما شرع لهم شركاؤهم من الدين ما لم يأذن به الله من عبادة غيره وفعل ما لم يشرعه من الدين كما قال تعالى : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ كما ذمهم على أنهم حرموا ما لم يحرمه الله . والدين الحق أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا دين إلا ما شرعه .

التوضيح :

بعد أن ذكر العبادة أراد أن يبين شروط قبولها : وهما شرطان :

الأول : إخلاصها لله تعالى . الثانية : موافقتها لهدي الرسول ﷺ .

وهما معنى الوحدانية والرسالة .

وأدلة الشرطين كثيرة من الكتاب والسنة .

أولا : أدلة الإخلاص :

أ ـ من القرآن :ـ

١ـ قوله تعالى : ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ الزمر:[٢ـ٣]

٢ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ البينة :[٥]

ب ـ من السنة :

ـ قوله ﷺ : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه »[1]

ثانيا :أدلة موافقة الرسول ﷺ :

أ ـ من القرآن :

١ ـ قوله تعالى :﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ... وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ الأعراف :[١٥٧]

---

١ ـ أخرجه مسلم :(٤/ ٢٢٨٩) رقم :[٢٩٨٥] عن أبي هريرة ﷺ .

٢ـ وقوله : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ الأنعام:[١٥٣]

ب ـ ومن السنة :

قوله ﷺ : ((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد))[١]

وقد يجمع بين الشرطين في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴾ الملك :[٢] قال الفضيل بن عياض : (أخلصه وأصوبه) قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال الفضيل : (إذا كان العمل خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة)[٢]

ولهذا ذم الله المشركين لاتباعهم ما شرع لهم شركاؤهم من عبادة غير الله ، وفعل مالم يأمر وتحريم مالم يحرم كما قال تعالى : أَمْ ﴿ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ ﴾ الشورى:[٢١] وقال تعالى :﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ ﴿١٣٨﴾ الأنعام :[١٣٨] .

□ والخلاصة :

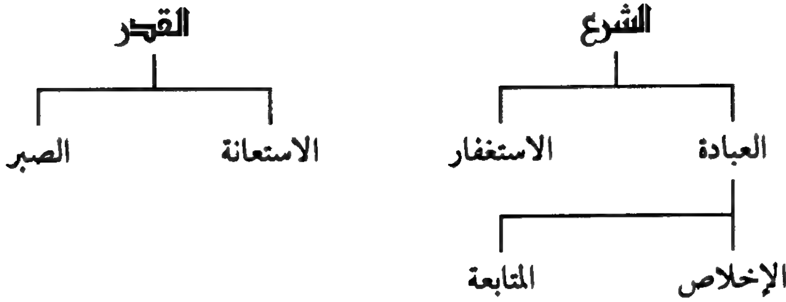
أن أصلي الشرع : العبادة والاستغفار ، وأصلي القدر : الاستعانة والصبر ، وشرطي العبادة : الإخلاص والمتابعة .

---

١ ـ متفق عليه واللفظ لمسلم :[١٧١٨] من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

٢ ـ أخرجه أبو نعيم في الحلية :(٨/ ٩٥) وذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم :(١/ ٣٢) وبعض المفسرين كالبغوي : (٨/ ١٧٦) .

□ ويوضحه الشكل الآتي:



أقسام الناس في عبادة الله واستعانته

قوله ﴿ ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ فِي عِبَادَتِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ :

ـ فَالْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ هُمْ لَهُ وَبِهِ يَعْبُدُونَهُ وَيَسْتَعِينُونَهُ .

ـ وَطَائِفَةٌ تَعْبُدُهُ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ وَلَا صَبْرٍ فَتَجِدُ عِنْدَ أَحَدِهِمْ تَحَرِّيًا لِلطَّاعَةِ وَالْوَرَعِ وَلُزُومِ السُّنَّةِ ؛ لَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ تَوَكُّلٌ وَاسْتِعَانَةٌ وَصَبْرٌ ؛ بَلْ فِيهِمْ عَجْزٌ وَجَزَعٌ .

ـ وَطَائِفَةٌ فِيهِمْ اسْتِعَانَةٌ وَتَوَكُّلٌ وَصَبْرٌ مِنْ غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ عَلَى الْأَمْرِ وَلَا مُتَابَعَةٍ لِلسُّنَّةِ فَقَدْ يُمَكَّنُ أَحَدُهُمْ وَيَكُونُ لَهُ نَوْعٌ مِنْ الْحَالِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا وَيُعْطَى مِنْ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرَاتِ مَا لَمْ يُعْطَهُ الصِّنْفُ الْأَوَّلُ وَلَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْمُتَّقِينَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ؛ فَالْأَوَّلُونَ لَهُمْ دِينٌ ضَعِيفٌ وَلَكِنَّهُ مُسْتَمِرٌّ بَاقٍ ؛ إنْ لَمْ يُفْسِدْهُ صَاحِبُهُ بِالْجَزَعِ وَالْعَجْزِ ؛ وَهَؤُلَاءِ لِأَحَدِهِمْ حَالٌ وَقُوَّةٌ وَلَكِنْ لَا يَبْقَى لَهُ إلَّا مَا وَافَقَ فِيهِ الْأَمْرَ وَاتَّبَعَ فِيهِ السُّنَّةَ

ـ وَشَرُّ الْأَقْسَامِ مَنْ لَا يَعْبُدُهُ وَلَا يَسْتَعِينُهُ ؛ فَهُوَ لَا يَشْهَدُ أَنَّ عِلْمَهُ لِلَّهِ وَلَا أَنَّهُ بِاللَّهِ ﴾

التوضيح :

بعد أن قرر شيخ الإسلام أصلي العبادة والاستعانة يبين هنا أن أحوال الناس تجاه هذين الأصلين لاتخلو من أربعة أقسام : فإما أن يأتوا بهما أو بالعبادة فقط أو بالاستعانة فقط أويتركوهما جميعا ، وتفصيله كمايلي :

القسم الأول : من حققوا هذين الاصلين وهم أهل الإيمان والتقوى وأتباع الرسل .

القسم الثاني : من يغلب عليهم التأله والتعبد من غير استعانة فيكثر فيهم الجزع مما يصيبهم والحزن مما يفوتهم كما قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ ﴾ المعارج:[١٩ـ٢٠] أي كثير الأسى وقليل الصبر فهذا القسم متحرٍ للورع والسنة لكنه لم يعرف سبيل الحق في الصبر والقدر.

القسم الثالث :من يغلب عليهم الاستعانة والتوكل وتعظيم القدر ، ولكنهم على غير استقامة في الشرع وهذا حال كثير من المتصوفة ممن يشهدون الحقيقة الكونية مع انحلالهم في الحقيقة الشرعية ،وقد يحصل لهم بعض المكاشفات والتأثيرات مالم يحصل للقسم الثاني ولكن لاعاقبة لهم فإن العاقبة للمتقين ، والقسم السابق لهم دين لكنه ضعيف لعدم استعانتهم لكنه مستمر وهؤلاء لهم مكاشفات وأحوال ولكن لايبقى لهم إلا ما وافقوا فيه السنة كما قال ﷺ : ((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد))[١].

والكشف والتأثير : هي الخوارق ومنها ماهو محمود وفتكون كرامة ومنها ماهو مذموم فتكون استدراجا.

القسم الرابع : وهم شر هذه الأقسام وهم من لايعبد الله ولايستعينه فلايشهد أن عمله تعبدا لله ولا أنها بإعانة الله .[٢]

---

١ ـ متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها واللفظ لمسلم :[١٧١٨]

٢ ـ انظر رسالة قاعدة جامعة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة لشيخ الإسلام :ص٦٢، تحقيق :د.عبدالله البصير .

مقارنة بين من يضل في القدر ومن يضل في الشرع

قوله ﴿ فالمعتزلة ونحوهم – من القدرية الذين أنكروا القدر – هم في تعظيم الأمر والنهي والوعد والوعيد خير .من هؤلاء الجبرية القدرية الذين يعرضون عن الشرع والأمر والنهي والصوفية هم في القدر ومشاهدة توحيد الربوبية : خير من المعتزلة ولكن فيهم من فيه نوع بدع مع إعراض عن بعض الأمر والنهي . والوعد والوعيد حتى يجعلوا الغاية هي مشاهدة توحيد الربوبية والفناء في ذلك ويصيرون أيضا معتزلين لجماعة المسلمين وسنتهم فهم معتزلة من هذا الوجه وقد يكون ما وقعوا فيه من البدعة شرا من بدعة أولئك المعتزلة وكلتا الطائفتين نشأت من البصرة ﴾

التوضيح :

بعد أن بين شيخ الإسلام أصول الشرع وأصول القدر ومن ضل في هذين البابين أخذ يقارن هنا بين المعتزلة وهم القدرية النفاة والصوفية وهم الجبرية المعرضين عن الشرع فقال : إن المعتزلة ونحوهم من نفاة القدر خير من الصوفية الجبرية من جهة تعظيمهم للأمر والنهي والوعد والوعيد ،و الصوفية الجبرية خير من المعتزلة القدرية من جهة تعظيمهم للقدر وتحقيقهم للربوبية ولكن فيهم أنواعا من البدع وإعراضا عن الشرع لأنهم يجعلون الغاية هي مشاهدة الربوبية والفناء فيها كما سبق فيعتزلون جماعة المسلمين فهم معتزلة من هذا الوجه ، فبمجموع هذه البدع يكون هؤلاء الصوفية الجبرية شرا من المعتزلة القدرية لأنهم ضلوا في بابين بأعظم من ضلال المعتزلة :

١ـ ضلوا في باب القدر فغلوا فيه حتى وقعوا في الجبر.

٢ـ ضلوا في باب الشرع فجفوا فيه حتى عطلوا العمل .

وكلتا الطائفتين نشأت من البصرة فبدعة التصوف نشأت على يد بعض البصريين[1] وبدعة الاعتزال نشأت على يد واصل بن عطاء في البصرة.

الخاتمة : الدين ماجاء به الرسول وكان عليه أصحابه

قوله ﴿وإنما دين الله ما بعث به رسله وأنزل به كتبه وهو الصراط المستقيم وهو طريقة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خير القرون وأفضل الأمة وأكرم الخلق على الله تعالى بعد النبيين ، قال تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ فرضي عن السابقين الأولين رضا مطلقا ورضي عن التابعين لهم بإحسان وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة : " خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : (من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ؛ أولئك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا ؛ قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم) وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما : (يا معشر القراء ! استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقا بعيدا ولئن أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا) وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : " خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا وخط حوله خطوطا عن يمينه وشماله ثم قال : هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ "﴾

---

١ ـ ذكره شيخ الإسلام في الفتاوى : (١١/ ٦ـ٨) وقال : (لذلك يقال فقه كوفي وعبادة بصرية)

التوضيح :

بعد أن بين شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أصول هـذا الديـن وأهـم مـا ينبغـي تجاه رب العالمين ، وقد قاربت الرسالة على الختام، ذكر هنا أن الديـن الحق هـو مـا بعث الله به رسله وأنزل به كتبـه وهـو طريـق قـادة الإسـلام مـن الصحابـة الكـرام رضوان الله عليهم . فالله سبحانه وتعالى أخـبر أنـه رضـي الله عنـهم رضـاء مطلقـا وشرط فيمن جاء بعدهم أن يتبعهم بإحسان حتى ينالوا رضى الرحمن كما قال تعـالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ التوبـة :[١٠٠] وأن هدايـة اللاحقـين منوطة بالسير على خطى السابقين كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ ﴾ البقـرة :[١٣٧] أي فرقـة وعداوة بل توعد من خالف نهجهم بالانحراف في الدنيـا والعـذاب في الآخـرة كمـا قـال تعـالى :﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء :[١١٥] .

وما كل ذلك إلا لصحة ديانتهم وتحقيقهم لتوحيد ربـهم وقـد بـين الله ذلـك بقولـه : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ ﴾ الفتـح:[٢٦] فإن الله تعالى اختارهم حملة لدينه وصحابة لخير رسـله وخـاتم أنبيائـه فلذلـك كـانوا أحق من غيرهم في التزام كلمة التقوى وهي (لا إله إلا الله) على قول الأكـثرين في الآية [١].

والآيات في فضل الصحابة والثناء عليهم كثيرة مشهورة وقد قال ﷺ : ((خير الناس قرني ثم الذي يلونهم ثم الذين يلونهم))[٢] ، والقـرن : مـن الاقـتران والمـراد

---

١ ـ انظرتفسير ابن جرير :(٢٦/ ١٠٤) والقرطبي :(١٦/ ٢٤٦) والبغوي :(٧/ ٣٢١) والسعدي :ص٧٣٩.

٢ ـ حديث متواتر أخرجه الشيخان وغيرهما وقد سبق تخريجه .

هنا الطائفة المقترنة بمقدار معين كالدين أو السن أو نحوهما[1] . ومنه الأقران وهم الطلاب المقترنون بشيخ أو مشايخ . واختلف في تحديد القرن على أقوال كثيرة أرجحها أن القرن معتبر بمعظم الناس فإذا كان معظم الناس هم الصحابة فهذا القرن الأول وإذا كان معظمهم هم التابعين فهذا القرن الثاني وإذا كان معظمهم من أتباع التابعين فهذا القرن الثالث . وقد وردت الأحاديث وفي بعضها الشك في زيادة قرن رابع [2]. ولذلك اختلف في قرون السلف هل هي ثلاثة أم أربعة مع اتفاقهم أن القرن الخامس ليس منها ونظم بعضهم هذا الخلاف بقوله[3]:

ثلاثة من القرون سلف * وخامس بلاخلاف خلف

ورابع القرون فيه اختلفا * هل سلف أم خلف من خلفا

ولكن المشهور أنها ثلاثة [4].

ثم ذكر شيخ الإسلام أقوال الصحابة في ذلك . ومنها أثر حذيفة ﷺ الثابت في البخاري وفيه : (يامعشر القراء استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم ..)[5] والمقصود بالقراء العلماء لأن الصحابة وأتباعهم كانوا يأخذون القرآن مع معانيه والعمل بمافيه . وذكر أثر ابن مسعود ﷺوهو ثابت عن غيره[6]، وفيه : (من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات فإن الحي لاتؤمن عليه الفتنة) وفيه ثناء جميل على أصحاب رسول الله ﷺ .

---

١ ـ انظر نيل الأوطار : (٨/ ٣٤١)

٢ ـ منها روايات البخاري.

٣ ـ سمعته من الشيخ أحمد بن مود الجكني وفقه الله .

٤ ـ انظر القول المفيد للعثيمين : (٣/ ٢٨٥) وفتح الباري : (٧/ ٧)

٥ ـ أخرجه البخاري :[٧٢٨٢] وغيره .

٦ ـ أثر ابن مسعود رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله برقم :[١٨١٠] إلا أنه منقطع ، ورواه أبو نعيم في الحلية :(١/ ٣٠٥) عن ابن عمر من طريق الحسن ولم يصرح بالسماع ولكنه صح عن الحسن موقوفا عليه كما في جامع بيان العلم وفضله : [١٨٠٨].

وبجميع ما سبق وغيره يعلم ضلال الرافضة الذين طعنوا في أصحاب رسول الله ﷺ منابذين للقرآن والسنة وما أحسن ما قال فيهم الإمام القحطاني في نونيته الشهيرة :

مدحوا النبي وخونوا أصحابه * ورموهم بالظلم والعدوان

حبوا قرابته وسبوا صحبه * جدلان عند الله منتقضان

فكأنما آل النبي وصحبه * روح يضم جميعها جسدان

فئتان عقدهما شريعة أحمد * بأبي وأمي ذانك الفئتان

فئتان سالكتان في سبل الهدى * وهما بدين الله قائمتان[1]

وأخيرا ذكر حديث ابن مسعود ﷺ في وصية رسول الله ﷺ[2] في قوله تعالى :﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿١٥٣﴾ الأنعام:[١٥٣] ومثل هذه الوصية في مسند أحمد من حديث ثوبان[3] أن رسول الله ﷺ قال : ((ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى الصراط داع يقول : ياأيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تتعوجوا ، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال :ويحك لاتفتحه فإنك إن فتحته تلجه ، فالصراط الإسلام والسوران حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى ، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق واعظ الله في قلب كل مسلم))[4]

---

١ ـ الأبيات من نونية الإمام أبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني :ص٢٠ـ٢١.

٢ ـ الحديث أخرجه النسائي في الكبرى : [١١١٧٤] والإمام أحمد في المسند :(٦/ ٨٩) والحاكم:(٢/ ٣١٨) وصححه وكذلك صححه أحمد شاكر في تفسير ابن جرير :(٨/ ٦٥) وحسنه الألباني في ظلال الجنة تحقيق السنة لابن أبي عاصم برقم :[١٧].

٣ ـ انظر صحيح الجامع :[٣٨٨٧]

٤ ـ ورواه أحمد :(٤/ ١٨٣) والحاكم :(١/ ١٤٤) وابن أبي عاصم في السنة :[١٩]والمروزي في السنة :[١٦]

وفي ذكر هذا الفصل في هذه الرسالة فائدة عظيمة فإن شيخ الإسلام بعد أن بين أحوال أهل الملة وما أصابهم من فرقة وضلال بين هنا أن الصراط المستقيم هو السنة وهو ماعليه أصحاب رسول الله ﷺ وفي ذلك اقتداء برسول الله ﷺ الذي وعظ أصحابه موعظة مودع بعد أن أدى الأمانة وبلغ الرسالة فقال ﷺ : ((فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة))[1] وهذه الوصية هي ما أراد الشيخ بيانه هنا فذكر سبل المخالفين ثم صراط المؤمنين وختم به هذه الرسالة القيمة ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

سؤال الهداية

قوله ﴿وقد أمرنا سبحانه أن نقول في صلاتنا﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون " ؛ وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه والنصارى عبدوا الله بغير علم . ولهذا كان يقال : تعوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ؛ وقال تعالى :﴿ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : (تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة)وقرأ هذه الآية وكذلك قوله تعالى : ﴿ الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ فأخبر أن هؤلاء مهتدون مفلحون وذلك خلاف المغضوب عليهم والضالين﴾

---

١ ـ رواه أبوداود : [٤٦٠٧] وابن ماجه :(١/ ١٧) وأحمد :(٤/ ١٢٦) والحاكم:(١/ ٩٥) وهو حديث صحيح . انظرصحيح الجامع :[٢٥٤٩].

التوضيح :

وقد أمر الله تبارك وتعالى أن نسأله الهداية على الدوام في جميع الصلوات فنقرأ قوله﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ الفاتحة :[٦-٧] ولايستغني أحد عن طلب هذه الهداية بل ضرورته إليها فوق كل ضرورة .

وقول بعضهم :إذا كنا مهتدين فلماذا نسأل الله الهداية ؟ سؤال غير وارد ، لأن المجهول لنا من الحق أضعاف مانعلم ، ومالانريد فعله كسلاوتهاونا في فضله كثير أيضا ، ومالانستطيع فعله مع إرادتنا له كذلك ، وما نعرفه إجمالا ولانهتدي لتفاصيله ممايفوت الحصر ، وكذلك مانستقبله غدا وما سنموت عليه من حال لانعلمها فلذلك كله نحن محتاجون إلى الهداية التامة الكاملة فمن كملت عنده كان سؤاله للهداية سؤال تثبيت واستقامة واستمرار ومداومة[1] بل إن سؤال التثبيت غير مختص بمن كملت هدايته فيحتاجها من حقق أدنى قدر من الهداية إذ لايأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون كما قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ إبراهيم :[٢٧] وكما قال ﷺ : « إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم »[2] فالعبد مضطر إلى الهداية من الله على الدوام .

والهداية على أربع مراتب كمايلي:

الأولى : الهداية العامة لجميع المخلوقات منذ خلقها فيولد الصغير ويهتدي إلى أمه وإلى الرضاع وغير ذلك فهذه هداية فطرية ويدل عليها قوله تعالى : ﴿ قَالَ

---

١ ـ مدارج السالكين :(١/ ٥١)

٢ ـ رواه الحاكم :(١/ ٤) وحسنه الهيثمي في الجمع :(١/ ٥٢) والألباني في الصحيحة :(٤/ ١١٣) برقم :[١٥٨٥] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ طه:[٥٠] وقوله : ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ الأعلى : [٢-٣].

الثانية : هداية البيان والدلالة ـ وقد سبقت هي والتي تليها في المقدمة ـ وهي الهداية التي جاءت بها الرسل عليهم السلام . وهي هداية القرآن والدعاة على منهاج النبوة.

الثالثة :هداية التوفيق والإلهام وهي بعد البيان ومترتبة عليها .

الرابعة : الهداية على الصراط يوم القيامة وهي مترتبة على هداية التوفيق فمن وفق وهدي في هذه الدنيا هدي على الصراط إلى الجنة ، ويدل عليها قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴾محمد:[٤-٦] فأخبر أنهم قتلوا ثم وعدهم بالهداية بعد ذلك[1] ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ يونس :[٩] .

وقد يقال الهداية: دينية ودنيوية ، والدينية بيانية وتوفيقية ، ومثله كذلك : الهداية : قدرية وشرعية ، والشرعية بيانية وتوفيقية ، والله أعلم .

ثم قسم الله ﷻ عباده بحسب الهداية وعدمها إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أهل الهداية ـ اللهم اجعلنا منهم .

الثاني : المغضوب عليهم .

الثالث: الضالون .

ولارابع لهم ، ووجه هذه القسمة : أن العبد لايخلو من أحد أمرين : إما أن يكون جاهلا بالحق وإما أن يكون عالما به ، والعالم : إما أن يكون عاملا بالحق

١ ـ انظر تفسير ابن كثير : (٤/ ١٨٧) وفتح القدير :(٥/ ٤٦)

موافقا له ، وإما أن يكون جاحدا للحق مخالفا لـه ، فالجـاهل بـالحق ضـال ، والعـالم العامل مهتد ، العالم الجاحد مغضوب عليه [1].

بيان القسمين الأخيرين (المغضوب عليهم والضالون):ـ

وقد أشار الله تعالى في كتابه إلى أن الضالين هم النصارى كما في قوله تعـالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ المـائدة :[٧٧] وسياق الآيات في النصارى . كما أشارإلى أن المغضـوب عليهم هـم اليـهود كما في قولـه تعـالى :﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ﴿٦٠﴾ المائدة :[٦٠] والسياق في اليـهود .وهـذا من تفسير القرآن بالقرآن .

أما السنة فقد صـرح رسـول الله ﷺ بذلـك في قولـه : ((اليـهود مغضـوب عليهم والنصارى ضالون)) [2] . وذلك أن اليهود عرفوا الحـق ولم يتبعـوه والنصـارى عبدوا الله بغير علم ولهذا قال طائفة من السلف : (من انحرف من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن انحرف من عبادنا ففيه شبه بالنصارى) [3].

---

١ ـ مدراج السالكين : (١/ ١٧)

٢ ـ رواه أحمد :(٤/ ٣٧٨) والترمذي :(٨/ ٢٨٦) وابن جرير : (١/ ١٨٥) عن عدي بن حاتم وصححه الألباني كما في صحيح الجامع برقم :[٨٢٠٢] وشرح الطحاوية :[٨١١] وصححه ابن حبان :[١٧١٥،٢٢٧٩] ورواه الطيالسي :ص١٤٠ والطبراني في الكبير : (١٧/ ٩٨) .

قال المباركفوري في التحفة : (٨/ ٢٣١) :

قال الحافظ في الفتح : روى أحمد وابن حبان من حديث عدي بن حاتم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال المغضـوب عليهم اليهود ولا الضالين النصارى هكذا أورده مختصرا وهو عند الترمذي في حديث طويل وأخرجـه ابـن مردويـه بإسناد حسن عن أبي ذر وأخرجه أحمد من طريق عبد الله بن شقيق أنه أخبره من سمع النبي صلى الله عليـه وسـلم نحوه .وقال ابن أبي حاتم لا أعلم بين المفسرين في ذلك اختلافا . قال السهيلي وشاهد ذلك قوله تعالى في اليـهود :(فباءوا بغضب على غضب)وفي النصارى : (قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا) فإني حنيف مسلم .

٣ ـ انظر شرح الطحاوية :ص٥٢٦ بتحقيق الألباني .

وقال ابن المبارك :(تعوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون)[1] .

قال الإمام ابن القيم : (﴿ المغضوب عليهم ﴾ هم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه ، و﴿ الضالون ﴾ هم أهل فساد العلم الذي جهلوا الحق ولم يعرفوه)[2] .

وقد قابل الله تعالى بين الهداية والضلال في مواضع من كتابه وذكر لازم الهداية وهو النعيم ولازم الضلال وهو الشقاء والجحيم . فهذه أربعة أمور جمعها الله في قوله تعالى :﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ ﴿١٢٣﴾ طه:[١٢٣] فالمتبع لايضل في الدنيا لأنه مهتد باتباعه ولايشقى في الآخرة لأن مصيره النعيم ، وضده المعرض ضال في الدنيا شقي في الآخرة لذلك قال ابن عباس ﷺ : (تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن لايضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة وقرأ هذه الآية)[3] ومثله قوله تعالى في أوائل البقرة بعد ذكره لخصال المؤمنين :﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة :[٥] أي على هدى من ربهم في الدنيا ومفلحون في الآخرة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الأنعام :[٨٢] فهم مهتدون في الدنيا ولهم الأمن في الآخرة يوم الفزع الأكبر .

---

١ ـ رواه ابن عبد البر بإسناد صحيح في جامع بيان العلم وفضله : (١/ ٦٦٦) برقم :[١١٦١] بتحقيق أبي الاشبال الزهيري وعزاه صاحب الأجوبة إلى سفيان الثورة في حلية الأولياء :[٧/ ٣٦]

٢ ـ مدراج السالكين : (١/ ٦٦)

٣ ـ رواه ابن جرير : (١٦/ ٢٧٩) والحاكم بلفظ قريب :(٢/ ٣٨١) وصححه ووافقه عليه الذهبي وأروده السيوطي في الدر المنثور :(٤/ ٣١١).

خلاصة ما في الأصل الثاني

١. يجب الإيمان بمراتب القدر الأربعة وهي : العلم والكتابة والمشيئة والخلق.

٢. يجب الإيمان بشرع الله ، وذلك بأمرين هما العبودية لله وحده على وفق ما جاء به الرسول ﷺ وهذان هما التوحيد والرسالة .

٣. دين الأنبياء واحد وهو الإسلام وشرائعهم شتى .

٤. (الإسلام) له استعمالان في النصوص عام وخاص ، فالعام الاستسلام لله وحده وبه يسمى أتباع كل رسول (مسلمون) ، وخاص وهو شريعة القرآن فلايسمى مسلما إلا أمة محمد ﷺ أمة الإجابة .

٥. دعوة الرسل كافة كانت إلى توحيد الألوهية ، وكان المشركون يقرون بالربوبية في الجملة .

٦. التوحيد عند أهل السنة أقسام ثلاثة : الألوهية والربوبية والأسماء والصفات * وعند المتكلمين توحيد الذات ، والصفات ، والأفعال .* وعند الصوفية : توحيد العامة ، والخاصة ، وخاصة الخاصة . فضيع الفريقان أعظم توحيد وهو الألوهية.

٧. من أثبت الشرع ونفى القدر خير ممن نفى الشرع وأثبت القدر وكلاهما منحرف عن الحق .

٨. الفرق المنحرفة في القدر ثلاثة : فرقة أثبتت الشرع ونفت القدر، وهم المجوسية، وفرقة أثبتت القدر ونفت الشرع وهم المشركية، وفرقة أثبتتهما ولكن نفت حكمة الشرع بحكمة القدر وهم الإبليسية .

٩. الناس تجاه الأسباب ثلاثة أقسام : طرفان ووسط ، فمنهم من أنكرها ومنهم من غلا فيها ، وتوسط أهل السنة فأثبتوا تأثيرها بإذن الله .

١٠. تبين فساد مقولة الفلاسفة وأتباعهم :(إن الواحد لايصدر عنه إلا واحد)

١١. الناس في مسألة التحسين والتقبيح على ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول : للأشاعرة وهو أن التحسين والتقبيح شرعي فقط لامدخل للعقل فيه .

المذهب الثاني : للمعتزلة ، وهو أن التحسين والتقبيح عقلي ويترتب الثواب والعقاب على حكم العقل .

المذهب الثالث : لأهل السنة ، وهو أن التحسين والتقبيح قد يدرك بالعقل ولكن لايترتب عليه الثواب والعقاب فهما شرعيان.

١٢. يحتج بالقدر في المصائب دون المعائب ، ومن يحتج بالقدر ولايلتفت لغيره مخالف للحس والعقل .

١٣. الفناء ثلاثة أقسام : عن إرادة السوى ، وعن شهوده ، وعن وجوده.

١٤. للشرع أصلان العبادة والاستغفار وللقدر أصلان الاستعانة والصبر .

١٥. الناس في عبادة الله واستعانته أربعة أقسام :

أرفعها من جمع بينهما وهم المؤمنون ، وأضلها من تركهما ، وبينهما من أخذ بأحدهما وترك الأخرى.

١٦. الدين مابعث الله به رسوله ﷺ وسار عليه الصحابة .

١٧. حاجة الإنسان إلى الهداية دائمة إلى دخول الجنة .

١٨. الهداية أربع مراتب : الهداية العامة وهداية الدلالة وهداية التوفيق وهداية دخول الجنة .

المناقشة ؟

١. اذكر مراتب القدر مع الأدلة .

٢. ماالذي يتضمنه الإيمان بالشرع؟

٣. مادين الأنبياء جميعا ؟

٤. عرف الإسلام وبين نوعيه ؟

٥. الأدلة على أن أول الأنبياء بشر بآخرهم وآخرهم يصدق بأولهم ؟

٦. هل من سبق من الأمم المتبعة لرسلهم مسلمون أم لا ؟ وماثمرة الخلاف؟

٧. هل زعم أحد أن للعالم صانعين متكافئين ؟ وهل وقع الشرك في الربوبية أم لا؟ فصل القول في ذلك .

٨. اذكر أنواع التوحيد عند كل ممن يلي مع التوضيح :

١ـ أهل السنة . ٢ـ الصوفية . ٣ـ المتكلمين .

٩. وازن بين الفرق التي ضلت في الشرع والقدر.

١٠. اذكر الفرق الثلاث التي انحرفت في الجمع بين الشرع والقدر مع بيان سبب التسمية .

١١. بين مواقف الناس من الأسباب مع التوضيح والمناقشة .

١٢. ناقش قول من قال : إن الواحد لايصدر عنه إلا واحد مع بيان القائلين بهذه القاعدة والمقصود من قولهم .

١٣. ماوجه ضرورة الإنسان إلى الشرع ؟

١٤. تكلم عن مسألة التقبيح والتحسين من خلال مايلي :

١ـ المراد بالمسألة ٢ـ محل النزاع . ٣ـ الأقوال فيها .

٤ـ مناقشة الأقوال . ٥ ـ مايبنى عليها .

١٥. اذكر بعض الألفاظ المجملة للصوفية وبين وجوه حملها .

١٦. عرف مايلي :

الفناء ـ الاصطلام ـ السكر ـ الأحوال عند الصوفية ـ الحقيقة الكونية

١٧. اذكر أقسام الفناء مع التوضيح .

١٨. بين أصلي الشرع وأصلي القدر مع الأدلة .

١٩. ما حكم الاحتجاج بالقدر في المعاصي وعلى ماذا يحمل احتجاج آدم به مع موسى؟

٢٠. اذكر مواقف الناس من العبادة والاستعانة .

٢١. بين فضائل الصحابة رضوان الله عليهم .

٢٢. ماوجه حاجة الناس إلى الهداية ، وطلبها على الدوام ؟

٢٣. مامراتب الهداية الأربعة ؟

ثم ختم شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بقوله :

قوله ﴿فنسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر إخواننا صراطه المستقيم ؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا﴾ والله الموفق إلى الحق والسداد والهادي إلى سبيل الرشاد .

جمعه ورتبه

فخر الدين بن الزبير بن علي المحسي

وقد تم جمع الأصل بحمد الله وتوفيقه

ليلة الخميس ١٩ /١٤١٨/١٢ ثم أضيف

إليه وأعد للطبع خلال شهر رمضان عام ١٤١٩

والحمد لله على الدوام * على الهدى والرشد والتمام**[1]

---

١ ـ خاتمة منظومتي الدرة الستينية في تلخيص العقيدة السنية البيت :[٦٠]

توضيح وبيان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين ﷺ وبعد

فهذا جواب عما أثاره بعض الناس حول كتاب التوضيحات الأثرية من أن فيه نقولا عن مذكرة للشيخ البراك ـ حفظه الله تعالى ـ دون عزو إليها.

فأقول ـ والله المسئول صدق القصد والقول ـ :

إن هذا الكتاب (التوضيحات الأثرية) كان عبارة عن مذكرة مختصرة أعددتها في المستوى الثامن بناء على طلب الدكتور الخميّس ، وذلك عند وصولنا إلى ثلث المقرر تقريبا فكتبت توضيحا للكتاب كله ووزعته على الطلبة واستفدت من بعض ما ألقاه الدكتور الخميّس في الثلث الأول ولم أكن أتوقع طباعة الكتاب ونشره حتى حثني عليه الدكتور الخميّس وطلب مني ذلك وكان يتصل بي من الرياض لمتابعة العمل وتشجيعه وتعجيل إخراجه .

وقد دفع إليّ الدكتور الخميّس مجموعة من الكتب وثلاث مذكرات حتى أستفيد منها أثناء الكتابة فغزوت إلى الكتب والمصادر التي استفدت منها في مواضعها ، وأما المذكرات فقد ذكرت في مقدمة الكتاب أني استفدت منها بناء على أن جميعها للدكتور الخميس فلم يكتب عليها اسم أحد ، ثم سمعت بعد ذلك أن مذكرة منها للشيخ البراك وهي التي كان يدرّس منها الدكتور الخميّس فسألته عن ذلك فأخبرني أن الشيخ البراك شيخه وأنه أخذ العلم منه وأنه لامانع من تشابه المعلومات بينهم

وأن الشيخ البراك لم يكتب مذكرة وإنما كتبها بعض طلابه ومنها مايوافق عليه ومنـها مالايوافق عليه .

وقال لي بأنه عرض الكتاب على الشيخ البراك وأثنى عليه وكتب لي رسـالة في ذلـك وهي المصورة قريبا .

ومما يذكر هنا أن هذه المذكرات تنتهي بالقاعدة السادسة وأما بقية القـاعدة السادسـة والسابعة والأصل الثاني كاملا فـلا تعـرض لـه أبـدا بـل إن القـاعدة السـابعة غـير مشروحة إلى الآن بتفصيل إلا في هذا الكتاب (التوضيحات الأثرية) .

هذا وقد عزوت إلى المواضع التي استفدتها من تلك المذكرات في هـذه الطبعـة ـ وإن كنت قد ذكرت ذلك إجمالا في مقدمة الطبعة السابقة كما هو معلـوم ـ و مـا ذاك إلا دفعا للشبهة وبيانا للحجة ، والله أعلم ،و كفـى بـه شـهيدا ، ولـه الحمـد إقـرارا بـه وتوحيدا .

فخر الدين بن الزبير المحسي .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد

فمصادر المحاضرات التي ألقيتها على طلاب المستوى الثامن هي التحفة المهدية لشرح التدمرية وتوضيحات المصطلحات العلمية في الرسالة التدمرية ومذاكرات تنسب إلى الشيخ عبد الرحمن البراك حفظه الله وقد سألت الشيخ عبد الرحمن البراك هل كتبت مذكرة في شرح التدمرية؟ فأجاب (بلا) وقلت لفضيلته هناك مذكرة بين يدي الطلاب تنسب إليك؟ فأجاب حفظه الله بأن تلك المذاكرات لم يكتبها وإنما كتبها الطلاب وفيها ما يوافق عليه وفيها ما لا يوافق عليه. هذا وقد أهديت لشيخنا البراك كتاب الأخ فخري وهو التوضيحات الأثرية على الرسالة التدمرية فأثنى عليه خيرا والله أسأل التوفيق والسداد

كتبه
د محمد الخميس

الفهارس

وتشتمل على :

- أولا : فهرس الأحاديث والآثار.
- ثانيا : فهرس المصطلحات وغريب الكلمات
- ثالثا : فهرس الفرق والطوائف .
- رابعا : فهرس الموضوعات .

أولا : فهرس الأحاديث والآثار



ثانيا : فهرس المصطلحات وغريب الكلمات

ثالثا : فهرس الفرق والطوائف .

رابعا: فهرس الموضوعات.